أحمد حسن الزيات

وحي الرسالة

فصول في الأدب والنقد والسياسة والاجتماع

والقصص

المجلد الرابع والأخير — الطبعة الثانية

١٣٨٥ - ١٩٦٦

نال هذا الكتاب جائزة الدولة للأدب

دار نهضة مصر للطبع والنشر

الفجالة — القاهرة

مطبعة الرسالة
٣ شارع حمودة للقاول - عابدين

مقالات

كيف أعلن محمد حقوق الإنسان

(أول يناير سنة ١٩٥١)

فى شهر ديسمبر من عام ١٩٤٩ ، وفى فورة من فورات النفاق الدولى ، أعلن الساسة فى (هيئة الأمم المتحدة) حقوق الإنسان . ثم احتفلوا واحتفل معهم الناس بالذكرى الأولى لهذا الإعلان منذ عشرين يوماً ، فبشروا بالنعيم المقيم والخير العميم والسلام الدائم . ومن قبل هؤلاء الساسة (الإنسانيين)أعلن قادة الثورة الفرنسية هذه الحقوق عام ١٧٨٩ وصاغوها فى سبع عشرة مادة جعلوها ديباجة لدستور سنة ١٧٩١ .

ومن السهل على الذهن الاجتماعى أن يعلل صيحة الثوار الفرنسيين بحقوق الإنسان بعد أن كابدوا ما كابدوا من استعباد النبلاء واستبداد القسس ، وأن يفسر احتضان هيئة الأمم المتحده لهذه الحقوق بعد أن رأت الحوت الشيوعى معترضاً فى خِضَمِّ الحياة وقد فغر فاه الهائل المروع ليلتقم الديمقراطية الرأسمالية وما تسيطر عليه من أرزاق الناس وأسواق العالم بالاستعمار أو بالنفوذ .ولكن من الصعب على الذهن المنطقى أن يدرك ما يريده الأوربيون والأمريكيون من لفظ (الإنسان) الذى أعلنوا له هذه الحقوق وظاهروا عليه هذا العطف . أغلب الظن أنهم يريدون بإنسان هذه الحقوق ذلك الإنسان الأبيض المترف الذى تحدر من أصلاب اللاتين أو السكسون أو التوتون ؛ أما الإنسان الأحمر فى أمريكا فهو فى رأى أبناء العم سام ضرب مَهين من الخلق ، عليه كل واجب وليس له أى حق ؛ ولكن وجوده المعدوم فى بلاد الديمقراطيين الأحرار لا يزال فى رأى المسلمين أغلظ كذبة فى دستور الديمقراطية بواشنطون ، وأكبر لعنة على

تمثال الحرية بنيويورك ! وأما الإنسان الأسمر والأسود فى أفريقيا ، أو الأخضر والأصفر فى آسيا ، فهو فى نظر الفرنسيين والإنجليز نوع من بهيمة الأنعام ، وجنس من المواد الخام ، يولد ليسخَّر ، ويروّض ليستثمر ، وينتج ليُستهلك . وهو موضوع الخصومة فى السلم ، ومادة الغنيمة فى الحرب ؛ ولكن حقه المهضوم بين أمم العلم والدستور لا يزال فى نظر المسلمين اتهاماً لصحة الثقافة فى جامعات فرنسا ، وإنكاراً لحقيقة العدل فى برلمان انجلترا ! ومن هذا التفسير المزور لمعنى الإنسان فى القديم والحديث اضطرب الأساس وفسد القياس واختلف التقدير . فلكل جنس وزنه ، ولكل لون قيمته ، ولكل دين حسابه . ومدار الوزن والتقويم والحساب على قدرة الإنسان وعجزه ، لا على إنسانيته وفضله . فالعلم والغنى والقوة سبيل السيادة ، والجهل والفقر والضعف سبيل العبودية . والسيادة حق ليس بإزائه واجب ، والعبودية واجب ليس بإزائه حق .

المسلمون وحدهم هم الذين يفهمون الإنسان بمعناه الصحيح لأنهم أتباع محمد . ومحمد وحده هو الذى أعلن حقوق الإنسان بهذا المعنى لأنه رسول الله . والله وحده هو الذى ألهم رسوله هذه الحقوق لأنه أرسله رحمة للعالمين كافة .

أرسله رحمة للذين استضعفوا فى الأرض لقلة المال كالمساكين ، أو لفقد العشير كالموالى ، أو لضعف النصير كالأرقاء ، أو لطبيعة الخلقة كالنساء ، فكفل الرزق للفقير بالزكاة ، وضمن العز للذليل بالعدل ، ويسر الحرية للرقيق بالعتق ، وأعطى الحق للمرأة بالمساواة .

والمستضعفون الذين رحمهم الله برسالة محمد لم يكونوا من جنس مبيَّن ولا من وطن معين ؛ إنما كانوا أمة من أشتات الخلق وأنحاء الأرض اجتمع فيها العربى والفارسى والرومى والتركى والهندى والصينى والبربرى والحبشى على شرع واحد هو الإسلام ، وتحت تاج واحد هو الخلافة . والإسلام الذى

يقول شارعه العظيم « ولقد كرمنا بنى آدم » لم يخص بالتكريم لوناً دون لون ، ولا طبقة دون طبقة . إنما ربأ ببنى آدم جميعاً أن يسجدوا لحجر أو شجر أو حيوان ، وأن يخضعوا مكرهين لجبروت كاهن أو سلطان .

كان اليهود يزعمون أنهم أبناء الله وأحباؤه وسائر الناس سواء والعدم ! وكان الرومان يدعون أنهم حكام الأرض وما سواهم خدم ! وكان العرب يقولون إنهم أهل البيان وما عداهم عجم ! وكان الهنود يعتقدون أن الله خلق البراهمة من فمه والرجبوت من عضده والمنبوذين من رجله ولا يستوى الأمر بين رأس وكتف وقدم ! وكان النظام الاجتماعى كله قائماً على الامتياز بالجنس أو بالدين ، وعلى السيادة بالنسب أو بالمال ، حتى جاء محمد اليتيم الفقير الأمى بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ؛ فأعلن المساواة بقول الله عز اسمه : « إنما المؤمنون إخوة » « يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا ، إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وأكدها بقوله صلوات الله عليه : « الناس سواسية كأسنان المشط » « لا فضل لعربى على عجمى إلا بالتقوى ، كلكم لآدم وآدم من تراب » .

ثم كان الرقيق والمرأة شيئين من الأشياء لا يملكان ولا يتصرفان ، فضيق الإسلام حدود الرق ، وجعل كفارة الذنوب على الصدقة والعتق ، وسوى بين الرجال والنساء فى الحق والواجب .

ثم أعلن حرية العقيدة بقول الله تعالى : « لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى » « ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعاً ، أفأنت تكره الناس حتى يكونوا مؤمنين ؟ » واحترم عقائد أهل الكتاب ، وضمن لهم حرية العبادة وأمان العيش وعدل القضاء ، وأمر الولاة أن يرعوهم ويعطفوا عليهم ، وأوصى المسلمين أن يبرّوهم ويقسطوا إليهم . ثم أعلن الإسلام حرية

الفكر والرأى فلم يقبل إيمان المقلد ولا حكم المستبد . وأمر بالنظر فى ملكوت السموات والأرض ، ووسع صدره لأهل السياسة حتى تعددت الأحزاب ، ولأهل الجدل حتى كثرت الفِرق ، ولرجال الفقه حتى تنوعت المذاهب . وسمح لأهل الذمة وأصحاب النِّحل أن يدعوا إلى أديانهم ويدفعوا عنها فى المدارس والمجالس والبِيَع ، ونهانا ألا نجادلهم إلا بالتى هى أحسن .

ثم احترم المِلكية وثبَّت لها الأصول ، ونظم المواريث ورتب عليها التعامل . وهذه هى جُماع الحقوق الطبيعية التى كفلها الإسلام للإنسان على اختلاف ألوانه وأوطانه وألسنته . أعلنها محمد بن عبد الله منذ ثلاثة عشر قرناً ونصف قرن ، والأمر يومئذ للجهالة ، والرأى للضلالة ، والحكم للطغيان ، فأنقذ بها الإنسانية من إسار المادية والعصبية والأثرة . ثم أكرمها ونعَّمها وهداها الطريق المستقيم إلى نظام أكمل وعالم أفضل وحياة أسعد . ولكن الإنسانية وأسفاه أُضِلت هذه السبيل ! أضلها أولئك المنافقون الذين يعلنون لها اليوم هذه الحقوق ، وهم يسرون فى أنفسهم تأكيد الامتيازات وتأييد الفروق .

ثوروا على الفقر قبل أن يثور

(١٥ يناير سنة ١٩٥١)

سادتى وزراء الشئون الاجتماعية والاقتصاد الوطنى والتموين والتجارة والأوقاف ! نصيحة خالصة لوجه الله يدفعنى الاشفاق عليكم أن أقدمها إليكم.

ثوروا على الفقر قبل أن يثور ، واستعدوا للدائرة قبل أن تدور ! إن زميلكم وزير المعارف يؤلب عليكم الأمة ! لقد صمم على أن يعلم الشعب . وتعليم الشعب معناه أن تزول الغشاوة عن عينه فيبصر ، وأن تنجلى الغشاوة عن قلبه فيفقه، وأن تذهب البلادة عن عصبه فيحس . ومتى يبصر الشعب ويفقه ويحس ، يدرك الاختلاف بين حال وحال ، ويميز الفرق بين طبقة وطبقة ، ويقرأ العدد الأخير من مجلة (آخر ساعة) مثلا فلا يكتفى منه بالصور تلهيه ، ولا بالأخبار تسليه؛ وإنما يوازن موازنة الواعى المفكر بين ما صورته من عيد رأس السنة الميلادية وما أقيم فيه من مآدب ومراقص فاضت بالنعيم ، وتلألأت بالجواهر ، وازدهت بالحلل ، والتحمت بالرقص ، وطفحت بالخمر ، وضجت بالجاز ، والتهبت بالقبل ، وعرضت على الأنظار الطامحة ألوفاً مؤلفة من الجنيهات المصرية تمثلت على الأجساد المترفة البضة حللا وفراء وعقوداً ومشابك وخواتم مما يجلبه الغنى الفاحش من كنوز أوربا ! يوازن بين هذا وبين ما صورت المجلة فى العدد نفسه من بؤس الفلاح فى قرية (مناوهلة) بالمنوفية وما يكابده من كرب العيش ، وغصص الفاقة ، ومض الأمراض ، وعنت الملاك ، وهبوط دنياه إلى دنيا البهيم ، فيأكل أجشب الطعام ولا يغتذى ، ويلبس أخشن الثياب ولا يستتر ، ويعمل أشق الأعمال ولا يكافأ ، وينتج أعظم الإنتاج ولا يشارك ، فتصدمه الموازنة لأنه

علم ، وتؤلمه النتيجة لأنه أحس . ويومئذ يسألكم يا أصحاب المعالى هذا السؤال :
« ماذا تصنعون على الكراسى التى وضعتكم عليها بيدى ، وكافأتكم على الحركة فيها بمالى ؟ »

ولعلكم تدركون يا أصحاب الجاه والسلطان ، أن الجواب عن سؤال الشعب غير الجواب عن سؤال البرلمان !

أعداؤنا الثلاثة يا أصحاب المعالى وهى الجهل والفقر والمرض لا تعرف هوادة ولا تقبل هدنة . فأما الجهل فالصراع بينه وبين وزير المعارف شديد . والعالم كله يرقب هذه المعركة الشعواء بعين الإعجاب والثقة ، والنصر ولا ريب مكفول لمن لا يقبل النكوص ولا يرضى الهزيمة . وأما الفقر والمرض فقد تركتموهما يعيثان فى القرى والمدن : يبذران الشقاء والوباء ، ويسخران من وعودكم التى تعلن ولا تنجز ، ومن مشروعاتكم التى توضع ولا تنفذ . وإذا أنجز منها وعد أو نفذ مشروع ، كان لمصلحة الأغنياء ومنفعة الأصحاء على حساب الفقراء والمرضى !

عبد العزيز فهمى

(١٢ مارس سنة ١٩٥١)

حمّ قضاء الله ومضى الرجل العظيم مستقبلاً وجه الخلود ! والرجولة والعظمة صفتان تجمعان ما أوتى عبد العزيز فهمى من مناقب مصدرها خُلقه ، ومواهب مظهرها عمله . كان رجلا بالمعنى الرفيع الذى يفهمه المهذب من لفظ الرجل . وكان عظيما بالمعنى الجميع الذى يدركه المثقف من كلمة العظيم . ولو ذهبت تحلل حياة أول القضاة فى سجل القضاء ، وثانى الزعماء فى سجل السياسة ، إلى عواملها الأولية ، لوجدتها فى الخلال ، الصدقَ والصراحة والإباء والشجاعة وهذه هى الرجولة ، وفى الأعمال ، العمقَ والشمول والاتقان والتفرد وهذه هى العظمة . وفقد رجل كهذا الرجل حياته تاريخ ، وعمله رسالة ، وخلقه قدوة ، وكفايته ثروة ، خسارة إنسانية لا خسارة قومية ، ومصاب أمة لا مصاب أسرة ، وفجيعة منفعة لا فجيعة عاطفة . فإذا جزع الشعب لموته هذا الجزع فإنما يجزع لركن هوى لا لغصن ذوى ، ولهاد مضى لا لصديق قضى . والجزع على العظماء لا يكون بالعبرات التى تطفىء ، وإنما يكون بالحسرات التى تحرق . والخطب الذى يبكى العيون ، أهون من الخطب الذى يدمى القلوب . ومن يقف أمام الحصن الذى ينسف ، أو الكنز الذى يخسف ، يجد فى نفسه الروع الذى يذهل ، لا الحزن الذى يُعوِل .

كان عبد العزيز فهمى جزءاً ضخماً من ثروة مصر العلمية . وهذه الثروة لا تزال من حيث الكيف ضئيلة . فإن العباقرة الذين هيأتهم إلى العلم الصحيح طباٸعهم الحرة وملكاتهم الأصيلة لا يزالون بيننا آحاداً . وقلّ من هؤلاء الآحاد

من جمع إلى العلم سمو العالم ونزاهة المصلح كما جمعهما الفقيد . واجتماع هذه المزايا فيه لا يعلله معلل من نشأته وبيئته ودراسته . فإن هذه العوامل نفسها أو شبهها أثرت فى غيره من أهل جيله ، ولكن مصر لم تظفر من بينهم بمثيله . هنالك أمر قد يكون مفتاح السر وطريق المجهول : ذلك أنه تلقى دراسته الأولى فى الأزهر كما تلقاها فيه محمد عبده وسعد زغلول وابراهيم الهلباوى . وهؤلاء جميعاً قد تشابهوا فى قوة الشخصية ونفوذ العقلية ، فدرسوا الفقه بعمق ، وعالجوا البيان بحذق ، وزاولوا المحاماة ببراعة ، وتولوا القضاء بجدارة ، ومارسوا السياسة بخبرة ، ولكنه انفرد من دونهم جميعاً بخصائص خلقية جعلت ذلك التشابه تغايراً فى بعض نواحى الرجولة . كان رحمه الله لا ينافق ولا يمالق ، ولا يداهى ولا يداجى ، ولا يدلّس ولا يلابس ، ولا يقول إلا ما يصح فى معتقده ، ولا يعتقد إلا ما يصح فى رأيه . وهذه الصفات قد تجعل المصلح عظيما ، ولكنها لا تجعله زعيما . وأريد بالزعامة هنا زعامة العامة لا زعامة الخاصة ، فقد كان الفقيد زعيما فى المحاماة ، وزعيما فى القضاء ، وزعيما فى التشريع ؛ وزعيما فى الشورى . وفى كل هذه الأمور كان هو وسعد يتعاوران الأولية . فلما دخلا معاً ميدان السياسة ، دخلها هو بعقل القاضى ولسان المحامى . والقاضى أداته قانونه ونزاهته ، والمحامى آلته دليله وبلاغته . وإذا تجهزت للزعامة السياسية فى أمم الشرق بالقانون والضمير والمنطق والصراحة والصدق ، هاجمك خصمك بالأباطيل الغاشية فيظهر عليك ، ووقف منك جمهورك على الحقائق العارية فينفر منك . لذلك كان حظ عبد العزيز من القضية المصرية على فصاحته فى الخطابة وبلاغته فى الكتابة ، حظ القائد الحكيم الذى توضع الخطط على رسمه ، لا حظ القائد الزعيم الذى تتوج (الأوامر) باسمه . وظل طول عمره السياسى راضياً بهذا الحظ حتى عجز آخر الأمر عن التوفيق بين هواه والعامة ، وبين خلقه والسياسة ، وبين ضميره والحكم ، فارتد إلى القضاء وقد آتاه الله

فيه الحكمة وفصل الخطاب ، فوضع المبادىء ، وقرر الأحكام ، وأضاف إلى الفقه المصرى مادة ضخمة من علمه وحكمه زادت فى ثروته ورفعت من قيمته .

ثم اختير بعد اعتزاله القضاء عضواً فى مجمع اللغـــة العربية ، فأخلى ذرعه للنظر فى علوم اللغة والأدب بعين الفقيه المجتهد والأديب الناقد ، حتى بلغ منها مبلغ الأعلام الذين وقفوا على تحصيلها العمر والجهد . وتقدم إلى المجمع بمشروع اقتباس الحروف اللاتينية للـكتابة العربية ، مقروناً بالأسباب ، معززاً بالمزايا ، مؤيداً بالأسانيد ؛ ثم أعقبه بكتاب ألفه فى الرد على معارضيه ومنتقديه ، جمع إلى بلاغة الأسلوب قوة العرض ومتانة الحجة ، فـكان آية على سمو طبقته فى الـكتابة وبعد غايته فى الأدب . فلما أقعدته العلة رضوان الله عليه كانت غرفة مرضه ملتقى أقطاب الفقه والأدب والسياسة ، يستفيدون من علمه ، ويستزيدون من أدبه ، ويستضيئون بفـكره . وهو فى كل ما يعرض عليه أو يتعرض له طلق البديهة ، محكم الرأى ، جيد الاستنباط ، حاضر الدليل .

كنت فيمن يزورونه الحين بعد الحين ، فـكان فى كل زورة يكشف لى غير عامد عن سر من أسرار عبقريته . دفع إلى مرة بضع مقالات فى نقد شرح وضعه أستاذان جليلان لـكتاب البخلاء ، وشرط على أن أنشره غفلا من الإمضاء . فلما ظهر النقد فى الرسالة كان حديث الأندية ومثار الظنون ، لأن الناس عجبوا أن يستتر الناقد وهو على هذه المـكانة من ثقوب النظر ، وقوة التوجيه ، وصحة الاستدلال ، وعفة اللفظ . وأفضى إلى مرة أخرى بأنه يقرض الشعر منذ الحداثة ، إما مناقلة بينه وبين نفسه ، وإما مساجلة بينه وبين إخوانه . ثم أنشدنى مطارحة من جيد النظم جرت بينه وبين الأستاذ المفتى الجزائرى ، وقصيدة دالية من المطولات وصف فيها فساد الطباع فى الناس ، وسقوط الأخلاق فى المجتمع . فلما طلبت إليه أن يهديها إلى قراء الرسالة سوّف هرباً

من سقوط الأضواء ثانية عليه وهو مضطجع على أعراف المجد يسترفه من مكاره الواجب وتكاليف النبوغ . وما زال الناس يرددون هذه الأرجوزة القصيرة التي نظمها وكتبها على قبر زوجته وقد نعم بالعيش معها سنة واحدة ثم توفاها الله بحمى النفاس فلم يتصل بامرأة بعدها حتى لقيها :

يا وردة عاشت حياة الورد　　عمراً قصيراً وثوت فى اللحد

لولا برىء غافل فى المهد　　يرضيك أن أحيا ليحيا بعدى

لعجّلت بى زفرات الوجد

أما بعد فماذا ينشر الكاتب الموجز وماذا يطوى من حياة أقل مفاخرها موضوع كتاب ، وجملة مآثرها تاريخ عصر ؟

رحم الله المحامى المدره ، والقاضى المجتهد ، والوزير النزيه ، والدستورى الحر ، والفقيه الحجة ، والخطيب المفوه ، والكاتب البليغ ، والشاعر المجيد ، والناقد البصير ، والأديب المطلع ، وألهمنا على فقده جميل الصبر ، وعوضنا من بعده خير العوض !

ربيعك في نفسك

(٩ إبريل سنة ١٩٥١)

كنت كلما أقبل أبريل بالربيع تلقيته وفى نفسى بهجة الطفل ، وفى عينى وضاءة الجنة ، وفى قلبي صبوة العاشق ، وفى حسى نشوة الشاعر ، وعلى لسانى أغرودة البلبل . ثم أجدنى بعد همود الشتاء وعبوسه قد تجاوبت مع الطبيعة ؛ فأنضر مع الغصن ، وأتفتح مع الزهر ، وأتطلق مع النسيم ، وأمرح مع الطير ، وأزدان مع الروض ، وأقضى أواخر النهار على ضفاف النيل ، واوائل الليل فى ملاهى القاهرة ، فأجد لكل شىء جمالا ، وفى كل عمل لذة ، وعلى كل منظر فتنة !

أما اليوم فإنه يقبل به على فلا ألقاه ، وإذا لقيته لا أراه ! ذلك لأن ستاراً من ظلام النفس يفصل بين عينى ونوره ، وحجاباً من كآبة العيش يحول بين قلبي وسروره .

فأنا أمشى فى شارع فؤاد — إن مشيت — فأرى حياة الربيع من حولى تتدفق باللهو ، وتتألق بالجمال ، وتتأنق بالزينة ، وأنا محمول على عبابها المضطرب ذاهل الوعى بارد الحس خامد الحركة ، كأننى جثة قتيل على سطح نهر ، تمور الأمواه تحتها بالحياة ، وتزدهى الشطئان حولها بالنضارة ، وهى تجرى إلى مصيرها المجهول لا تتصل بالكون ولا تشعر بالوجود !

وأنا أغشى مسرح اللهو — إن غشيت — فأرى الوجوه تهش ، والثغور تبسم ، والعيون تقول ، والقلوب تصغى ، وأنا جالس إلى المنضدة الرخامية لا أجد بينى وبينها فرقاً فى الجمود والبرود ! فمثلى كمثل الأصم الأصلخ فى المرقص

الصاخب : يرى أفواهاً تنفخ فى مزامير ، وعِصيًّا تضرب على طبول ، وأجساداً تلتصق بأجساد ، وشفاهاً تنفرج عن ثغور ، ثم لا يسمع أنغام العازفين فيطرب ، ولا يدرى كلام الراقصين فينتعش !

لقد خبت وقدة القلب وعادت جمرته رماداً !

أذلك لتقدم السن ، أم ذلك لتأخر الصحة ؟ لا يا صديقى : لا تقدم السن يؤخر الربيع ، ولا تأخر الصحة يقدم الخريف . ما دامت فيك حياة ففيك شعور . والشعور إن يبلد يدرك الحس فى جمال الطبيعة ؛ وإن يرهف يدرك الروح فى حس الجمال . إنما هى الحياة العفنة التى نحياها اليوم فى مصر ! مستنقع من الماء الآسن ، تنعقد عليه أبخرة خانقة ، وتسطع منه روائح خبيثة ، وتطن فوقه حشرات سامة . فإذا لم يؤتك الله المشاعر السحرية التى تجعل الظلام نوراً ، والبخار بخورا ، والطنين شدواً ، والكدر صفواً ، عنّاك أن تجد اللذة ، وأعياك أن تسيغ العيش !

لقد كنا من قبل نبصر الحياة بالقلب والقلب فنان ، ونحن الآن نبصرها بالعقل والعقل عالم !

قاسم أمين

بمناسبة ذكراه السنوية (1)

(٣٠ إبريل سنة ١٩٥١)

فى مثل هذا اليوم من عام ثمانية وتسعمائة وألف انتقل إلى دار البقاء المصلح العظيم قاسم أمين بعد أن قضى فى هذه الحياة أربعا وأربعين سنة يستعد للكمال النفسى الذى تهيأله بفطرته ، ويدعو إلى الكمال الإنسانى الذى اتجه إليه بفكرته. وكانت الفترة التى نشأ فيها بعد هزيمة المصريين وانتصار المحتلين أشبه شىء بالفترة التى تأخذ من أواخر الشتاء وأوائل الربيع ، فيها الخدر والبرد والجدب ، ولكن فيها أطرافاً من الحس والدفء والخصوبة . فالشعب كان يعانى من عواقب الأزمان السود التى أتت عليه ، ومن رواسب الأجناس السوء التى عاثت فيه ، ألواناً من الجهل والذل والفوضى جملته يستكين لعوامل الفساد فى الخلق والعقيدة والثقافة والمجتمع . فالحكم أهواء وشيع ، والدين أوهام وبدع ، والعلم قشور ومسخ ، والأدب تقليد وزخرف ، والرجال آلات للعمل والإنتاج ، والنساء إماء للخدمة والمتاع ، والسلطان المحتل يصرّف أمورنا على مشيئته ، والمال الأجنبى يستغل مواردنا لمنفعته . وكانت البراعم التى بكرت إليها حياة الربيع فتفتحت عن الشعور والوعى تتمثل فى الروّاد الأولين : جمال الدين ، ومحمد عبده ، ومصطفى كامل ، وسعد زغلول ، وقاسم أمين ، ولطفى السيد ، وعبد العزيز فهمى ، فشعروا أول الناس بالأدواء التى قعدت بالأمة عن النهوض ، فجاهد كل منهم وقاد فى الميدان الذى خلق له وظهر فيه :

---

(١) ألقيت فى احتفال الاتحاد النسائى بذكرى قاسم أمين .

ومما عمق فيهم هذا الشعور وقواه ، نبوغ أكثرهم فى القانون والأدب ، وتفوق بعضهم فى الدين والفلسفة ، وأخذهم بنصيب من ثقافة الغرب ، واتصالهم بأقطاب الفكر فى فرنسا وإنجلترا ، ووقوفهم على تلك الحملة المنكرة التى شنها أبالسة الاستعمار على مصر والعرب والإسلام ، فنهض جمال الدين لإرنست رينان ، ومحمد عبده لهانوتو ، وقاسم أمين لدوق داركور ، فدافعوا بالحجج الملزمة ما لفقوا من أباطيل وأنكروا من حقائق . فلما بلغوا المآخذ التى أخذها الخصوم علينا بالحق حملهم الإباء القومى على أن يأخذوا عليهم أشباهها فى مجتمعاتهم ومعتقداتهم ، كالمقابلة بين تعدد الزوجات هنا ، وتعدد الخليلات هناك . ولكن هذا الإباء القومى نفسه حملهم كذلك على النظر فى تطهير الشرق من هذه المآخذ ، بتصحيح الزائف ، وتقويم المعوج ، وتقييد المطلق ، فمضى كل زعيم يتحرى وجوه الإصلاح والتحرير ، فى الوطن ، أو فى الدين ، أو فى الفكر ، أو فى الأدب ، أو فى القضاء ، أو فى الرجل ، أو فى المرأة ، على حسب استعداده وطبيعة نفسه .

* * *

كانت رسالة قاسم إصلاح المجتمع فى نواحيه المختلفة . وما كان فى خلقه ولا فى طوقه أن تكون رسالته غير ذلك . كان حيي الوجه ؛ يحتشم إذا لاقى ، ويغضى إذا حدَّث ، ويعف إذا جادل . وكان عطوف القلب ؛ يدين بالصداقة ، ويتخلق بالرحمة ، ويواصل بالمودة . وكان رقيق الشعور ؛ يكلف بالأدب ، ويطرب للغناء ، ويعجب بالجمال ، وكان عصبى المزاج ؛ ينفعل انفعال الفنان ، وينبسط انبساط المؤمن ، وينقبض انقباض الناسك . وكان محبَّبا إليه العشرة ؛ يخالط كل طبقة ، ويسبر كل حالة ، ويرقب كل حادث . وكان واسع المعرفة والخبرة ؛ يتقصى طبائع الشعوب ، ويدرس أحوال الأمم ، ويتعرف دخائل

النفوس . وهذه هى جل الصفات التى يجب أن تكون فى المصلح الاجتماعى ليكون بينه وبين مجتمعه تجاوب فى الشعور والفكر .

عُنى قاسم رضوان الله عليه بإصلاح المجتمع المصرى وهو فى سن العشرين منذ قرأ كتاب داركور ورد عليه فى عام ١٨٩٤ ، فكتب فى جريدة المؤيد تسع عشرة مقالة أكثرها بعنوان (أسباب ونتائج)، وبعضها بعنوان (حكم ومواعظ)، عالج فيها أدواء المصريين فى الاقتصاد والوقف والتربية والتعليم والأسرة والوظيفة علاجا لا يزال المصلحون يصفونه ويكررونه ، لأنه جمع أكثر العناصر الفعالة فى حسم الداء وبرء المريض . وقلما نجد كاتبا يعرض اليوم لهذه المسائل ولا يقع على خطاه ، أو يوافق على ما ارتآه .

كان هذا المفكر العظيم يكتب عن إيمان وصدق . لا يكتب رغبة فى الكتابة ، ولا ينشر طمعاً فى الشهرة ؛ وإنما كان ينشر مقالته فى الصحف من غير إمضاء ، ويرسل فكرته فى الناس من غير ضوضاء ، ثم لا يعنيه إلا أن يراها تصيب الغرض الذى قصده ، وتحدث الأثر الذى أراده .

وكان صاحب رأى وعزيمة ، يقول ويفعل ، ويفكر ويدبر . فإذا قرأنا رأيه فى كتابين قيمين : تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ؛ فقد رأينا عزمه فى عملين عظيمين : الجمعية الخيرية الإسلامية ، والجامعة المصرية .

وكان ينفذ ببصره وفكره إلى طوايا المجتمع فيرى بقوة لحظه وحدة ذهنه دقائق وتفاصيل لا يدركها النظر العادى . ومزية الكاتب الموهوب أن يُرينا مالم نر ، ويقفنا على ما لم نعلم ، ويصور لنا ما لم نتصور . وفى كلمات قاسم أمين المنشورة آيات من الحوار والتصوير مثل بهما طرفا من نقائص العصر تمثيلا دل على ملكة أصيلة فى الأدب ، وقريحة سخية فى الكتابة ، نقرأ له مثلا هذا الحوار القصير :

سئل ج . بك : ما رأيك فى كتاب تحرير المرأة ؟

فأجاب : ردىء !

— هل قرأته ؟

— لا !

— أما يجب أن تقرأه قبل أن تحكم عليه ؟

— ما قرأت ولا أقرأ كتاباً يخالف رأيى !

وتقرأ له هذه الصورة الناطقة لجنازة من جنائز العامة :

« هؤلاء الفقهاء الذين يجر بعضهم بعضاً ، وليس فيهم إلا الأعمى والأعرج والأعور ، يمشون بسرعة غير منتظمة ، لابسين ثياباً قذرة ، صائحين بأصوات مزعجة ، كلمات تخرج من حناجر مختلفة بنغمات شنيعة ! وهذا النعش المحمول الذى يتخبط فيه الميت ، و يلتفت تارة إلى جهة اليمين ، وتارة إلى جهة الشمال ؛ وهؤلاء النسوة اللاتى صبغن أيديهن ووجوههن ، وعفرن بالتراب رءوسهن ، يمشين وراء النعش مشيرات بالمناديل إليه إشارات مروعة مصحوبة بألفاظ مرتلة ! ما هذا كله ؟ مجمع مجانين ، أم نفر بهم مس من الشياطين ؟ ألعوبة أطفال ، أم معرض كرنفال ؟ »

نقرأ ذلك الحوار ، ثم نقرأ هذه الصورة ، فنعتقد أن لو مد الله فى أجل قاسم لعالج عيوب المجتمع بالرواية كما فعل (موليير) ، أو بالصورة كما صنع (لابرويير) . والأدب العالى والأسلوب البليغ أخص صفات المصلح وأقوى أدوات الإصلاح . وحظ قاسم منهما كان موفوراً . وكما يتعهد الجندى سلاحه ، كان قاسم يتعهد اللغة والأدب ، فرأى فى أصالة الأسلوب ، واستعمال المترادف ، ومعضلة الكتابة العربية ، ومشكلة اللغة العامية ، وصعوبة الإعراب ، وفتح باب الاجتهاد

فى اللغة ، آراء لم تجر على بالنا إلا اليوم ! والصفحات الستون التى جمعت (كلمات قاسم أمين) الموجزة فى الأدب والاجتماع ، أمثلة خالدة من عمق التصور ودقة التصوير .

نعم ! عنى قاسم أمين بإصلاح المجتمع المصرى فى خلقه وعاداته ، ونظمه واقتصادياته ، وتربيته وتعليمه ولغته وأدبه ، ولكنه رأى أن علة العلل فى فساده هى حال المرأة . والمرأة قوام الأسرة ، والأسرة نواة الأمة . فإذا صلحت المرأة صلح الرجل ، وإذا صلح الرجل صلح المجتمع . والنساء نصف الشعب الذى يربى نصفه الآخر ، فإذا ظللن محجوبات جاهلات متعطلات ، ظل المجتمع ريضا[1] لفقدانه تثقيف الأمومة ، غليظا لحرمانه تلطيف الأنوثة . يعمل بيد واحدة لأن الأخرى شلاء ، ويمشى على قدم واحدة لأن الأخرى عرجاء . وكانت المرأة فى عهد قاسم شيئاً لا يذكر ، وإذا ذكر لا ينظر ! إنما كانت حبيسة المنزل ؛ تضرب عليها الحجب ، وتبث حولها العيون ، وتقضى من دونها الأمور ، وينظر إليها الزوج نظره إلى الفراش الملقى ، فلا يبوّئها كاعلى مائدة ، ولا يجالسها فى بهو ، ولا يماشيها فى شارع ، ولا يشاورها فى شأن ، ولا يذكر اسمها إلا مكنيا عنه بالبيت أو الأولاد أو الجماعة وكان من جريرة ذلك عليها أن وهن جسمها لقلة العمل ، وساء خلقها لفقدالحرية ، وضعف تفكيرها لترك التدبير ، وغفل ضميرها لعدم المسئولية ، فلم تفكر إلا فى حللها وحليها ، ومدافعة الضرائر والجوارى عن نصيبها من زوجها . لقد كانت خارجة عن دنيا الناس ، « فلم يبق لها من الكون — كما قال قاسم فى كتابه (تحرير المرأة) — إلا ما استتر من زوايا المنازل . واختصت بالجهل والتحجب بأستار الظلمات ، واستعملها الرجل متاعاً للذة ، يلهو

---

(١) الريض على وزن سيد : المهر قبل يذلل ويعلم السير ، يستعار للشباب المرسل على غرائزه قبل أن يهذب .

بها متى أراد ، ويقذف بها فى الطريق متى شاء . له الحرية ولها الرق . له العلم ولها الجهل . له العقل ولها البله . له الضياء والفضاء ولها الظلمة والسجن . وله الأمر والنهى وعليها الطاعة والصبر . له كل شيء فى الوجود ، وهى بعض ذلك الكل الذى استولى عليه » .

بذلك تأثر قاسم ، وفى ذلك جاهد قاسم ، فعرض القضية على وجوه المعقول والمنقول ، فلم يجد لاستعباد المرأة حجة إلا استبداد الرجل ، فجاءه من طريق الدين والمروءة والمصلحة وفى يديه كتاباه : تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، يزيف بهما حجته ، ويخفف غروره : وكان لابد لمن يخالف المألوف ويعارض الموروث ويصادم الواقع أن يلقى ما لقيه المرسلون والمصلحون من عنت الجدل ولدد الخصومة . ولكن محرر المرأة كان قوى الإيمان برأيه ، شديد الإخلاص فى سعيه ، فلم يهن لما أصابه فى سبيل الحق ولم يستكن . وإنما بذر البزرة فى وسط العواصف الهوج والسحب المرعدة ، ثم تركها فى ذمة الطبيعة والزمن . وضن الرجل العنيد على هذه البزرة بالغذاء والرى ، حتى أدركها غوث الله ، فانتشر التعليم ، وانتعشت الحرية ، واتصل الجيل الجديد بالمدنية ، فرأى فيما رأى أن المرأة فى المجتمع الأوربى هى روحه ونشاطه وجماله وصقاله ووحيه ، فاستشعر للمصرية الاحترام ، عن تقليد فى الأكثر ، وعن اعتقاد فى الأقل ؛ ولكنه وقف من قضيتها موقف المشاهد المحايد لا يُمرُّ ولا يحلى . وكانت صفوة من كرائم السيدات قد تحررن ، بكرم النسب ، أو بسلطان المال ، أو بقوة العلم ، فأقبلن على بزرة قاسم يتعهدنها بالسقى حتى أزهرت ، وعلى شعلته يمددنها بالزيت حتى أسفرت . وفى ظل هذه الشجرة ، وعلى ضوء هذه الشعلة ، تألف (الاتحاد النسائى) ، فكان فى النهضة الحديثة قوة عاملة ظهر أثرها فى التشريع والتعليم والمواساة .

وقويت المرأة المصرية بتقدم المدنية وشيوع الثقافة ، فحلت قضيتها بنفسها على الرغم من معارضة الرجل .

كان الرجل يأنف أن يشارك امرأته أو يشاورها فى شأن من شؤون عمله أو منزله ؛ فأصبحت اليوم ولها من القوة ما تسيطر به عليه : فهى تدبر له العيش ، وتحدد له السلوك ، وتختار له الصديق ، وتنتقى له الثوب ، وهو لا يسعه إلا أن يلازم ويتابع ، فلا ينفرد إلا بإذنها ، ولا يغيب إلا بعلمها ، ولا يتقدم عليها فى ترتيب ، ولا يفصل من دونها فى خلاف ، ولا يتعدى فى مناقشة الميزانية المنزلية حدود الإيراد .

وكان الرجل يمنع امرأته من أن تخرج ، فأصبحت اليوم ولها من السلطان ما تمنعه به إذا شاءت من أن يدخل !

وكان الرجل يرفض أن تتعلم المرأة الكتابة مخافة أن تتصل عن طريقها بالخارج ، فأصبحت اليوم ولها من الثقافة ما تنافس به الرجل فى المحاماة والطب والأدب والصحافة .

وكان الرجل يأبى على زوجته أن تسفر عن وجهها فى الطريق ، فأصبحت اليوم ولها من الحرية ما تسفر به عن جسمها على الشاطىء .

وكان الرجل يكره أن تقرع المرأة باب الصالون على ضيوفه ، فأصبحت اليوم ولها من الجرأة ما تقتحم به سور البرلمان على نوابه !

وهكذا ترعرع غرس قاسم ، وأضاءت شعلة قاسم . ولكن دعوته أسرعت فى طريق وأبطأت فى طريق . أسرعت فى الحرية والسفور حتى كادت تخرج عن الحد ، وأبطأت فى تضييق الزواج وتقييد الطلاق حتى كادت تنقطع عن السير . والعجيب أن المطلبين اللذين نجحا كانا مثار الخلاف والسخط ، وأن المطلبين اللذين فشلا كانا موضع الوفاق والرضا . والعلة فى السرعة أو النجاح هنا ، وفى البطء أو الفشل هناك ، أن الحرية والسفور

أمرها بيد المرأة ، وأن تضييق الزواج وتقييد الطلاق أمرها بيد الرجل !

سيداتى أعضاء الاتحاد النسائى !

إنكن تحتفلن اليوم بذكرى وفاة قاسم أمين . وإنه لوفاء منكن أن تمجدن ذكرى رجل قضى خمسا وعشرين سنة من عمره القصير ، يسعى لكن ، ويدافع عنكن ، ويحتمل الأذى فى سبيل أن يعترف الرجال بحقكن فى الحياة ومكانكن من الوجود . ولم ينصرف إلى جوار الله إلا بعد أن رسم لكن خطة الجهاد ، ووضع لكن دستور هذا الاتحاد . ولكن أجمل الوفاء أن تتبعن الطريق الذى نهجه ، وتنفذن الدستور الذى وضعه . كان قاسم يطلب لكن الحرية من غير شطط ، والسفور من غير تبرج ، والاختلاط من غير ريبة ، وممارسة الحقوق فى نطاق الواجب ، ومزاولة الأعمال فى حدود التخصص . وإن كتبه لتشهد على أنه لم يطلب لكن شيئا يناقض الدين ، أو يعارض الخلق ، أو يجافى التقليد . والسيدة زوجه ، وهى من أفهم الناس لدعوته ، وأعلمهم بنيته ، تقول فى حديث لها : « إن فتيات هذا الجيل قد أسأن فهم هذه الدعوة وتجاوزن مداها ؛ فإن قاسما لم يدع إلا إلى السفور الشرعى والاختلاط المقيد . وإنه ليحزننى أن يحمِّله الناس أوزار هذه الحال . وأعتقد أنه لو كان حيا لرأى فى تبرج الفتاة فسوقا عن دعوته وزيغا عن سبيله » .

فأنتن ياسيداتى خليقات أن تنقين مبادىء قاسم من شوائب الهوى والغى . وإنكن لتعلمن أن جوهر هذه المبادى قيام الأمر بين الزوجين على المودة والرحمة ، وبين المتعاملين على الصداقة والتعاون ، وبين المواطنين على الدين والخلق ؛ وأن التربية والتعليم والسياسة والحكم يجب أن تصدر عن هذا المبدأ وتتوافى عند هذه الغاية . والناس يقولون إن المرأة وهى معنى الوئام والحب فى الأمة ، أصبحت عاملا من عوامل التنافر والفرقة فى الأسرة . وإن أسباب

الطلاق بعد أن كانت تعزى إلى استبداد الزوج ، أصبحت تعزى فى الغالب إلى استهتار الزوجة . وقد زعم المحصون أن عدد المطلقات بلغ فى بعض السنين الأخيرة خمسة وسبعين ألفا خرجن من دار الزوجية لأسباب يسأل الرجل عن أكثرها فى بيئة العامة ، وتسأل المرأة عنها كلها فى بيئة الأوساط والخاصة . فعالجن يا سيداتى الزعيمات جموح الفتاة كما عالج زعيمكن العظيم عناد الفتى . واحملن المرأة الجديدة على أن تذكر الواجب حين تذكر الحق ، وأن تفكر فى السكون العام حين تفكر فى السكون الخاص . سدد الله خطاكن فى الطريق القويم ، وأكرم مثوى هذا المصلح العظيم فى دار النعيم !

الربيع في الشعر العربي

(٣٠ ابريل سنة ١٩٥١)

إن الذين قضوا يوم شم النسيم البهيج المرح على بساط الربيع ، يجتلون جمال الطبيعة المتبرجة فى الزهر والنهر ، ويستوعبون أسرار الحياة المنبثة فى السماء والأرض ، يسرهم أن يقرأوا تعبـــير الشعر عما شهدوه من جمال النيل ، وأحسوه من فتنة واديه ، ولم يستطيعوا الهتاف به ولا التعبير عنه . وما كان أحب إلى نفسى أن أهيىء لهم هذا السرور لو وجدت السبيل إليه ، فإنى قرأت ما نظم الشعراء المصريون قدماؤهم ومحـدثوهم فى الربيع المصرى ، فلم أجد فيه على قلته وتبعيته صدقا فى الشعور ولا مطابقة للواقع . قرأت ما قال ابن وكيع التنيسى ، وابن سناء الملك ، وابن الساعاتى ، وابن نباتة ، والشاب الظريف ، وابن مطروح ، والبهاء زهير ، من نوابغ المتقدمين ؛ ثم قرأت ما قال شيوخ الشعر وشبابه من صفوة المتأخرين ، فلم أجد إلا كلاما عاما يقال فى كل ربيع ، ووصفا مجملا يصدق على كل روضة ! تعبيرات محفوظة من لغة الشعر ، وتشبيهات منقولة من موروث البيان ، صاغها كل شاعر على حسب طاقته وآلته ، فجاءت وصفا لربيع مجهول لا حقيقة له فى الخارج ، ولا أثر له فى الذهن . أما الشعور النفسى الذى يدرك الشاعرَ الأصيلَ فى جو معين ومنظر محدود وزهرة خاصة ، فيصل به بين النفس والطبيعة ، وبين الفكر والصورة ، وبين الفن والواقع ، فذلك ما لا أثر له فيه. ولعلك إذا استثنيت من أشعار العرب فى الربيع ، شعر ابن الرومى فى العراق ، وشعر البحترى فى الشام ، وشعر ابن خفاجة فى الأندلس ، وجدت سائرها من

هذا النمط المصرى الذى تجد فيه الألفاظ المبهمة ، ولا تجد فيه المعانى الملهمة . فأشعارهم فى الربيع أشبه بأشعارهم فى الغزل ، أقلها نفسى صادق يصدر عن القلب وينقل عن الوجدان ، وأكثرها حسى كاذب يصدر عن الحافظة وينقل عن الكتاب . والمصريون أولى من غيرهم بالعذر إذا خلا شعرهم من وحى الربيع ؛ لأن الربيع الذى يزور الأرض فى أبريل ومايو ، لا يزور مصر إلا فى أكتوبر ونوفبر . فالخريف فى مصر هو الربيع الحق فى نضرته وزينته وعطره . فأينما تدر بصرك فى حقول الذرة وقصب السكر والبرسيم ، لا تجد إلا رياضا شجراء من شراب وحب ، ومروجا فيحاء من زهور وكلأ . ثم ترى النيل فى أعقاب فيضانه كذوب التبر ينساب هادراً فى الترع والقنوات ، فيجعل من ضفاف الجداول ، وحفافى الطرق ، وحواشى الغيطان ، سلاسل زبرجدية من الريحان والعشب . لذلك افتن شعراء الريف فى وصف الخريف وأبدعوا .

وأما ذلك الربيع الجغرافى الذى يقبل على مصر مع الرياح الخماسينية والعواصف الرملية والتقلبات الجوية فإنه أردأ فصول العالم . يطرد النسيم بالسموم ، ويخنق العطر بالغبار ، ويذبل الزهر باللهيب ، ويرمى الطير بالبكم ، ويفسد المزاج بالوخومة . ثم يكون حلوله بعد رحيل شتاء هادىء جميل ، فى هوائه الدفء ، وفى جوه الصحو ، وفى سمائه الإشراق ، وفى أيامه النشاط ، وفى لياليه الأنس . فإذا رأيت الريف فى الشتاء ، رأيت الأرض على مدى البصر قد غطاها بساط من السندس الأخضر تخف خضرته فى حقول القمح فتكون كالزمرد ، وتثقل فى حقول البرسيم فتكون كالفيروزج ؛ فلا يجد الشاعر المصرى وقد انتقل من رقة هذا الشتاء إلى قسوة ذلك الربيع ما يجده الشاعر الأوربى من الحياة والمرح والبهجة والنشوة والطلاقة حين ينتقل من شتائه المكفن بالثلوج إلى ربيعه المكسو بالورود .

للربيع فى الشعر الأوربى أرخم الأوتار وأعذب الألحان من موسيقى الشاعر ؛ لأن الشتاء فى أوربا عناء طويل وهم ثقيل : ظلام متكاثف يحجب السماء ، ومطر واكف يغمر الأرض ، وبرد قارس يهرأ الأجساد ، وغمام متراكم يسد الأفق ، فلا ترى شعاعة شمس ولا خفقة طائر ، وثلج متراكب يطمر الثرى فلا تجد عشبة فى مرج ولا زهرة فى حديقة . والناس هناك فى حنين دائم إلى الربيع ، لأنه فى دنياهم حياة بعد موت ، وابتهاج بعد كآبة . ولشعرائهم فيما يبشرهم بمقدمه رقائق من الشعر الشاعر ، تقرأها فى البشريات الأولى ، كشيوع الدفء فى النسيم ، ودبيب الحياة فى الشجر ، وعودة العصفور المهاجر إلى عشه ، وخرير الجدول الجامد بعد صمته . فإذا أقبل الربيع متعهم بما حرموه طويلا من جلوة الطبيعة فى الأفق المشرق ، والروض البهيج ، والجو المعطر ، والطير الصادحة ، والضواحى الأنيقة ، والغابات الوريفة ، والمتنزهات اللاعبة . والربيع الأوربى على الجملة تغيير فى النفس وتجديد فى الحياة . والتغير والتجدد يلهمان القرائح الخلاقة شعرا يمتزج فيه الوجدان بالوجود ، ويتصل به الخيال بالحقيقة .

أما شعراؤنا المصريون فأى جديد يأتيهم به الربيع فى آفاقهم وفى أنفسهم ! إن الشمس والدفء والصحو والطير والزهر والزرع والماء من خصائص مصر الطبيعية ، لا تنفك عنها طيلة العام ، حتى ألفتها المشاعر والنفوس ، فلا تشتاقها لأنها لا تغيب ، ولا تحتاجها لأنها لا تنقطع . ومن هنا تشابهت الفصول الأربعة فى حس الشاعر ، فلا يكاد يرى اختلافا بينها إلا فى حيوية الشتاء وشاعرية الخريف . ولذلك لم يجد الشعراء ما يقولونه فى الربيع . فإذا قالوا مدفوعين بغريزة المحاكاة أو بشهوة المعارضة ، قالوا كلاما قد يكون منضد الألفاظ ، مجود التشابيه ، ملون الصور ؛ ولكن الفرق بينه وبين الشعر الصحيح ، يكون كالفرق بين الجماد والحى ، أو بين الدمية والمرأة .

ولقد نظرت فى شعرنا القديم والجديد فلم أر شاعراً قبل شوقى ولا بعده خص الربيع بقصيدتين من محكم الشعر وجيده ، إحداهما طويلة مستقلة ، أهداها إلى الكاتب القصصى (هول كين) ، والأخرى قصيدة تابعة جعلها صدراً لقصيدته التى نظمها فى المهرجان الذى أقيم لتكريمه ، يقول فى الأولى :

آزار أقبل قم بنا يا صاح ... حى الربيع حديقة الأرواح
واجمع ندامى الظرف تحت لوائه ... وانشر بساحته بساط الراح
صفو أتيح فخذ لنفسك قسطها ... فالصفو ليس على المدى بمتاح
واجلس بضاحكة الرياض مصفقا ... لتجاوب الأوتار والأقداح

إلى أن يقول :

ملك النبات فكل أرض داره ... تلقاه بالأعراس والأفراح
منشورة أعلامه من أحمر ... قان وأبيض فى الربى لماح
لبست لمقدمه الخمائل وشيها ... ومرحن فى كنف له وجناح
الورد فى سرر الغصون مفتح ... متقابل يثنى على الفتاح
ضاحى المواكب فى الرياض مميز ... دون الزهور بشوكة وسلاح
مر النسيم بصفحتيه مقبِّلا ... مر الشفاه على خدود ملاح
هتك الردى من حسنه وبهائه ... بالليل ما نسجت يد الإصباح
ينبيك مصرعه ، وكل زائل ، ... أن الحياة كغدوة ورواح
وبشقائق النسرين فى أغصانها ... كالدر ركب فى صدور رماح
والياسمين لطيفه ونقيه ... كسريرة المتنزه المسماح
متألق خلل الغصون كأنه ... فى بلجة الإصباح ضوء صباح

ثم يقول فى الأخرى :

مرحباً بالربيع فى ريعانه ... وبأنواره ، وطيب زمانه
زُفت الارض فى مواكب « آزا ... ر » ، وشب الزمان فى مهرجانه
نزل السهل ضاحك البشر ؛ يمشى ... فيه مشى الأمير فى بستانه
عاد حَلياً براحتيه ووشياً ... طول أنهاره ، وعرض جنانه
لف فى طيلسانه طرر الأر ... ض فطاب الأديم من طيلسانه
ساحر ، فتنة العيون ، مبين ... فصَّل الماء فى الربا بجمانه
عبقرى الخيال ، زاد على الطيـف ، وأربى عليه فى ألوانه
صبغة الله ؛ أين منها رفائيـل ، ومنقاشه وسحر بنانه ؟
رنّم الروض جدولا ونسيما ... وتلا طيرَ أيكه غصن بانه
وشدت فى الربا الرياحين همساً ... كتغنى الطروب فى وجدانه
كل ريحانة بلحن ، كعرس ... ألفت للغناء شتى قيانه
نغم فى السماء والأرض شتى ... من معانى الربيع ، أو ألحانه

هذه وتلك أبيات من قصيدتى شوقى فى الربيع ؛ وهما مثالان من الشعر العالى الطبقة الرفيع النسق إذا وازناهما بالمأثور من الشعر المصرى فى هذا الباب وربما انقطع نظيرهما أو ندر فى الشعر العربى كله ! ولكننا إذا وازناهما بما قرأنا فى موضوعهما من الشعر الأوربى شالت كفتهما فى هذه الموازنة . فإن شوقى رحمه الله جرى على مذهب من سبقوه ، فلم يصف فيهما ربيعاً بعينه ، فى إقليم بعينه ، يصح أن يخلط به نفسه ، ويضيف إليه شعوره ، ويعرض مايرى فيه من شجر وطير وعطر وفنون ، على ما يجد فى نفسه من حب وذكرى

ونشوة وصبابة ، فيأتلف المنظر والناظر ، ويتحد الشعور والشاعر ؛ إنما وصف شوق ربيعا عاماً كما تخيله لا كما رآه ، وكما تمثله لا كما أحسه ، فجاء الوصف معجماً مبهما قد يعجب ويطرب بألفاظه ، ولكنه لا يؤثر ولا يعرب بمعانيه . والقصيدتان على أى اعتبار مشاركة جميلة من الشعر المصرى للشعر العالمى فى تمجيـــد ذلك السر الذى يبثه الله كل عام فى الربيع ، فيعيد الحياة ، ويرجع الشباب ، ويجدد الأمل ، وينشر الجمال ، وينشأ عنه فى الدنيا هذا البعث العجيب !

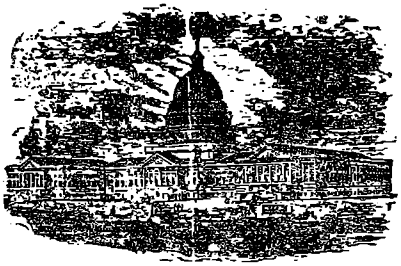

رحلات عزام

(١٤ مايو سنة ١٩٥١)

الرحلة سبيل من سبل المعرفة . وفى الأمثال : من يعش ير كثيرا ، ومن يمش ير أكثر . وفى الزمن القديم كانت الرحلة وحدها متصل الفكر بالفكر ، وملتقى المتعلم بالعلم ، ولا يزال لها فى الزمن الحديث على سرعة الاتصال بين أجناس الناس فى بقاع الأرض ، بالإذاعة والصحافة والنشر ، أثر ظاهر فى اكتساب العلوم وتقدم الثقافة . وهى فى تاريخ الإسلام بوجه أعم ، وفى تاريخ الأدب بوجه أخص عظيمة الخطر فى جمع اللغة ورواية الحديث ، قوية الأثر فى نشر الأدب وتوسيع الفقه . وكانت الرحلات الذاهبة الآيبة من العراق إلى مصر إلى الأندلس ، ومن هذه الأقطار جميعاً إلى الحجاز ، مورداً ثرًّا لعلوم الدين وفنون الأدب ، جنَينا من ثماره طائفة كثيرة من عيون الكتب فى وصف البلاد ، وطبائع الشعوب ، وتراجم الرجال ، وغرائب العادات ، وعجائب الكائنات ، وطرائف الملَح .

على أن الله لم يؤت الرحالين أجمعين ما آتى البيرونى ، والبغدادى ، وابن جبير ، وابن بطوطة ، وأضرابهم من قوة الملاحظة ، وشهوة التطلع ، وحب التحدث ، ورغبة الإفادة . ولم يؤت الله هؤلاء جميعاً ما آتاه صديقنا الدكتور عبد الوهاب عزام ، من صحة العلم ، وسلامة الحكم ، ودقة الفهم ، وخفة الروح ، وعذوبة الفكاهة ، ولطف النادرة ، وجمال الأسلوب .

رحل الأستاذ إلى أكثر البلاد العربية والإسلامية فى عهدين مختلفين : عهد غلب فيه التأثر الأول والشعور البادر والنظر العجلان ، وقد وعته (الرحلات الأولى) ؛ وعهد غلب فيه الإدراك الكامل والاستيعاب الشامل والتحقيق

الدقيق ، وقد ضمنته (الرحلات الثانية) وهى التى نقدمها اليوم إلى القارىء بهذه الـكلمة الوجيزة . وغاية الرحالة فى العهدين ومن الرحلتين هى التعريف بأمصار العروبة وأقطار الإسلام ، ليـكون التعريف سبيلا إلى التعارف ، وعونا على التآلف ، وتمهيداً للوحدة .

وهذه الرحلات التى رحلها البحاثة الوصافة عزام إلى فلسطين ، ثم إلى الشام ، ثم إلى الهند ، ثم إلى الحجاز ونجد ، صور من البيان ، وطرف من الأدب ، ودقائق من العلم ، ورقائق من الفن ، ينقلك سحرها بحواسك ومخيلتك إلى تلك الأماكن الموصوفة ، فتشاهد المناظر ، وترى الأشياء ، وتسمع الأشخاص ، كأنك رحلت وحللت ؛ وصاحبت فى النقل ، وساهمت فى المآدب ، وشاركت فى الحديث ، وإن الإشعاع الذى ينبثق من روح الـكاتب على سطور الـكتاب ليهدى روحك إلى روحه ، ويدل شعورك على شعوره ، فتتحد أنت وهو فى الزهو بماض مرموق كله ذكريات مجد وبطولة ، وتتجه أنت وهو إلى مستقبل مرموق كله آمال بعث ونهضة .

فما أجدر كل عربى أن يحج فى هذا الـكتاب الأماكن التى أشرق منها نور الله ، والمواطن التى استقرت بها خلافة الأرض ، والمعاهد التى زكت فيها ثقافة الإنسان ! إنها مهبط دينه ومصعد دنياه ، وإنها متجه خاطره ومنتجع هواه !

أدبنا في الحديث

(٢١ مايو سنة ١٩٥١)

من الصفات المميزة للمصريين فى المجتمع الحديث ، أنهم إذا اجتمعوا قاعدين فى قهوة ، أو ماشين فى شارع ، لفتوا إليهم أنظار الناس بما يأتون من حركات ، وبما يحدثون من ضجيج . إذا تحدثوا ضوضأوا فى الحديث ، وإذا ضحكوا قهقهوا فى الضحك ، وإذا أشاروا أغلظوا فى الإشارة ! لا ينتظر السامع المتكلم حتى يفرغ من كلامه ، ولا يمهل المعارض المؤيد حتى يدلى بحجته . إنما هى الحنجرة الصلبة ، والنكتة المكشوفة ، والسخرية اللاذعة ، والمقاطعة المهينة . والأمر كله للصوت الجهير النكير ، وللضحكة المتفجرة المكركرة .

والجهر بالقول أخص خصائص العامية ؛ لأن المتحدث لا يرفع صوته فوق الأصوات إلا فى ضوضى أو فوضى . وضوضى الحياة أو فوضاها لا تكون إلا فى المجتمع البدائى أو العامى ، حيث تغلظ العبارة ، وتخشن الإشارة ، ويختلط الحديث . والجاحظ يقول فى الأعراب : « إنما خشنت أصواتهم لمخاطبتهم الإبل » وأنت كذلك حرى أن تقول فى الرجل الذى يفتح حلقه كله عند الكلام ، إنما تعود ذلك لأنه لا يخاطب فى أسرته وبيئته إلا الذين يتكلمون ولا يسمعون ، أو الذين يسمعون ولا يصغون ، أو الذين تبلدت فيهم حاسة السمع ، فلا يدركون جمال الصوت الرخيم ، ولا يتذوقون لذة الحديث العذب . ولقد كان من تأديب الله للعرب الذين كانوا يفدون إلى الرسول فيؤذونه بما جبلوا عليه من رفع الصوت ، وجهر القول ، إذ قال لهم : يأيها الذين آمنو لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبى ، ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض . . . » ثم قال

عز قوله حكاية عن لقمان إذ قال لابنه : « واغضض من صوتك ، إن أنكر الأصوات لصوت الحمير » . وإذا عذرنا من يرفع صوته مضطرا بحكم عمله كالسماسرة الذين يشتغلون فى برصة العقود ، والصناع الذين يعملون فى مطارق النحاس ، والتجار الذين يتصافقون فى سوق البهائم ، فكيف نعذر ذلك المطربش الجسيم الوسيم الرافه الذى تكلمه رأسا إلى رأس ، وفما إلى فم ، فيأبى إلا أن يمزق طبلتى أذنيك بصوته المجاجل الراعد !

الحق الذى يؤيده الحس أن الرجل كلما اكتمل عقله ، وتهذب طبعه ، ولطف شعوره ، كان أرغب عن الجلبة وأزهد فى العنف . فتراه إذا تكلم كسر من صوته ، وإذا ضحك أفتر عن ثغره ، وإذا استمع أرهف من سمعه ، وإذا قاول ألان من قوله ، وإذا مزح عف فى مزحه . وإن اليوم الذى نرى فيه المصرى يحضر المجلس ولا يصخب ، ويتناقل الحديث ولا يزيط ، ويسمع الغناء ولا يعربد ، ويجتاز الشارع ولا يهرج ، لهو اليوم الذى تكتمل فيه إنسانيته الحرة ، ويبدأ به تمدنه الصحيح !

متى يغضب الفلاح

(٢٣ يوليه سنة ١٩٥١)

الرضا والقناعة والصبر هى الصفات المميزة للفلاح المصرى . تأصلت فيه بالطبع والوراثة والبيئة والعقيدة ، فأثرت فى حياته ، وهيمنت على سلوكه وتصرفت بهواه !

يستبد بحكمه طاغية كالحاكم بأمر الله فيستكين . ويثب على عرشه خصى ككافور فيخضع . وتملك عليه إمرأة كشجرة الدر فيطيع ويسيطر على أمره الأجنبى فيرضى ويستأثر بخيره المستعمر فيقنع . ويحطمه بالذل صاحب الحكم فينقاد . ويسمع بالأحداث تتدفق على وطنه وتتواثب على قومه فلا ينبض فيه عرق ولا يغلى له جوف ! كأنما كل إمرىء فى الريف أمة وحده : شأنه يغنيه ورزقه يكفيه ، وكوخه يؤويه ، وكل ما خرج عن غيطه وبيته لا يعنيه !

تقرع سمعه الأحاديث النُكر عن وزير من الوزراء نشأ على تلال القرية كما نشأ ، وذاق بؤس الحياة كما ذاق ؛ ثم رفعته الظروف الحجيبة والصروف العجيبة إلى كرسى الحكم ، فتاه وتكبر ، ثم طغى وتجبر ، ثم سرق وغصب ، ثم جامل وحابى ، ثم تاجر ورابى ، ثم أمكن عشيرته من دماء الشعب وأموال الأمة ومرافق الدولة ، فاستحلوا ما حرم الله ، واستباحوا ما حظر القانون ، واستجازوا ما منع الخلق ، فيسمع كل ذلك بأذن من طين ، وأخرى من عجين ، كما يسمع الصوفى المعتكف أنباء الرياضة أو أخبار البورصة !

لا يغضب لمضرة عامة ، ولا يرضى لمنفعة بعيدة ؛ إنما يغضب أو يرضى تبعاً لما يلقى من الشر أو الخير فى أهله أو حقله أو بهيمته . يرضى عن الحكومة

ويصفها بالصلاح إذا أعفته من تكاليف الخفر النظامى ، أو كافأته على حراسة النيل الطاغى ، أو خفضت له أجرة السفر على السكة الحديد ، أو وزعت عليه بعض الفدادين ، أو ارتفعت فى عهدها بالمصادفة أسعار المحاصيل . و يسخط على الحكومة و يرميها بالفساد إذا ظهرت الدودة فى حقول القطن ، أو فشا الطاعون فى حظائر الماشية ، أو نقص الماء فى قنوات الرى ، أو هبط سعر البيض فى سوق البندر !

ذلك لأن الفلاح ابن الأرض ، لا يكاد ينزع جسده من حضنها ، ولا يخرج يده من طينها ، ولا يفهم الحياة إلا مضافة إليها أو مقدرة بها ، ولا يمد بصره إلى أبعد من حدودها . والقائمون على أمره ، القابضون على زمامه ، لا يريدون أن ينبهوه إلى أن فوق هذه الأرض سماء فيها الروح ، وفيها الطموح ، وفيها الكرامة ، وفيها الأمل ، وفيها الرفعة ؛ وأن اللاصق بالأرض حيوان ، والعالق بالسماء ملك ، والإنسان خلق دون هذا وفوق ذاك .

فما دام الفلاح وهو سواد الشعب ممدوداً فى دود الأرض يزرع ليأكل ، ويحفر لينام ، ولا يهمه أن ظلم حكامه أو عدلوا ، وجد زعماؤه أو هزلوا ؛ وسواء عليه أخرج المحتلون أم بقوا ، وسعد مواطنوه أم شقوا ، فهيهات أن يكون لنا رأى عام وحكم صالح ودستور صحيح ووطن مستقل ! ومتى استنار ما أظلم من نفسه ، واستيقظ ما غفا من حسه ، أدرك أنه مصدر السلطة ومورد الثروة وعماد الأمة فلا يقبل أن يهمله حاكم ، أو يستغله ظالم ، أو يتغفله زعيم . ولكن ليت شعرى بأى طبل يسمع و بأى بوق يفيق ؟ !

الملك عبد الله

(٦ أغسطس سنة ١٩٥١)

على عتبة المسجد الأقصى الذى بارك الله حوله خر الملك عبد الله صريعاً ليديه ، فصرعت بمصرعه الأليم سياسة ، وتراجع أمل ، وتضعضع حلف ، وتغير تاريخ !

ذلك لأن الملك عبد الله كان قوة مؤثرة فى سياسة الشرق والغرب ، اكتسب هذه القوة بفعل الحوادث وحكم الظروف وموقفه المعبر الدال على اتجاه الإنجليز فى شؤون العرب . ولم يكن من الميسور أن يكتسبها لو لم يكن قوى الشخصية بعيد الهمة واسع المطامع ، لا يقنع بالتمنى ، ولا يكتفى باليسير ، ولا يدخل فى حسابه آراء غيره ولا آراب قومه .

دخل الأمير عبد الله بن الحسين التاريخ من الثغرة التى ثغرها الإنجليز بين الترك والعرب فى الحرب العالمية الأولى . وكان المغفور له والده الكريم قد فهم من لغة الإنجليز فى الوعد الذى واعدوه غير ما أرادوه ! فهم أن غنيمته من محاربته الأتراك معهم ستكون للأمة العربية والاستقلال والوحدة ، وكانوا هم يريدون بهذين اللفظين الانتداب والتجزئة ! فلما تقاسم بنو الحسين الميامين تيجان العرب فى الأقطار التى انبسط عليها النفوذ البريطانى من تراث الخلافة الصريعة كان ما أصاب الأمير عبد الله رقعة من أجادب الأرض فى شرق الأردن ، لم تتسع لهمته ولم تستجب لطموحه وظل فيها كما يظل الأسد فى القفص ، متململا من الحصر ، متبرماً بالضيق يتطلع من خلال القضبان إلى سواحل فلسطين ؛ ثم تمتد عينه الرغيبة إلى سهول سورية ؛ ثم يشرق

بفكره وقلبه إلى أرياف العراق ؛ ثم يرتد بذكرياته وحسراته إلى أباطح الحجاز ؛ ثم ينطوى على نفسه فى قصر رغدان ويصوغ ما تشهاه وما تمناه وما تذكره خططاً سياسية يسميها : « فلسطين الموحدة » أو « سورية الكبرى » أو « الهلال الخصيب » ، ويستعين على تنفيذ هذه الخطط وتحقيق هذه الأمانى بصفحات من جيش (جلوب) ، وصفحات من كتاب (الأمير)؟[1] ولكن الملك كان يفكر . والقدر كان يدبر ، (فحال الجريض دون القريض)، وانهار ما شاد الثائر الطموح من الأمل العريض !

عرفت أصحاب التيجان الهاشمية من بنى الحسين معرفة خبرة وصداقة . عرفت الملوك عليا وفيصلا وغازيا فى بغداد ، فرثيتهم رثاء الخبير ، وبكيتهم بكاء الصديق ؛ إلا الملك عبد الله فقد لقيته مرة واحدة فى القاهرة وهو أمير . لقيته أنا والأستاذ السراج فى أحد القصور من (جاردن سيتى) ، فلم يكد يفرغ من تكاليف اللقاء الجميل حتى أخذ يتلو عن ظهر قلب قول الله تعالى : «وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم . . .» إلى آخر الربع من سورة (فصلت) ، ثم انتهت الزيارة بانتهاء القراءة ، فلم أعرف عنه إلى أنه يحفظ ربعاً من القرآن !

من أجل ذلك لا أستطيع أن أتحدث عنه ولا أحكم عليه إلا من وراء ما يُرى وما يُسمع . والناس إنما يرون ويسمعون بعين المخلوق وأذنه . ولعل فيما أبصروا من أفعاله ، وسمعوا من أقواله ، مبرراً من طيب سريرته وصدق عقيدته . والتاريخ يحاسب المرء على عمله ، ولكن الله يحاسبه على نيته ؟

---

(١) الأمير كتاب مشهور لمكيافلى عالج فيه السياسة والحكم على المبدأ القائل : الغاية تبرر الوسيلة .

تغيّر...!

(٣٠ أغسطس سنة ١٩٥١)

أخذت مصر فى عهدها الأخير تغير ما بنفسها ليغير الله ما بها كما قال عز قوله فى كتابه الخالد . . . وأصدق الأدلة على هذا التغير ما نراه من القلق على كل وجه ، وما نسمعه من السخط على كل لسان ، وما نقرأه من المعارضة فى كل صحيفة .

وليس ما نراه ونسمعه ونقرأه من كل أولئك صادراً عن تقليد كما كان يصدر ، ولا وارداً عن تحريض كما كان يرد . إنما هو أنفة المستذَل حين يحس ، وغضبة المستغل حين يعى . والقطيع من البقر أو من الغنم إنما يظل قطيعاً ما دام لا يعرف إلا العشب يخضمه والماء يجرعه والراعى يطيعه . فإذا ما أدرك يوما أن راعيه يأكل لحمه ويشرب لبنه ويستغل جهده وليس له من فضل عليه إلا أن برأسه حيلة هى أضيق من قواه ، وأن فى يده هراوة هى أضعف من قرونه ، لم يعد قطيعاً وإنما يصبح أمة .

يعلن الناس اليوم ما كانوا يتأثمون أن يسروه ؛ ويفعلون اليوم ما كانوا يحذون أن يقولوه ، ويدركون اليوم أنهم أصحاب الثروة وأرباب البلد ومصدر السلطان . فما فى خزائن الدولة من الأموال ملك لهم ، ومن فى دواوين الحكومة من الرجال أجراء عندهم ؛ وأن الكبراء الذين يهلكون ولا ينتجون ، ويأخذون ولا يعطون ، ويقولون ولا يفعلون ، ويحكمون ولا يعدلون ، إنما هم الكبائر التى توجب العقوبة ، والدلائل التى تعلن الكارثة ، تصديقا لقول

الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها ، فحق عليها القول فدمرناها تدميراً » .

لو كانت الصحافة وحدها هي التي تنتقد وتعارض وتشتكي وتحتج لقلنا : جماعة من المثقفين المرهفين رأوا المنكر فنددوا به ، وأبصروا الخطر فنبهوا إليه؛ ولكن الواقع أن قراء الصحف وسامعيها من كل طبقة ومن كل حزب قد رأوا فيما تنشر من اعتراض أو امتعاض تعبيرا دقيقا عما يضطرب في رءوسهم من فكر ، وتصويرا صادقا لما يعصف في نفوسهم من ثورة . فلما أراد من أراد أن يخفت من صوت الصحافة بالكمائم ، ويضيق من خطوها باللجم ، انفجر في وجهه الرأي العام من ذات نفسه ومن جميع نواحيه ، يدفع عن المنبر الحر الذي تتنزل عليه كلمته وتتجلى فيه إرادته .

ولو كان الذين انفجروا في طريق (التشريعات الصحفية)[1] من المعارضين للحكم القائم ، لقلنا نزوة من نزوات المعارضة ، وشهوة من شهوات المنافسة ؛ ولكن الأمر الذي نعجب له وتعجب به أن الذين خاضوا وقادوا معركة الرأي الحر في محنة الصحافة كانوا من شباب الوفد وكهوله ! وذلك يؤيد ويؤكد ما قلنا من أن مصر بأسرها تغير ما بنفسها ، وسيغير الله ولا ريب ما بها ، فتساس سياسة وطن لا سياسة إقطاع ، وتقاد قيادة أمة لا قيادة قطيع !

---

(١) التشريعات الصحفية قوانين كانت حكومة الوفد تريد أن تسنها لتقيد بها حرية الصحافة فقابلها بالمعارضة بعض الوفديين من نواب البرلمان وعلى رأسهم المرحوم الشاعر عزيز فهمي .

نماذج فنية من الأدب والنقد

(٣ يوليو سنة ١٩٥١)

قليلا ما أكتب عما يصدر من كتب الأدب ؛ لأن كثيرا من هذه الكتب لا يرضيني . وليس ما يرضيني من الكتاب الأدبي شيئاً وراء الإمكان أو فوق الطاقة ، إنما هو الفن ولا شيء غير الفن . والفن الكتابي على ما أرى أسلوب من الجمال المصنوع المطبوع ، عنصره الأول فكرة قوية أصيلة ، وعنصره الآخر صورة صادقة جميلة . فإذا فقد أحد هذين العنصرين أو فسد أو شاه كان الأسلوب أسلوب عالم تجد فيه الروح ولا تجد الصورة ، أو أسلوب مثال تجد فيه الصورة ولا تجد الروح . والعالم أو المثال رجل آخر غير الكاتب أو الشاعر العالم همه توضيح الغامض فى الموضوع ، والمثال همه تحقيق الشبه فى الشكل . أما الكاتب أو الشاعر فهو خالق مصور : يبدع الجسم فى أجمل هيئة ، و يبث فيه الروح على أكمل حالة . ثم يهب لمخلوقه خصائص الحى فينمو ويتحرك ويعمل ، ولكن نموه يكون فى خيالك ، وحركته تكون فى نفسك ، وعمله يكون فى ذهنك ، فيفيد و يقنع بأثر العقل فى معناه ، ويعجب ويمتع بأثر الذوق فى لفظه .

ذلك جوهر ما يرضيني من العمل الأدبى فى أى موضوع أنشأه صاحبه وهذا الجوهر هو ما أفتقده الحين بعد الحين فى نتاج العصر فأجده زائفاً فى أكثره صحيحاً فى أقله . وهذا الأقل إنما أجده فيما ينتج الخواص من شيوخ الأدب الذاهبين ؟ أما الشباب وا أسفاه فإنهم ينتجون الأندر من هذا الأقل . والذين ينتجونه منهم نفر ميزهم الاستعداد ومحصهم الاجتهاد فشاخوا فى الأدب على طراءة السن وضآلة الناتج . وإن من أعيان هذا النفر صديقنا أنور

المعداوى ، وكتابه الذى عنونت باسمه هذه الكلمة ينطق عليه بالحق ، وينهض إلى بالدليل .

تخرج الأستاذ المعداوى فى كلية الآداب من جامعة فؤاد فكان شذوذاً من القاعدة التى تزعم أن التضلع من علوم اللغة ، والتبسط فى فنون الأدب ، وقف على خريجى الأزهر ودار العلوم .

ولعل هذا الشذوذ نفسه هو القاعدة السليمة التى تقول إن الكتابة ملكة يؤتيها الله من اصطفى من عباده فى أى سن ومن أى جنس وفى أى معهد .

أسلوب المعداوى كما تراه فى كتابه من الأساليب التى جاء فيها التأليف بين المعنى واللفظ جارياً على سنن الفن الصحيح . فالتفكير قوى عصبى حار ، والتعبير دقيق أنيق مهذب : وليس ما فى أسلوب المعداوى من العصبية والنارية آتياً من شبابه ؛ فإن الشباب المتقد يخبو ، والحس النير يظلم ، إذا لم يكن من ورائهما نار الطموح ونور النبوع . إنما هى شعلة الفن فى روح الفنان ، تضىء وتدفىء ، وتصهر وتطهر . وقد تلذع وتحرق أحيانا فى نفس أنور ؛ ولكن الزمن وحده كفيل بتهدئة الثائر وتفتير الحار ، فيذهب الإحراق ويبقى الإشراق ، وينجاب الدخان ويخلص الضوء !

هبّى يا رياح الخريف هبّى !

(١٥ أكتوبر سنة ١٩٥١)

هبى يا رياح الخريف هبى ! هبى وحطمى هذه الأشجار الغلاظ التى تأكل خير الأرض ، وتحجب نور السماء ، وتقطع سبيل الناس ، ولا تحمل إلا شوكا من غير ثمر ، وخشباً من غير نفع ، وخضرة من غير جمال !

هبى يا رياح الخريف هبى ! . . هبى واهدمى هذه الأوكار القباح التى اتخذت أشكال القصور وانتحلت أسماء الأندية ، فباض فيها الشر باسم السياسة ، وفرخ فيها الفُجر باسم الرياضة ، وأوت إليها أبابيل من البوم التى تعلن الخراب ، والخفافيش التى تمج الظلام ؛ والغربان التى تذيع الفرقة ، فلا نرى فيها ولا نسمع منها إلا خمرا تعربد ، وقمارا يصطرع ، وترفا يفسق ، وسرفا يدمر !

هبى يا رياح الخريف هبى ! . . هبى واكسحى هذا الغُثاء العفن الذى زكم الطرق وسد المسالك مما فنى من الجذوع ، وبلى من الفروع ، وذبل من الأوراق ، فأصبح شوها فى الأعين وثقلا فى الأرجل ؛ ثم لا يكون إلا أذى إذى عطنه وإلا قذى إذا أثاره الهواء ، وإلا لظى إذا مسته النار !

هبى يا رياح الخريف هبى ! هبى واقشعى هذا السحاب المتراكم الذى ارتفع ارتفاع الدخان ، وانتفش انتفاش العهن ، فحجب الشمس ، وحصر الأفق ، وأحر الأرض ، ثم لا نجد من ورائه مطرا يدفع الجدب ، ولا ظلا يمنع الحرور !

هبى يا رياح الخريف هبى ! . . هبى واقلعى ذلك النبات الدنىء الذى يتطفل على أشجار الوادى ، فيتغذى على أصولها ، ويتسلق على فروعها . حتى

إذا أدرك الهواء والضياء والرفعة ، التف بعساليجه وكلاليبه على أعاليها التفاف الأفعوان ، فيكظم أنفاسها فلا تبسم ، ويشل حركتها فلا تميس ، ثم يقول مشيراً بأطرافه الرخوة إلى كل عابر : انظر ! ألست أنا الأمير وهذا الشجر هو الفلاح ؟ وإذا لم يسخر الله لى الشجر فكيف أنمو ؟ وإذا لم يسخر الفلاح للأمير فكيف يسمو ؟

هبى يا رياح الخريف هبى ! . . هبى واعصفى بما ذكرت وما لم أذكر من زَبَد يقول إنه زُبْد ، وسراب يزعم أنه شراب ، وحطام مختلف من بقايا الشعوب والخطوب والعقائد والحضارات والأساطير يدعى أنه أمة !

ولكنك يا رياح الخريف تهبين كل عام بين وقدة الصيف وخبوة الشتاء فتكنسين ما تكنسين ، فإذا دارت الأرض دورتها الكبرى عاد كل شيء إلى حاله ، ورجع كل شخص إلى ضلاله ! فأية ريح إذن تستطيع أن تنسف ما نعانيه من فساد تأصل فى كل عمل ، وتغلغل فى كل أمر ، وتدخل فى كل حكم ؟ لعلها الريح التى أهلك الله بها عاداً الأولى فأهلك معها الطغيان والبهتان والكفر ؟

إنها الريح التى تصحبها الروح ، والرجفة التى يتلوها البعث ، والقِرّة[1] التى يعقبها الربيع !

---

(١) القرة : شدة البرد .

نهاية مأساة

(٢٩ أكتوبر سنة ١٩٥١)

وأخيراً أدركت مصر الرسمية بعد خمس عشرة سنة من سنى المهانة والاستكانة أن (المعاهدة) و (الاتفاقية) اللتين تربطانها بإنجلترا فى الشمال والجنوب إنما هما كلمتان من لغة السياسة حمّلهما الاستعمار ما حمل الديمقراطية والحرية والإنسانية والسلام والعدل من معانى المخادعة والمصانعة والمراءاة فجعلها من أسماء الأضداد فى لغة الخلق!

نعم ، أدركت مصر الرسمية اليوم ذلك ووعته بعد أن كابدت ما كابدت من عناد المستعمرين فى الحق وصلابتهم فى الباطل ومداهاتهم فى الرأى ، فألغت معاهدة سنة ١٩٣٦ واتفاقيتى سنة ١٨٩٩ . ولكن مصر الوطنية أدركت هدف انجلترا منذ نصبته فى ساحة عابدين سنة ١٨٨٢ وظلت تسدد إليه سهامها التى لا تطيش ، من كنائنها التى لا تفرغ ! وكان الرسميون يحاولون أن يستروا الضياء عن بصائر الوطنيين ليوهموهم أن هذه السهام صواريخ لهو وبهجة . وكان الوطنيون يجهدون أن يكشفوا الغطاء عن أبصار الرسميين ليفهموهم أن هذه الصواريخ قذائف دمار وهلكة ! وظل الأمر بين الجبهتين على هذه الحال سبعين سنة ، تفككت فيها العرى ، وتمزقت القوى ، وتفرقت السبل ، وتباينت الوسائل ، وتعارضت الغايات . واتخذ المحتل من هذا الخلاف الطويل الوبيل حقلا مصريا بذر فيه الفرقة وجنى منه السيادة ! ولم تجمع القوتان الرسمية والوطنية على إحراج العدو وإخراجه إلا فى اليوم الثامن من هذا الشهر ! وهذا الإجماع وحده هو الذى سيقذف ببقايا (دنكرك)[1] فى عرض البحر . ولن تستطيع انجلترا ولو كان معها ظهراؤها الثلاثة أن تثبت أقدامها

(١) إشارة إلى الهزيمة النكراء التى منى بها الإنجليز فى دنكرك من الألمان فى الحرب العالمية الثانية .

الرخوة فى ثرى النيل ما دامت مصر قد أجمعت على تطهيره منها . وليس للضآلة والقلة دخل فى حساب النصر ، فإن عشرين مليونا من البراغيث العزل جديرة بأن تقض مضاجع الجيش المسلح ! فكيف إذا كنا عشرين مليونا من الأنفس المؤمنة الصابرة التى لا تعرف فى يوم الجهاد ، إلا إحدى الحسنيين : النصر أو الاستشهاد ؟

إنا نجود على وباء من الأوبئة بقرابة المليون من الأرواح العزيزة ، فهل نضن بمليونين منها على الخلاص من وباء طال حتى أذل ، وانتشر حتى أقل ، واستشرى حتى برى الأجساد ، وهد القوى ، وأوهن العزائم ، وقطع العلائق ، وأفقر الأيدى ؟

كان احتلال الإنجليز لوادى النيل مأساة بشرية من نوع عجيب فى الطول والفصول والإخراج والتمثيل ! كانت من نوع القراقوز المبكى ، أخرجها الإنجليز المحتلون من وراء الكواليس ، ومثلها المصريون الرسميون على المسرح !

كانت الخيوط بيد العميد أو السفير يقلبها كيف يشاء ، والدمى الخشبية المصرية على مرأى من الشهود تتحرك ولا تعى ، وتتكلم ولا تفهم !

لقد كان مأساة مروعة دامية ! شهد بدايتها توفيق فصفق لمخرجها بيديه ، وشهد نهايتها فاروق فركلهم بقدميه !

لم يبق بعد إضراب الممثلين وإنكار المتفرجين إلا أن نطرد الفرقة ونقوض الملعب !

ماذا بعد هذا ؟

(١٠ ديسمبر سنة ١٩٥١)

الأمر بيننا وبين الإنجليز يجل عن الكلام والكتابة . وما جدوى اللسان العربى فى السمع الأعجم ؟ وما غناء القلم الأجوف فى الفؤاد المصمت ؟ هذه دماؤنا تهرق ، وأرواحنا تزهق ، وأرزاقنا تنهب ، وشوكتنا تستلان ، وكرامتنا تمتهن ، وعزتنا تستذل ، وأرضنا تحتل ، فهل يدفع عنا بعض أولئك أن نخطب حتى يجف الريق ، وأن نكتب حتى ينفد المداد ، وأن نحتج حتى تنقطع الحجج ؟ إن الشعب الذى لا يقابل التعدى إلا بالاحتجاج ، ولا يعارض التحدى إلا بالشكوى ، ساقط من حساب هيئة الأمم المتحدة ، لاتقيم له وزنا ، ولا تقدر له قيمة .

إن الإنجليز فى تاريخهم المظلم المجرم لم يصيخوا إلى صوت الضمير ، ولم يحفلوا بشرف الوفاء ؛ إنما هم قوم نفعيون عمليون لا يقدمون غير المنفعة ولا يسلمون إلا بالواقع . فإذا وصفناهم بما ميزهم به الله من نذالة النفس وسفالة الطبع وبلادة الحس ولؤم السياسة وخبث النية ، قالوا فى صفاقة الخنزير ودناءة الكلب : ليس هذا فى الموضوع ! أجيبوا عن العمل بالعمل ، وردوا على القوة بالقوة !

كنت فى غلوا ، الشبيبة حين غضبت مصر غضبتها الأولى على هؤلاء البرابرة الحمر سنة ١٩١٩ ؛ وكنت يومئذ مدرسا بالمدرسة الإعدادية الثانوية ؛ والإعدادية والحقوق كانتا أول المدارس التى أيقظت وعى الأمة ، وأوقدت نار الثورة ، وقادت كتائب الجهاد ، ومنهما تألفت اللجنة التنفيذية للطلبة . وكانت الحال التى وجدتها الحماية المفروضة تقتضى الكلام والكتابة . كان السلطان والحكم والجيش والشرطة والصحافة فى أيدى الإنجليز ، فلم يكن لنا من سبيل

بين الضغط والقهر والإرهاب إلا أن نجتمع فى المساجد والمعاهد نقول فى العلن ما لا ينشر ، ونكتب فى السر ما لا يقال . وكان نصيبي من الجهاد المقدس أن أحبر المنشورات السرية لمن يوزع ، وأن أحرر الخطب العلانية لمن يلقى . ثم زادنى الله نفسا فى أجلى فأنا أشهد اليوم غضبتنا الثانية تتسعر فى الشباب والشيب ، وتتنمر فى الشعب والحكومة ، وتتوغر فى المدن والريف ، فلم أجد حاجة إلى أن أقول ، ولا ضرورة إلى أن أكتب . وماذا يقول القائل والوعى يقظان والرأى جميع ؟ وماذا يكتب الكاتب والشعور محتدم والعزم راسخ ؟

كل يد تطلب السلاح ، وكل نفس ترجو التضحية ! حتى أنا وقد نيفت على الستين أصبحت أجد القلم فى يدى هناة لا تنفع ، والكلام على لسانى هراء لا يفيد . إنما أود — وماتغنى الودادة — لو أكتب بالسنان وأتكلم بالمدفع !

إن اللغة التى يفهمها طغام الاستعمار ، جعل الله حروفها من حديد وكلماتها من نار . فدعوا الشعب يا أولياء أمره ، يعبر للعدو عن غضبه بهذه اللغة . وإياكم أن تقيموا السدود فى وجه السيل ، أو تضعوا القيود فى رجلى الأسد ، أو تلقوا الماء فى فم البركان ! فإن غضب الشعوب كغضب الطبيعة ، إذا هاج لا يُقدع ، وإذا وقع لا يدفع .

لقد حملنا حتى فدحنا الحمل ، وصبرنا حتى مللنا الصبر ! والصبر فى بعض الأحيان عبادة كصبر أيوب ، ولكنه فى بعضها الآخر بلادة كصبر الحمار ؟

سبعون عاماً !

(٢٤ ديسمبر سنة ١٩٥١)

نعم ، سبعون عاما طوالا ثقالا لبثناها تحت نير الاحتلال ، نحرث وهو يسوق ، ونزرع وهو يحصد !

ما كان أصبرنا على النار ! وما كان أرضانا بالذل والصَّغار ؟

كنا نصبر لأن قلتنا كانت لضعفها لا تستطيع . وكنا نرضى لأن كثرتنا كانت لجهلها لا تدرى . والضعف منذ كان سبيل المستأسد إلى الافتراس . والجهل منذ كان دليل المستعمر إلى الفريسة . وهل تنكر طبيعة الحيوان أن يلتقم الحوت الشَّبوط ، أو يلتهم الأفعوان الأرنب ؟ أم تنكر مدنية الإنسان أن أن يستذل الأمريكان السود ، أو يستغل الإنجليز الهنود ؟ تلك سنة الله فى الخلق ، لا يبدلها دين ولا يعدّلها علم ولا يعطلها مدنية .

سبعون عاما طوالا ثقالا قضيناها تحت سلطان الدخيل الباغى ! نعمل ولا نريد ، وننتج ولا نستفيد ! وكان مصدر سلطانه الطاغى أن له ظلا كثيفا يحجب النور ، وزفرا خبيثاً يضعف الشعور ، وإشعاعا وبيئا يسمم الحياة . فلما أراد الله لظله الثقيل أن يخف ، ولزفره الوبيل أن يقل ، ولإشعاعه المميت أن يتراجع ، نفذ إلينا ضوء العلم فرأينا ، ورف علينا روح الأمل فتقوينا ، وأصبحنا نحن أبناء العرب الذين فتحوا الأرض ، وحفدة الفراعين الذين مدنوا الناس ، وجها لوجه أمام أبناء القراصين الذين لم يروعوا إلا التجار ، وحفدة الصيادين الذين لم يفزعوا إلا الأسماك ، نقارعهم بالحجة فى مجالس الرأى فنقرعهم ، ونصارعهم بالقوة على ضفاف القنال فنصرعهم . فإذا أقلقهم الخوف ، وأرهقهم الجزع ،

تخطفهم الموت ، سلطوا آلات الدمار على البيوت الآهلة ، وأطلقوا قذائف النار على الجموع الغافلة ؛ حتى إذا نهض لإغاثة الأهلين رجال الشرطة ، وعددهم لا يربى على المائتين ، وسلاحهم لا يزيد على البنادق ، زحف عليهم عشرة آلاف من آكلى البفتيك وشاربى الوسكى ، تتقدمهم مئات من الدبابات والمصفحات ، وتصحبهم آلاف من المدافع والرشاشات ، وتعلوهم أسراب من النفاثات القاذفات ؛ ثم يعود الأبطال من المعركة (الشمواء) وقد امتقعت الوجوه الحمر ، وانقطعت القلوب السود ، تتقدمهم سيارات الصليب تنقل الجرحى ، وتصحبهم ناقلات الجيش تحمل القتلى ، وتعلوهم غبرات الخزى تغشى الجباه ! ويرجع رجال الشرطة إلى أقسامهم متهللين مختالين يقولون فى عجب ودهش وسخرية: أهؤلاء هم الذين جثموا على صدر الوادى سبعين عاما جثوم الكابوس المهلك لا يتحلحل ولا يريم ؟ وقد رأيناهم عن عيان ، وعلمناهم عن يقين ، ندرك الحكمة فى أنهم منعوا جيشنا السلاح والتدريب ، وحرموا شعبنا العلم والتهذيب ؛ فإنهم لا يسودون إلا فى الجهل ، ولا يستفيدون إلا من الضعف ، فإذا ابتلاهم الله بأمة مؤمنة صابرة قوية مستعدة ، تكشف سترهم ، وتفضح سرهم ، حاولوا عداوتها بالمعارضة ، ثم حاولوا صداقتها بالمفاوضة ثم هجموا عليها بالدهاء والرجاء والمصانعة . فإذا لم يغن عنهم كل أولئك سلموا لها بالأمر الواقع. فترضى العجوز الشوهاء أن تأكل من فضلات باكستان ، وأن تريق ماء وجهها الدامى فى سبيل حصة من زيت إيران !

الرسالة والدعوة

(٧ يناير سنة ١٩٥٢)

تستقبل الرسالة بهذا العدد عامها العشرين وهى تحمد الله على أن فسح لها فى العمر حتى رأت أكثر ما دعت إليه يتحقق .

رأت الوحدة بين أمم العرب فى الشعور والهوى والرأى والأمل والغرض قد تمت بفضل الصحافة والأدب . فهم يتآلفون فى القرب ، ويتعاطفون فى البعد ، ويتناصفون فى الخلاف ، ويتحالفون فى الكريهة ، ويشد بعضهم بعضا فى مجاهدة العادى ومجالدة الباغى . والوحدة بين دولهم توشك أن تبلغ التمام لولا مايعوقها الحين بعد الحين من وساوس يلقيها شيطان خادع من الإنجليز فى صدر إنسان مخدوع من العرب ! ووسوسة الشيطان ، لا تبقى مع الإيمان ، وإيمان العرب بربهم وبأنفسهم قواه الوعى حتى غلب على إيمانهم بأصنام السياسة وطواغيت الحكم فهيهات بعد اليوم أن يستكينوا لزعيم متهم ، أو يستنيموا لخصيم مخاتل !

ثم رأت الرسالة فيما رأت تباشير الجامعة الإسلامية تلوح فى أفق باكستان ولن تلبث هذه التباشير أن تسفر فى آفاق الشرق المحمدى كله ، فيتصل نور بنور ، ويمتزج شعور بشعور ، وتتحد قوة بقوة . ولباكستان إذا تكاملت العربية خطر خطير فى مستقبل الأمة الإسلامية . إنها قبلة رجاء الإسلام كما أن مصر قبلة رجاء العروبة . وهى للمسلمين خير العوض من تركية الذاهبة !

وأجمل ما رأته الرسالة فى سنواتها القريبة انبعاث الإسلام الصحيح الخالص فى قلوب المثقفين من أهله . كان الإسلام منذ ضعف فى العالمين سلطانه

واستعجم على أشباه المسلمين قرآنه ، قد أصبح رسما محيلا فى قلوب بعض ، وصورة شوهاء فى أذهان بعض . فالخاصة قنعوا بمظهره ، ثم جعلوا شرعهم غير شرعه ، ودستورهم غير دستوره ، وقبلتهم غير قبلته . والعامة عبثوا بجوهره ، فقلبوه صوفية حمقاء خرقاء لا صلة بين شعوذتها وعباداته ، ولا نسبة بين سلبيتها ومعاملاته .

وكانت (الرسالة) منذ حملت أمانة الدعوة إلى السبيل التى عناها الرسول الأعظم بقوله : « تركتكم على الواضحة ، ليلها كنهارها ، لا يزيغ عنها بعدى إلا هالك » ما فتئت تذكر المسلمين بأنهم الأمة الوسط التى نزهها الله عن مادية اليهود وصوفية الهنود ورهبانية النصارى ، « وأن دينهم مصحف وسيف ، وشرعهم دين ودنيا ، وتاريخهم فتح وحضارة ، وحربهم جهاد وشهادة ، وزعامتهم خلافة وقيادة ، وحياتهم عمل وعبادة[1] » حتى أراد الله لدينه أن يستبين ولطريقه أن يتضح ولحبله أن يتجدد ، فتألفت جماعة من المسلمين على موثق الدعوة الكبرى ، وأخذوا يدعون إلى الله على بصيرة . فى إيمانهم المصحف المعقل . وفى شمائلهم السيف للهوى ؛ ويحاولون أن يبعثوا فى الهيكل الواهن المنحل روح الإسلام الفتية القوية التى نقلت البدو الجفاة الحفاة من بوادى الجزيرة وكانوا رعاة غنم ، إلى حواضر الدنيا ليكونوا قادة أمم .

هؤلاء المسلمون الذين يسمون أنفسهم رهبان الليل وفرسان النهار ، هم وحدهم الذين يمثلون فى هذا المجتمع الممسوخ عقيدة الإسلام الخالص ، وعقلية المسلم الحق .

إنهم لا يفهمون الدين على أنه صومعة منعزلة ، ولا الدنيا على أنها سوق منفصلة ؛ وإنما يفهمون أن المسجد منارة السوق ، وأن السوق عمارة المسجد .

---

(١) افتتاحية الرسالة لعدد ٥ يناير سنة ١٩٤٨ .

وكيف تفترق الروح عن الجسد إلا في الموت ، وينقطع الهادى عن الركب إلا في الضلال ، وينفصل الدين عن الدنيا إلا في الكفر ؟ لذلك كان لهذه الجماعة في الإرشاد لسان ، وفي الاقتصاد يد ، وفي الجهاد سلاح ، وفي السياسة رأى .

وهم لا يؤمنون بالحدود السياسية والجغرافية في وطن الإسلام الأكبر ! إنما يبسطون تآخيهم على كل رقعة من الأرض يذكر فيها اسم الله . فلهم في كل بلد من البلاد العربية اتباع ، وفي كل قطر من الأقطار الإسلامية أشياع . وبفضل هذه الروح القدسية المحمدية التي بثتها الجماعة في العالم الإسلامى بالدعاية والقدوة ، دبت فيه الحرارة ، وغلا به النشاط ، واستولى عليه القلق وعصفت به الحمية ؛ فهو يثور على المستعمر ، ويتمرد على المستبد ، ويتنكر المفسد . وما يقظة الوعى العام في مصر والسودان ، وفي العراق وسورية ، وفي اليمن والحجاز ، وفي الجزائر ومراكش ، إلا شعاع من هذه الروح سيكون له بعد حين نبأ !

أما الجماعات الدينية أو الصوفية التي لا تفهم من الإسلام إلا أنه أوراد تتلى ، وأذكار تقام . ولحى تعفى ، وشوارب تحفى ، وعذبات ترسل ، فهى من الشوائب المخدرة السامة التي علقت بالإسلام حين صده الجهل والضعف عن سبيله ، فتراجع فيضه وسكن تياره ، والماء إذا ركد تأسن وفشت فيه الجراثيم . ودعوة هذه الجماعة عسية أن تزيل حواجز الباطل من وجه التيار ، وأن تنقى مشارع الحق من هذه الأكدار .

كذلك رأت الرسالة في عامها المنصرم مظهراً من مظاهر الوعى الإسلامى تجلى في ثلاثة أحداث جسام روعت الساسة وفزّعت الجيوش وشغلت المجالس : تأميم البترول في إيران ، وإلغاء المعاهدة الإنجليزية في مصر ، وقيام الدولة العربية الثامنة

فى ليبيا ! شىء جديد فى حياة العرب والمسلمين لم يكن لهم به فى التاريخ الحديث عهد !

من كان يظن أن إيران تصفع قذال الأسد ، وأن مصر تبصق فى وجهه ، وهما الدولتان اللتان خضعتا طويلا لنفوذه خضوع العبد لوليه ، أو القاصر لوصيه ؟ لقد مزقت الدولتان عرض (جون بول) يوم مزقت الأولى عقد الاستغلال ، ومزقت الأخرى عهد الاحتلال . ولم تمزقهما الدولتان بقوة الجيش وسلاحه ، وإنما مزقتهما بإرادة الشعب وكفاحه ! إنه الروح الذى أرهب الموت ! وإنه الوعى الذى أذهب الغفلة !

هذه بسمة الأمل فى أول العام عبرت عنها بهذه الكلمة شكراً لله على تحقيقه ، وطلباً للمزيد من عونه وتوفيقه .

فدائيون وأنانيون

(٢٨ يناير سنة ١٩٥٢)

ما أشبه بنى آدم بنبات الأرض ! يتفق فى التربة والغذاء والجو ، ويختلف فى اللون والطعم والمزية . فى الحقل الواحد تجد الطيب والخبيث ، والحلو المر ، والنافع والضار ، والصلب والهش ، والمستقيم والمعوج ، والمنتج والعقيم . وهذا الاتفاق وذلك الاختلاف تجدهما فى بنى الإنسان على أوضح صورة . هانحن أولاء ، طينتنا من ثرى الوادى ، وغذاؤنا من خير النيل ، وهواؤنا من جو مصر ؛ ولكن فينا من يؤلم ولا يلذ كالعوسج ، ومن يروق ولا يثمر كالصفصاف ، ومن يضر ولا ينفع كالهالوك ، ومن يرتفع ولا يستحق كالعليق. أما المصطفون الأخيار فهم كالفواكه والرياحين قلة قليلة . . منا العيون التى تتجسس للعدو ، والأيدى التى تعمل مع العدو ، والألسن التى تدعو إلى العدو. ومنا الأوغاد الذين يقضون أيامهم اللاهية عكفا على الفحش ينفقون أموالهم التى استقطروها من الفلاح ودمه ، فى الخمر والقمر والنساء ، وأبناؤنا الشباب يقاتلون العدو وجها لوجــه وهم جياع ! ومنا الأنذال الذين كسبوا المال وخسروا الشرف ، وشروا الجاه وباعوا الضمير ، فظلوا بيننا تماثيل للؤم والبلادة، يسمعون عن فظائع الفدائيين فى القنال ، وكأن القنال ليس من أرض الوطن ، وكأن الفدائيين ليسوا من شباب الأمة ! أما البررة الأطهار فهم صفوة الخير المغلوب بين هذا الشر الغالب ! هم أولئك الشباب الجامعيون الذين نذروا دماءهم الزكية لله ولمصر . يَقتلون مستبسلين ، ويُقتلون مستشهدين ، لا يبتغون عَرَض الحياة لأنهم يستقبلون وجه الموت ، ولا يطمعون فى جزاء الدنيا لأنهم يقنعون بثواب الآخرة .

هم أولئك الفدائيون المترفون الذين ربأوا بوطنهم أن يُحتل ، وبشعبهم أن يذل ، فزهدوا فى نعيم العيش ، ورغبوا عن سلام الأمن ، وعاشوا مع الفلاحين فى قرى القنال ، يطعمون أغلظ الطعام ، ويشربون أكدر الشراب ، ويفرشون أخشن الفرش ، ويستعيضون عن العطور والدهن بالشحم يطلون به أجسادهم المرهفة ليقيها برد الماء وقر الشتاء ، ثم يكمنون للعدو الباغى عراة فى قنوات الحقول وأخاديد الأرض ؛ حتى إذا شاء القدر أن يسخر من الإمبراطورية العجوز ، ساق قطيعاً من أغنامها الحمر إلى الجزرة الفدائية الجائعة ، فيلتقى الإيمان والكفر ، والشجاعة والجبن ، والفداء والأثرة ، وتغلب الفئة القليلة الفئة الكثيرة بإذن الله ، فيفزع (أرسكين)[1] ، ويجزع (تشرشل) ، وتسيل شوارع المدن ومسالك القرى بالدبابات والمصفحات والجنود ، ثم تكون عاقبة هذا الجيش العرمرم والعتاد الضخم هزيمة مخزية تشبه الصفعة على القفا العريض ، أو البصقة فى الوجه الصفيق !

هؤلاء المجاهدون الأبطال الذين زعزعوا باطل انجلترا وأيدوا حق مصر ، لا يرجون من قومهم غير السلاح ! فهل يستجيب أغنياؤنا الطاخون لهذا الرجاء؟ إنك لا تحيي الموتى ولا تسمع الصم الدعاء ؟

(١) قائد الجنود الإنجليزية فى القنال ، وتشرشل رئيس الحكومة الإنجليزية فى لندن .

رسالة وصورة

(٢٥ فبراير سنة ١٩٥٢)

يحلو لى أن أهرب أحيانا من زمنى الحاضر لإثقاله أو إملاله ، فارجع إلى ذكرياتى أجتر منها ما ألذ ، أو إلى مذكراتى أقرأ منها ما أحب :

وفى هذه الساعة التى أكتب فيها الرسالة شعرت بضيق فى الصدر والفكر ، فألقيت بالقلم وقلت لنفسى : دعى الكتابة اليوم وتعالى نتفرج من هذا الهم برجعة إلى دنيا الماضى فلعل فى أصدائها الباقية ما يؤنس هذه الوحشة . وتذكرت أن شهر يناير قد عودنى الجميل فيما مضى من عمرى ، فقد سجلت فيه أكثر ضحكات القلب ، وحسبى منها ميلاد ولدىّ : رجاء والرسالة .

فتحت مذكراتى عن صفحات هذا الشهر ، فوجدتنى قد كتبت فى يومه العاشر من عام ١٩٥٠ هذه السطور :

«ألقى البريد الجوى إلى فى صباح هذا اليوم غلافاً من العراق على ورقه طابع الذوق ، وعلى خطه سمة الظرف . فلما فضضته وجدت فيه رسالة وصورة . قرأت الرسالة والإمضاء ، ثم تأملت الصورة والإهداء ، فإذا هما لآنسة من أوانس بغداد المثقفات ، قد أولعت بالأدب وأغرمت بأهله . ثم عدت أقرأ ، وعدت أتأمل . وطال تردد البصر والفؤاد بين الصورة وهى رسالة الجسم الجميل ، وبين الرسالة وهى صورة الروح النبيل ، حتى غاب حسى فى سكرة من سكرات الأحلام ، تراءت لى فى خلالها أطياف من تعاجيب الهوى والشباب ، تتراقص نشوى فى أزقة (الوزيرية) و (رأس القرية) من مغانى بغداد العزيزة . وكلما عاد الحس أو كاد ، نظرت إلى الفم الحلو الذى يريد أن يبتسم ، وإلى الطرف الأحور الذى يهم بأن يقول ، وإلى الشعر المغدودن الفاحم الذى يسيل على الأذنين وأطراف

الخدين فيجعل الوجه كله صورة من الفتنة ، فتعود إلىّ الغفوة ، وأعود انا إلى الحلم !

وأخيراً تخلصت قليلا من سحر الصورة لأرى صاحبتها الأديبة تقول أول ما تقول: « أعتذر إليك من الكتابة والإهداء على غير تعارف .. » ولم يخل اعتذارها الصريح من احتجاج ضمنى على العرف الذى يفرق فى مثل هذا الصنيع بين الرجل والمرأة . فلو أنها كانت فتى كما تقول لما وجدت فى الكتابة إلى مثلى ما يُعتذر منه. ثم تحدثت طويلا عن صلتها بالرسالة وحرصها على أن تقرأ كل ما أكتب . وخصت بالذكر رثائى للشاعر المرحوم على محمود طه ، وخرجت من ذلك إلى الكلام عن شاعريته وعبقريته . ثم طلبت إلىّ آخر الأمر أن أخصص لتأبينه عدداً من (الرسالة) أكتب أكثره ! كل أولئك فى أسلوب رقيق دقيق يوحى أكثر مما يعبر ، ويمتع أكثر مما يقنع . ولم أكد أستوعب الرسالة بفكرى ، وأناقش موضوعها فى سرى ، حتى تناولت القلم وفتحت الألبوم وأجبت عن الرسالة برسالة ، ورددت على الصورة بصورة ! ولكن هيهات وا أسفاه ! لن تجيب رسالة عقل عن رسالة قلب ، ولن ترد صورة قبيحة على صورة (مليحة) .

ما أيسر السعادة على ابن آدم لو يدرى أو لو يريد ! إن كلمة من قلب مفتوح ، أو إن بسمة من شفة بريئة ، أو نظرة من عين حبيبة ، أو فقرة من رسالة شاعرة ، أو قسَمة من صورة فاتنة ، لتستطيع أن تنير ما أظلم من قلبه ، وأن تفرج ما اشتد من كربه ! إن السعادة فتات وفترات ، فلا تكون فى واحد صحيح ، ولا تدوم فى زمن متصل !

تحية للشيخ الرئيس ابن سينا

بمناسبة الاحتفال بذكراه الألفية

(٢٤ مارس سنة ١٩٥٢)

فى هذا الأسبوع ، وفى بغداد عاصمة العلم القديمة ، يحتفل العالم الإسلامى بالذكرى الألفية لمولد الطبيب الرياضى العالم الفيلسوف أبى على الحسن ابن سينا واحد فقه فى الشرق والغرب ، ونادرة عصره فى الطب والحكمة ،وأحد العباقرة العالميين الذين رفعوا قواعد العلم،ونهجوا سبل المعرفة ،ووصلوا ما انقطع من تسلسل الفكر الإنسانى بين الفلسفة الإغريقية القديمة ، والفلسفة الأوربية الحديثة .

ولد أبو على سنة ٣٧٠ هـ فى قرية من قرى بخارى كان أبوه عاملا عليها للأمير نوح بن منصور السامانى . ثم توفى سنة ٤٢٨ بهمذان إحدى مدن إيران كان قد وفد إليها على الأمير علاء الدولة البويهى ، فكان ظمء حياته على هذه الأرض ثمانية وخمسين عاما قضى أكثرها فى الاضطراب والاغتراب والنفى والسجن والخوف والشهوة والمرض ، ومع كل أولئك استطاع أن يكون بحر العلم الزاخر فى وقته ، وبدر العلماء الزاهر فى جيله ، فقرأ كل كتاب وانتفع منه ، وحذق كل علم وزاد فيه ، وألف مائة سفر فى الطب والفلسفة والمنطق واللغة والموسيقى والرياضيات والطبيعيات والإلهيات والأساطير. وكان أول عالم ظهرت فى علمه الفلسفة الكلامية على أتم ما كانت من الدقة والسعة والوضوح . ثم كان هو والبيرونى الغاية التى لم يكن وراءها مذهب للفكر فى القرون الوسطى : هو بدقة نظامه وبراعة فهمه ، والبيرونى بقوة ملاحظته وسعة علمه .

رُبى ابن سينا منذ الخامسة من عمره تربية علمية منظمة ، فحفظ القرآن وثقف الأدب وشدا شيئا من الحساب والفقه . ثم سمع فى محاورة أبيه لأخيه وهما شيعيان كلاما فى النفس والعقل ، وإشارة إلى الفلسفة والهندسة ، فصبت نفسه إلى علم ذلك . وورد يومئذ بخارى أبو عبد الله الناتلى فأقرأه فى المنطق إيساغوجى ، وفى الرياضة المجسطى ، فكان الأستاذ يقف عند المبادىء والظواهر ، والتلميذ يغوص على المسائل فيستخرج الدقائق ، ويمحص الحقائق ، ويبصر المعلم بما لم يبصر . ثم رغب فى علم الطب فتلقى أصوله على أبى سهل المسيحى ، واستقصى فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه . كل ذلك وسنه على ما قال هو نفسه لم تتجاوز السادسة عشرة ، ثم أبرأ الأمير نوح بن منصور من مرض برَّح به ، فقربه إليه وأذن له فى الدخول إلى دار كتبه ، وكانت عامرة بنوادر الأسفار فى كل علم وفن ، فوعى ما فيها من كتب الطب والفلسفة وما بعد الطبيعة على ظهر قلبه . ثم أصابتها النار عمدا منه(١) أو خطأ من القدَر فلم تبق منها على ورقة فانفرد الشيخ بكنوزها المخبوءة فى صدره ، وكانت هذه النكبة العلمية من مزاياه على غيره !

ثم توفى أبوه وضعف شأن أميره فاضطربت به الأحوال ، وتدفقت عليه الأهوال ، فخرج وهو فى الثانية والعشرين من عمره إلى قصبة خوارزم فأقام بها يسيرا فى كنف أميرها على بن مأمون . ثم غادرها إلى جرجان فثقف بعض الناس ، وألف بعض الكتب . ثم انقلب إلى همذان فوزر لشمس الدولة بن بويه . فلما توفى هذا الأمير وخلفه ابنه تاج الدولة صرفه عن عمله ، ففرغ للبحث والتأليف ، وصنف فى هذه الفترة أعظم كتبه . ثم نشب الصراع بين أمير همذان وأمير أصبهان فاتهم بالدعاية إلى علاء الدولة . وطلبه تاج الدولة فاختبأ فى حانوت صيدلى حتى وقعت العيون عليه فسجنه فى إحدى القلاع . وأنشأ فى ذلك قصيدة منها هذا البيت :

(١) قيل إنه أحرقها لينفرد بعلم ما فيها .

دخـولى باليقين كما تراه وكل الشك فى أمر الخروج

وظل فى السجن أربعة أشهر حتى استطاع أن يفر متنكرا فى زى الصوفية إلى علاء الدولة بأصبهان فأقام فى حماه وادع النفس ، يؤلف ويختصر ، ويحاضر ويناظر ، ويعترض ويجيب . واتفق ذات ليلة أن جرى فى مجلس الأمير حديث فى اللغة شارك فيه ابن سينا ، وكان أبو منصور الجبان حاضرا ، فأنـكر عليه أن يتـكلم فى غير علمه ، فأنف الشيخ من هذا الإنـكار وعكف على دراسة اللغة ثلاث سنين حتى بلغ منها موضعاً جليلا أهله لأن يؤلف فيها كتابا سماه لسان العرب لم يؤلف مثله قبله أحد ! وهكذا انقضت تلك السنين الأربع والخمسون فى عمل لا يفتر ، وسعى لا يني ، وعذاب لا يرحم ، وصراع لا يهادن ، وحظ لا يساعده وولوع بالنساء لا يهدأ ، ونزوع إلى الشراب لا يكف ، حتى وهن الجسم القوى ، ووهى العزم الشديد ، ونزلت بالنطاسى العظيم علة نـكل عنها تدبيره وطبه .

* * *

كان الشيخ الرئيس برد الله ثراه آية من آيات الله فى لقانة الذهن وأصالة العقل وقوة الحافظة ونفاذ الهمة : أكثر علمه من اجتهاده ، وأنجع طبه من تجاربه ، وأجل كتبه من حفظه . وكان على استبداد عقله بفـكره ، وطغيان علمه على فنه ، صاغى القلب للدين ، صافى النفس للشعر ، سامى الخيال للقصص . كان إذا أعيت عليه مسألة ذهب إلى المسجد فتوضأ وصلى وابتهل إلى الله أن يجلو عليه ما غمض ويفك له ما أشكل . ثم كان له فى الشعر العينية ومقطوعات أخرى من النمط الرفيع والنسق الفريد ، وفى الأساطير (سلامان) و (حى بن يقظان) و (الطير) وهى رموز لمعان سامية من الحـكمة العالية والروحية الجميلة . وكان فى الشيخ رحمه الله صوفية لا تجرى على منهاج المتصوفة : صوفية هؤلاء وجدانية تقوم على الزهد والتقشف ، وتقصد إلى تصفية القلب وتطهيره ؛ وصوفيته هو عقلية

تبيح النعيم واللهو وترمى إلى تقوية العقل وتنويره . وكان أعظم ما يميز الشيخ اليقين فيما يرى ، والثقة فيما يقول ، والإبانة فيما يكتب . كان لا يشك إذا علم ، ولا يتردد إذا فهم ، ولا يتحسس إذا استبان . وتلك طبيعة العالم لا الفيلسوف ، والدارس لا الباحث ، والمتبع لا المبتدع ، والمؤلف لا المنشئ .

هذه أثارة من حياة حافلة ، وإشارة إلى مجد باذخ ، وعبارة من تاريخ ضخم . ذكرناها على هذا الإيجاز القاصر اكتفاء بما سيلقيه ذوو الاختصاص فى حفلات مهرجانه من البحوث المفصلة فى طبه ، والخطب المطولة فى فلسفته . وإنا لنحيي خاشعين من وراء الستر ذكرى الشيخ الرئيس ، ونسأل الله ضارعين أن ينعم روحه فى الخلد ، وأن يطيب ذكره فى الخلود .

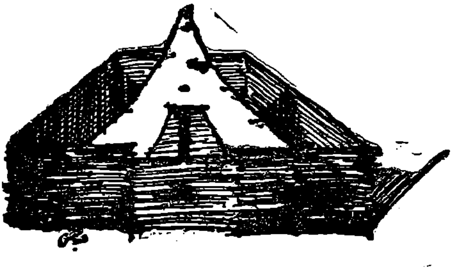

الكتلة الإسلامية

(٢٤ أبريل سنة ١٩٥٢)

كتب إلى كثير من قراء الرسالة يسألوننى عن رأيى فى الكتلة الإسلامية التى تدعو إليها باكستان و(الإخوان) ، ويستوحش من ناحيتها لبنان و(الشبان) ، فلم أجد جوابا عما يسألون خيراً من كلمة كتبتها منذ خمس سنين فى الرسالة جاء فيها :

إن الجامعة الإسلامية هى الغاية المحتومة التى ستتوافى عندها الأمم الإسلامية فى يوم قريب أو بعيد . ذلك لأنها النظام السياسى الذى وضعه الله بقوله : « إنما المؤمنون إخوة » : ثم شرع له الحج مؤتمراً سنويا ليقوى ، وجعل له الخلافة رباطا أبديًا ليبقى . وهذا النظام الإلهى أجدر النظم بكرامة الإنسان لأنه يقوم على الإخاء فى الروح ، والمساواة فى الحق ، والتعاون على الخير ، فلا يفرق بين جنس وجنس ، ولا بين لون ولون ولا بين طبقة وطبقة .

وظلت الجامعة الإسلامية فى ظلال إمارة المؤمنين وإمارة الحجيج قوية شاملة حتى خلافة المتوكل . ثم وهى السمط فانفرط العقد ، واضطرب اللسان فتفرقت الكلمة . فلما تبوأ الترك عرش الخلافة استطاعوا أن يبرموا الخيط ، ولكنهم لم يستطيعوا أن ينظموا فيه الحب . فبقى المسلمون عباديد لا يجمعهم نظام ولا تؤلف بينهم وحدة . ثم أدركت الشيخوخة دولة العثمانيين فى أواخر القرن التاسع عشر فتعاوت على جسدها المنحل ذئاب الغرب ، فلوح لهم عبد الحميد بالجامعة الإسلامية ذيادا عن ملكه فهروا هرير الكلاب المذعورة ، وصور لهم هذا الذعر أن الجامعة هى التعصب وسفك الدماء ، فصدقوا وهمهم وكذبوا الواقع . وكان الاستعمار قد توقح وفجر ، فنشأت العصبية الوطنية فى الأقطار الإسلامية لدرء

خطره أو تخفيف ضرره . والوطنية لا تعارض الجامعة ، ولكنها تفارقها في الطريق لتلاقيها عند الغاية .

إن أوربا التي مزقتها الأطماع وطحنتها الحروب سترحب اليوم بالجامعة الإسلامية ، لأنها هي وحدها التي تملك غرس الوئام في النفوس وإقرار السلام في العالم . إنها تقوم على الإيمان المحض ، وتنزل في خير مكان من الأرض ، وتشمل مئات الملايين من الناس ، وتهيمن على الموارد الأولى للاقتصاد ، وتدين بالآداب السماوية المثلى للاجتماع ، وتشرق أعمالها في الصفحات العظمى من التاريخ . فمن المحال أن تظل نهبا مقسما بين فرنسا الحمقاء ، وإنجلترا المتطفلة ، وهولندة الأنثى !

أما الشبهات التي تطير هنا وهناك حول الكتلة الإسلامية فقد طار أمثالها من قبل حول جامعة الدول العربية لأن (إيدن) أوحى بها ، وحول الدولة الباكستانية لأن (مونتباتن) سعى لها ، ثم جلا الزمن الشكوك ، ومحص الوعي الحقائق ، فذهب إيدن وبقيت جامعة العرب ، واختفى مونتباتن وسطعت دولة الإسلام .

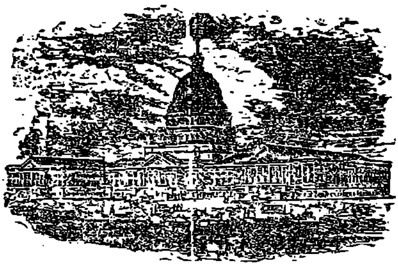

واحسرتاه على عزيز !

(١٢ مايو سنة ١٩٥٢)

أشهد لقد أصابني ما يصيب الحي من فجائع الموت ، فحزنت حزن المفجوع ، وبكيت بكاء الموجوع ؛ ولكن فجيعتين بعد فجيعتي في ولدي ، أشعرتاني لوعة من الحزن لم أجدها في فجيعة من قبل : فجيعة الأمس في علي طه ، وفجيعة اليوم في عزيز فهمي !

لا أستطيع أن أصف لك هذا اللون من الحزن على وجه الدقة ؛ لأنه نادر الحدوث في القلب فهو غريب ؛ ولأنه عميق الأثر في النفس فهو غامض . إنه ذهول يتخلله وعي ، وأسف تخالطه حسرة ، وحرقة يغالبها دمع ، وذكرى يساورها قنوط ، وسخط يكفكفه إيمان .

جاءني على غير انتظار ولا توقع أن زين الشباب عزيزاً أدركه الموت الأسود[1] وهو في طريقه إلى نصرة الحق وخدمة العدالة ، فأخذني أول الأمر وجوم كوجوم المبهوت ، فيه الدهش والشك والتبلد والحيرة . ثم تكرر النبأ الفاجع في صيغ شتى ، فانجلى البهت رويداً رويداً ، حتى تمثل لعيني الخطب الجلل على أبشع صوره وأفظع معانيه . تمثل لي مصاب نفسي في الخلق الرضي والطبع الحيي والفؤاد الذكي والإخاء المؤاسي والوفاء المضحِّي ، فجزعت جزع الإنسان يرى قوة من الخلال الكريمة تفنى ولا تخلف . وتمثل لي مصاب وطني في المحامي الوثيق الحجة ، والخطيب الحافل الذهن ، والنائب الشجاع القلب ، والشاعر السمح القريحة ، فجزعت جزع المواطن يرى ثروة من المواهب العظيمة تفقد ولا تعوض .

---

(١) الموت الأسود هو الموت خنقاً أو غرقاً .

جزعت للانسانية لأنى أكاد لا أعرف من هذا الناس إلا آحاداً من طراز عزيز قد برهنوا بالفعل على أن الإنسان الذى يسفل فيكون شراً من شيطان ، يستطيع أن يعلو فيكون خيراً من ملَك. وجزعت للوطنية لأن هذا البلد البائس الذى يكابد سوء الأخلاق فى داخله ، ويجاهد شر الدول فى خارجه ، يفتقر فى محنته إلى أمثال عزيز ليرفعوا قيمة الفضيلة فى التعامل ، ويعظموا قدر الكفاية فى العمل .

عرفت عزيز فهمى فى بغداد سنة ١٩٣٢ ، وكان قد قدمها فى رحلة جامعية . لم أعرف بالطبع جميع أعضاء الرحلة ، وإنما عرفت عزيزاً وحده ، لأنه بارز فى شخصيته ، متميز فى خلقه . لم أكد يعرفنى حتى ارتاح إلى بأنسه ، وأخذ يسمعنى من شعره ، ويحدثنى عن أمانيه . ثم توثقت بينى و بينه أسباب المودة فآثرنى بحبه ، وآزر (الرسالة) بأدبه . ثم أنفق فى سبيل العلم والمجد زهرة عمره ونضرة شبابه ، حتى أصبح أديباً له أسلوب ، وفقيهاً له رأى ، ومحامياً له حجة ، ونائباً له صولة ، وسياسياً له صوت ، واجتماعياً له رسالة . وفى لحظة من لحظات الشؤم تنبه فيها قدر ، وغفل سائق ، وطاشت سيارة[1] ، ذهب كله كما يذهب الحلم ، وتبدد هذا كله كما يتبدد الشعاع !

---

(١) إشارة إلى غرق السيارة به وهو مسافر إلى إحدى مدن الصعيد فى قضية .

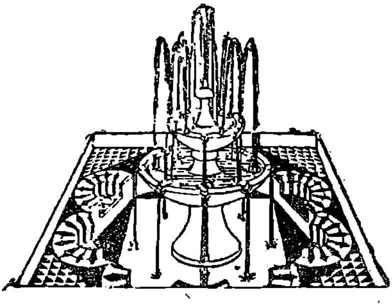

بعض الفقهاء !

(٢١ يولية سنة ١٩٥٢)

من مفاليك العامة جماعة انتسبوا إلى علماء الدين كما ينتسب الزُّوان إلى الحنطة. نالوا شهادة العلم بالغش، ولبسوا شارة الدين بالباطل، وبلغوا مناصب الدنيا بالملق. ثم اندسوا فى المجتمع اندساس الإثم فى الضمير، أو الداء فى البدن، فكانوا فى الوحدة مظهر تفريق، وفى النهضة مصدر تعويق، وفى العقيدة مثار شبهة. ثم اتخذوا من دورهم معامل لتفريخ الأكاذيب، ومن ندواتهم وسائل لترويج الشوائع! يشيعون الفاحشة فى الذين آمنوا، ويثيرون الريبة فى الذين عملوا، ويقعدون من حركات الإصلاح مقاعد للتربص والتلصص؛ فإذا دعاهم المصلح هبوا فى وجهه هبَّة الريح العاتية على المصباح الهادى. وإذا دعاهم المفسد نفحوا قلبه الوارى نفح النسيم الرخى للنار المشتعلة! ذلك لأنهم لا يختلون فرائسهم إلا فى الظلام، ولا يشوون ذبائحهم إلا فى الحريق. ينفرون من العبير كما تنفر الجعلان، ويفرون من النور كما تفر الخفافيش، ويموتون من الطهر كما تموت الجراثيم، ويفزعون من الخير كما تفزع الشياطين! أما الروح، وأما الدين، وأما الخلق، وأما الأدب، فهى ألفاظ شأنها فى صدورهم كشأنها فى المعجم: صفات لا تدل على موصوف، وكلمات لا تزيد على أنها حروف!

المادة فى حياتهم الفارغة هى كل شيء. غلفوا بها قلوبهم حتى صدئت منهم النفوس، وأفعموا بها أفواههم حتى نتنت منهم الأنفاس. ثم جعلوها قياساً لكل قضية، وسبباً لكل حكم، وأساساً لكل نقد، وغرضاً من كل عهد! فإن أعطوا منها رضوا، وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون!

وقد تسول لهم النفس الغرور أن يلوثوا وجوه الصحف بما يكظ بطونهم من أخلاط الحقد على المصلحين والعاملين فيكشفوا عن سوءاتهم ثم يدعوها تزكم الأنوف بالنتن الوبىء ، وتؤذى الأذان بالصوت الكريه !

إن من أول وسائل الإصلاح للدين والدنيا أن يكسح هؤلاء من معاهد العلم ومقاعد التعليم كما تكسح الأوحال من الطريق ، فإن البانى لا يبنى وفى يده مسطرين وفى أيديهم معول . وإن الغارس لا يغرس وفى يده مشتل وفى أيديهم منجل . ولولا أبو جهل وابن سلول وشيعتهما من عدو الله لما قال الرسول الصادق الصابر الشجاع وهو يلوذ بأحد الجدر . اللهم إنى أشكو إليك ضعف قوتى وقلة حيلتى وهوانى على الناس !

وأفظع الأمر أن أولئك كانوا يحاربون الله وهم يقولون : كذب ؛ وهؤلاء يحاربونه وهم يقولون : صدق ! إن الكفر خير من النفاق . وإن العداوة أفضل من الخديعة . وإن الصراحة على كل حال عظمة ، وإن المراءاة على أى وجه حقارة !

وأخيراً ظهر القائد المنتظر

(٤ أغسطس سنة ١٩٥٢)

كانت بلية مصر العظمى أن تزعمها نفر من المحامين صناعتهم الجدل وبضاعتهم الوعود ، ووسيلتهم الخطب ، وغايتهم المناصب . أكثرهم يقولون الحق ويفعلون الباطل ، ويذكرون الأمة ويريدون الغنيمة . وأقلهم يطالبون التحرير ، ويرغبون الإصلاح ؛ ولكن قصاراهم أن يخطبوا ما أسعفهم الريق ، وأن يكتبوا ما واتاهم المداد ، وأن يتظاهروا ما أمكنتهم الفرص ، وأن يهتفوا ما أطاعتهم الحناجر ! ثم احترف الطامعون منهم الدفاع عن القضية الكبرى لأنها أوفر ربحاً وأيسر كلفة ، فكان من غرضهم أن تعرض ، ومن مصلحتهم أن تطول ! ثم انقلب هؤلاء المحترفون صيادين فى بحر زاخر بالخلاف والفساد والفوضى ، بعضهم يطمع فى اللآلئ ، وبعضهم يقنع بالجيف . والشعب المظلوم المحروم يصارع الأمواج الرُّعن ، ويجابه الصخور الصم ، ويستغيث فلا يرى إلا الشباك الجارفة تفرق أشلاءه وتجمع أسلابه ! وكان وراءهم ملك يأخذ كل سفينة غصباً ويحسب كل عامة خاصة . نشّأته جدودنا العواثر تنشئة الوارث العابث المتبطل ، فلم ينل ما يناله الإنسان العادى من التربية والتعليم ، وإنما ثقفه الفراغ فى الرأس والنفس والضمير ثقافة الفجار من أمراء بيته ، فصاد الطير وقاد السيارة ولعب الورق وأطلق المسدس !

كانت غاية همه أن يغنى وأن يطغى وأن يحكم . ولم تكن غايته من الغنى أن يخفف شدة الفاقة عن رعيته ، ولا من الطغيان أن يكفكف شِرّة الحزبية عن أمته ، ولا من الحكم أن يوجه سير النهضة فى بلاده . إنما كانت غايته من هذه الرغائب الثلاث السرف والترف والفحشاء والمنكر والبغى !

تناصر هذا الملك اللاهي وأولئك الساسة المحترفون على إذلال هذه الأمة ففرقوا كلمتها ، وعوقوا نهضتها ، وبددوا ثروتها ، وسوأوا سمعتها ، ودفعوا بها إلى هوة من هُوى الفساد لا سبيل بها لنجاة ، ولا بصيص فيها لأمل . فلم يكن بد من أن يظهر فى مصر مصطفى كامل ليعيد الروح إلى الجسد الميت ، ويرد السكون إلى النظام الفاسد ! وما جمال عبد الناصر إلا الرجل الذى ادخره الله لهذا اليوم لتنكشف به غمة ، وتحيا بفضله أمة ، ويتصالح على يده عهد ، ويبتدئ باسمه تاريخ ! وإن مصر التى حلمت به كثيراً فى ليلها الطويل ، وانتظرته طويلا فى سجنها المظلم ، لترجو منه أن يكون لها ما كان كمال من تركيا : يطهر الحكم كما طهر الملك ، ويرفع الشعب كما رفع الجيش ، ويقيم الدولة والحكومة والأمة على أسس جديدة من الخلق الفاضل والعدل الشامل والخير المحض والعلم الصحيح والعمل المثمر لا يثبت عليها دجل ، ولا ينفق فيها غش ، ولا يتطرق إليها فساد .

لقد كان فرعون المطرود قادراً على أولئك كله لو أراد ؛ ولكن الله الذى يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ، لم يرد هذه النعمة إلا لعبد الناصر . فلتكن إرادة الله !

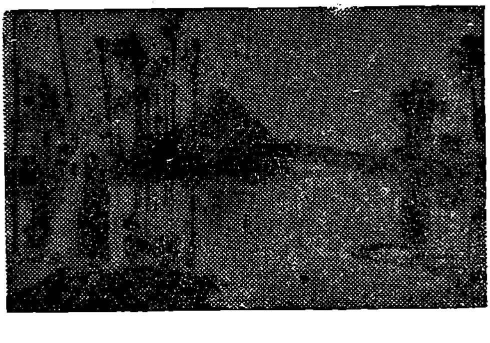

بلغنا العدد الألف !

(أول سبتمبر سنة ١٩٥٢)

نعم . بلغنا العدد الألف ! ومعنى ذاك انقضاء ألف أسبوع من عمر الرسالة الباقية ، أو عشرين عاما من عمر صاحبها الفانى ! وإن عشرين عاما يقضيها الكاتب المتأمل فى هذا المرصد الأدبى والاجتماعى يصوب مناظيره إلى كل سماء، وينصب مخابيره فى كل أرض ، لتكشف له عن ظواهر فى الآفاق ، وعن بواطن فى الأنفس ، ما كان ليراها ، لا بعينه ولا بقلبه ، لو أنه جلس مجلس المشاهد المتفرج فى مسرح الحياة .

قضيت ثلث عمرى الأعلى والأغلى دائبا دءوب القمرين ، أعمل ليل نهار فى عالم عبقرى الأحلام والرؤى ، يزخر بالعقول النيرة ، والنفوس الخيرة ، والأخيلة الخصبة . أناجيهم بالروح ، وأخاطبهم بالقلم ، وأقابلهم فى البريد ، وأجعل لهم من صفحات الرسالة أجواء يسبحون فى أطباقها مع الملائكة ، ورياضا يهيمون على زهورها مع الفراش ، وحقولا يعسلون من رحيقها مع النحل ، حتى اجتمع لهم من أفانين الحق والخير والجمال عشرون مجلدا ضخما هى تاريخ نهضة وثورة أمة وتراث جيل .

* * *

فى ذات عشية من عشايا نوفمبر من عام ١٩٣٣ زرت أخى الدكتور طه حسين فى دارته بالزمالك ، وكنت منذ أربعة أشهر قد رجعت من العراق بعد ما أغلقت دار المعلمين العليا ببغداد ، وكان هو قد أنزل عن كرسيه فى كلية الآداب من جامعة فؤاد .

فقلت له بعد حديث شهى من أحاديث الذكرى والأمل :

ما رأيك فى أن نصدر معا مجلة أسبوعية للأدب الرفيع ؟

فضحك ضحكته التى تبتدىء بابتسامة عريضة ، ثم تنتهى بقهقهة طويلة ، وقال :

وهل تظنك واجدا لمجلة الأدب الرفيع قراء فى مجتمع ثقافة خاصته أوربية ، وعقلية عامته أمية ، والمذبذبون بين ذلك لا يقرأون — إذا قرأوا — إلا المقالة الخفيفة والقصة الخليعة والنكتة المضحكة ؟

فقلت له : لعل من بين هؤلاء وهؤلاء طبقة وسطا تطلب الجد فلا تجده ، وتشتهى النافع فلا تناله .

فقال وهو يهز رأسه ويمط شفتيه : حتى هذه الطبقة ، إن كانت ، ستقبل على الجد النافع أول الأمر لأنه تغيير وتنويع ، فإذا ما ألح عليها لا تلبث أن تسأمه وتزهد فيه . والمثل أمامك فى « السياسة الأسبوعية » .

فقلت له : ربما كان لإقبال القراء على « السياسة الأسبوعية » ولإدبارهم عنها سببان آخران غير التغيير والسأم . كانت هذه المجلة أول ما صدرت قوية غنية خصبة فأصبحت حاجة ؛ ثم اعتراها ما يعترى الكائن الحى من الوهن والانحلال فصارت فضلة .

فقال لى بعد نقاش طويل : أنت وشأنك ! أما شأنى فهو المقال الذى أكتبه ، والرأى الذى أراه .

وكان يظاهرنى على تفاؤلى أصدقائى الأدنون من لجنة التأليف والترجمة والنشر ، فكانوا بهذه المظاهرة نقطة الارتكاز ومبعث المدد .

وأخيراً تغلب العزم المصمم على التردد الحوار فصدرت الرسالة : صدرت قوية

بالروح ، غنية بالمادة ، فتية بالأمل . فكانت ولله الحمد حدث العام وحديث الناس ! صادفت خلاء فشغلته ، وخللا فسدّته ، وعبثا فحاولت أن تصدّ عنه بإيقاظ النخوة فى الرءوس والكرامة فى النفوس والرجولة فى النشء . ثم حركت فى الملكات الموهوبة ساكن الشوق إلى الإنتاج فأبدعت ، وأهابت بالقوى الأدبية المتفرقة فتجمعت . ثم سفرت بين الأدباء فى كل قطر من أقطار العروبة ، فعرفت بعضا إلى بعض ، وأطلعت كلا على عمل كل ثم قادت كتائب الفكر والبيان فى ميادين الإصلاح الأدبى و الاجتماعى والسياسى على نهج واضح من الدين والخلق ، فكتب الله لها النصر فى معارك ، ووعدها الفوز فى معارك . ولو كانت الرسالة اليوم بسبيل أن تكشف عن قلبها ، وأن تتحدث بنعمة ربها ، لذكرت فيما تذكر بلاءها العظيم فى إنهاض الأدب ، وتوحيد العرب ، وتخريج طبقة من الأدباء ، وتثقيف أمة من القراء ، بله مجاهدتها السلطان الباغى والثراء الطاغى والفقر المهلك . ولكنها ترى ذلك من لغو الحديث مادام كتاب (وحى الرسالة) منشورا وأعداد المجلة محفوظة .

كانت نشأة (الرسالة) كنشأة (الوفد) من كل الوجوه . وكان تطورها كتطوره من بعض الوجوه . نشأت الرسالة كما نشأ الوفد إجابة لحال مقتضية وضرورة موجبة . لم تكن فى مصر حين صدرت الرسالة مجلة أدبية تعالج فنون الأدب العالى ، وتقدر نتاج الأديب الحق ، وتقضى حاجة القارىء الجاد . إنما كان الأدب السامى حينئذ خبىء الصدور وحبيس المكاتب . فلم تكد تخرج إلى الناس حتى احتشدت فيها القوى المدخرة ، وظهرت على صفحاتها الملكات المستترة ، فلم يبق فى العالم العربى صاحب نثر أو شعر إلا أشرق فيها عقله ، وانتشر مع انتشارها فضله .

كذلك لم يكن فى مصر يوم ظهر الوفد جماعة سياسية تواجه مشكلات

الحرب العالمية الأولى ، وتوجه خطوات الثورة المصرية الثانية . إنما كانت السياسة يومئذ أصداء خافتة لأصوات الماضى ، وآراء متهافتة من ترهات الحاضر . فلم يكد سعد زغلول يؤلف الوفد حتى انضم إليه عباقرة الرأى ودهاقين السياسة ، فلم يبق فى مصر صاحب قلم أو لسان أو منطق أو جاه إلا قصر جهده على الوفد ، وأضاف جهاده إلى جهاد سعد .

ثم سعى الشيطان بين الإخوة فتصدع الشمل وتفرق الهوى وتمزقت الوحدة فانشق على الرسالة كتاب ، واشتق منها صحف ، كما انشق على الوفد أقطاب ، واشتق منه شعب . فضعف الأصل ولم يقو الفرع ، واعتل المصدر ولم يصح المشتق ، وخسر المفرد ولم يربح الجمع . وأصبحت الرسالة رجلا واحدا يجتمع من حوله أشياع الفكرة ، كما أصبح الوفد رجلا واحدا يسير من خلفه أتباع المبدأ .

على أننا نطمع فى فضل الله أن يزيد الرسالة قوة فى عهد مصر الجديد .. وما تسأل الرسالة العون إلا من الله ؛ فقد عودها جل شأنه ألا تفزع إلا إليه فيما يحزب من أمر وما ينوب من مكروه .

ولعل السر فى بقائها إلى اليوم على ضعف وسيلتها وقلة حيلتها أنها عفت عن المال الحرام ، فلا تجد لها اسماً فى (المصروفات السرية) ، ولا فعلا فى المهاترات الحزبية ، ولا حرفا من الإعلانات اليهودية .

وإذا لم يكن للفضيلة نفاق فى عهد غرق فيه (القصر) فى الفحش والنكر والبغى والاغتصاب والاستبداد والقتل ، وارتطمت فيه (الحكومة) فى الاختلاس والغش والخيانة والرشوة والمحاباة والختل ، فإنا لنرجو أن يكون لها نصيب من التقدم والفوز فى عهد يتولى الأمر فيه فتية آمنوا بربهم وشعبهم فعملوا للصالح العام ، ومهدوا للنجاح الشامل .

كان ظهور الإسلام فتحا لعالم جديد

(٣١ ديسمبر سنة ١٩٥٢)

نستطيع من غير أن نغضب المؤرخين أن نجعل ظهور الإسلام هو الفارق بين عالم قديم كان يقاسى لهاث الموت ، وعالم جديد كان يستهل استهلال الحياة ؛ وأن نطلق الوصف بالجاهلية على العالم القديم كله شرقيه وغربيه ، والوصف بالإسلامية على العالم الجديد كله مسيحيه ومحمديه .

ومما يعزز هذا التقسيم أن الله جل جلاله قد أرسل رسوله محمداً بالهدى إلى الناس كافة ، وكانت سنته من قبلُ أن يرسل من اصطفاه إلى البلد الذى فسد ، وإلى الشعب الذى شرد . فلما عمت الجهالة ، وشاعت الضلالة ، وأوفت الإنسانية ، واقتضت حكمة الخالق أن تكون الرسالة عامة والدعوة شاملة . ومن طبيعة الشريعة العامة أن تكون كاملة لا ينالها النقص ، متجددة لا يعتريها البلى ، صالحة لكل نفس ولكل أفق ، حتى يكونِ فيها لكل داء علاج ، ولكل قوم منهاج ، ولكل مشكلة حل . وتلك هى الخصائص المميزة للشريعة التى انقطع بعدها الوحى ، ولصاحبها الذى اختتمت به الرسل .

* * *

كانت الجاهلية العالمية التى سبقت الإسلامية العالمية ليلا موصول الظلام بالأزل ، مبسوط الهول على الأرض . ومن حقبة إلى حقبة كانت تضىء سماءه الداجية ومضات من عقل الإنسان فى طيبة وأثينا ، وأشعة من وحى الله فى سيناء وأورشليم . حتى إذا خبا نور العقل بحيوانية الرومان ، وخفت صوت الوحى بمادية اليهود ، أطبق الظلام فى كل سماء ، وغشى الضلال على كل أرض ،

وسرت قافلة الحياة غوّية تخبط فى مجاهل البيد ، يسوقها من الشرق الفرس ، ويقودها إلى الغرب الروم . ولم تكن الروم فى القرنين السادس والسابع للميلاد إلا دولة منحلة ألح عليها سرف الغنى وترف العيش وفساد العقيدة وتباين المذاهب ، حتى انتهى أمر دينها فى بيزنطة إلى خلاف مستحكم فى طبيعة المسيح ، وجدل متحكم فى صفات هذه الطبيعة . وآل أمر دنياها فى رومة إلى استغراق فى شهوات الحس ونزوات النفس كفكفت من سلطان العقل ، وطأطأت من إشراف الروح . وكان من هذا الدين المسيخ ومن هذه الدنيا الداعرة أن قام فى شطرى الأمبراطورية الغاربة نظام من الحكم السفيه الفاجر أرهق الأمة بالضرائب ، وأفسد الحكومة بالرشا ، ولوّث المجتمع بالرذائل، وأشعر الناس مذلة الرق ، فعظموا القادة ، وقدسوا السادة ، وألهّوا القياصرة ، حتى انحدر السيد والمسود والعابد والمعبود إلى هوة لاقرار لها إلا العدم .

كذلك لم تكن الفرس فى ذلك العصر نفسه إلا حطام دولة وغثاء جيل . منيت بما منيت به الروم من تحلل العقد ، وتعفن الأخلاق ، وسطوة الشهوات ، وتفاوت الطبقات ، وطغيان الملوك ، وبطلان الدين . وأربت عليها بنشوء المذاهب المعوجة فيها ، وغلبة الميول الشاذة عليها ، فمن (رمزية) زرادشت الذى مهد للمجوسية الحمقاء ، إلى (عدمية) مانى ، الذى حرم الزواج استعجالا للفناء ، إلى (وجودية) مزدك الذى جعل الناس شركة فى الأموال والنساء ، إلى حال من الاجتماع العفن والنظام البالى لا يعيش فيهما حر ولا يدوم عليهما مُلك .

وكان الناس من وراء هاتين الدولتين يعيشون على حال أسوأ من هذه الحال ، وفى درك أسفل من هذا الدرك . فالعرب واليهود قد وصفهم الكتاب العزيز بما لا بيان بعده . والهنود وأهل الصين كانوا من البوذية والبرهمية فى وثنية

بإباحية لا حصر لأصنامها ، ولا حد لأوهامها ، ولا علاج لما ابتلتهم به من أدواء خلقية وأجتماعية بعضها يبيد عالماً بأسره . أما الشعوب الأوربية فى الشمال والغرب فكانت لا تزال خارج الوجود المتمدن لا تشعر بأحد ، ولا يشعر بها أحد :

* * *

على هذه الحال الأليمة والقيادة المضلة كانت قافلة الحياة تسرى . ! ظلام مخيم على الكون كله ! فيه التهاويل التى تفزع كل نفس ، والعراقيل التى تصدم كل قدم ، والشياطين التى توسوس هنا بالفتنة ، وتغرى هناك بالإثم ، وتعيث هنالك فى الدين ، وتستعين دائما بحواء على إغواء آدم ! وما كان الله — جل شأنه — ليكل ركب الخليقة إلى نفسه ، فيعمه فى هذا التيه وقد قضى عليه أن يقطع مراحل الدنيا ويبلغ غاية الأجل . لذلك أذن وهو الرءوف الرحيم لهذا الليل أن يصبح ، وشاء وهو الخبير العليم أن يكون إسفار صبحه من غار حراء !

هنالك تجلى الله لجبل النور فأشرق الحجاز كله . ونزل الرسول المصطفى من الغار ونور الله يسعى بين يديه ، وصوت الروح الأمين يتردد فى أذنيه ، فدعا إلى الإسلام البداة الرعاة الذين اختارهم الله لهداية خلقه ورعاية حقه ، ثم خرج بهم إلى القافلة البشرية وقد شردها الضلال ، وأضناها الكلال ، وأعوزها الهادى الذى يدل ، والحادى الذى يرفه . فرد الشارد ، وألف النافر ، وجمع الشتيت ، وطمأن السادرين اليائسين الهلكى بقول ربه : « قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين ، يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم » فمنهم من آمن ومنهم من كفر . وحينئذ بدأ المجاهدون فى سبيل الله معارك التطهير والتحرير ، فطهروا النفوس

من الرجس ، وحرروا العقول من الشرك ، وثلّوا عرش قيصر ، وقوّضوا إيوان كسرى ، وشادوا على أنقاضهما مأذنة بلال ومنبر محمد . ثم طبقوا فى البلاد المطهرة المحررة شريعة الله التى تكرم الإنسان وتعلن حقوقه وتمحو فروقه وترفع شأنه . ثم حملوا فى الشرق والغرب شعلة المعرفة بما تجمع لهم من وراثة ما مضى من الديانات والثقافات والحضارات ، وأقبسوها أقواما لم يروا قبلها النور فى ذهن ولا ضمير .

ورثوا ديانات إبراهيم وموسى وعيسى ، وثقافات اليونان والعبران والهنود ، وحضارات المصريين والرومانيين والفرس . ثم أخضعوا هذا الإرث الضخم لعبقرية الإسلام ومزية الجنس ، فانتفى منه الخبَث ، وارتفع الخطأ ، وانجلى الغموض ، وكمل النقص ، وأصبح صالحا لتغذية العقول وتقوية القلوب وتنمية المدارك وتكوين مجتمع صحيح قوى حر ، لا يوجهه إلا الحق ، ولا يحكمه إلا الله .

ثم كان من فضل الله على الناس أن أظهر نوره فى مكان وسط بين قرنى الشمس ، ليمشو على ضوئه الضالون فى الشرق والغرب من المحيط إلى المحيط .

* * *

على أن نور الله لم يلبث أن غمر الشرق حتى بلاد الصين ، وطبق الغرب حتى بلاد الغال . ومن حرمه الله نعمة الانتفاع بهدايته وقيادته ، لم يحرمه فضل الاستمتاع بثقافته وحضارته . فالمسيحيون الأوربيون قد أخذوا ثقافة العرب عن طريق المغرب والأندلس فى فتوح الهلال ، وقبسوا حضارة المسلمين عن طريق مصر وفلسطين فى غزوات الصليب . ثم كان من أثر الفتح الإسلامى للقسطنطينية أن انتشر الدين المحمدى فى شرق أوربا ، وتفرق العِلم المسيحى فى وسط القارة ، فكانت حركة (الإحياء) .

وما الإحياء إلا اختلاط الثقافة اللاتينية التى أطلقها محمد الفاتح من الأديرة والكنائس ، بالثقافة اليونانية التى بعثها محمد المأمون فى المساجد والمدارس . ومن هاتين الثقافتين وما خالطهما من علوم الإسلام وفنون المسلمين كانت هذه الثقافة الحديثة والحضارة القائمة .

* * *

لم تكن الفتوح الإسلامية إذن فتوح استعمار وجباية ، وإنما كانت فتوح تحرير وهداية .

كانت فتوحا فى الأرض للحرية والعمران ، وفتوحا فى العقيدة للتوحيد والإيمان ، وفتوحا فى الشريعة للحق والعقل ، وفتوحا فى السياسة للإحسان والعدل ، وفتوحا فى اللغة للأدب والبلاغة ، وفتوحا فى العلم للإحياء والتجديد ، وفتوحا فى الفن للابتكار والطرافة .

تجلد يا قارون!

(٢٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢)

لك الله يا مسكين! لم تعد باشا بعد يوليو، ولن تعود قارون بعد أكتوبر[1]! ذهب اللقب وضاع (الطين)، فلا رأس يشمخ ولا لُغد ينتفخ! وخلا الدوار والإصطبل، فلا ثور يخور ولا فرس يصهل! وخوى القصر والديوان، فلا حاجب يسعى ولا حاسب يحسب! وخفت الصوت الراعد فلا (شخط ولا نطر)، وخرس اللسان البذيء فلا نهر ولا قهر!

لم يبق لك من تراثك الفاحش الضخم، إلا جسد بض، وبطن شحيم، ووجه جهم، وذهن مغلق، وحس مظلم، وجهل مطبق، وسمعة قبيحة! وكانت هذه المزايا التي مازك الله بها مستورة بالطين[2] فما كان يراها أحد؛ فلما كشفوا عنك غطاء الذهب، واستردوا منك جلال اللقب، بدوت في شرفة القصر عاريا من زينة الجسد والروح، كما بدا فاروق في شاطىء (كابرى) عاريا من زينة الملك والإنسان!

أنا والله شامت بك يا قارون! لطالما قرعتُ سمعك وسمع (الأمير) بزواجر النصح الخالص، ولكنكما لم تكونا يومئذ تصدقان أن للناس ربا يمهل ولا يهمل، وأن للعدل نورا يخبو ولا ينطفىء، وأن للشعب وعيا يضعف ولا يموت! وها هو ذا غضب الله يحل، ونور العدالة يشرق، ووعى الأمة يستيقظ؛ فهل أغنى عنكم

---

(١) قارون كان من قوم موسى، آتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة وقد طغى وبغى. وهو مستعار لأحد كبار الإقطاعيين الذين جردتهم ثورة الجيش من الألقاب في يونيو سنة ١٩٥٢ وانتزع منهم قانون الإصلاح الزراعي أكثر أراضيهم بعد أكتوبر من هذه السنة.

(٢) الطين في لغة المصريين يطلق مجازا على الارض الزراعية.

النضار الذى كنزتموه ، والعقار الذى حزتموه ؟ لقد أخذتكم صيحة الجيش بالحق فآمنتم لأول مرة أن الناس عبيد الله ، وأن الوطن ملك الجميع ، وأن الملك أحد الناس .

أنا والله شامت بك وبأمثالك يا فاروق ! كان لكل منكم حاشية كحاشية فاروق ، وزبانية كزبانية جهنم ! حاشية تحبب إليكم الفسق ، وتهون عليكم الإثم ، وتوفر لديكم المتاع . وزبانية يعقدون لكم دم الفلاح ذهبا ، ويحولون إليكم عرق الأجير فضة . ثم لا يشيرون عليكم أن تعملوا لعبيدكم ما يعمل الفلاح لمواشيه : يغذى البقرة لتحلب ، و يقوى الثور ليحرث !

لقد أصبحتم بكفرانكم لنعم الله ناسا من أفل الناس ، تذوق ألسنتكم الحلو والمر ، وتحس نفوسكم العز والذل ، وترجون الدستور كما نرجو ، وتخشون القانون كما نخشى . وستنسون من طول ما يلح الغلاء وتفدح الأعباء ، أنكم كنتم من الطبقة التى أقامت نفسها بقوة المال وسطوة الحكم بين الله وبين عباده ، تملك الأمر والنهى ، وتعطى الحياة والموت ، وتضع يدها فى يد إبليس لتنقض ما أبرم الله ، وتفسد ما أصلح الدين .

كنت يا فاروق تكره العلم لأنك تحب الجهل ، وتوالى الظلم لأنك تعادى العدل ؛ فماذا تصنع اليوم وقد أصبحت محتاجا إلى العلم لتعمل ، ومفتقرا إلى العدل لتعيش ؟

إن فى مذكراتى وذكرياتى أفانين من مخازيك يا فاروق لو نشرتها على أعين الناس لأنكروا أنك منهم ، وأشفقوا أن تعيش فيهم ؛ ولكنى أتأدب بقول الرسول الكريم : أكرموا عزيز قوم ذل ، وغنى قوم افتقر !

ثورة في تاريخ النبوة

(١٣ أكتوبر سنة ١٩٥٢)

كل نبوة كانت ثورة . ومن أخص ما ميز ثورات النبوات أنها كانت للسلام العام والصلاح المطلق . فلا تجد نبياً دعا إلى عرَض الدنيا ، ولا رسولا سعى إلى سلطان الحكم . إنما كان الأنبياء والمرسلون جند الله ، يعملون بوحيه ، ويهتدون بهديه . عقيدتهم الحق ، ودعوتهم الصدق ، وعدتهم الصبر ، ووجهتهم الخير ، وطريقتهم التضحية . فلما ختم الله رسالاتهم برسالة محمد كتب على نفسه الرحمة أن يرسل إلى الناس في كل حقبة مصلحاً يؤدبه بأدب الأنبياء ، ويجريه على منهاج الرسل ، ليجدد ما درس من عهده ، ويبين ما طمس من طريقه . وشأنه سبحانه في إعداد المصلحين كشأنه تعالى في إعداد النبيين ، يصنعهم على عينه ، ويطبعهم على دينه ! حتى إذا ضعف سلطان العقل ، واختل ميزان العدل ، وعميت على الناس وجوه الرشد ، أظهر هذا المصلح من بين رجال السيف في أكثر الحالات ، لأنهم بحكم تنشئتهم أصحاب فداء ومضاء ، وألاف نظام وعمل ، وأحلاف شرف ومجد . يطلبون الحياة بالموت ، ويرحضون[1] الرجس بالدم ، ويقرنون الرأي بالعزيمة . ولم تجتمع هذه الصفات لأحد قبل قادة هذه الثورة . وسر ذلك أنهم نشأوا في طبقة الفلاحين الكادحين فعرفوا كيف يكون الحرمان ؛ وعملوا تحت إمرة المستكبرين المستهترين فعلموا كيف يكون الطغيان ؛ وأضاءت قلوبهم النقية إشراقة من نور الله ، فرأوا من تحت الظلام الكثيف المخيف عرش مصر يرتطم في القذر ، وجيش مصر يضطرب في الفساد ، وشعب مصر يتمرغ في الذل ، فشبوا شبوب النار الهادئة ، تقتل المكروب

---

(١) رحض الثوب . غسله ومنه سمي المغتسل للرحاض .

ولا تحرق المريض ؛ وهبوا هبوب الريح اللينة تدفع الشراع ولا تغرق المركب ثم عالجوا أمر هذه الأمة بعلاج الرسول الكريم ، فحطموا الأوثان كما حطم ، وكرموا الإنسان كما كرّم ، وأزالوا الفروق بين الناس كما أزال ، وأدالوا الفقير من الغنى كما أدال ، وقيدوا الحق بالواجب كما قيد ، وأيدوا الحجة بالسيف كما أيد . ثم أذاقوا الناس لأول مرة فى تاريخ مصر نعمة الحرية والكرامة والمساواة . ثم ظلوا كما كانوا قانعين متواضعين ، يظهرون فى الجامع من غير أبهة ، ويمشون فى الشوارع من غير حرس ، ويختلطون بالسواد من غير حرج . ثم لا يمدون أعينهم إلى نعيم ، ولا يبسطون أيديهم إلى ثراء . فهل يجوز بعد أولئك كله أن يعيدونا إلى ثرثرة الأحزاب وسمسرة النواب ومهزلة الزعامة ؟

* * *

لا يا قادة الثورة ! إن الله جعل فى أيديكم أمانة هذه الأمة فلا تلقوا بها إلى من خانوها من قبل ! إنكم تريدون (الاتحاد) وهم يريدون الفرقة . وإنكم تريدون (النظام) وهم يريدون الفوضى . وإنكم تريدون (العمل) وهم يريدون الكلام ! فهل يستوى الوفى والغادر ، أم هل يستوى البر والفاجر ؟

رسالة وجوابها

(٢٧ أكتوبر سنة ١٩٥٢)

كتب إليّ السيد محمود عبد السيد حمزة يقول :

« سلام الله عليك

قرأت لك (ثورة فيها ريح النبوة) والحق أنها ثورة مباركة أنعشت لمصر من الآمال ما أذواه العهد البغيض ؛ ولكنك يا سيدى اختتمتها بثورتك على الأحزاب والنواب ومهازل الزعامة .

ولما كان لرأيك قدره عندى فهل يا ترى أفهم من كلامك أنك تقر حكم الفرد وأنت الذى فتح باب رسالته على مصراعيه للرأى والمشورة ؟ لا تظلم الأحزاب يا سيدى ولا النواب ، فمنهم من يزكيهم الله . وإذا أخذنا عليهم بعض الأوزار فوزرهم فى عنق من وطد للفساد أركانه . إدع إلى الشورى ياسيدى ولا تيأس ؛ فقد ذهب الفساد وعهده ولم يبق إلا الإصلاح ؛ فلرأيك قيمته وقدره »

وجوابى عن رسالة السيد الفاضل ، أنى لا أومن بحكم على نظام معين . إنما أومن بأى حكم يقوم بنيانه على الشورى ، وينبسط سلطانه على العدل . وليس للشورى نظام واحد لا يجوز غيره ، ولا للعدالة منهج واحد لا يؤدى سواه . يجوز أن تصدُق الشورى على لسان بطانة أو وزارة أو ندوة ، كما يجوز أن تتحقق العدالة على يد إمام أو ملك أو رئيس . إن العبرة بالمعنى لا باللفظ ، وبالروح لا بالنص ، وبالفكرة لا بالصورة . كان على يستشير ، وكان معاوية يستشير ؛ ولكن ابن أبى طالب كان يستشير أهل الذكر من صحابة الرسول ، وابن أبى سفيان كان يستشير أهل المكر من بطانة الملك .

وكان عمر بن عبد العزيز يعدل ويظن لتقواه أنه يجور . وكان الحاكم بأمر الله يظلم ويظن لفجوره أنه يعدل .

إيتنا بمستبد كعمر أو بمستشير كالرشيد ، نلق إليه مقاليد الحكم ثم نعش في ظلال حكمه بنفسه ، أو حكمه بغيره ، كما يعيش البنون في كنف الأب ، أو المؤمنون في ظلال الله . أما أن ننقل النظام البرلماني الأوربي من ورق باللغة الافرنجية ، على ورق باللغة العربية ، ثم نطبقه على أمة ليس لها رأى عام ولا وعى تام ولا إرادة حرة ، فذلك عبث لا ينشأ عنه إلا ملك يقول أنا الدولة وهو كومة من القذر ، وبطانة تقول أنا القصر وهى مجموعة من الفحش ، ووزارة تقول أنا الحكومة وهى عصبة من السماسرة ، وأحزاب يقولون نحن الأمة وهم مناسر من اللصوص ، ونواب يقولون نحن الشعب وهم جماعة من المرتزقة . ثم يوهمون الناس بالقوة أو بالخديعة أن جملة هذه المخازى هى الدستور !

إن الدستور يا سيدى نظام فى ذاته صالح ؛ ولكنه فى مصر حق يراد به باطل ، أو انتخاب مزيف يؤدى إلى حكم مريح . والناس فى الشرق يعبدون ألفاظ الحرية والوطنية والدستور من غير فهم ، وفى الغرب يعبدون ألفاظ الديمقراطية والإنسانية والعدالة من غير إيمان . وعبادة الألفاظ كعبادة الأشخاص أولها جهالة وجمود ، وآخرها ضلالة وكفر !

لا ينجح الدستور يا سيدى إلا فى بلد يكون أهله جميعاً مؤمنين بالله أو مثقفين بالعلم !

نصيب قريتي من الثورة

(٢٠ نوفبر سنة ١٩٥٢)

قريتي الصغيرة الفقيرة هي إحدى القرى الخمسين التابعة لمركز طلخا؛ ومركز طلخا هو أوحد المراكز جميعاً في فحش النظام الإقطاعي وجوره. كل ما يملك فلاحه من أرضه أمتار ينام فوقها وهو حي، وأشبار يرقد تحتها وهو ميت. أما ملاكه فهم آل طوسون، وآل البدراوي، ومحمد علي، ووحيد يسري، وسرسق، ووزارة الأوقاف! لذلك كانت جملة الأرض التي نزعها قانون الإصلاح الزراعي من كبار ملاكه، ليوزعها على صغار زراعه، اثنين وثلاثين ألف فدان في السنة الأولى من سني التوزيع الخمس! وهذا الرقم الأولي الضخم يشعر ولا شك بالحياة الأليمة التي كان يحياها أولئك البائسون التعسون في ظلال الأسرة العلوية الكريمة!

كانوا يعملون العام كله دائبين ليل نهار، لا تختلف امرأة عن رجل، ولا يتخلف صغير عن كبير، ولا تفترق ماشية عن آلة. حتى إذا آتت الأرض الطيبة أكلها فحصدوا القمح، وضموا الرز، وجمعوا القطن، وقطعوا الذرة، ذهب أولئك كله إلى المالك المرهوب، إما عيناً في مخازنه، وإما نقداً في خزائنه! أستغفر الله! لقد تدرك الرحمة أحياناً قلب الباشا أو الأمير، فيترك للفلاح أو للأجير، أرغفة من الذرة يتبلغ بها كل يوم، وجلباباً من القطن يرتديه طول السنة، وأرطالا من اللحم يتذوقها كل عيد! أما نصيبه من ثمن قطنه ورزه، فيقول له ناظر البدراوي: أخذناه لأن أباك أو جدك كان مديناً لنا في الماضي! ويقول له مفتش طوسون: حجزناه لأن إجارتك ربما تخسر في المستقبل؟ فإذا هم بأن يشكو، حجز الناظر ماشيته عن الغيط، ومحصوله عن البيت. وإذا جرؤ

على أن يحتج، أمر المفتش (مأمور البوليس) أن يعتقله أياما ليسلمه إلى جنوده فيصبِّحوه بالعصا ، ويمسّوه بالكرباج !

فى قرية من قرى هذا المركز البائس نشأت . وفى غمرة هذا البؤس الذى لا حد له ولا حيلة فيه رأيت الباشا كيف يطغى وينسى الله ، والمفتش كيف يبغى وينسى العدل ، والفلاح كيف يذل وينسى الحرية ، والأجير كيف يهون وينسى الحياة !

وفى كتابى (وحى الرسالة) فى مجلداته الأربعة وصفت مآسى هذه الأمة من الناس ، وهذه القرية من القرى ، وصفا كان مداده الدمع ، وكانت كلماته الأنين ! فإذا عرفت أمرهم على الوجه الذى عرفته ، وأدركت حالهم من الوصف الذى وصفته ، تبينت فى جلاء ويسر نصيبهم من نهضة الجيش . لقد كانوا أذلاء فعزوا ، وكانوا أجراء فملكوا . ثم كانوا أداة إنتاج لغيرهم فأصبحوا عامل استغلال لأنفسهم . وكانوا رعايا الباشا كالدواب فأصبحوا رعايا الدولة كالناس!

وجملة أمرهم أن الله انتقم لحرمانهم من الحارم ، وداول الأيام بينهم وبين الظالم ، فكانت البؤسى لمن بغى ، وكانت النعمى لمن صبر !

القرآن والدستور

(٨ ديسمبر سنة ١٩٥٢)

نشرت إحدى الصحف ذات يوم أن بعضاً من علماء الأزهر قد اجتمعوا ليستنبطوا مما شرع الله في الإسلام قوانين تحكم بها الدولة. فصادف هذا الخبر هوى في نفوس قوم ونفورا في نفوس آخرين . وهتف أتباع هؤلاء في بعض الحفلات قائلين : القرآن دستورنا ! ورد عليهم أتباع أولئك هاتفين : الدستور قرآننا ! واستطار النبأ في أجواء الأرض ففزع أصحاب الأموال في أوربا ، واستراب رجال الأعمال في أمريكا ، وقال مرضى الهوى أو الجهل منهم : نكسة الداء ، ووثبة إلى الوراء ! فلم يسع السياسيين إلا أن ينتفوا من هذا الخبر ، ولا الأزهريين إلا أن يبرأوا من هذه التهمة !

أمر عجيب ! إلى هذا الحد بلغ جهل الجهال بحكم القرآن فيصورونه هولة يفزّعون بها الناس حتى أهله ؟ إن كانوا من الذين يؤمنون بأنه من وحي الله فالله سبحانه لم ينسخه ولم يُنسه ، ولم يأت بخير منه أو مثله . وإن كانوا من الذين يزعمون أنه من وضع الإنسان فماذا يخشون منه وقد جربوه ؟ لقد حكم الدنيا القديمة وهي همجية وفوضى ، يتولاها الهوى ، ويقودها الضلال ، ويسوسها الجهل ، فردها من الشرود المهلك ، وأقامها على الطريق المؤدي ، وأذاقها رخاء العيش المطمئن ، وكفل لها من الحرية والعدالة والمساواة والكرامة ما كفل بعضه الدستور . وما الدستور ؟ أليس هو في حقيقته وجوهره معنى من معاني القرآن ينبثق عنه كما ينبثق الشعاع عن الشمس ؟

أعطوا الدستور ذوي الرأي من الراسخين في علوم الدين تجدوا قرآنا كأول

ما أنزل الله . وأعطوا القرآن أولى الرأى من المتضلعين من علوم القانون تجدوه دستوراً كآخر ما وضع الناس .

أما القرآن الذى تخشونه فليس قرآن الله ؛ إنما هو قرآن مسيخ فسره جهال الفقهاء على قدر ما فى عقولهم من قصور وزيغ ، وما فى نفوسهم من خطأ وحشو ؛ فضيقوا سعته ، وحددوا شموله ، وعوقوا تقدمه ، وزيفوا صحيحه ، وشابوا صريحه ، ووقفوا به عند عصر معين ، فلا يقبلون إلا قوله ، ولا يجيزون إلا فعله ، ولا يعلمون أن عموم الرسالة المحمدية يقتضى أن تساير الزمن وتجارى الطبيعة ، حتى لا ينقطع ما بينها وبين ركب الحياة .

وأما الدستور الذى تذكرونه ، فهو الدستور المهين العاجز الذى يرضى أن تقوم باسمه دكتاتورية حزب ، وأن يقضى على حكمه طغيان ملك . ثم لا يأنف أن يفسره عابث على هواه ، وأن يطبقه فاجر على مشيئته . فإذا لم يكن للدستور سند من روح الله يجعل الخروج عليه مروقا من الدين وفسوقا من الإيمان ؛ وإذا لم يكن للدستور حام من إرادة الشعب يعصمه من جور الحاكم وبغى السلطان ، كان ضرره أكبر من نفعه ، وعدمه خيراً من وجوده .

آمنوا بالقرآن تجدوا الدستور الحق ، وآمنوا بالدستور الحق تؤمنوا بالقرآن !

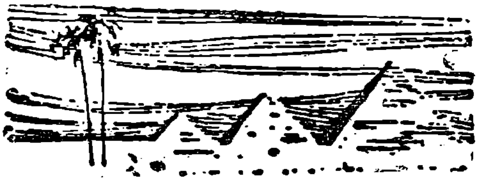

من عهد إلى عهد

(٥ يناير سنة ١٩٥٣)

بهذا العدد تدخل الرسالة فى سنتها الحادية والعشرين فتدخل هى ومصر فى عهد بادىء كله رجاء ، بعد أن خرجت هى ومصر من عهد بائد كله شكوى .

كانت مصر فى العام الماضى قد دب فى حسها الوعى من طول ماوخزتها الأقلام وأرمضتها الآلام وقرعتها القوارع ؛ فأدركت أن فوق عرشها ملكاً خليعاً جعل نصفه البهيمى للزنى والميسر والدعارة ، ونصفه الآدمى للربا والنهب والتجارة ؛ وأن على حكمها عصابة من مصاصى الدماء غايتهم السلطان والغنى ، ووسيلتهم الطغيان والفساد ؛ وأن على أرضها عدوا ثقيلا جثم على صدرها جثوم المقطم لا يخف ولا يتحلحل . يحتل مأواه بالقوة ، ويأخذ قراه بالسيف ، و يبسط ولايته على المضيف بالقهر ، و يفرض حمايته على القنال بالقحة ؛ فثار ثائر الشباب الجامعيين على الملك و بطانته فلطخوهم جهراً بالعار . وهاج هائج الأحرار المطهرين على الحكام فوصموهم صراحة بالخزى . وجاشت صدور الإخوان المسلمين على الإنجليز فآذنوهم فعلا بالحرب !

وكانت خيانة الأوغاد للجيش الباسل فى الحرب الفلسطينية قد فعلت فعلها فى نفوس قواده ، فتقصصوا أثرها حتى وجدوا أقدامها القذرة تنسل من قصر عابدين ، وتطوف سراً على أهلها فى دواوين الوزارة وأوساط الإمارة ومواخير الفسق . ثم تمضى مقنعة بالجاه ، محروسة بالنفوذ ، محاطة بالتلصص ، حتى تدخل على القوات المحاربة الغالبة بالهدنة الغادرة والأسلحة الفاسدة والأوامر الخادعة ؛ فغلت صدور الضباط الشباب من الحمية والحفيظة ، فأخذوا ذلك الملك الماجن من قفاه الغليظ وألقوه فى البحر ؛ وقبضوا على حاشيته الفاجرة

وطرحوهم فى السجن ، وابعدوا الساسة المريبين وحجزوهم فى المعتقل ، وركلوا الموظفين المجرمين ورموهم فى الشارع !

ثم فتحوا أبواب الصلاح والإصلاح على عهد جديد مشرق النور خالص الطهر صادق العزيمة ، يرجون فيه ونرجو أن يقروا حياة مصر على الوضع الصحيح ، وأن يقيموا سياستها على النهج الواضح ، وأن يرفعوا بنيها إلى مقام الإنسان الحر المريد ، فيملكوا باسمه ، و ينزلوا على حكمه ، و يعيدوا أرض آبائه إليه ، و يردوا غلة أرضه عليه ، و يشعروه بأن له قولا يسمع ورأيا يطاع وحكما ينفذ .

والرسالة تدخل فى هذا العهد المبارك مع الداخلين ، بعد أن مهدت له عشرين سنة مع الماهدين . تدخل وهى راضية مغتبطة رضا من عمل فأثمر عمله ، واغتباط من أمل فتحقق أمله . لقد كانت فى ذلك العهد الفاسد تقف مع الهداة على الجادة تنظر و ينظرون بالأعين العبرى إلى القافلة المصرية وقد خدعها السبيل ، وأضلها الدليل ؛ فضلت ضلال القطيع لا راعى له ، وشردت شرود الهائم لا إدراك به ، فينادون ولا سميع ، ويأمرون ولا مطيع ، وينذرون ولا مستبصر ! وكان الوقت الذى أضيع فى الشرود ، والجهد الذى أنفق فى الهداية ، خليقين أن يلحقا القافلة بالركب العام ، و يدنيا الأمة من الغاية الجامعة .

ولكن الضال لا يهتدى حتى يعلم ، والجاهل لا يعلم حتى يعى . ولولا غفلة الساسة ما كان وعى الأمة . ولولا عبث فاروق ما كان جد الجيش .

ولم يكن فسوق الملك الخليع شرا كله ؛ فإن الله الذى يخرج الحى من الميت ، ويدنى السكون من الفساد ، ويخلق الترياق من السم ، قد جعل من سقوطه رفعة للشرق أدانيه وأقاصيه .

كانت سقطته عن العرش رجة في جميع الأرض ؛ فتحت الأعين ، وجرأت القلوب ، وزلزلت الأوضاع ، فبرقت في سورية بروق الأمل ، وانقشعت في السودان غيوم الحذر ، ورعدت في تونس ومراكش رعود الثورة .

* * *

كان الأدب في العهد البائد صوراً متنافرة من القلق والملق والنفاق والتقية والجبن ؛ لأن الأديب لم يجد رعاية من الملك لأنه جاهل ، ولا عناية من الشعب لأنه غافل ؛ فاضطر إلى أن يهاوى أصحاب الحكم ليسلم ، و يصانع رجال السياسة ليغنم ، ويتملق دهماء الناس ليعيش . وكان الملك على جهله بالأدب و بعده عن الدين ، تنظم في مدحه القصائد الغر ، وتحرر في فضله الفتاوى البكر ، وتركب وزارة الأوقاف ونقابة الأشراف المركب الوعر لتجد لسليل الترك والفرنسيين نسبة مباشرة إلى الرسول العربي القرشي محمد بن عبد الله ! ولم يكن كل ذلك سبيل الزلفى إليه ولا النفوق لديه ، وإنما كان السبيل إليهما مهارة في الصيد ، أو براعة في القمار ، أو كفاية في كسب المال ، أو لباقة في جلب المرأة ، والناس على دين ملوكهم . والأدب يكون كما يكون الناس .

أما الأدب في العهد البادىء فالمرجو أن يكون مستقلا كدولته ، حرا كأمته ، صريحاً كسياسته ، نقياً كطبيعته ، متسقاً كمجتمعه . والمظنون أن سيكون للعروبة أثر بالغ في هذا العهد . وانتصار العروبة انتصار للأدب . فإن العروبة قوامها اللساني اللغة والبيان ، وقوامها القلبي الحديث والقرآن ، فبازدهارها يزدهر ، وبانتشارها ينتشر ، وبخلودها يخلد .

أين المسلمون اليوم من الإسلام

(٢٣ يونية سنة ١٩٥٢)

أصبح من المعلوم فى بداهة العقل الحر أن الدين الإسلامى هو الصورة الكاملة لشرائع الله ، والقوة المهذبة لقوانين الطبيعة . وضع فيه شارعه الأعظم وهو فاطر الأرض ، وواهب الحياة ، ومنزل الوحى ، أسس القواعد التى تكفل للعالم نظامه وسلامه ، وللمجتمع وحدته وقوته ، وللفرد سعادته وكرامته ، مهما يتطاول الأمد وتتغير الحال . ومَن غير الله جلت قدرته يفجِّر نور الهدى للأرض من غار مظلم موحش ، ويبجس نبع الحياة للناس من جبل مجدب وعر ؟ وهل كان لولا وحى الله فى غار حراء من جبل النور ، وفى مقدور أمى نشأ ربيب اليُتْم والعُدم فى قرية جاهلة من قرى الحجاز المقفر ، أن يعلن فى أوائل القرن السابع حقوق الإنسان وحرياته ، وهى الحقوق التى أعلنت بعضها فرنسا فى أواخر القرن الثامن عشر بعد الثورة ، وأعلنت بعضها أمريكا فى أواسط هذا القرن بعد الحرب !

وما كان لبشر سليم الفطرة أن يستريب فى أن الدين الذى أكمله الله لنبيه ، ورضيه لخلقه ، ونسبه إلى نفسه ، هو وحده مصدر الخير المحض ، ومظهر الكمال المطلق ، وسبيل الغاية التى يجد عندها ابن آدم المكدود المجهود نفَسا من كربه ، وراحة من تعبه ، وسكينة من اضطرابه ؛ تلك الغاية التى كان يراها ، منذ هبط العاصى من الجنة ، حداً لشقائه ونهاية لألمه ، فكان يتشوف إليها من وراء الغيوب ، ومن خلال القرون ، فلا يراها ، لا فى الحروب التى شن ، ولا فى النظم التى سن ، ولا فى الشرائع التى اعتقد ، حتى أراد الله للاغب الضال أن يهتدى ويستريح ، فكان محمد هو المنار ، وكان الإسلام هو المرفأ !

إن من المبادىء التى ميزت الإسلام التوحيدَ وهو سبيل القوة ، والإخاء

وهو سبيل التعاون ، والمساواة وهى سبيل العدل ، والحرية وهى سبيل الكرامة ، والبر وهو سبيل المحبة ، والسلام وهو سبيل الرخاء . وكل هذه المبادىء معلومة من القرآن بالنصوص الصريحة ، فلا موضع فيها لتأويل أو تحميل أو تعسف . وهى كما ترى تضمن أفضل مافى الديمقراطية ، وأعدل مافى الاشتراكية ، وأجمل مافى المدنية ؛ فهى حرية أن تصلح مافسد من أمور الناس ، وأن تقيم ما اعوج من نظام الدنيا . وقد كانت كذلك يوم كان لحماتها دولة ، ولدعاتها صوت ، ولمعتقديها يقين . فلما دالت الدولة ، وخشع الصوت ، وأراب اليقين ، تمزق المسلمون قطعانا فى فدافد الأرض ،لا مرعى يجود ، ولا راع يذود ، ولا حظيرة تؤوى ثم كانوا بتخلفهم عن ركب الحياة حجة على الإسلام فى رأى السفهاء من مرضى الهوى أو الجهل ، فصموا عن دعائه ، وعموا عن ضيائه .

أين المسلمون اليوم من إسلام عمر وخالد فى الحجاز ، والرشيد والمأمون فى العراق ، والناصر والحكم فى الأندلس ، والعزيز والحاكم فى مصر ؟ ألم يبلغ هؤلاء بفتح الجيش وفتوح الدين وفتوح العلم وفتوح الخلق من السلطان والعمران مالم تبلغه أمة من قبل ، فنزل على حكمهم الدهر ، ودخل فى ملكهم العالم ؟

إن الدين الذى رفع هؤلاء السادة والقادة إلى الذروة ، وضمن للخلافة فى عهودهم العزة والمنعة والقوة ، لا يزال هو الدين الذى لا يغيره الزمن ، ولا تجافيه الطبيعة ، ولا يعاديه العلم ، ولا تنسخه المذاهب ؛ وإنما الأمر فيه كما قال الرسول صلوات الله عليه : « مثل ما بعثنى به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، كان منها طائفة طيبة قبلت الماء وأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس ، فشربوا منها وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى ؛ إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ »

والمسلمون اليوم هم هذه القيعان ، تحدرت إلى ما ركد فيها من سلسل الوحى

عكارات المذاهب الطارئة ، ورواسب العقائد الخاطئة ، فكان منها ذلك الخلط العجيب الذى يعوق عن السعى ويمنع من النظر و يصد عن الفكر . ثم كان من أثره أن نرى اليوم مواطن العروبة والإسلام : مراكش والجزائر وتونس وليبية ومصر وفلسطين وسورية والعراق و إيران وباكستان والصين وأندونيسيا وسائر جزر الهند الشرقية ، قد أصبحت نهباً مقسما بين دول الاستعمار يتنازعون فيه ، و يتقاتلون عليه ، وليس من أهلها من يقول فيسمع قوله ، أو من يفعل فيخشى فعله ، وإنما هم أشياء كثروة الأرض ، خسارة على المغلوب وربح للغالب .

لقد تغيرت عقائد الإسلام الحرة النقية فى نفوس الكثرة من المسلمين كما يتغير الشراب الخالص فى الإناء القذر ! انحلت الأخلاق فلا تماسك فى قول ولا فعل ، وتقاطعت القلوب فلا تتواصل فى دين ولا وطن ، واستأثرت النفوس فلا تعف فى صداقة ولا نسب ، واستبهمت المذاهب فلا تستبين بنجم ولا شمس ؛ وأصبحت غاية الدين فى رأيهم مظاهر من العبادة لا تخدع ، وظواهر من البدع لا تنفع ، وأقاويل من الوعظ لا تدل .

من يصدق أن المسلمين اليوم يفقهون القرآن حق الفقه ، وهو الكتاب المبين الذى يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويهديهم إلى صراط مستقيم ، و كل انتفاعهم منه أن يحملوه للحفظ كما تحمل التمائم ، وأن يقرءوه للبركة كما تقرأ الأوراد ، وأن ينشدوه للطرب كما تنشد الأغانى ؟

من يصدق أن المسلمين اليوم يقدرون الرسول حق القدر ، وهو الذى قال فيه أصدق القائلين . « وإنك لعلى خلق عظيم » وعلمك ما لم تكن تعلم ، وكان فضل الله عليك عظيما » وكل ما يمدحونه به أن يرفع المؤذن عقيرته فى الأذان بالصلاة على « مليح الوجه » وأن يتغنى منشد سيرته المطهرة بحمرة خديه وسواد عينيه ، كأن الصباحة والوسامة والرواء هى كل ما يمتاز به محمد نبى

التوحيد والوحدة ، ورسول السلام والمحبة ، وداعى الحرية والكرامة ! لقد أنفه عبد الملك بن مروان أن يمدحه ابن قيس الرقيات بقوله :

يأتلق التاج فوق مفرقه   على جبين كأنه الذهب

فقال له : وماذا من الفضل فى تألق التاج ونصاعة الجبين ؟ هلا مدحتنى بمثل ما مدحت به مصعب بن الزبير إذا تقول فيه :

إنما مصعب شهاب من الله   تجلت عن وجهه الظلماء

ملكه ملك عزة ليس فيه   جبروتٌ منه ولا كبرياء

ثم حرمه عطاءه العمر كله . والفرق بين فضل الرسول وفضل الخليفة كالفرق بين الجبل والذرة ، أو بين الشمس والشرارة !

من يصدق أن المسلمين اليوم يؤمنون بالإسلام وفيهم من يؤمن بالشيوعية وأهلها يزعمون أنهم أعلم من الله بأحوال خلقه ، وأعدل منه فى تقسيم رزقه ، ثم يقولون بكل وسيلة من وسائل القول : كل شىء مشاع ، وكل أمر مباح ، وكل إرادة طليقة ! والمسلمون يسمعون هذه الأضاليل تبث فى الإذاعة ، وتنشر فى الكتب وتردد فى المجالس ، فيرهفون لها سمع الغبى ، وتدفعهم شهوة الإباحية إلى أن يشتروا الضلال بالهدى ، ويستبدلوا الخبيث بالطيب ، ويؤثروا أن يكونوا كالذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الأنعام والنار مثوى لهم .

والعلة فى كل أولئك هى الجهل التام والعلم الناقص . فلو أن المسلمين اعتقدوا ربهم اعتقاد المؤمن ، وفقهوا دينهم فقه المقتنع ، واتبعوا رسولهم اتباع المصدق ، لما أصبحوا فى الحال التى تنبأ بها الرسول صلوات الله عليه إذ قال : « يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها ، ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن » . فقال قائل : أومن قلة نحن يارسول الله يومئذ ؟ قال : لا ، إنكم حينئذ لكثير ؛ ولكنكم غثاء كغثاء

السيل ! فقال قائل : وما الوهن يارسول الله ؟ قال : حب الدنيا وكراهة الموت » .

* * *

« ألم يأن للذين آمنو أن تخشع قلوبهم لذكر الله وما نزل من الحق ، ولا يكونوا كالذين أوتوا الكتاب من قبل فطال عليهم الأمد فقست قلوبهم وكثير منهم فاسقون ؟ »

بلى ، والحمد لله قد آنى للمؤمنين أن يكشفوا عن العيون غشاوة الباطل ، ويجلوا عن القلوب صدأ الغفلة ، فيبصروا الطريق ويستبينوا الغاية . وإن فى يقظة الوعى الإسلامى التى بدت فى تعاطف المسلمين على البعد ، وتناصفهم فى القرب ، وتحالفهم على الأحداث ، لأشعة من تباشير الصباح ، قبلها الليل المظلم ، وبعدها النهار المشرق . ولعل الأزهر وحده هو الذى يملك أن يقوى هذا الوعى ويوجه هذا الشعور إذا عمر الصدور بالإيمان الخالص عن طريق التعليم فى المدارس ، والوعظ فى المساجد ، والنشر فى الصحف ، والحديث فى الإذاعة ، والنظر قبل ذلك كله فيما يقرأ المسلمون من كتب ، وفيما يقمش المموهون من بدع ؛ فإن تنقية الدين مما علق به ودس فيه تكشف للناس عن جوهره وتصلهم بروحه . والقتام يحجب الشمس ، والقذى يفسد الشراب . وإن الماء إذا راق ساغ ، وإذا ساغ روى .

مهرجان الحرية

(٢٦ يناير سنة ١٩٥٣)

تحتشد مصر اليوم في عاصمتها القاهرة لتحتفل بذكرى يوم الحرية بعد نصف عام! ويوم الحرية أو يوم ٢٣ يوليو سنة ١٩٥٢ هو يوم مصر الأوحد في تاريخها العميق في الأتوقراطية، منذ أن رُفع (مينا) إلى العرش، إلى أن خلع (فاروق) من الملك.

كان الشعب المصري طيلة هذه القرون الاثنين والأربعين التي مرت على وجوده في هذه الأرض، أشبه بقطيع من السوائم، لا إرادة له في نفسه، ولا قيادة له من جنسه؛ وإنما كان يتولى قيادته رعاة طغاة، سموا أنفسهم آلهة أو ملوكا أو ولاة. سخروه ليظلموه، واستغلوه ليحرموه. ولم تعصمه هداية الدين من عبث خليفة كالحاكم، ولا مدنية العلم من فجور ملك كفاروق؛ حتى اجتمع على إذلاله واستغلاله في عهد الأخير، مالم يجتمع عليه في دهره الطويل، من سلطانه العواهر من نساء البلاط، وطغيان الفجار من رجال الحكم، وبغى المترفين والمسرفين من الأمراء والإقطاعيين رواد الخنا وعباد المنكر. فعصفت النخوة في رءوس الأحرار من قادة الجيش، فهبوا هبوب العاصفة الخيرة المدركة: صواعقها الماحقة للقشور الطافحة بالرذيلة، وللكراسي الغائصة في الوحل؛ ورياحها العاتية للجذوع التي نخرها السوس، وللفروع التي أذواها الخريف؛ ورعودها القاصفة للآذان التي أصمها الهوى، وللبصائر التي أعماها المال؛ وبروقها الومضة للقلوب التي أظلمت من اليأس، وللنفوس التي زاغت عن الطريق؛ وأمطارها المحيية للثرى الذي جف فلا ينبت، وللشجر الذي ذوى فلا يثمر.

وهكذا عاشت مصر فى خير هذه العاصفة المعمرة المصلحة ستة أشهر اندفعت فيها إلى الإمام اندفاع القوة المضغوطة المكظومة تنفجر انفجار البارود فتمحق وتنطلق انطلاق السهم فتلحق !

فإذا احتشدت مصر كلها بطبقاتها وطوائفها لهذا المهرجان فإنما تحتشد لتحتفل بتحررها من رق أغرق فى القدم حتى طمس فى نفوسها معانى الحرية والعزة والاستقلال والكرامة .

وشتان بين هذا المهرجان ومهرجانين أقيما من قبل : مهرجان يوم تزوج المخلوع بإرادة شعبه ، ومهرجان يوم تزوّج بإرادة قلبه . كان هذان المهرجانان من صنع السيادة والقوة ، أنفقت فيهما مئات الألوف من أموال الأمة لتغرق القصور الملكية فى القصف واللذة ، وتمتلىء الخزائن الملكية بالذهب والماس ! وافترصت الحكومة (الملكية) هذه الفرصة لتنحنى أمام الطاغوت انحناءة العبودية حتى يمس أنفها الأرض ، فحشدت الشعب فى شوارع العاصمة ليهتف وهو جوعان ، ويرقص وهو عريان ؛ وتركته يهيم فى الطرق والميادين هيام القطط الجياع والكلاب الضالة ؛ لا يجد فى نفسه فرحة المدرسين ولا متعة المدعوين ولا بهجة العرس !

أما هذا المهرجان فمن صنع الطبيعة والأمة . أقامه الخارجون من ظلام الظلم ، والناجون من إسار الرق ، كما تقيم الطبيعة مهرجان الربيع لخروجها من ظلام الشتاء ونجاتها من همود الأرض . فكما يورق الشجر ويزهر ، وينضر الزهر ويفوح ، وتمرح الطير وتهزج ، ترى الشعب من ذات نفسه يبتهج ويفرح ، ولإطراب نفسه يغنى ويرقص ، ولإطراء نفسه ينشد ويهتف !

ذلك لأنه بات ذات ليلة ثم أصبح فإذا هو صاحب العرش وصاحب الجيش وصاحب الحكم وصاحب الثروة ! نام وهو لا شىء ، ثم استيقظ وهو كل شىء !

لقد استطاع في هذه اللحظة القصيرة من عمره الأطول أن يضع هذا النير الثقيل عن كاهله الواهن بعد أن مكن له الرق المزمن بين اللحم والعصب !

كان قد ألف نير العبودية كما يألف الثور الذلول نير المحراث فلم يفكر في الانعتاق منه ؛ إلا مرة واحدة حاول أن يفلت فيها من قيده فعجز . كان هذا النير فرعاً غليظاً من هذه الشجرة الملعونة درَّعه الإنجليز بالحديد والذهب ، فشق على عرابي الثائر الأول أن يحطمه ، ثم عظم وضخم بفضل الأفظاظ الغلاظ من أولى الأمر في عهد الخليع الرقيع حتى رزحت الكواهل وخرت الأعناق ، وحسب الناس حتى المتفائلون أن الليل سرمد ، وأن الرق خلود ، فقروا على الضيم واستكانوا للهُوْن . وكادت مصر كلها تسقط بسقوط فاروق لولا أن نبه الله للخطر رهطاً اصطفاهم من رجال القيادة ، فنفخوا في الصور فنهض الجيش وانبعثت الموتى . وقاد الشعب ضباط الجيش الأحرار في معركة التحرير والتطهير والتعمير ، فحرروا الأمة من النير الباهظ ، وطهروا الوطن من الفساد الشامل ، وعمدوا إلى أوكار الأفاعي وأحجار الذئاب فقوضوها على الأذى والجريمة . ثم فتحوا أبواب الرزق المحتكر أو المغتصب فتدفق على أهله المحرومين منه المكدودين فيه . ثم لخصوا دين الله في ثلاثة أمروا بها ، وهي العدل والإحسان والمؤاخاة ؛ وثلاثة نهوا عنها ، وهي الفحشاء والمنكر والبغي ؛ وثلاثة عملوا لها ، وهي الاتحاد والنظام والعمل . ثم جعلوها كلها مبادىء (لهيئة التحرير) التي أعلنوا ميلادها اليوم في مهرجان الحرية و (ميدان التحرير) !

فمن حق الشعب إذن أن يقيم هذا المهرجان العظيم مزهواً بجهاده ، فخوراً بقواده ، معبراً بهتافه المرتفع ، وتصفيقه المدوى ، وحماسه المتقد ، وسروره الدافق ، عن اطمئنانه الواثق إلى حاضره المستقر ، وعن أمله الفسيح في مستقبله المشرق .

الرسالة تحتجب !

(٢٣ فبراير سنة ١٩٥٣)

في الوقت الذى كانت (الرسالة) تنتظر فيه أن يحتفل أصدقاؤها وقراؤها وأولياء الثقافة والصحافة في وادى النيل ، وزعماء الأدب والعلم في أقطار الشرق بانقضاء عشرين سنة من عمرها المبارك المثمر ؛ وفي الوقت الذى أشرق فيه على مصر صباح الخير بثورة الجيش المظفر ، بعد ليل طال في الظلام ، وعرض في الضلال ، وعمق في الهول ، فاسفرّ وجه العيش ، وافترّ ثغر الأمل ، وشعر كل مصرى في ظلال العهد الجديد أن وجوده إلى سمو ، وأن عمله إلى نمو ، وأن أمره إلى استقرار ؛ نعم في هذا الوقت الذى نشأ فيه لتوجيه الإرشاد وزارة ، ولتنمية الإنتاج مجلس ، ولتعميم الإصلاح خطة ، تسقط (الرسالة) في ميدان الجهاد الثقافي صريعة بعد أن انكسر في يدها آخر سلاح ، ونفد من مزودها آخر كسرة ! فكأنها جندى قاتل اليهود في فلسطين على عهد فاروق ، أو فدائى جاهد الإنجليز بالقناة في حكومة فاروق ! ولكن فاروقا دال ملكه وزال حكمه ، فبأى سبب من أسباب الفساد يؤتى المجاهد من جهة أمنه لا من جهة خوفه ، ويقتل بيد شيعته لا بيد عدوه ؟

تموت الرسالة اليوم في ضجة من أناشيد النصر في مصر ، وأهازيج الحرية في السودان ، فلا يفطن إلى نزعها هاتف ، ولا يصغى إلى أنينها منشد ! ومن قبل ذلك بشهر ماتت أختها (الثقافة) وكان الناس يومئذ في لهو قاصف من مهرجان التحرير ، فلم تبكها عين قارىء ، ولم يرثها قلب كاتب ! كأن عشرين سنة للرسالة ، وست عشرة سنة للثقافة قضتاها في خدمة الأدب والعلم والفن والإسلام والعروبة لم تهيىء لهما مكاناً في الوجود ، ولم تنشىء لهما أثراً في الخواطر ! وكأن

هاتين المجلتين اللتين أنشأتا فى أدب العصر مدرستين نشئ فيهما جيل ، وابتدأت بهما نهضة ، واجتمعت عليهما وحدة ، لم تكونا إلا ورقاً مما ينشر فى الطريق للاعلان ، يجىء به الموزع وتذهب به الريح !

وما أحب أن أحمل تبعة ما أصاب الرسالة والثقافة على زهادة الناشئين فى الأدب الجد ، ولا على فشل المعلمين فى تعليم القراءة ؛ فإنا اخترنا هذا النوع من الصحافة ونحن نعلم مايعترضه من عوائق ، وما يكتنفه من مكاره ، أقلها هذه الأمية المدرسية التى تقنع من الثقافة (بفك الخط) وقشور العلم ، فلا تهيىء المصاب بها إلا للقراءة السهلة الضحلة ، ليرى نكتة تملأ فمه بالضحك ، أوصورة تدغدغ جسده بالشهوة !

اخترنا هذا النوع من الصحافة المجاهدة المستشهدة ، ووقفنا بالرسالة على الأعراف بين آخر النقص وأول الكمال ، نأخذ بيد الأدنى ليصعد ، ونثبت قدم الأعلى ليستمسك ؛ ثم ندفع المرتفع صعدا فى السماء ليكون باستمداده أقرب إلى الحق المطلق والخير المحض والجمال الكامل .

وبحسبنا أن يصحبنا فى هذا الطريق من تهيئهم نظرهم السليمة لبلوغ الغاية منه ، وهم بحكم الندرة فى الكمال والكرم قلة . ومن السهل القريب أن تصلح القلة لتصلح الكثرة ، وأن ترفع الخاصة لترفع العامة . وليس وراء القلة مال يبتغى ولا جاه يرتجى ، وإنما سبيل المال والجاه لمن أرادهما ، العامة يستميلها بالتهريج ، والسياسة يستغلها بالدجل ، والحكومة يستدرها بالملق . والعدة إلى ذلك يسيرة المنال : حنجرة صلبة تخطب ، ويراعة مداهنة تكتب ، ونية فاسدة تملى ! ولو أرادت (الرسالة) زهرة الحياة الدنيا لعرضت ضميرها للبيع وقلمها للايجار . ويومئذ تتحول أكداس الورق فى مطبعتها العجيبة من أوراق طبع إلى أوراق نقد !

ولكن الله الذى حبب فى سبيله إلى المجاهد الأول الاستشهاد وليس فى مزوده

إلا حفنة من سويق أو قبضة من تمر ، حبب إلى (الرسالة) الجهاد فى الميدان الجدب الموحش ولا عدة لها إلا الصدق والصبر والزهد ، لتظفر بنصر المجاهد إذا فاز ، أو بأجر الشهيد إذا قُتل !

إنما التبعة فى خذلان الرسالة والثقافة على الحكومة بوجه أعم ، وعلى وزارة التربية والتعليم بوجه أخص .

كانت الحكومات الحزبية لا رحمها الله تخاف ولا تختشى . كانت تبذل العون فى صوره المختلفة للمجلات التى تعارض لتسكت ، وللصحف التى تؤيد لتقول . أما الصحف التى لا تملك لها نفعاً ولا ضراً فى سبيل الحكم والغنم ، فكانت لا تلتفت إليها إلا كما تلتفت إلى الشعب المسكين : تأمره ليطيع ، أو تسخره ليعمل . وما كانت طاعته أو عمله فى رأيها إلا واجباً مفروضاً لا شكر عليه ولا أجر له !

ومن عدلها الذى أخجل عدل عمر أنها أرسلت إلى الرسالة مأمور الضرائب الذى ترسله إلى الجرائد العظمى ، والمجلات السياسية الكبرى ؛ فلما رأى إيرادها ثلاثة أرقام وربحها رقماً أوصفراً ، أخذه الدهش ، وملكه العجب ، وقال بلهجة المستنكر : كيف يكون إيرادالمصور وأخبار اليوم وروز اليوسف كذا متعددة ، ويكون إيراد الرسالة كذا واحدة ؟ ! لابد أن يكون السجل ناقصاً والدفاتر مزورة ! ورفض المأمور الذكى الدقيق الوثائق وعمد إلى التقدير الجزاف ، فصال وجال ، وتخيل ثم خال ، وفرض فيما فرض أن فى كل عدد من أعداد المجلة خمسين إعلاناً على التقدير الأقل ، أجرتها فى الأسبوع كذا ، وفى السنة كذا . فلما نبهته عيناه اللتان فى رأسه إلى أن كل عدد لا يزيد ما فيه على إعلانين فى الواقع ، أمرهما ألا تدخلا فيما لا يعنيهما ! ومضى بسلامة الله يكره القواعد الأربع على أن (تعمل له حسابا) كما فكر وقدر ، حتى بلغت جملة ما على الرسالة

لمصلحة الضرائب : (٢٤٨٥٥) جنيها فى سبع سنوات ! وهالت أرقام هذا التقدير (لجنة التقدير) فخفضتها إلى (١٢٦٠٧) بالتقدير الجزاف أيضاً . ثم حجزت على المطبعة والدار ، وأمرتنا بتنفيذ هذا القرار ! ولما لجأنا إلى القضاء عوقه محاموها سنتين عن الفصل ، وما زالوا يعوقونه بالتأجيل العابث ، والمصلحة لا تكترث ولا تهتم ما دامت تطالب وتهدد ، والممول يسارع ويسدد !

ثم كانت الحكومة تبعث إلى الرسالة ببعض الفتات من إعلانات الوزارات فى حدود الفائض من الصحف المؤيدة . فلما نقصت الموارد وضاقت الميزانية قصوا الأطراف الزوائد من (المصروفات) فكان منها على زعمهم نصيب المجلات الأدبية !

أما التبعة التى على وزارة التربية والتعليم خاصة فهى أثقل من أن يحملها ضمير مسئول . كانت هذه الوزارة ولا تزال تعين المدارس الحرة ، وتمون المكتبات العامة ، وتمول الفرق التمثيلية ، وتدبر الجامعة الشعبية ، وتمنى بألوان الثقافة على الجملة . ولكنها — واعجبا — لم تدرك إلى اليوم أن المجلة الأدبية الجدية مدرسة متنقلة ، تدخل كل مكان فى أى بيئة ، وتعلم كل إنسان فى أى سن ، وتفعل ما لا تستطيع أن تفعله الوزارة نفسها من إحياء اللغة ، وإنهاض الأدب ، وتبسيط العلم ، وتعميم الثقافة ، وتوجيه الرأى ، وتأليف القلوب ، وتوحيد العرب ، والسفارة بين مصر وأقطار العروبة ، والتمكين لزعامتها الفكرية فى بلاد الشرق . فلو أنها أدركت ذلك لأعانت المجلات الأدبية على أداء رسالتها ببعض ما تعين به معاهد التعليم ومسارح التمثيل ومراكز الثقافة ؛ ولكنها — وأسفا — لم تدرك منذ العام الماضى إلا أن اشتراكها فى خمسمائة نسخة لمدارسها ومكتباتها من الرسالة والثقافة ، هو الذى أثقل كفة المصروفات فى الميزانية التعليمية فألغته لتعتدل الكفتان ! وبهذه القشة المباركة قصمت ظهر البعير !

كانت الرسالة منذ فحش غلاء الورق ، وفدحت نفقات الطبع ، تكفى نفسها أو تخسر قليلا . وكنا نواجه هذه الحال بالتعفف والتقشف والصبر فتنساغ مرارتها أو تخف . فلما شاءت الضرائب ألا تعقل ، وأرادت الحكومة ألا تعلن ، وقررت وزارة التربية والتعليم ألا تشترك ، أخذت الخسارة تنمو وتطرد حتى بلغت فى العام المنصرم ألفا ومائة وعشرين جنيها . فرأينا فى مطلع هذا العام أن نقوى الرسالة لتصمد ، وأن نعيد (الرواية) لتساعد ، فإذا بالخسارة تتسع ، وبالطاقة تضيق ، وبالأزمة تشتد ، وبالأمل يضعف ؛ فلم نجد بدا من الإذعان لمشيئة القدر !

لقد قلنا يوم بلغت الرسالة عددها الألف أو عامها العشرين : « إنا نطمع فى فضل الله أن تزيد الرسالة قوة فى عهد مصر الجديد . وما تسأل الرسالة العون إلا من الله ، فقد عودها جل شأنه ألا تفزع إلا إليه فيما يحزب من أمر وفيما ينوب من مكروه . ولعل السر فى بقائها إلى اليوم على ضعف وسيلتها وقلة حيلتها ، أنها عفت عن المال الحرام فلا تجد لها اسما فى (المصروفات السرية) ، ولا فعلا فى المهاترات الحزبية ، ولا حرفا من الإعلانات اليهودية .

« وإذا لم يكن للفضيلة رواج فى عهد غرق فيه (القصر) فى الفحش والمنكر والبغى والاغتصاب والاستبداد والقتل ، وارتطمت فيه (الحكومة) فى الاختلاس والغش والخيانة والرشوة والمحاباة والختل ، فإنا لنرجو أن يكون لها من السيادة والفوز نصيب فى عهد يتولى الأمر فيه بإذن الله جمال عبد الناصر وصحبه » .

ولكن القضاء غالب . والرجاء فى الله أولى ، ولكل أجل كتاب ، ولكل سافرة حجاب . ولكل بداية نهاية !

لماذا كانت وحدة الأدب العربي القصيدة

ووحدة الأدب الغربي القصة ؟

لايكاد النقد العربى يعرف من فنون القول غير الشعر . هو مادة تحليله وتمثيله ، وهو موضوع موازنته وتفضيله ، وهو المفهوم الأول من لفظ الأدب . فمن لم يكن من الأدباء شاعراً غض ذلك من أدبه ونقص من كفايته . وفى رأى البديع الهمذانى أن الجاحظ على تفوقه فى الرسائل والمقالات والقصص قد انحط عن مقامه فى الأدب اضعف شعره . والجاحظ نفسه وهو أمير الكتاب فى عصره ، لم يرو فى كتابه (البيان والتبيين) إلا الشعر وما شاكله من الخطب . وعلوم البلاغة الثلاثة إنما كان سداها ولحمتها الشعر ، فنماذجها مستمدة منه ، ومباحثها دائرة عليه . وقدامة بن جعفر يضع كتابه (نقد الشعر) ثم يرى أن النثر فى عصره قد رسخت أصوله وتشاجنت فروعه وتنوعت ثماره ، فيضع كتابه (نقد النثر) ، ولكنه يتحدث فى ثلاثة أرباعه عن الشعر . والنقاد المعاصرون ومؤرخو الأدب الحديث يرون أن النثر قد استبد بنتاج القرائح واستقل بثمار الفكر ، ولكنهم لايزالون يرون أن الأدب هو الشعر قبل أن يكون شيئاً آخر . فهم يتخذونه مقياسا للنهضة بين عصر وعصر ، ويجعلونه أساسا للمفاضلة بين أديب وأديب . وهم يقيمون عليه أميرا من مصر أو من غير مصر ، ويتتبعون تطوره فى الوطن وفى المهجر . والشعر منذ أواخر القرن الخامس إلى أوائل القرن العشرين ظل محصورا فى التعبير عن نفس الشاعر لا يتعداها إلى تحليل التاريخ فى الملحمة أو تمثيل البيئة فى الرواية ، فظلت وحدة التداول الأدبى فى بلاد الشرق هى القصيدة .

نجد ذلك فى الأدب العربى ولا تكاد نجد نظيره فى الآداب الأخرى

ففى أدب الإغريق تساوت كفتا النظم والنثر فى المحاورات والخطب والمسرحيات والملاحم . وفى أدب الرومان رجحت كفة النثر فى الخطابة والفقه والتشريع والسياسة . وفى أدب الفرنج خلص الشعر لتصوير المجتمع فى الملاهى والمآسى ، وأمعن النثر فى خلق دنيا من الأشخاص والحوادث ، فأصبحت وحدة التداول الأدبى فى بلاد الغرب هى القصة . فبماذا نعلل سلطان الشعر وتأصله فى القصيدة هنا ، وسلطان النثر وتنوعه فى القصص هناك ؟

نعلل سلطان الشعر على العرب بأن اللغة العربية بحلاوة جرسها وعذوبة لفظها وتلاؤم صيغها وتركب جملها مقاطع قصيرة وأخرى طويلة كانت بطبيعتها لغة شعر . ومن هنا سهل على الصرفيين أن يضبطوا كلماتها بموازين لا تشذ ، وتسنى للعروضيين أن يقيدوا مقاطعها بتفاعيل لا تختلف . وهذه الخاصة الشعرية التى تميزت بها العربية إنما جاءتها من طبيعة العرب أنفسهم ، فقد آتاهم الله من سلامة الذوق ولطافة الحس وصفاء النفس ما ساعدهم على تهذيب لغتهم بالإعلال والإبدال والتسكين والحذف . ثم ساعدتهم هى فى دورها على أن يأتى كلامهم العالى كله منظوماً أو مسجوعاً أو مزدوجاً فى رجز يحمس أو قصيد يؤثر أو حكمة تبقى أو مثل يسير . وقد حرمتهم البداوة والانعزال بعد النظر وعمق التفكير وطول البحث ، فاكتفوا بالنظرة الخاطفة والفكرة العامة والإشارة الدالة ، يعبرون عنها بجمل مركزة توجه إلى الأذن فلابد لها من الموسيقى لتسوغ ، وإلى الحافظة فلابد لها من الإيجاز لتحفظ . ثم تقرأ هذا الكلام فلا تجد الضوء الذى يعم ، ولا الحرارة التى تدوم ، وإنما تجد فيه لمعات من الذهن الموهوب تومض كشرر الزند ثم لا تلبث أن تنطفىء .

ومن هذا النتاج الفنى المحفوظ اجتمع للعرب فى القرن السادس للميلاد جملة ضخمة من الأدب المنظوم ، عكف على حفظها الرواة ، وانقطع لدرسها الأدباء ،

وأثاب على جمعها الملوك ، وجعلها النحويون الحجة ، لصحة القواعد و بلاغة الأسلوب ، واعتدها البيانيون الطريقة التي تحتذى ، وسموا تسلسلها من عصر إلى عصر عمود الشعر .

ذلك إلى أن الخلفاء والأمراء ورثوا عن أوليهم حب الشعر وشهوة المديح ، فاحتفلوا له في المجالس ، وشجعوا عليه بالجوائز . ولم يجد الشعراء العيش ميسوراً بغيره ففرغوا له وعاشوا . ثم كان النثر الفني قد تأخر ظهوره إلى القرن الثاني الهجري حين نضجت العقول وأثمرت العلوم فمكن تأخره للشعر أن يستقل بمفهوم الأدب . وكان أول من حمل لواء النثر الفقهاء والمتكلمون فحددوا معاني الألفاظ ، وقيدوا إطلاق الكلام ، وعناهم من الأسلوب الدقة والوجازة والوضوح قبل أن يعنيهم منه الأناقة والطلاوة والرمز . ومتون العلوم وشروحها في جميع اللغات نماذج للأسلوب المبرأ من الحشو والفضول والإبهام . والقانون المدني الفرنسي آية الآيات في هذه الصفات حتى كان (بلزاك) شديد الإعجاب به ولوعاً بإدمان النظر فيه . ولقد صرّف العلماء النثر في تأليف الكتب وتحرير المقالات وتدبيج الرسائل ، ولكنهم لم يستطيعوا أن يملأوا به الأسماع لتعذر النسخ وصعوبة النشر ، فانحصر النثر في مدارس العلماء والدعاة ، كما انحصر الشعر في مجالس الخلفاء والسراة . وظلت الصناعتان من هم الخاصة : أرباب السيف يستهلكونها للمجد والشهرة ، وأرباب القلم ينتجونها للمال والحظوة . ولكن النظم كان أشير الصناعتين على الأفواه لحسن إيقاعه وسهولة حفظه وميل النفوس إليه بالطبع أو بالوراثة . ومما عاق النثر عن اللحاق به أن الكتاب خضعوا الهواهم الباطن لموسيقى اللغة فسلكوا بالكتابة طريق الفن للفن ، فآثروا السجع ولم يؤثروا الترسل ، وجاروا الصنعة ولم يجاروا بالطبع ، وكتبوا المقامة ولم يكتبوا القصة . ومن أجل ذلك ازدرى الأدباء فن القصص ورغبوا عنه استكباراً وأنفة .

وجرى علماء البيان والنقد على أن يخرجوه من دائرة الأدب ويجعلوه من عمل العامة حتى رد إليه اعتباره فى العصر الحديث .

ذلك تعليل سلطان الشعر على أدب العرب . أما تعليل سلطان القصص على أدب الفرنج فهو أن أدبهم بنى على أسس من أدب الإغريق . فالأدب الإغريقى للأدب الفرنجى بمثابة الأدب الجاهلى للأدب العربى . وأظهر الخصائص فى أدب اليونان فن الحكاية بضروبه المختلفة من ملاحم ومسرحيات القصص ، لأنه أدب اجتماعى ديمقراطى يجمع بين الملوك والسوقة فى تمجيد الآلهة والأبطال وترفيه الشعب والعامة . وقد ورث الرومان عن اليونان هذه الخصائص وورثوها الأمم الأوربية فضلا عن اكتسابهم إياها بالتلقين والمحاكاة .

ولقد كان لوجود المسرح الوثنى عند الإغريق وتأسيس المسرح المسيحى على أنقاضه عند الفرنج أثر قوى فى توجيه الأدب الأوربى نحو القصص بنوعيه المنظوم والمنثور . ثم اتخذ الملوك والأمراء المسارح فى القصور ، وأقام الممثلون والشعراء أمثالها فى الساحات والدور ، واستتبع ذلك تعضيد الخواص لوضع الروايات ، وحرص العوام على شهود التمثيل . ثم اخترعت المطبعة وازدهرت الحضارة وانتشرت الثقافة وكان حب القصص قد صار فى الناس طبعاً من الطباع ، فافتن الأدباء فيه ، وكثر الناشرون له ، واحتفى النقاد به ، وأقبل القراء عليه ، فتنوعت أساليبه ، وتشعبت أغراضه ، وتعددت مذاهبه ، وطغى على فنون الأدب الأخرى حتى صار مظهر العبقرية ، ومقياس النبوغ ، ومجال التسابق ، وموضوع التفاضل ، وإطاراً تتجلى فيه صور الفكر ، وبوتقة تنصهر فيها مواد العلم ، ودنيا للفن يجد فيها القارىء من غرائب الواقع وأفانين الخيال ما فيه غذاء عقله وشفاء نفسه وبهجة قلبه وراحة ضميره .

تلك على الإجمال علل الخلاف بين أدبنا وأدبهم فى الطبيعة والنزعة . وفى يقينى أن تأثرنا المستمر بأدب الغرب ، وتخلف الشعر عن النثر فى ميدان الإنتاج . وتناقص الأمية فى جمهور الشعب ، ونضج العقلية العلمية فى أمم الشرق ، ستقضى على الخلاف بين الأدبين ، فيعتدل ميزان النقد ، ويعدل تاريخ الأدب ، وينفذ حكم الواقع ، ويعترف الناس بسلطان النثر على النظم ، وطغيان القصص على القصيد .

العربية جزء من حقيقة الإسلام

اللغة العربية جزء من حقيقة الإسلام ما في ذلك شك. كانت ترجمانا لوحي الله ولغة لكتابه ومعجزة لرسوله ولسانا لدعوته. ثم هذبها النبي بحديثه، ونشرها الدين بانتشاره، وخلدها القرآن بخلوده. فالقرآن لا يسمى قرآنا إلا فيها، والصلاة لا تكون صلاة إلا بها. والحكمة الالهية من ذلك ظاهرة؛ لأن الإسلام خاتم الأديان كلها، فلا بد أن تكون رسالته تامة لا يلحقها نقص الانسان ولا يسبقها تطور العالم. ولا بد أن تكون عامة لا يقصد بها قوم دون قوم، ولا يصلح عليها عصر دون عصر. والنتيجة المحتومة لهذا التمام وذلك العموم أن يجتمع الناس كافة في نظام سياسي واحد وضعه الله بقوله: « إنما المؤمنون إخوة »، ثم شرع له الحج مؤتمراً سنويا ليقوى، وجعل له الخلافة رباطا أبديا ليبقى، ثم اختار له العربية لتكون جمعة ما بين الألسن المختلفة، ووصلة ما بين القلوب المتباعدة. ودليل هذا الاختيار أن أنزل كتابه بها وتكفل أن يحفظها بحفظه، فقال تعالى: « أنا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون ». لذلك سارت العربية مع الفاتحين تُخضع إلى سلطانها كل لغة في كل بلد حتى أصبحت في عصر بني العباس وهو عصرها الذهبي لغة الدين والأدب والعلم والسياسه والإدارة والحضارة في أكثر الدنيا القديمة، وحتى أصبح المسلم ينتقل من قطر إلى قطر في عالمه الإسلامي كما ينتقل من بلد إلى بلد في وطنه الأصلي، لا يجد مشقة في التفاهم، ولا صعوبة في التعامل، ولا شدة في المعيشة.

فلما وهى النظام الجامع وانفرط العقد المتسق واختلف اللسان المتفق ذهب المسلمون أباديد لا ينظمهم ملك ولا تؤلف بينهم وحدة. ثم هب العرب

فنهضوا ، وعاد الإسلام فانبعث . وكان الاستعمار قد توقح وفجر ، فنشأت العصبيات الوطنية فى الممالك الاسلامية لدرء خطره أو تخفيف ضرره . وكان من ذلك أن قامت باكستان ، واستقلت أندونيسيا ، وتحررت سوريا ولبنان ومصر . وتعاطف أتباع محمد على البعد تعاطف الأخوة فى الغربة ، وتذكروا أن دينهم هو التوحيد : توحيد الله وتوحيد الكلمة وتوحيد الغاية وتوحيد القبلة وتوحيد اللغة ، فهفت قلوب إلى قلوب ، وسعى بعض إلى بعض ، وأوشكت الأمم الإسلامية الأربع عشرة أن تؤلف الجامعة الإسلامية ، وهى وحدها كما قلنا من قبل تملك غرس الوئام فى النفوس وإقرار السلام فى العالم ، لأنها تقوم على الإيمان المحض ، وتنزل فى خير مكان من الأرض ، وتشمل مئات الملايين من الناس ، وتهيمن على الموارد الأولى للاقتصاد ، وتدين بالآداب السماوية المثلى للاجتماع ، وتشرق أعمالها فى الصفحات العظمى من التاريخ . ولكن اتحادها على أى صورة من صور الاتحاد لا يتم إلا بالسر الذى أودعه الله جوهر الإسلام وهو التحاب فى ذاته والتعاون فى سبيله والتفاهم على حقه . وملاك ذلك كله اللغة .

واللغة وحدها رابطة وثيقة فلولا رباط الإنجليزية بين أمم (الكومنولث) لما استطاع أن يربط بينها التاج . ولولا رباط العبرية بين شذاذ اليهود لما استطاع أن يجمع بينهم الدين . وإن الرجل الشرقى المسلم يتعلم الإنجليزية أو الفرنسية فيكون هواه ورأيه مع أهل هذه اللغة أو تلك . ولعله يألف الألمانى إذا كان يعرف الألمانية أكثر مما يألف التركى إذا كان يجهل التركية . وليس من المبالغة أن نقول إن اللغة أقوى الصلات الاجتماعية فى التأليف بين الإنسان والإنسان . أقوى فى ذلك من الدين والوطنية . فما يكون بين المسلم والقبطى من التآلف باتحاد اللغة لا يكون مثله بين الأندونيسى والإيرانى باتحاد العقيدة ، ولا بين العربى والكردى باتحاد الوطن .

والسبيل والقصد إلى تحقيق الجامعة المحمدية العظمى ، أو إعادة الدولة الإسلامية الكبرى ، هي أن تكون اللغة العربية لغة عامة لباكستان والصين وأندونيسيا وتركيا وإيران والأفغان ، تفرض هذه الدول تعليمها في مدارسها الابتدائية والثانوية بجانب لغاتها الأصلية . وقد بدأت باكستان مشكورة فأدخلت العربية في مواد الدراسة ، على أن يكون تعلمها اختياراً لا اضطراراً . وهي على كل حال خطوة مسددة وخطة موفقة . ولن يغض منها أن الطالب يختار بينها وبين لغة أخرى ، فإن للعربية ما للاسلام من قوة الانتشار الذاتي . فكما أن الإسلام ببساطته وطبيعته ووضوحه وجماله يسري بنفسه في النفوس مسرى النور في الظلام والبرء في السقام . فإن العربية بحلاوة جرسها وبلاغة أسلوبها وغنى أدبها وقداسة ماضيها تجري على الالسنة مجرى الذكر على القلب أو الفكر في الخاطر . وتاريخها مع القبطية في مصر ، والرومية في الشام ، والفارسية في العراق ، والبربرية في أفريقية ، معروف . ولا تظن أن سلطان العرب أو طغيان الفتوح هو الذي بسط لها هذا النفوذ ومكن لها في هذه الشعوب ، فإن اللاتينية غزت المغرب والمشرق وكان من ورائها امبراطورية الرومان ، والتركية غزت الشرقين الأدنى والأوسط وكان من ورائها خلافة بني عثمان ،ومع ذلك ظلتا على تطاول الدهر واستطالة القهر لساناً للادارة والجيش لا تتعداها إلى البيت والسوق ؛ فلم تغلبا حين طغت سطوتاهما على لغة من لغات الناس ، ولم تمكنا بعد أن دالت دولتاهما في بقعة من بقاع الأرض .

على أن الراغبين في تحقيق الوحدة الأسلامية والثقافية استجابة لإلحاح الضرورة واستحثاث الحال إن تركوا العربية لطبيعتها تنتشر بانتشار الوعي الديني في الشرق الإسلامي خشوا أن يطول الأمد وتبعد الشقة . فهم حريصون أن يضعوا لتعميم لسان الوحي ولغة القرآن سياسة ملزمة يتفق عليها أولياء المسلمين وينفذونها في أممهم بإخلاص المؤمن وعزم المصلح .

ومما يثلج الصدور وينعش الآمال أن أصول هذه السياسة المرجوة قد وضحت في منهاج مؤتمر الشبيبة الإسلامية الذى انعقد في كراتشى فى اليوم الثانى من شهر يناير الماضى وشهده أكثر من سبعين وفداً يمثلون أقطاراً مختلفة من آسيا وأفريقيا وأوربا . ونرجو أن تزداد هذه السياسة وضوحاً وبروزاً فى منهاج المؤتمر الإسلامى الذى سيعقد بمكة فى موسم الحج القادم . سيرى المسلمون كلما ائتمروا فى بلد أو اجتمعوا فى مكان أنهم متحدون فى القبلة والوجهة والغاية ، ولكن ألسنتهم هى وحدها التى تختلف . . . وسيجدون فى أنفسهم مس الغضاضة حين لا يجدون أداة يتفاهمون بها غير الإنجليزية أو الفرنسية ، واللغة التى تحمل كلمة الله وروح محمد وسر الإسلام كانت أولى أن تكون لسانا لهم . . وسيحفزهم ما رأوا وما وجدوا إلى أن يسدوا هذا النقص ويوفروا هذه الأداة ويرفعوا هذا الحاجز لتتصل الأفهام وتمتزج الأرواح ويشعر أبناء الأمة الوسط أنهم بوحدتهم وقوتهم وعزتهم وعقيدتهم خير أمة أخرجت للناس .

مذهبي في الحياة

لكل إنسان مذهب في الحياة ، يبتدىء بأمله وينتهي بأجله . كل نفس من أنفاسه خطوة عليه ، وكل دور من عمره مرحلة فيه . والمذاهب تختلف باختلاف الناس في الطينة والبيئة والوراثة والبيئة منها ما يؤدي ، ومنها ما لا يؤدي . وربما يؤدي المعوج كما يؤدي المستقيم ؛ ولكن المؤدى إليه في الحالين لا يكون متحداً لا في طبيعته ولا في نتيجته . وقد يعتري المذهب ما يعتري النفس من الغموض والانبهام ، فتلتبس الوجهة على السالك حتى لا يعرف قبيلا من دبير . وهنا ينفع الدليل . وخير الأدلاء من أشرف على غاية الطريق فاكتسب تجربة بسنه أو خبرة بعلمه .

لذلك كان من الخير للبادئين من الناشئين من الشباب أن يطيلوا النظر في مذاهب المنتهين من الشيوخ ، فإن ذهاب الشباب مذهب الناجحين الناجين أجدى عليهم من اعتساف الطريق أو اختلاط الحيرة . ودونك مذهبي .

* * *

مذهبي في الحياة يتميز بالاستقامة والوضوح . وبفضل هاتين الميزتين بلغت الغاية التي قصدتها منذ وعيت .

لم أبلغ عليه الثراء الضخم ولا الجاه العريض ، ولكني بلغت عليه العيش الرخي ، والبال الرضي ، والذكر الحسن . والسعادة الحق أقرب إلى الرضا والسكينة منها إلا المال والمنصب .

حرصت على أن يكون مذهبي مستقيماً ، حتى كانت العقبة الضخمة تعترض فأقف دونها طويلا ، أفتتها بمعولي الصغير حصاة حصاة إلى أن تذل وتزول .

ولو أنى انحرفت عنها كثيراً أو قليلا ذات اليمين أو ذات الشمال لخاصت منها . وبلغت الغاية فى أقل زمن وأيسر جهد . ولـكنى كنت أستريح بطبيعتى إلى الحديث المأثور . « عليـكم بالجادَّة ودعوا البُنيات » . يريد الرسول الـكريم بالجادة وسط الطريق وهو الاعتدال ، وبالبنيات الطرق الصغار التى تتشعب من الجادة وهى مظنة الزيغ والضلال والتعدى والهلـكة .

* * *

وحرصت على أن يكون مذهبى واضحاً ، حتى كانت المشكلة الصعبة تعرض فيـكون حلها يسيراً بشىء من النفاق وقليل من المصانعة ؛ ولـكنى كنت أنفر من ذلك كله وأحاول أن أعالجها بالصدق والصبر والصراحة ، فتنحل بعد أن تترك فى النفس من الأثر ما يتركه الجرح فى الجسد من الندوب ؛ ولـكن هذه الندوب ستظل على الزمن مناراً للذة من لذات الروح تشيع فيها العزة والحرية والـكرامة .

نهج لى هذا المذهب وألزمنى إياه طبع حر مسالم ؛ فأنا منذ حملت نصيبى من عبء الحياة أحاول أن أستقل فى عملى عن إرادة الغير ، وأستغنى بقدرتى عن معونة الناس ، فلم أضع يدى ولا عنقى فى أغلال الوظائف الحـكومية ، ولم أصعد صعود العليق على أكتاف الطوال من ذوى السلطان والحـكم ؛ وإنما اضطربت فى مجالى الحيوى طليقاً من كل قيد إلا قيـــد الخلق ، مستقلا عن كل عون إلا عون الله . بذلك سلمت نفسى من رذائل الوظيفة فلا جبن ولا رياء ولا ملق ، وبرئت حياتى من نقائص التبعية فلا خضوع وإلا إغضاء ولا ذلة .

من مذهبى أن أدع الخلق للخالق فلا أنتقد ولا أعترض ، ولا أمد عينى وراء الحجب ، ولا أرهف أذنى خلف الجدر ، ولا أدس أنفى بين الوجوه ، ولا أزحم بمنكبى من يمشى عن يمينى أو عن يسارى ما دام الطريق مفتوحا أمامى إلى

الوجه الذى أقصده . لذلك عشت لين الجانب سليم الصدر لا أدخل فى جدل ولا أشارك فى مراء ولا ألج فى منافسة . وكان من جدوى ذلك على أن الله وقانى عذاب الحسد ، وكفانى سر العداوة ، وجعل ما بينى وبين الناس قائماً على المجاملة والمساهلة والود .

ومن مذهبى أن أسقط الماضى من حساب الحاضر فور انقطاعه ، فلا أحزن على ما فاتنى فيه ، ولا آلم لما ساءنى منه . وتصيبنى الخسارة فلا أجزع ، إنما أطرحها من ربح الصحة والنجاح والأمن ؛ ثم أدبر أمرى على اعتبار أنها لم تكن . ويسوءنى الصديق فلا أبتئس ؛ إنما أحمل إساءته على حيوانيته وأثرته. فإذا عاد إلى الإحسان لا أعاتبه على ما كان ولا أذكره بما فعل. وأى نفع أرتجيه من تعكير ما راق وإشعال ما خمد ؟ إنى لا أصادق إلا من أحب. واللذة التى أجدها فى حب الإنسان ، تعوضنى من الألم الذى أجده فى لؤم الحيوان ..

وللايثار جانب عظيم من مذهبى فى الحياة ؛ فأنا أوثر صاحبى على نفسى فى المجلس والحديث والهوى. وقد أوثره أحياناً بالمنفعة ،لأن شعورى بأن أدخل السرور عليه ، أو أجلب السعادة إليه ، أجل فى نفسى من شعورى بأن أتصدر فى الجلوس أو أنفرد بالكلام أو أتغلب فى الإرادة أو أختص بالفائدة .

ومن مذهبى أن أكره الظهور وأمقت الدعوى وأجتنب الفضول ؛ فأنا أعيش فى عزلة وأعمل فى صمت وأمشى فى قصد . وهذه الخلال قد تعوق عن الوصول فى عصر كهذا العصر، أعماله تظاهر، وأقواله هتاف ، ووسائله إعلان ، وغاياته شهوة ، ولكن الذين يندفعون إلى الأمام بهذه الدوافع لا يلبثون أن يفقدوا الأجنحة المصنوعة والمحركات المستعارة فيقفوا حتى يفوتهم أولئك الذين يسيرون هوناً على أقدامهم الطبيعية ، أو على مراكبهم الخاصة ، من

غير أن ينالهم خزى أو يمسهم لغوب. من أجل ذلك لم أدخل فى حزب ولم أقف على منصة ولم أظهر فى جريدة .

على أننى نلت شرف الجهاد الوطنى فى الثورتين المصريتين ، فكنت فى الأولى جندياً مجهولا أكتب المنشورات السرية للطلبة وأنا مدرس فى « المدرسة الإعدادية » ، وكنت فى الأخرى وطنياً معروفا أوقظ الوعى القومى وألهب الشعور الوطنى وأنا محرر فى مجلة « الرسالة » ، ومع ذلك قلما عرفنى زعيم أو رآنى حاكم ومعرفة الزعيم أو رؤية الحاكم كانت يومئذ من أحاديث المنى وهواجس الأحلام ، ولكن أكثر الأمانى ضلال وأكثر الأحلام وهم .

ومن مذهبى أن أجعل الجمال سبيلا إلى الخير ودليلا على الحق ، فأنا أتوخاه فى اللباس والطعام والمسكن والأثاث . كما أتوخاه فى النفس والفن والطبيعة .

والمذهب طريق تذهب فيه . فإذا لم يكن له من الجمال شجر يحنو على جوانبه بالظل ، وزهر ينسم على أفيائه بالعطر ، وحادٍ يرفه على سالكيه بالنغم ، كانت الحياة بأساء من غير نعيم . وصحراء من غير واحة .

هذا مذهبى سننته على هدى الفطرة التى فطرنى الله عليها ، وسلكته منذ ابتدأت حياتى ، وسأسلكه إلى أن تنتهى . ولو كان فى الإمكان أن أورثه ولدى لسعدت به حياً وميتاً ، ورضيت عنه دنيا وأخرى !

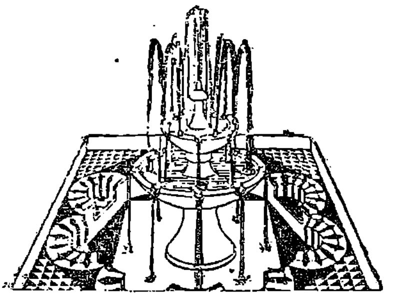

شبابٌ وشيوخ، أو عامية وفصحى

ليس من طبعى أن أدخل فى جدل ولا أن أشارك فى مراء ؛ فإن الجدل — وا أسفاه — لا يزال فى أدبنا نوعا من المصارعة الحرة ، وسيلة للصارع فيها أن يصرع ولو بالكيد، وغايته منها أن يغلب ولو بالباطل .. وأنا أوثر أن تجرى حياتى جريان الجدول الهادىء المنساب ، لا يعترضه شلال فيهدر، ولا يصده صخر فيلتوى . لذلك كانت الخصومات الأدبية تنشب الحين بين الحين ، فى الرسالة وفى غير الرسالة ، بين الكتاب فلا أشترك فيها بلسان ولا قلم .

ولكن من الخصومات ما يكون فيها معنى الشيوع ، إذا تعلقت بقدس من الأقداس المشتركة كالوطن أو الدين أو اللغة ، فتشعر أنك خصم فيها وإن لم تكن ، وأنك مدفوع إليها وإن لم ترد .

ولقد شاء بعض الأدباء الشباب أن يجعلوا بينهم وبين الأدباء الشيوخ خصومة ، فكانوا يثيرونها فى الصحف كلما حلى فى صدورهم ذلك . وكان موضوع الخصومة فى كل مرة يقاسى الوهن عن ضعف السبب وانقطاع الحجة ، فإن الخصومة بين الأبناء والآباء ، أو بين التلاميذ والأساتذة ، لا تسوغ فى الطبع ولا تجوز فى العرف .. إلا إذا دعت إليها دواع قوية من خيانة الوطن أو معصية الله أو مجافاة الحق . والأدباء الشيوخ كانوا وما زالوا المنارة للأمة فى طريق الحياة : ترسل النور إلى الضال فيهتدى ، وتبعث الأمل فى اليائس فينشط ، وتنفخ الروح فى الوانى فينهض . وهم الذين أيقظوا الوعى والحس خامد ، وجاهدوا الاستعمار والشعب مستكين ، وأعلنوا الإصلاح الفساد مستحكم .

والأدباء الشيوخ كانوا — وما زالوا — معقل الدين وموئل كتابه ، يجددون

المدارس منه ، ويدفعون الشبهات عنه ، ويظهرون الإعجاز فيه. وهم الذين تسلموا شعلة الفكر العربي فى أواخر القرن التاسع عشر من أدباء لم تهيئهم ثقافتهم ولا حضارتهم أن يمدوها بوقود من عصارة الذهن ، ولا بقبس من نور الوحى، فأتاح الله لهم من مواتاة الملكات ومعاونة الظروف واكتمال الأداة ما مكنهم من اذكاء هذه الشعلة ، فأوقدوها بالزيت والكهرباء ، وجلوا نورها السماوى فى مصابيح من فنون البلاغة والحكمة .

والشباب لا يستطيعون أن يقولوا صادقين ، أو جادين ، إن الشيوخ تخلفوا عن ركب الحياة . . فإنهم لا يزالون يعايشون الناس ويسايرون العلم ويتابعون القراءة ويوالون الإنتاج . وهم بحكم التجارب المثمرة والثقافة المحيطة والمران الطويل يشعرون أشد الشعور ويفهمون أعمق الفهم ويعبرون أصدق التعبير . وشيوخ الأدب فى أوربا وأمريكا هم قادة الفكر وأقطاب البيان ومجازو (نوبل) وأعضاء المجامع وأساتذة الجامعات . ولا يجد الشباب فى هذه الصدارة الطبيعية مسقطة لهم ولا غضاضة عليهم ، لأنهم سيخلفونهم على كل أولئك متى بذلوا الجهد الذى بذلوه ، وصعدوا الدرج الذى صعدوه . . فليس هناك إذن من الأسباب القوية أو الضعيفة ما ينشىء خصومة بين شيوخ كانوا شباباً ، وشباب سيكونون شيوخاً .

والحق الصريح أن الخصومة ليست بين الشباب والشيوخ ، وإنما هى بين العامية والفصحى . فالعامية تتخذ لسانها المهاجم من أولئك لأنهم دعاتها ، والفصحى تتخذ لسانها المدافع من هؤلاء لأنهم حماتها. وكراهة الشباب للفصحى لا ترجع إلى نقص فيها أو قصور منها ، وإنما ترجع إلى قلة العلم بها وسوء الفهم لها . وقلة العلم بها لا تعود إلى مطلبها الصعب أو أمرها المعضل . وإنما تعود إلى سوء الطريقة فى تعليمها وضعف الرغبة فى تعلمها . فلا المعلم صادق الجهاد فيما يعطى ، ولا المتعلم حسن الاستعداد لما يأخذ .

والنتيجة المحتومة لهذه الحال أن يصبح الغرض من دراسة اللغة هو اجتياز الامتحان بأية وسيلة ، فالكتب المطولة تختصر ، والمختصرة تختزل ، والباقى بعد ذلك فى ذاكرة الطالب يكون رموزا لمعان غائمة عائمة لا هى واضحة ولا هى مستقرة . فإذا تخرج الناشىء بهذا الحظ المنكود من اللغة ، وكان فى نفسه ميل إلى الأدب وفى طبعه استعداد للكتابة ، انصرف عن كنوز الأدب العربى لأن مفاتيحها ليست عنده ، وأقبل على روائع الأدب الغربى يحاكيها ويستوحيها .. حتى إذا امتلأ ذهنه وفاض شعوره وأراد أن ينتج شيئاً يفيد الناس ، وجد فى نفسه الملكة التى تخلق ، وفى حسه الصورة التى تمتع ، ولكنه لا يجد فى لسانه اللغة التى تعبر ، ولا فى قلمه الأسلوب الذى يؤثر . فيضيق ويسخط ويثور ، ويزعم أن قواعد اللغة غصة لا تساغ ، وأن إعراب الكلمة عقبة لا تذلل . . ثم يتطرف فيدعو إلى إطلاق الحرية للكاتب فيكتب كما يشاء ، لا يتقيد بقاعدة من نحو ، ولا بقياس من صرف ، ولا بنظام من بلاغة .

ومعنى ذلك تغلب العامية لا لأنها أفضل ، ولكن لأنها أسهل : فإن تحصيلها لا يحتاج إلى كتاب ومعلم ومدرسة ، وإنما يحتاج إلى بواب وخادم وشارع ! ومعنى تغلب العامية فصل الأدب عن الدين ، وقطع الحاضر عن الماضى ، وعزل مصر عن العرب .

فلو أن أدباءنا الشباب فعلوا ما فعل أدباؤنا الشيوخ ، فاستبطنوا لغتهم . وتعمقوا أدبهم ، لما كانت هذه الخصومة التى تتجدد كلما آلمهم النقد أو أغضبتهم المقارنة . وما أظن دراسة العربية تكلفهم من الجهد والزمن أكثر مما تكلفهم دراسة الفرنسية أو الإنجليزية ؛ ولكنهم فى عصر السرعة يطلبون القريب ويتوخون السهل ويتخطفون العلم ويتعجلون الإنتاج ، ثم يحقدون على الشيوخ لأنهم يلزمونهم التأنى ويجشمونهم الدرس ويقولون لهم إننا لا نعرف فى تاريخ

الآداب القديمة والحديثة من يعد فى لغته كاتباً أو شاعراً . . وهو لا يعرف من قواعدها الأساسية ما يقيم لسانه وقلمه .

لماذا لا يشتكى نوابغ الشيوخ من صعوبة الإعراب وبلية اللحن ؟ او كانوا كلهم من خريجى الدراسة الأزهرية ، كالمنفلوطى وطه حسين وأحمد أمين وعزام والجارم ، لقلنا طبيعة منهاج وطريقة معهد ؛ ولكن أكثرهم من خريجى الدراسة العامة كشوقى وحافظ ومطران والعقاد والمازنى وشكرى والرافعى والسباعى وأحمد زكى وفريد أبو حديد ومحمد عوض ، ولا يختلف هؤلاء عن أولئك فى فقه اللغة وصحة العبارة وقوة الأسلوب .

أنا من أنصار التوفيق بين الفصحى والعامية . ومذهبى فى المجمع اللغوى امداد الفصحى بما تزخر به العامية من مصطلحات الحضارة ومستحدثات الحياة ومختارات التعبير ، حتى تضيق مسافة الخلف بين اللهجتين وينتهى بهما الأمر بفضل الصحافة والإذاعة والمدرسة إلى لغة واحدة ، فيها من الفصحى السلامة والجزالة والبلاغة والسمو ، وفيها من العامية الدقة والطبيعة والحيوية والوضوح .

أما أن تكون لغتنا كلغة الهمج لاتقوم على قواعد ولا تجرى على أنظمة ، ولا تشعرنا بجمال ولا تحفزنا لكمال ، ولا تربطنا بماض ولا تصلنا بمستقبل ولا تجمعنا فى وحدة .. فذلك مذهب لايقول به رجل وهو جاد ، ودعوة لا يستجيب لها إنسان وهو عاقل !

إن الخلاف بين شباب الأدب وشيوخه لا يحسمه إلا أحد أمرين : أن يصعد الشباب إلى الفصحى ، أو يهبط الشيوخ إلى العامية . . وتغليب الصعود على الهبوط أمر توجيه الفطرة ويقتضيه الطموح ويستدعيه الكمال .

الفن بين الصعود والهبوط

يتحدث بعض السادة الأدباء فى هـذه الأيام عن مكان الفن من الحياة : أيظل فى المصعد الأعلى من السماء ليرتفع إليه من يحبه ، أم ينزل إلى المهبط الأدنى من الأرض ليتناوله كل من يريده ! ولا أدرى على وجه اليقين ماذا يريدون بصعود الفن وهبوطه ، إن كان القائلون بالصعود يريدون أن يترفع الفن عن حياة العامة فلا يتخذ من حوادثها قصصه وموضوعاته ، ولا ينتزع من مشاهدها صوره وتصوراته ، فقولهم باطل لأنهم يحصرون عبيره ونوره فى ناحية من نواحى الحياة لا هى أجمل ولا هى أفضل . . وإن كان القائلون بالهبوط يريدون به أن يجرد الفن من قواعده وخصائصه وعبقرياته ليفهمه الغبى والبليد والساذج فقولهم كذلك باطل ؛ لأنهم يخرجونه من طبيعته وحقيقته ليكون عبثاً من العبث لا يوحى ولا يمتع ولا يرفع .

إن الفن فى كل مكان هو الفن ما دام يعبر عن مشاعر النفس ومشاهد الطبيعة ووسائل العيش تعبيره الحى القوى الصادق الجميل بالكلمة أو بالصورة أو بالنغمة أو بالمثال . ولا فرق فى ذلك بين أن يكون موضوعه علبة الجواهر فى قصر ملك ، أو صينية البطاطس فى دار سوقة . المهم أن يظهر فى الصورة المختارة روح الفنان وشعور الإنسان وجمال الحقيقة .

كان كتاب الإغريق ومن تبعهم من كتاب الفرنج الاتباعيين (كلاسيك) يقصرون موضوع (المأساة) وأبطالها على حياة السراة والملوك ، ويرون أن جرائم هؤلاء ومصائبهم أفعل فى النفس وأشغل للقلب من جرائم السوقة ومصائب العامة .

فلما ابتذلت أغنية الملوك وعلت كلمة الشعوب وغلب نظام الديمقراطية ، أصغر الناس الفجائع فى القصور وأكبروها فى الأكواخ . وجاء الابتداعيون (رومانتيك) فاستحدثوا « الدرامة » ونزلوا بها إلى سواد الشعب فصوروا حياته كما هى ومثلوا أبطاله كما هم . وغضب الاتباعيون لكرامة الفن فنشبت بين الفريقين حرب شعواء كانت معركتها الفصلة فى مسرح (الكوميدى فرنسيز) ليلة مثلت (هرنانى) لفكتور هوجو ، وهى درامة شعرية بطلها قاطع طريق . وكان الخلاف بين الاستقراطيين والديمقراطيين قائماً على الموضوع والطبقة لا على الوضع والتطبيق . أما الفن فى ذاته فقد ظل فى علوه ودنوه بارعاً رائعاً عند هؤلاء وأولئك .

وكان ابن الرومى شاعراً شعبياً يخالط الدهماء والغوغاء ، ويلابس الصناع والباعة ، فيهبط بشعره إلى أن يقول فى صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به   يدحو الرقاقة مثل اللمح للبصر
ما بين رؤيتها فى كفه كرة   وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنداح دائرة   فى لجة الماء يلقى فيه بالحجر

وإلى أن يقول فى صانع الزلابية :

ومستقر على كرسيه تعب   روحى الفداء له من مُصب نصِب
رأيته سحَراً يقلى زلابية   فى رقة القشر والتجويف كالقصب
كأنما زيته المقلى حين بدا   كالكيمياء التى قالوا ولم تصب
يلقى العجين لجيناً من أنامله   فيستحيل شبابيكاً من الذهب

ثم يصعد بشعره إلى أن يقول فى وصف الشمس قبيل الغروب وهو وصف لا تجد له نظيراً فى الأدب العربى ولا فيما نعرف من الآداب الأخرى :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفضت ... على الأفق الغربى ورسا مزعزعاً
وودعت الدنيا لتقضى نحبهـا ... وشول باقى عمرها فتشعشعا
ولاحظت النوار وهى مريضة ... وقد وضعت خداً إلى الأرض أضرعا
كما لاحظت عوادَه عين مدنف ... ترجع من أوصابه ما توجعا
وظلت عيون النَّور تخضل بالندى ... كما اغرورقت عين الشجى لتدمعا
يراعينها صوراً إليهـا روانيا ... ويلحظن ألحاظا من الشجو خشعا
وبين أغضاء الفراق عليهمـا ... كأنهما خلا صفـاء تودعا
وقد ضربت فى خضرة الروض صفرة ... من الشمس فاخضر اخضراراً مشعشعا
وأذكى نسيم الروض ريعان ظله ... وغنى مغنى الطير فيه وسجعا
وغرد ربعى الذباب خـلاله ... كما حثحث النشوان صنجا مشرعا
فكانت أرانين الذباب هنا كو ... على شدوات الطير ضربا موقعاً

فانت ترى أن الشاعر قد ارتفع بشعره إلى أسمى مجالى الطبيعة ثم انخفض به إلى أدنى مشاغل الناس ، ولكنه بقى فى الحالين فنانا صادق الحس بارع الوصف رائق الأسلوب . وقل مثل ذلك فى ابن المعتز الشاعر الخليفة وابن الحجاج أو أبى العبر الشاعر الصعلوك ؛ فإن المعتز كان يؤلف صوره من ترف الملك ، وابن الحجاج أو أبى العبر كان يؤلف صوره من مباذل السوق ، ولكن الفن كان عند الرجلين واحداً يختلف فى الخامة ولا يختلف فى الصنعة ، ويتفاوت فى الطبقة ولا يتفاوت فى القيمة . وهذا ما نفهمه من صعود الفن وهبوطه : ننزل به إلى الطبقة العاملة والحياة العامة فنجد له من الطفولة المعذبة ، والشيخوخة العاجزة ،

والزمانة المهدمة ، والكرم فى الأخلاق ، والشهامة فى البؤس ، والإيثار فى الخصاصة ، موقف قوية التأثير شديدة الروعة . فإذا وصفناها أو حللناها أحسها العامى أبلغ الإحساس ، وتأثر بها أشد التأثر ، وشعر فى الوقت نفسه بأن فى هذا الأدب الذى يصور نفسه ويصف دنياه قوة خفية ترفعه إلى أعلى وتدفعه إلى أبعد . أما أن نمسخ له صور الفن فنكتب له الأدب بقلم الحاج سيد ، ونعزف له الموسيقى بشبابة الراعى ، ونرسم له الجمل والمحمل بفرشة النقاش ، فذلك تقدم إلى الخلف ، وتطور إلى الأقبح !

إن رسالة الفنون الرفيعة أن تجمل الحياة وتهذب الحضارة وتسمو بالإنسان. وإذا كانت الفنون الآلية قد اخترعت لتخدم الجسد ، فإن الفنون الأدبية قد اصطنعت لتخدم الروح . فهى إذن ضرورية وحاجة ، لا كمالية ومتعة . ولا يتسنى لها أن تؤدى هذه الرسالة إلا إذا احتفظت بالجزء الألهى الذى يقرب الأدب من الدين وربط الأرض بالسماء ، ويصل الفنان بالملك . ذلك الجزء الألهى الذى يتحقق فى الإلهام هو الذى يجعل من الإنسان نبياً أو مصلحا أو أديباً على حسب ما تقتضيه الحال ، وهو ما نسميه بالاستعداد . وقديماً قال الشعراء إنهم يتصلون بالملأ الأعلى عن طريق الجن ، كما يتصل الأنبياء به عن طريق الملائكة . وهذا الاتصال الروحى أو الألهام الذهنى أو الاستعداد الفنى متى أوتيه إنسان سما بملكاته على الناس فلا يفكر تفكيرهم ولا يشعر شعورهم ولا يعبر تعبيرهم . ولو أردناه على أن يتدلى إليهم ويندمج فيهم لنفر نفور الجنس الغريب ، وتميز تميز الكائن المستقل . ومن هنا سار المثل اللاتينى القائل : « كل الشعراء ارستقراطيون » .

ولعمرى كيف يستطيع الفنان أن يرفع النفوس إلى مراقى الكمال إذا لم

يترفع هو عن حقارة الحياة الدنيا ، ويصور للناس المثل العليا من الجمال والفضيلة فيرتفع الشعب إلى سمائه ، بدل أن يسف هو إلى حضيضه ودهمائه .

فلنطمئن إذن على أن الدعوة إلى ابتذال الفن لن تجد لها سميعاً ، وإذا وجدته فلن يكون إلا من الأدعياء الذين لا تساعدهم كفايتهم ولا ثقافتهم على السمو إلى الفن فيحاولون أن ينزلوه إليهم . وهو إن نزل لا يكون فنا ؛ وإنما يكون زبدا لا يلبث أن يذهب ، وظاهرة لا تمكث إلا ريثما تغيب !

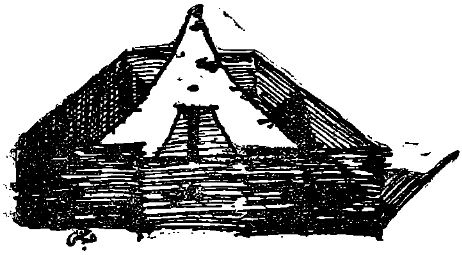

بعض الأسماء ينزل من السماء

كنا نشقق بيننا الحديث فى مجلس مشمس من مجالس الشتاء وفينا رجل من طبيعة ابن الرومى يعتمد فى جل موره على الفأل والطيَرة. فاللفظ يسمعه، أو الشيء يراه أو الرجل يلقاه، يبعث فى نفسه التفاؤل أو التشاؤم على حسب ما يدل عليه معنى اللفظ أو مدلول الشيء أو اسم الرجل من حسن أو قبح ومن خير أو شر. فإذا عزم أمراً أو نوى سفراً أرهف أذنيه لأول كلمة من أول قادم. فإذا بشرته أقدم، وإذا نفرته أحجم. جرنا الحديث إلى ذكر ما أصاب مصر فى الثلاثين سنة الأخيرة من نهضتها بقيادة سعد زغلول، وكبوتها بسياسة مصطفى النحاس، ووثبتها بثورة جمال عبد الناصر، وأخذ كل منا يحلل الأسباب ويعلل النتائج بما يجرى فى علمه ويصح فى منطقه. ولكن صاحبنا لم يقنعه شيء مما تفلسف به المتحدثون فقال بلهجة المؤمن الجازم: إن ما أصاب مصر من القوة والنكسة والصحة فى عهود هؤلاء الرجال الثلاثة على التعاقب أقضية وأقدار جُعلت عليها أسماؤهم عناوين ودلائل. وليس من المصادفة المحض أن تصاغ أعلامهم من السعد والنحس والجمال أو النصر، وإنما صيغت كذلك لأمر يريده الله. والأسماء تنزل من السماء. ولكل اسم من مسماه نصيب. فقال له أحدنا: وما تفهم من اطلاق اسم فاروق — وهو لقب الخليفة التقى العبقرى العادل عمر — على ذلك الحيوان الشهوان الذى لوث بشروره وفجوره عرش مصر حقبة كريهة من الدهر . . ؟ فقال: أفهم أن الله كما فرق بإسلام ابن الخطاب بين ضعف المسلمين وقوتهم، فرق باستسلام ابن فؤاد بين ذلة المصريين وعزتهم.

وإن كنتم فى ريب مما أقول فإنى أقص عليكم قصة أسرة من أسر (الغربية) مرت بأدوار مصر الثلاثة: من غنى واسع إلى فقر مدقع، ومن فقر

مدقع إلى ثراء فاحش . وكان عميدها فى الدور الأول اسمه (مرزوق) . وكان عميدها فى الدور الثانى اسمه (شحاته) وكان عميدها فى الدور الثالث اسمه (سعيد). أنا لا أحدثكم عن أسرة طواها الزمن فى غيابة الماضى، فالحديث عنها خبر يحتمل الصدق والكذب ، وإنما أحدثكم عن أسرة لا تزال تتمتع فى الوجود الحاضر بكثرة المال وعزة الحياة فالحديث عنها عيان يشهد به الحس وتؤيده سجلات الإصلاح الزراعى .

كان الشيخ مرزوق من حفظة القرآن فى صباه ، فأراد أبوه الفلاح الفقير أن يفقهه فى الدين فبعث به إلى الجامع الأحمدى بطنطا ، فلبث فيه يطلب العلم ثلاث سنين رفعته إلى طبقة المتعلمين . ثم توفى أبوه ولم يترك له عقارا ولا مالا، فرجع إلى أهله وجعل يتكسب بالقرآن ويعمل فى الأرض ويتجر فى الماشية ويشترك فى أمور شتى من نشاط القرية . وكانت الأعوام الثلاثة التى قضاها فى المجاورة قد قوت فيه ملكة التدبير والتقتير فبسط الله له الرزق . ووفر عليه النعمة . ولكن الشيخ كان طماعاً لا يقنعه الكفاف ، وطامحاً لا يرضيه الوسط ، فسعى باللباقة واستعان بالوساطة حتى وصل أسبابه بدائرة إحدى الأميرات السابقات ، وكانت أراضيها تقع فى جوار قريته فاستخدمته ناظراً ؛ ثم تقدمت به كياسته فجعلته مفتشاً ؛ ثم سمت به كفايته فعينته وكيلا . وحينئذ تدفقت عليه ينابيع المال ، بالحرام والحلال ، فاقتنى فى عشر سنوات مائة فدان . وظلت هذه الفدادين المائة تلد كما تلد الكلاب والقطط ، لقاحها من بركة الشيخ، ونتاجها من أرض الأميرة ، حتى بلغت مساحة أراضيه ألفاً وثلثمائة فدان من أجود الأرض، فتمت بذلك نعمته ولكنها لم تكمل . كانت زوجته ولوداً ولكنها كانت تلد للموت فلم ينج الزوجان من عذاب الثكل سنة واحدة . وطال تردد مرزوق ومبروكة على عيادات الأطباء وأضرحة الأولياء فلم يبلغا مما أرادا شيئاً . وظلت المنايا تتخطف الأطفال فى أسنان متقاربة حتى أشارت على مبروكة إحدى

صواحبها أن تنذر ما فى بطنها لله . فإذا وضعته سمته (شحاتة) ولفته فى البالى من الخرق وأرقدته على الرث من الفراش، ثم تجمع باسمه قدراً من المال عن طريق السؤال فتشترى به ما يلبس من الثياب وما يحمل من الأحجبة حتى يبلغ الرابعة من عمره . ومن غرائب الاتفاق أن شحاتة عاش وترعرع حتى جاوز حد الصغر . ولكنه نشأ كما ينشأ الابن الوحيد المشتهى مدللا مرفهاً ، يدعو فيجاب، ويأمر فيطاع ، ويطلب فيعطى . ثم أخلد إلى اللهو وانصرف إلى العبث فلم يهتم بعلم ولا دين ، ولم يحفل بنظام ولا خلق . وخلا له الجو بوفاة أبيه فانطلق فى سبيل الغى لا يصده عقل ولا يزعه ضمير. ثم عاش فى القاهرة عيش السفهاء الخلعاء يحيى ليله فى اللهو والتبذل ، ويميت نهاره فى النوم والتبطل . وغابت مزارعه الواسعة عن باله فما كان يذكرها إلا يوم يقبض ثمن القطن . وكان من أثر ذلك أن ضعفت الأرض وقل المحصول ونقص الإيراد ، فسد هذا النقص بالاقتراض وانفتح أمامه طريق الربا إلى الخراب المحتوم . وكان قد صاهر فى حياة أبيه أسرة قاهرية محافظة ، فحاولت زوجه الصالحة أن تصده عن الضلال وترده إلى الهدى فلم توفق . فتركته لنفسه وأقبلت على تربية ابنها سعيد وبنتها هناء على النحو الذى نشأت هى عليه من رعاية الدين وحب الخير وإيثار الجد . واتخذت من حياة زوجها عبرة نفعتها فى تنشئة سعيد . كانت تضرب له الأمثال بما خسره أبوه الغوى الجاهل من سمعته وصحته وثروته . وتقول له إن أباه لو أحيا ضميره بالدين وقوى عقله بالعلم لما سقط وأسقطنا فى هذه الهوة المهلكة . وكان سعد نفسه وهو فى المدرسة الإبراهيمية يرى من أفعال أبيه ما يحزن، ويسمع من أخباره ما يخجل. فكره هذا النمط من العيش وعكف على الدرس أملا فى أن تهيء له الشهادة العالية الأسباب لإصلاح ما فسد وتعويض ما فقد. ولا أريد أن أطيل عليكم بذكر التفاصيل فقد ظفر سعيد بدبلوم الزراعة وفضل جهاد العيش فى الميدان الحر . وكان شحاتة قد أصيب بالشلل

النصفى فقعد عن متابعة الشيطان بالرغم منه . وكان البنك العقارى قد انتهى من إجراءات نزع الملكية ، فشهر الأرض للمزايدة فلم يتقدم لشرائها أحد فرست على البنك نفسه . وخرج سعيد إلى زحمة الحياة على هذه الحال الأليمة : أبوه مفلس فلا فى الجيب ولا فى الغيب . وملكه منزوع منه فلا بيت ولا غيط . ولكن رجاءه فى ربه وثقته بنفسه أبعدا عن عينيه شبح اليأس . وكان قد بقى لهم من ثمن الأرض بعد قضاء الدين قدر يسير من المال فاستعان به على إعداد العدة للحياة الجديدة. واستأجر العزبة المفقودة من البنك وشرع يستغلها بعلمه وعمله . وأدركته عناية الله فأصدر المغفور له (صدقى باشا) قانون التسوية العقارية وسدد بمقتضاه الديون التى كانت على المصريين للبنوك من خزانة الدولة ، ووضع يده على الأراضى الزراعية التى نزعت ملكيتها ، ووكل أمرها إلى إدارة أنشأها فى وزارة المالية وسماها (صيانة الثروة العقارية) فأعادتها إلى أصحابها الأولين وقسطت عليهم أثمانها أقساطاً طويلة الأمد . فاستبشر سعيد وأشرقت نفسه بنور الأمل ، وجعل همه وعزمه للأرض الطيبة فآتته من كل الثمرات وكان سعيد ميمون الطالع يضع يده فى الموات فيحيا، وفى الخسارة فتربح ، وفى الكارة فتصفو. وارتفعت أسعار الغلات الزراعية فى الحرب الأخيرة وما بعدها فامتلأت مخازنه وعمرت خزانته . فوفى لمصلحة الأملاك ما عليه من الدين وأخذ يشترى منها مزارع مما تملك فى شمال الدلتا وشرقها حتى بلغت جملة أطيانه ثلاثة آلاف فدان .

لا أنكر أن العامل الأقوى فى إثرائه السريع كان اتصاله بأكبر الأحزاب وانتخابه عضواً فى مجلس النواب . وعضوية البرلمان فى تلك العهود السود كانت كما تعلمون مورداً من موارد الثراء لا ينضب معينه . ولا ينقطع رفده . ولكن هذا أيضاً كان من حسن الفأل وسعادة الحظ . وما كان ذلك

التوفيق كله إلا لأن اسمه (سعيد) واسم جده (مرزوق) . أما أبوه فقد كان عثرة الأمل وكبوة الحظ فى حياة هذه الأسرة لأن اسمه (شحاته) .

وأراد صديقنا الطيب أن يصل هذه القصة بقصص أخرى من نوعها ليؤيد بها رأيه فقلنا له :

حسبك ! صدقنا وآمنا . وإذا كان هذا التفاؤل باسم واحد يجلب هذا الخير كله ؛ فإن التفاؤل بجملة من الأسماء تحمل معانى الجمال والنصر ، والصلاح والسلامة ، والنور والسيادة ، والعمران والحكمة ، والدين والحياة ، أخلق بأن يجعل عهد الثورة المباركة عهد تقدم مطرد ورخاء متصل واستقرار مكين .

قصة مريض

قال لى صديق من الريف زار القاهرة فى هذا الأسبوع لشأن من شؤونه : لا يزال الفساد الذى خلفه عهد الطغيان فى الطباع والأوضاع غاشياً على كل ديوان ، فاشياً فى كل مصلحة ؛ كأن الثورة التى صرعت الجبروت الفاجر فى فاروق ، وقهرت البغى الجائر فى الحكم ، ورفعت الظلم الفاحش فى الأقطاع ، وهزمت الاستعمار المسلح فى القنال ، لم تستطع أن تجتث أصول الفساد من نفوس أولئك الذين يتولون أمور الناس فى الحكومة فيصرّفونها بالهوى ، أو يضيعونها بالترك ؛ فإنك لا تجد عملا يُمضى فى وزارة ، ولا حاجة تقضى فى إدارة ، إلا إذا كان وراءها دافع من سطوة أو رشوة أو شفاعة .

فقلت له : ذلك لأن الإصلاح المعنوى أبعد شقة وأعظم مشقة من الإصلاح المادى . فالثوب القذر تغسله فينظف بعد ساعات ، والجسد المعتل تعالجه فيصح بعد أسبوع ، والبستان المؤوف تنقيه فيطهر بعد شهر ، ولكن الشعب الفاسد تصلحه فلا يصلح إلا فى قرن !

لا يكفيك فى إصلاح النفوس أن تعظ أو تزجر أو تعاقب مادام الهوى غالباً على العقل ، والفسوق ظاهراً على الإيمان . وتغليب العقل وتقوية الإيمان سبيلها التنشئة الصالحة . فالأم تهيأ ، والأسرة تنظم ، والبيئة ترق ، والمدرسة تصلح ، ثم يترك للوراثة أن تحسن النسل وتهذب النفس عقباً بعد عقب وجيلا بعد جيل .

فقال صديقى : نعم ، ذلك ما يصدقه العيان ويؤيده الواقع ، فإن الثورة

فى سنتين قد بعثت الحيـاة فى الأرض والنشاط فى الناس ، فالإنتاج يزيد ، والعمران يتسع، والعلم ينتشر، والفقر ينقبض، والوطن يتحرر، والأمر يتسق، والأمن يستتب ؛ ولـكن أخلاق الموظفين والتجار والصناع والزراع والعمال لم تتأثر بأخلاق الثورة فى كثير ولا قليل . فقلت له مكملا: وعلة ذلك أن الثورة تستطيع أن تقول للفقر أنبت فينبت ، وللعقيم أنتج فينتج ، وللخراب اعمر فيعمر ، وللشارع انشق فينشق ، وللنظام استقر فيستقر ، على حين أنها لا تستطيع أن تقول للمعوج استقم فيستقيم ، ولا للفاسد اصلح فيصلح ، ولـكن قل لى ما الذى أجرى على لسانك هذا الحديث ، وقد كنت أتوقع أن تحدثنى عن أعمالك فى القاهرة أو عن أحوالك فى القرية ؟ فقال وقد افترت شفتاه عن ابتسامة حزينة : إن ما رأيته هنا وسمعته هناك هو الذى حرك لسانى بهذا الحديث . وما أريد أن أحدثك عما قاسيت من المطال والإهمال والعنت فى كل دار من دور الحكومة دخلتها لاستعجال عمل أبطأ تنفيذه ، أو إيقاظ ورق طال نومه ، فإن ذلك لم يعد لجريانه مجرى العادة والإلف موضع غرابة ولا موضوع حديث ؛ إنما أحدثك عن دور حكومية أخرى يقولون إنها مساقط للبر ومهابط للرحمة ويسمونها بالمستشفيات ويقتطعون لها جزءاً ضخما من أموال الدولة لتـكون كما زعموا للفقراء ملاذاً من المرض ومجازاً إلى الصحة . ومن هذا الحديث الذى سأسوقه إليك تتبين مكان هذا الزعم من الصدق أو الـكذب .

أنت تعرف ولا شك إبراهيم رضوان المزارع فى أرضك، ذلك الفتى الوسيم الذى لا يفرغ فمه من الـكلام ولا جوفه من الطعام ولا قلبه من المسرة ، أصيب منذ أشهر بقرحة فى المعدة وقروح فى المثانة ، فاختلف إلى عيادات الأطباء ومستشفيات الصحة ينشد فيها سكون الألم وخشوع الداء فلم يرجع منها بطائل . فقيل له دعك من أطباء الريف ومستشفياته وسافر على بركة الله إلى القاهرة

فرز آل البيت وادخل (القصر) تجمع بين طب الروح وطب الجسد . فآمن إبراهيم بهذا القول وذهب في الغد إلى سوق الثلاثاء بالمنصورة فباع ابن الجاموسة بعشرة جنيهات . ثم نزل في مســاء الأربعاء ضيفاً على أحد أقاربه في حي (أبي الريش) من القاهرة .

وفي الصباح غدا مع قريبه الطباخ إلى المستشفى الـكبير فقطع تذكرة ودخل بها في غمار المرضى وانتظم في الصف ، حتى جاءه الدور فوقف أمام الطبيب الشاب ، فسأله متبرماً عما يشكو ، ثم وصف له (المزيج الأبيض) من غير فحص ، وانصرف عنه إلى غيره بدون اكتراث . فرفع إبراهيم صوته يلتمس العلاج الداخلي فذهب التماسه في الضجيج وغاب شخصه في الزحام . فرجع إلى منزل قريبه يجر ساقيه من الإعياء ، ويمسك خاصرتيه من الألم واعتراه في ذلك المساء قيء دموي وعسر في البول فقلق أقرباؤه عليه ، وسمع أحـد الجيران بأن المستشفى رفض قبوله فيه فتطوع بالنصح لقريبه أن يعطي (تومرجياً) يعرفه جنيهاً وهو زعيم بأن يدخله (القصر) في أي ساعة من أي يوم .

ودخل إبراهيم المستشفى بفضل الجنيه فوجد سريراً يستلقي عليه وأطباء يعنون به وممرضات يطفن من حوله . وفحصه (حكيمباشي) على حد قوله ، فقرر أن يحلل دمه وبوله ، وأن تصور معدته ومثانته . واستغرقت هذه الأعمـال التمهيدية ثلاثة وعشرين يوماً كان المريض في أثنائها يعالج بالصبر ويمرض بالدعاء ويواسي بالأمل حتى تبلغت به العلة ونفر منه النوم . وأخيراً ظهرت نتائج التحليل والتصوير ، فتبين الداء وتعين الموضع وتقرر العلاج فاستبشر المريض واخضر ما ذوى من أمله . ثم أصبح فإذا سريره محط الاهتمام للأطباء الشباب ، فواحد يخرج وآخر يدخل ، وهذا يفحص بالسماعة ، وذاك يجس باليد ، وهؤلاء يحققون بالمنظار ، حتى بلغ عدد الأطباء الذين فحصوه في يوم واحد خمسة وثلاثين !

قال لى ابراهيم : فلما رأيت هذه الدقة فى الكشف ، وهذه الكثرة من الأطباء ، سبق إلى وهمى أنهم أخطأوا التقدير فحسبونى جليل الشأن عظيم الخطر ، فهم يخصوننى بهذه العناية . . ولكن المظهر الذى يروننى عليه ،والعنبر الذى أنزلونى به ، والزوار الذين يزوروننى فيه ، كل أولئك كان ينبههم إلى خطأ هذا الحسبان لأول وهلة وبأدنى نظر. إذن لم يبق إلا أن يكون دائى دويا لا يعرف كنهه ولا يرجى برؤه . فهم يديمون النظر ويكررون الفحص ويجيلون الرأى والمشورة . ورجّح هذا الظن فى نفسى أن الممرضات لم يعطيننى دواء غير المسكن ولاغذاء غير المألوف . . على أننى حمدت الله أن هيأ لى فرصة الاستشفاء فى مصح حشد له أمهر الأطباء ، وجلب إليه ، أندر الأدوية ، ووضع فيه أدق الأجهزة ، وتحلى به عطف الدولة على أمثالى من المرضى الذين يعجزهم أن يجدوا الطبيب الحاذق والدواء الناجع والمضجع المطمئن .

ولكن الأيام توالت ثقالا طوالا على هذه الحال . أطباء كثيرون لايفرغ لهم فحص ولا يظهر لهم علاج . وممرضات كثيرات لا ينقطع لهن أمر ولا تحصل منهن خدمة . والقيء البنى فى خلال ذلك يعاود ، والألم يشتد ، والبول يعسر ، والهضم يسوء ، والهزال يزيد ، والنتن فى الفراش تزكم ريحه الأنوف ، والوسخ على الجسد يدير زفره الرءوس . والأقرباء والأصدقاء يزورون ومعهم اللحم والفاكهة والحلوى فتصادره الممرضة لحسابها إشفاقا على المريض أن تثقل على معدته موزة أو برتقالة ! والنقود أوشكت أن تنفد من جيبى ، لأن الخادم أو الخادمة لا يلبى طلبا ولا يقضى حاجة إلا بأجر ! فرابنى الأمر وتخالجتنى الظنون ، فملت ذات يوم على جارى فى السرير وهو شيخ كان فى عمره الذاهب من القراء ذوى الصوت والصيت ، وسألته أفى ملجأ نحن نأكل وننام ، أم فى مستشفى نستطب ونتداوى؟ إن كنا فى ملجأ فلم هؤلاء الأطباء ! وإن كنا فى مستشفى فأين الطب والدواء ؟

فقال جارى وقد فششت بهذا السؤال جوفه المنفوخ بالغيظ ، فأخذ يسترح إلى مكنون صدره . لسنا والله فى هذا ولا ذاك . إن الملجأ رحمة وهنا القسوة . وإنه فى المستشفى صحة وهنا المرض . والظاهر أنك تحسب الشباب الذين يزعجوننا كل ساعة بالجس والنقر أطباء ! لا يا رفيقى ، إنهم طلبة الطب يتخذوننا نماذج يطبقون عليها العلم ويتعلمون فيها الفحص . والطبيب المسئول واحد . وهو الذى يصف الدواء وينظم الغذاء ويراقب العلة . وإذا لم يأتنا الممرضات بالأدوية التى يقتضيها العلاج فوزر ذلك لا يقع عليه ، إنما يقع على أولئك الذين يدسونها فى جيوبهم خلسة ثم يزعمون أنها صرفت المرضى !

وكان الشيخ أمين يريد أن يسمى الأشخاص ويذكر الوقائع لولا أن دخل الطبيب والطلاب فابتلع لسانه وقر فى فراشه .

نظرت فى أمرى على ضوء ما سمعت من الشيخ فتبين لى أن الشفاء صار خيالا باليأس بعد أن كان حقيقة بالأمل ، وأن الصحة فى (القصر) أصبحت أسوأ مما كانت فى القرية ؛ وأن الطبيب الخامل مع العناية خير من الطبيب النابه مع الإهمال ؛ وأن الزوجة الجاهلة مع الرقة أنفع من الممرضة الخبيرة مع الغلظة ؛ وأن العلاج بالأجر أرخص من العلاج بالمجان . فقررت أن أعود إلى قريتى وزوجتى وطبيبى . وعدت وليس عندى من قوة الجسم إلا ما أبلغ عليه القرية ولا معى من ثمن العجل إلا ما أركب به القطار !

وعاد ابراهيم بعد ثلاثة أشهر قضاها فى أضخم مستشفى بين يدى أعظم طبيب ! !

فلما فحصه طبيبه الريفى الأول قرر أن قرحة المعدة قد اتسعت وعمقت حتى ليخشى أن تمتد إلى شريان ، وأن قروح المثانة قد سعت وانتشرت حتى ليخشى

أن تتحول إلى سرطان ! ولم يشأ الرحيم الرحمن أن يطيل العذاب على هذا المسكين فانفجر الدم فجأة فى جوفه وتدفق من حلقه ولم ينقطع نزفه حتى انقطعت حياته .

فقلت لصديقى وأنا أترحم على إبراهيم وأتألم لمصير عائلته من بعده :

لقد نُقل إلى كثير من هذه المآسى وما ينبغى أن نيأس ، فإن عين الثورة لا بد أن تقع على أبطالها فى يوم قريب .

حيرة ...

تعالى يا قارئى العزيز نتشاور إن كنت كأكثر الشيوخ عليل الجسم ، أو نتحاور إن كنت كأكثر الشباب صحيح البدن : هل ترى من الخير المريض إذا ترادفت عليه الأوجاع فشكا علتين فأكثر أن يذهب لعلاج كل منها إلى الطبيب الذى تخصص فيها ، فقرأ أكثر ما كتب عنها ؛ وفحص أكثر من أصيب بها ، وجرب أكثر ما وصف لها ، فيذهب مثلا فى علل الصدور إلى سامى ، وفى علل القلب إلى قناوى ، وفى علل المعدة إلى عرفة ، وفى علل الأعصاب إلى جنينة ، وفى علل الروماتزم إلى سلامة ، وفى علل الغدد إلى غليونجى ، أم ترى من الخير أن يستوصف لهذه العلل جميعاً طبيباً باطنياً واحداً كجعفر أو ياسين أو عفت فيصالح بين الأدواء ، ويوفق بين الأدوية ، حتى لا يطغى داء على داء ، ولا يتعارض دواء مع دواء .

أنا من أنصار التخصص لأنه النظام الذى يلائم طبيعة العصر ويوائم حقيقة العلم ، ولا يرضينى من الطبيب اليوم أن يكون كما كان ابن سينا طبيباً فى كل فروع الطب ، حكيما فى كل فنون الحكمة ، عالما بكل ضروب العلم ؛ فإن العلم وإن ضاق أوسع من أن يحيط به عالم ، والعمر وان اتسع أضيق من أن يكمل فيه علم . والذى يأخذ من كل شىء بطرف هو الأديب ، لا العالم ولا الطبيب ، لذلك كان لى عند كل طبيب متخصص ملف ، وكان عندى لكل مرض معين تذكرة . ومع ذلك فإن جسمى — والحمد لله على كل حال — يذوب ولا يثوب ، وصحتى تتأخر ولا تتقدم ! ستقول لى وعلى لسانك لهجة الانكار : (لعلك قصرت فى تعاطى الدواء ، أو خرجت على نظام الأكل ، أو خالفت من أمر الطبيب) فأقول لك وعلى لسانى يمين الله : إنى لم أغفل عن

الدواء يوما ، ولم أشذ عن النظام أبداً ، وإنما كنت أطوع لـكل طبيب واتبع لـكل نظام من « رءوف بك » .

وللسيد رؤوف مع السادة المتخصصين قصة طريفة قرأتها أو سمعتها منذ بعيد . وسأقصها عليك وأن لم يبق فى ذاكرتى منها إلا الهيكل .

كان رءوف بك من أبناء الذوات . وكان له كهؤلاء المترفين حظيرة للسيارات من كل طراز ، واصطبل للخيل من كل سلالة ، ومطبخ لا تنطفىء مواقده فى نهار ولا ليل ؛ ولـكنه كان كسولا لا يمشى ولا يركب ولا يرتاض . وكانت هوايته المفضلة أن يدمن الأكل إدمان النعاج ، فهو يستيقظ ليأكل ، ويأكل لينام ، حتى تراكم اللحم عليه ، وتراكم الشحم فيه . وبلغ وزنه الصافى مائتين وسبعين رطلا ! ثم تنبه من طول ما تداعب الرفاق على بدانته إلى أن الاستقراطية تستوجب الهندام المحكم على القد الرشيق ، وأن الرقص يتطلب البطن الضامر والخصر المضيم ، ففزع إلى ابن ذوات من أصحابه هوايته أن يعرف جميع الأطباء المتخصصين بأسمائهم وعناوينهم ، لا لأنه مسقام متنوع العلل ، ولـكن لأنه ارستقراطى ، ولـكل ارستقراطى هواية ما ، فهذا هوايته أن يقتنى الثعابين أو القطط ، وذاك هوايته أن يجمع الطوابع أو الإمضاءات ، وذلك هوايته أن يحفظ طرز السيارات أو أنواع الخمور . وكل ارستقراطى يستعين بأخيه فيما تخصص .

قال رءوف لصاحبه : أريد أن (أخس) فدلنى من فضلك على الطبيب المختص .

فقال له صاحبه وهو يربت بحنان على كتفه الضخم : عظيم ! اذهب إلى الدكتور طاهر فى شارع عماد الدين رقم كذا تر منه ما يرضيك .

ذهب رءوف إلى ذلك الدكتور ففصحه ، ثم سن له نظاما علاجيا أظهر مافيه

أن يمشى كل يوم ساعتين فى الصباح وساعتين فى المساء . وكان العلاج شافياً ، فقد نقص وزنه فى ستة أسابيع خمسة وعشرين رطلا ؛ غير أنه أحس فى آخر المدة أن قدميه أخذتا تضعفان حتى عجزتا عن حمله ، فلجأ إلى صاحبه الخبير يشكو إليه وجعه الجديد ، فدله على الدكتور عزت ، وهو متخصص فى علاج هذا النوع من الأمراض بحمامات قدمية يجعلها من الطين الحر المخفف بالماء . وظل رءوف ثلاثة أشهر يضع قدميه فى هذا الوحل كل يوم حتى زال الوجع وذهبت العلة وعادت إلى القدمين قدرتهما الأولى على حمل الجسد الشحيم . وذهب رءوف إلى صاحبه يشكره ويحمد إليه الله الذى شفى قدميه من هذا الداء الثقيل الذى ربطه بالسرير تسعين يوما ، ولولا أن به ألما فى حلقه لما كان لديه ما يشكوه .

لقد أصابه من طول غمس قدميه فى الطين الرقيق ألم فى الحنجرة ، ورأى صديقه الطبيب ذلك فقال له : لا بأس ! إن زيارة واحدة للدكتور شوقى المتخصص فى أمراض الأنف والأذن والحنجرة كفيلة بأن تمسح ما بك .

وفحص الدكتور شوقى بدقته المثالية حنجرة رءوف فرأى أن أكثر أمراض الحلق إنما تنشأ من ضعف الدورة الدموية فى الحلقوم . فقرر أن يقويها بجلسات كهربائية . واستمر المسكين يكابد هذا العلاج الممل بصبر المؤمن وتفويض المتوكل شهرين كاملين سكن فيهما الألم وزالت البحة . ولكنه كان وا أسفاه من أسرة تتوارث علة عصبية خاصة ساعدتها الكهرباء على ظهورها فيه . فاعترته نوبات شديدة كاد بعضها يهجم به على الخطر . وأخذت تعتاده هذه النوبات المزعجة حتى زاره صديقه فقال له متعجباً : ما الذى يحبسك عن العلاج ؟ أراض أنت عن هذه الحال ؟ هلم يا أخى إلى الدكتور وديع المختص فى الأمراض العصبية تنفرج عنك هذه الأزمات فى أسرع مما تظن .

ورآه الدكتور وديع فوصف له عقار (البرومور) ، والبرومور كما يقول علماء

الأقر باذين ليس بينه وبين المعدة وفاق : هو يضعفها ويتلفها ، وهى لا تتحمله ولا تقبله . لذلك أصبح رءوف بعد شهر من العلاج ممعودا يشكو عسر الهضم وفقد الشهية وفساد الجوف . والممعود لابد أن يذهب من تلقاء نفسه إلى الدكتور فوزى المتخصص فى أمراض المعدة من جامعة (برلين) . ولا تجد أكولا من عشاق الطعام الدسم المتبّل لا يعرف عيادته .

استلقى رءوف على ظهره فوق سرير الفحص وأسلم بطنه المنتفخ إلى يدى الطبيب فجعل يجس وينقر ويتسمع ويسأل ، ثم كتب له تذكرة مما يشرب ويستحلب ويبلع ويحقن . وأوصاه أن يقلل من أكل اللحوم ومن شرب السوائل ، وأن يجعل قوام غذائه النشويات المهروسة كعجائن البطاطس والفاصوليا والبسلة ، وأن يلزم هذا العلاج شهراً ، فكانت النتيجة الحسنة لهذا النظام الدوائى الغذائى أن عادت لمعدته قوتها الطاحنة الأولى . أما النتيجة السيئة فكانت امتلاء بدنه بالشحم ، وانتفاخ بطنه من السمن ، حتى زاد وزنه على ثلاثة قناطير . وذلك من إفراطه فى التهام النشويات المعجونة ليعوض بها ما حرمه من سائر المواد . فعاد رءوف يفكر فى تخليص جسمه من ثقل ما تراكم عليه ، فلجأ إلى صديقه الناصح يستفيد من خبرته مرة أخرى فيما فكر فيه . ولم يكد يفضى إليه بما شغل باله من فحش سمنه ورهل بدنه حتى قال له : اطمئن يا رءوف ! سأذهب بك إلى متخصص آخر يجعلك فى زمن قريب أشبه بلوريل ولا بهاردى(١) . فقال له : أخشى إذا أنا إذا عدت إلى الطبيب أن يعودهو إلى العلاج بالمشى الطويل فتثقل قدماى ، ثم تلتهب حنجرتى ، ثم تضطرب أعصابى ، ثم تفسد معدتى ، ثم يزيد وزنى !

فقال له الصديق : لاتخش أن يتكرر ما وقع ، فان الطبيب الذى ستذهب

---

(١) ممثلان هزليان أمريكانيان أحدهما نحيل وهو لوريل ، والآخر سمين وهو هاردى.

اليوم متخصص فى علاج السمن بالركوب لا بالمشى ، يعالجه بركوب الخيل . ولا تظنه كالمتخصصين الآخرين يكتفى بأن يقول لك : خذ أى فرس من الاصطبل واركبه شوطا أو شوطين فى طريق الأهرام أو فى طريق ألماظة ، لا لا ، إنه يكتب لك تذكرة فى اثنتى عشرة صفحة من القطع الكبير يدون فيها النظام الذى يجب أن تتبعه . يبدأ بشكل اللباس الذى ترتديه ، وبوصف الحصان الذى تنتقيه . ثم يحدد لك ساعة الخروج ومدة الركوب ومسافة الشوط. ثم يذكر على وجه الدقة متى تنتقل من السير إلى الهملجة ، ومن الهملجة إلى العدو ، ومن العدو إلى الحضر . وكل ذلك فى شرح بين وتفصيل محكم .

وذهب رءوف مع صديقه إلى عيادة الدكتور إلهامى ورجع من عنده بتلك التذكرة .

وفى صباح اليوم التالى دخل غرفة الثياب فاختار اللباس المناسب ، وانتقل إلى اصطبل الخيل فانتقى الحصان المطلوب وأخذ يزاول التمرين على الوجوه التى رسمتها التذكرة . ولم يمض على ركبته الأولى ثلاثة أيام حتى كان وزنه قد نقص أربعة وثلاثين رطلا ! . . نتيجة مدهشة ، وعلاج ناجع ، ونجاح عظيم ! !

ولكن أتدرى كيف نقص وزنه هذا النقص الكبير فى هذا الزمن القصير ؟

لم يكد رءوف ينطلق بالجواد حتى سقط من صهوته سقطة شديدة كان من جرائها أن بتر الجراح ساقه وهى تزن أربعة وثلاثين رطلا بالتمام والكمال ، والحمد لله على كل حال ! !

أحمد أمين الأديب

رحم الله صديقي أحمد أمين ! لقد كان في أعقاب عمره دنيا من العلم والأدب ، في هيكل بال من العضل والعصب ! ومن الصعب على نفسي وقد صادقته أربعين سنة متتابعة أن أقول في الدعاء له : (رحم) ولا أقول (حيا) ، وأن أستعمل في الإخبار عنه (كان) ولا أستعمل (هو) ، وعسى أن يكون من بعض عزائنا عنه أننا مازلنا نعيش معه في كتبه ، ونتصل بروحه في أدبه . ولعلك لاتجد تلازما بين شيئين أشد مما هو بين أحمد أمين وما يكتب . فقد كان إذا ألف كتاباً أو أنشأ مقالا أو ترجم فصلا ظل باقيا وراء كلماته وخلال سطوره ، يعرض عليك الصور ويقرر لك الآراء بطلعته الباسمة في غير افترار ، ولهجته الحازمة في غير أمر ، وعقله القوى في غير صلف ، وطبعه الحي في غير ضعف ، وأسلوبه الهادىء في غير فتور ، فلا تدرى أتقرأ أم تسمع ، وكتاب في يدك أم رجل معك .

نشأ أحمد أمين نشأة أزهرية . وأعنى بهذه النشأة ما يلازمها من نمط خاص في الحياة والتربية والدراسة والوجهة . ومن غريب هذه النشأة أنها تساعد على الهبوط كما تساعد على الصعود . فمتخرجو الأزهر في عهده القديم كانوا إما قادة للشعب وإما حملة عليه . لأن حرية التعليم فيه كانت تهيء كل نفس لما خلقت له . فهذا تعده ليكون قارئا في ضريح أو إماما في جامع . وذاك تعده ليكون مستشاراً في محكمة أو أستاذاً في جامعة . وأحمد أمين كان كمحمد عبده وسعد زغلول قد زوده الأزهر بخير مافيه من صبر على الدرس واتكاء على النفس واستقصاء لأطراف البحث . ثم دفعه إلى الحياة دفعاً فاستكمل ثقافته في مدرسة القضاء الشرعي . ثم اشتغل بالتعليم . ثم تولى الحكم بين الناس في المحاكم

الشرعية ثم ثقف على نفسه اللغة الإنجليزية . ثم تبوأ كرسيه فى الجامعة المصرية وفى مجمع اللغة العربية . ثم احتل بمؤلفاته مكان الزعامة العلمية .

لست بصدد الحديث عن نواحى العبقرية فى حياة الفقيد وملكاته ومؤلفاته . وإنما هى كلمة موجزة فى طبيعة أدبه أكتبها فى يوم ذكراه تحية وفاء ألقيها على روحه ، وطاقة زهر أضمها على قبره .

كان أحمد أمين متضلعاً فى علوم الدين واللغة كأكثر النابغين من المتخرجين فى الأزهر . ولكنه كان من الأزهريين القلائل الذين أوتوا دقة النظر وحرية الفكر وسعة الأفق . فكان فى الدين صاحب اجتهاد وفى اللغة صاحب رأى .

كان يرى أن الدين دستور للدنيا فلا بد أن يتطور مع العلم وأن يتقدم مع الحضارة . وكان يرى أن اللغة أداة للفهم فلا بد أن تطوّع لألسنة الناس وأن تجدد على طول الزمن . وكان رأيه فى الأدب قائماً على رأيه فى الدين ورأيه فى اللغة .

فالأدب تفكير مستمر يتأثر بالفكر العام ويؤثر فيه ؛ والأدب تعبير متجدد يصور المجتمع الحاضر ويترجم عنه ، فطبيعته المرونة لا الجمود ، وغايته الحق لا الجمال ، وعدته الانطلاق لا الفن . ذلك لأنه كان من الكتاب العقليين الذين يزاولون الكتابة عن علم لا عن سليقة ، ويتخذون الآدب وسيلة لا غاية .

كان همه من الكتابة أن يقرر ويقنع لا أن يؤثر ويُمتع ولعل منشأ ذلك فيه أن عقله أخصب من خياله ، وأن علمه أكبر من فنه ، وأن حبه للحرية والصراحة كان يحبب إليه إرسال النفس على سجيتها من غير تقييدها بأسلوب معين ، وعرض الفكرة على حقيقتها من غير تمويهها بوشي خاص . ومع ذلك

كان لأسلوبه طابعه المميز وجاذبيته القوية . تقرأه فلا تروعك منه الصور البيانية الأخاذة ولا الأصوات الموسيقية الخلابة ؛ إنما تروعك منه المعانى المبتكرة الطريفة ، والآراء الصريحة الجريئة ، والشخصية القوية المهيمنة . فأنت منه بإزاء عالم يبحث لينتج ، أو مصلح يصف ليعالج ، لا بإزاء مصور يلون ليعجب ، أو موسيقار يلحن ليطرب .

على أنه كان يتوخى الجمال أحياناً فى الأسلوب بحكم الأثر الذى تركته فيه درايته للقرآن والحديث ، وروايته للشعر والنثر ، ودراسته للبيان والنقد . فيجمع بين حسن الفكرة وجمال الصورة ، ويلائم بين رزانة المعنى ورصانة اللفظ . وربما كان ذلك أظهر مايكون فى كتابه « حياتى » : فإن فى تصويره البيت والسقا والحدث والكتاب والأزهر ، وفى وصفه لأبويه وإخوته وصديقيه عبد الحكيم محمد وعلى فوزى ، وأستاذيه عاطف بركات ومس بور ، انماذج من البيان المطبوع الذى يشرق بنور العقل ، وينبض بروح العاطفة ، ويزهو بألوان الفن .

ذلك أحمد أمين الأديب بالمعنى الأخص للأدب . أما أحمد أمين الأديب بمعنى الأدب الأعم فقد كان أعظم شأناً وأبلغ أثراً وأرفع مكانة . وحسبه أنه حلل الحياة العقلية للعرب والمسلمين فى كتبه : فجر الإسلام وضحاه وظهره تحليلا لم يتهيأ مثله لأحد من قبله . وستظل هذه الكتب الخالدة شاهدة على الجهد الذى لم يكل ، والعقل الذى لم يضل ، والبصيرة التى نفذت إلى الحق من حجب صفيقة ، واهتدت إليه فى مسالك متشعبة .

لقد كان أحمد أمين ناجحاً فى حياتيه العلمية والعملية . وكان نجاحه فيهما نجاحاً للجد وفوزاً للفضيلة . لأنه لم يعتمد فى شهرته العلمية على الإعلان والتهويش ، ولا فى مناصبه الحكومية على الاستخذاء والملق ؛ وإنما كان يجرى

فى عمله على الإخلاص ، وفى معاملاته على الحق ، وفى علاقاته على الشرف بالمقدار الذى يطيقه الإنسان الخاضع بحكم طبيعته لآثار الوراثة والبيئة والظروف .

وما كانت حياته الحافلة إلا مثلا للحياة العاملة فى غير ضجيج ، الناصبة فى غير ملل ، المثمرة فى غير غرور ولا دعوى . فكانت أشبه شىء بالنبع السلسال العذب ، يسيل حلو الخرير تحت شواجن الأدغال وفوق مطمئن الأرض ، فيروى العطاش ، ويمرع السهول ، فى غير هدير ولا صخب .

جعل الله روحه للخلد كما جعل ذكراه للخلود ، وعوض الأدب والعرب والإسلام من فقده خير العوض .

آما آن لهذا الحيوان أن يعقل

يسمى نفسه إنساناً من الأنس ، ويسمى غيره وحشاً من الوحشة . ومعنى الأنس الاطمئنان والألفة ، ومعنى الوحشة النفور والعزلة . وليس معنى جنوح ابن آدم للأنس أنه لطيف ، ولكن معناه أنه ضعيف . ومن طبيعة الحيوان الضعيف أن يعيش مجتمعاً بأفراد جنسه ليعالج بالتعاون ضعفه كما تفعل النحل والنمل ، ولكنه — واحسرتا عليه — لم يستطع بعقله وعلمه وفهمه وقوانينه وأنظمته ومدنيته أن يقيم مجتمعه على السلام والوئام والإخاء والتعاون ، كما فعلت هاتان الأمتان بالغريزة وحدها ، فلا نعلم أن أمة النحل أو أمة النمل تفرقت شيعاً وقبائل ، لتتخاصم على الأرض ، أو تتقاتل على القوت ، أو تتنازع على السلطة ؛ وإنما نعلم أن هذا الإنسان الذى يزعم أنه قطب الوجود ، وسيد الكون ، وخليفة الله ، لا يزال يعيش كما كان يعيش منذ ملايين السنين ، هواه إلهه ، وشهوته شرعه ، وغريزته دليله ، وقوته عدته . أما ذكاؤه الذى تميز به نوعه ، فقد سخره فى تسليح يديه بالحديد والنار والدمار ، لا ليقهر كواسر الطير فى الجو وضوارى الوحش فى البر ؛ ولكن ليقهر إخوته لأبيه آدم ليستأثر دونهم برغيف أو يستعلى عليهم بموضع .. ولو كان يجرى على منهاج الوحش يقتتل حين يدافع ، ويفترس حين يجوع ، لقلنا حب البقاء طبيعة كل حى ؛ ولكنه يقتتل وهو آمن ليحتكر ويحكم ، ويفترس وهو شبعان ليدخر ويسود .

بدأ العالم منذ أيام سنته الخامسة والخمسين من القرن العشرين ، وقد بلغ الإنسان بالعلم ما بلغه آلهة الإغريق بالخيال من استخدام قوى الطبيعة واستغلال

عناصر المادة ، فاخترع من الآلات وصنع من المعجزات ما يجعل العيش نعيماً والأرض جنة لو كان يعالج أموره بالعقل ، ويصرف شؤونه بالحكمة ؛ ولكنه ابتلى من دون سائر الحيوان بأن يكون له (مستقبل) ينظر فيه ويعمل له ويخاف منه ، وخوفه من هذا (المستقبل) المجهول حمله على الاستئثار والادخار والشح ، والطمع هو جماع هذه الخصال جميعاً . فكل امرىء يطمع فى نصيب غيره ويدفع عن نصيبه . ومن هذا الهجوم الدائب والدفاع المستمر نشبت معركة الحياة بين الفرد والفرد ، وبين الأسرة والأسرة ، وبين الأمة والأمة ، بالقول أو بالفعل ، وفى السر أو فى الجهر . وكان الظن بالإنسان وقد بلغ ما بلغ من الرقى أن يحكم العقل فيما شجر بين أفراده على قسمة الدنيا وغلة الأرض ، ولكن العقل فشل والهوى تحكم حتى انتهى الحال بالعالم المتمدن إلى كتلتين عدوتين تتباريان فى تدمير هذا الكوكب على أهله . وفى سبيل هذه المباراة حولت كل منهما أموال دولتها ورجال أمتها إلى الإعداد الجهنمى لإقامة القيامة قبل أجلها الموقوت !

وفى مستهل السنة الميلادية التى يرتل المسيحيون فى ذكرى مولد صاحبها ذلك القنوت الشعرى الجميل : « المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض السلام ، وفى الناس المسرة » يقول (أيزنهاور) فى رسالته السنوية للكنجرس: إن البرنامج العسكرى للولايات المتحدة يستهلك ثلثى الميزانية العامة للدولة ، وأن أربعة ملايين من الأمريكيين يعملون فى الجيش وفى قوة الدفاع . ويطلب المزيد من العتاد والاستعداد لينتهى الشيوعيون عما هم فيه و ينجو العالم من فناء ذرى محقق . فيجيبه من الطرف الآخر ضابط روسى فى جريدة (برافدا) الرسمية يقول : إن لدى روسيا من الأسلحة الذرية ما يمحو أمريكا من الوجود .

إذا فكرت فى العدوان على الاتحاد السوفييتى ! وتثور فى رأس القائد الإنجليزى أرسكين نزوة الاستعمار الكافر فيقرر الهجوم بخمسة وعشرين ألفاً من الجنود على الوطنيين فى (كينيا) يبيدهم جميعاً ويفرغ من أمرهم سريعاً ! . .

وتأبى فرنسا أن تتخلف عن انجلترا فى تقريب القرابين الآدمية لآلهة الاستعمار فى ذكرى مولد المسيح راعى السلام وحامل الآلام ورسول الرحمة فتنشط فى التنكيل بالمجاهدين الفدائيين فى مراكش والجزائر !

فإذا كان العقل كما يقول اللغويون قد سمى عقلا لأنه يعقل صاحبه عن الشر فإن أكثر الناس لم يعقلوا حتى اليوم ! لأنهم لو عقلوا لأدركوا أن مشكلات العيش الاقتصادية مهما تتعقد وتعضل لا يستعصى حلها على النية الحسنة، والنفس الخيرة ، والمنطق السليم ؛ وأن هذه الملايين من الرءوس المفكرة والأيدى العاملة التى تنتج للحرب لو أنتجت للسلم لوفرت للعالم كله الغذاء والكساء، كما وفر الله له الماء والهواء ؛ وأن هذه القناطير المقنطرة من الذهب التى تنفق على الثكنات العسكرية والمصانع الحربية لو أنها أنفقت على محاربة الفقر العام لما بقى على ظهر الأرض فقير . وتنازع القوت هو المشكلة الأزلية للحياة . والفقر هو النكبة الأبدية على النظام . والجوع هو السبب القريب أو البعيد لكل ثورة فى تاريخ الأمم ولكل جريمة فى حياة الأفراد .

على أن دول الغرب المصابة بحمى الحرب قد ورد على مسامعها مع التهنئات بالسنة الجديدة ، والتهديدات بالأسلحة المبيدة ، ثلاثة أصوات أخرى جهيرة بالحق رخيمة بالسلام تبشر بالحب وتنفر من العدوان ، انبعث أولها من روما وهو صوت البابا ، وانبعث ثانيها من مصر وهو صوت جمال عبد الناصر ،

وانبعث ثالثها من الهند وهو صوت البنديت نهرو . وصف البابا فى إذاعته ليلة عيد الميلاد ماتعانيه الكتلتان المتنازعتان من الخوف المقلق والاضطراب المزعج، بالحرب الباردة ، لأن الناس لاينعمون فيها بحياة الأمن ولا بحرارة الأمل ، ودعا إلى التعاون السلمى بين الشرق والغرب .

وعلل جمال عبدالناصر فى حديثه إلى مراسل صحيفة (بوربا) اليوغسلافية فساد الحال بين المعسكرين المسيطرين على سياسة العالم بسوء التفاهم وفقد الثقة ، فلو أنس كل منهما بناحية الآخر ، وسفر بينهما العقل الثاقب والفهم الخبير لانقطعت أسباب هذه الجفوة . . وأكد أن العرب مصممون على تقوية الجامعة العربية لتحقق مايرجونه من قيام اتحاد فيدرالى بينهم يضمن لهم السلامة ويبسط عليهم السلام .

ودعا البنديت نهرو فى حديث له إلى تحقيق أحلام الفلاسفة بقيام حكومة من العلماء تقيم السياسة على قواعد المنطق ، وترفع المجتمع على أسس الحق ، وتطبق على فوضى هذا العالم نظام (المدينة الفاضلة) .

فإذا أضفنا ماتوحيه هذه الأصوات السماوية من المعانى الروحية السلمية . إلى اتفاق الرأى فى القارتين الشرقيتين آسيا وإفريقيا على عقد مؤتمر من أقطاب الرأى فيهما يوحد الخطط المؤدية ،ويعين الأهداف المشتركة،لتتعاونا على المعروف، وتتناصرا على المنكر ، وتتساعدا على نشر السلام العام،غمرنا شعور من التفاؤل بأن الله سيتدارك عباده بلطفه ، فيضىء قلوبهم بنور العقل ، ويهىء نفوسهم لقبول العدل ، ويجمع الشرق والغرب على المبادىء التى شرعها فكفروا بها ، ليضعوا لهذه الدنيا المتدابرة المتناحرة سياسة جديدة تجعل أرض الله مضطرباً لكل كادح ، وخير الأرض مشاعاً لكل مستغل . . ويومئذ يكون الفصل

بين عالم عاش فيه الحيوان بغرائزه الوحشية ، وعالم يعيش فيه الإنسان بطبائعه المدنية . يعدل بين جنسه وغير جنسه ، ويحب لغيره ما يحب لنفسه ، ويطمس فى ذهنه حدود البيت والأسرة ، ومعالم الوطن والأمة ، ليصبح الناس كلهم أسرته ، والدنيا بأسرها وطنه . ويومئذ يستطيع الإنسان أن يتبجح بميزة العقل والعلم ، ويقول لقافلته الضاربة فى مجاهل الأبد وهى لا تملك مشاعرها من القلق والفرق :

لقد زال الطمع فزالت العداوة ، ومات الفقر فماتت الحرب !

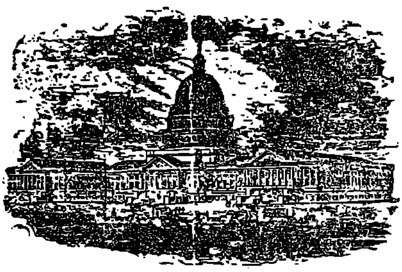

من ذكريات الصيف

— ١ —

في بغداد :

حديث اليوم بعضه ذكريات ، وبعضه مطالعات ، وكله من وحي هذا الصيف ! والصيف زمن النضج والإثمار ، وفصل الخير والبركة ؛ ولكنه بالطبيعة ثقيل الأنفاس على أكثر البلاد العربية لركود ريحه وجفاف جوه واشتداد قيظه . ولذلك كان له في الأدب العربي فصل حار يشكو الكتاب والشعراء من سموم أيامه وحرور لياليه . ولو كنت بسبيل الحديث عنه في الأدب لذكرت لك طرفاً من ذلك . على أني سأذكر طرفاً مما كابدته أنا نفسي من عذابه في سنة من السنين . تلك كانت سنة ١٩٣٠ وهي أول سنيّ الثلاث في بغداد . وكنت قبل أن أرحل إلى العراق أعلم أن مناخه قاري يبرد في الشتاء حتى يجمد الماء ، ويقيظ في الصيف حتى يذوب الحجر . وكان قد عاق بذاكرتي قول المقريزي في خططه : « إن محاسن مصر أن أهلها لا يحتاجون في حر الصيف إلى الدخول في جوف الأرض كما يعانيه أهل بغداد » وقرأت لبعض كتاب العراق رسالة يصف فيها حره بقوله : « حر لا يطيب معه عيش ، ولا ينفع فيه ثلج ولا خيش . فهو كقلب المهجور ، أو كالتنور المسجور » فاجتمع في ذهني من هذا ومن غيره صورة بشعة لهذا النوع من الحر ، ولكنها كانت صورة مبهمة المقدار مجهولة الحال . فلما ذقته كان في الواقع أبشع منه في الخيال ، وفي الحس أفظع منه في المعنى . ولعلني بعد أن عرفته أدركت كل الإدراك معاني بعض الجمل وحقائق بعض الصور في مثل قول الشاعر :

في زمان يشوي الوجوه بحرٍّ ويذيب الجسوم لو كن صخرا

لا تطير النسور فيه إذا ما وقفت شمسه وقارب ظهرا
ويود الغصن النضير به لو أنه من لحائه يتعرى

السنة فى العراق فصـــلان : شتاء وصيف . وليس بين الفصلين المتعاقبين إلا استراحة قصيرة لا تزيد على شهر . فالحر يبدأ من أواخر مارس ، ثم يتدرج حتى يبلغ الأوج فى أشهر يونيو ويوليو وأغسطس . ثم تنكسر حدته بعد ذلك . هذا فى العام ، أما فى اليوم فيطلع الحر بطلوع الشمس ثم يصعد بصعودها ، حتى إذا أقبل الضحى بلغت الحرارة خمسين درجة مئوية فى الظل ، وانقلب البيت فرنا من غير وقود ، والهواء لهبا من غير دخان : وحينئذ تحس كأن روحا نارية تمتد إلى وجهك فتحرقه ، و إلى نفسك فتزهقه ، و إلى صدرك فتضيقه . فإذا كنت فى الطريق لذت بجدار تحته ظل ، أو بقهوة فيها مروحة . و إذا كنت فى دارك تجردت من أكثر ثيابك وألقيت بنفسك فى السرداب فظللت فيه إلى أن تغرب الشمس . والسرداب فى بيوت بغداد حجرة فى أسفل الدار تنخفض عن صحنها مترين أو أكثر ، وليس فيها فتحة غير الباب . وفى جدارها القائم على الدهليز شباك مربع يبلغ ارتفاعه ثلثى الجدار وقد سدّ بما يشبه مرتبة السرير قد حشيت بأغصان الصفصاف المورقة يرشونها بالماء الحين بعد الحين فترطب الهواء ، وتحركه المروحة الكهربائية فينسم على الجالسين بالطراوة . ودور بغداد مبنية من طابقين ؛ فالطابق الأسفل للصيف ، والطابق الأعلى للشتاء . وهذا الطابق الشتوى لا ينفك يرسل فى النهار والليل حرارة كوهج النار فلا يدخله فى الصيف أحد . إنما يمرون به سراعا فى الليل وهم صاعدون إلى سطح الدار ليناموا أهنأ النوم تحت السماء . و إذا كانت أيام الصيف فى بغداد لفحات من سعير جهنم ، فإن لياليها نفحات من نعيم الفردوس . وخير ما يعوض الأجساد من ذوبانها المستمر فى عرقها الدائم ثلاثة

العشايا الجميلة التى يقضيها البغداديون على ضفاف دجلة . فهم يخرجون إليه كل مساء عائلات وجماعات وأفراداً ومعهم الخدم والفرش والطعام والشراب والفاكهة فيركب بعضهم فى زوارق النزهة ، ويجلس بعضهم فى جزائر النهر . وهؤلاء وهؤلاء يغنون ويرقصون ويقصفون ، فيمسى دجلة بمائه وشطآنه وجزره مقصفا ممدوداً بين الرصافة والكرخ يضج بالمتاع واللذة ، ويفيض بالأنس واللهو ، ويمتع بالأدب والسمر ؛ وتلك عادة اجتماعية توارثها البغداديون عن أسلافهم منذ أيام العروس فى عهد الرشيد والأمين ، ولا يزال لها فى تاريخ الأدب أثر قوى ، وفى قصص ألف ليلة وليلة صدى رائع . وحسبى أن أذكر لك على سبيل الترفيه يوماً من أيام بغداد وليلة من ليالى دجلة قضيتها مع صديقى المرحوم السيد عبد العزيز الثعالبى الزعيم التونسى المعروف ، وكان يومئذ لاجئاً بعاصمة العراق من اضطهاد فرنسا أم الحرية . دعانى الزعيم ذات نهار من أنهار يوليو إلى الغداء ، فتحاملت على نفسى وذهبت إليه فى الظهيرة فوجدته فى الحجرة السفلى من داره متهالكا على فراشه وقد تعرى جسده البدين البطين إلا من إزار كإزار الحمام . فقلت له مداعباً : أمحرم يا أستاذ فى غير وقت الحج ؟ فقال على البديهة وهو يضحك ضحكته العريضة العذبة : وكيف لا أحرم وهذه شمس بغداد ترمى الجمرات ؟ فعجبت من جمال توريته وحضور ذهنه على الرغم مما كان يقاسى من لهاث الحر وتفصُّد العرق . وتخففت من بعض ثيابى ثم جلست أناقله الحديث ونعجب كيف ازدهرت حضارة العباسيين فى هذا القيظ الطويل ، واستبحر عمرانهم فى هذا الخمود الملازم . وكان الرجل قد وضع على مسافة متر منه مروحة كهربائية كبيرة وتركها ترسل على جسده العارى الضخم هباتها القوية من الهواء الحار فكانت لا تنفس عن صدره ولا تخفف من كربه ، فيقوم إلى الحمام فينقع جسمه فى الماء ثم يعود ليعود إليه الخفاق واللهاث والحر والعرق . واشتدت الحال فعجزت عن الكلام وعجز هو عن الإصغاء

وظللنا نتردد بين غرفة الحمام وحجرة الطعام حتى سكنت فورة الحر فاقترحت عليه أن نقضى هذه الأمسية على دجلة . وكان ثالثنا صديقاً من أدباء بغداد فهيأ لنا العشاء والزورق . وجدف بنا الملاح حتى توسط النهر فوقع فى أسماعنا من جهة الكرخ غناء وعزف . فقال أحدنا للنوتى اتبع طريق هذا الزورق اللاهى . فقال الملاح بلهجة الغاضب الأنوف : ولماذا نتبع نحن ولا يتبعون هم ؟ هؤلاء يهود ، ولو شئتم لأتيتكم بالمغنى والعازف . فدهش المصرى والتونسى ولم يدهش العراقى .

وحاذى المركب المركب فإذا جماعة من شباب اليهود لايقلون عن العشرة قد انتظموا صفين على جانبى الزورق ، وفى الوسط مائدة مستطيلة عليها الطعام والشراب والزهر ، وفى الصدر مغنية حسناء تضرب على العود ، وكهل سمين ينقر على القانون ، وشاب أنيق يعزف على الكمان فلما رأونا خشعت الأصوات وشخصت الأعين . ونادى ملاحنا بلهجته العراقية الآمرة : تعال يابنت ! تعال ياولد . وانتظرت أن أرى الغضب أو الاحتجاج أو التردد ، فلم أر إلا القوم يخلون للجوقة الطريق واجفين ، ويساعدونها على الانتقال واقفين . ولو كنا جرينا مع النوتى على مذهبه ، لنقل كل ما كان فى مركبهم إلى مركبه . ثم سار زورقنا وهم يتبعون ، وأخذ يغنى ويعزف وهم يسمعون .

وكان أعجب وأطرب مارأينا فى تلك الليلة ذلة عشرة من اليهود أمام عزة واحد من العرب . وكان عدد اليهود يومئذ فى بغداد وحدها يربى على سبعين ألفاً فى أيديهم التجارة وعندهم المال فكيف استشعروا الذلة والمسكنة مع هذا العدد الضخم وهذا الثراء الواسع ؟

لقد عللت ذلك يومئذ بأن بنى إسرائيل منذ فرق شملهم بختنصر ،

وبت حبلهم أدريان قد أخذت تضعف فيهم غريزة الدفاع عن النفس حتى ماتت فى مدى خمسة وعشرين قرناً لم يدافعوا عن حياتهم فيها إلا بخداع الثعلب وملق الكلب وتلون الحرباء . علات ذلك بذلك ولم يدر بخلدى أن اليهودى سيتشجع فى يوم من الأيام فيحمل سلاحاً ويشهد حرباً ويحرز نصراً ويحتل مدينة . نعم لم يدر بخلدى أن اليهودى الذى لم يدخل فى عنف وإن هان ، ولم يجرؤ على ظلم وإن قل ، يخرج من البرصة إلى الثكنة ، ومن الدكان إلى الميدان ، ومن الصرافة إلى السياسة، فيستغل مادية الأمريكان وخديعة الإنجليز وشيوعية الروس ليكون له فى فلسطين دولة وجيش ، وفى هيئة الأمم مقعد وصوت . لم يخطر ببالى يومئذ أن ذلك سيكون ؛ ولكنه واأسفاه كان ! كان بتخاذل العرب لا بقوة اليهود ، وبدسائس الاستعمار لا بوسائل الحق . ولو كان فى الدنيا حق لما كان لفلسطين قضية . ولو كان فى الناس عدل لما اصطلحت على ظلمها الشيوعية والرأسمالية . ولو كان فى الأمر اختيار لما تركت سيوفنا من بنى يهوذا بقية .

دت أخرج عن موضوع الحديث ؛ ولكن الأسى يبعث الأسى ، والذكرى تثير الذكرى . والحديث شجون والأحداث عبر . وكان فى النية أن أتم الحديث بذكرى الوسائل الصناعية التى كان يتخذها أهل الترف من خلفاء بغداد وسراة العراق فيردون الجحيم نعيما واللفحة اللاذعة نسمة رطبة ؛ ولكنها صفحة من تاريخ التمدن الإسلامى أرجو أن أجلو بعض سطورها فيما يلى من هذا الحديث .

— ٢ —

كيف كان العراقيون يتقون الحر ؟

حدثتك بطرف من ذكرياتى عن صيف بغداد ، ووعدتك أن أتم الحديث بذكر الوسائل التى كان الناس فى العراق يتقون بها هذا الحر قبل أن تكشف الكهرباء و يكيف الهواء و يصنع الثلج . والناس منذ عايشوا الطبيعة قد حاولوا أن يدرأوا عن أنفسهم غوائل الجو بشتى الحيل ، فاتقوا البرد والأمطار والعواصف باللجوء إلى المغائر والأكواخ والبيوت وتيسر لهم ذلك ، لأن البرد القارس والمطر الواكف والريح العاتية تقف عند باب السكن فلا تقتحمه على من فيه ؛ ولكن الحر تعسر عليهم اتقاؤه ، لأنه يهاجمهم فى الظل وفى الليل وفى داخل المسكن . وغاية ما استطاعوه أن خففوا عنهم شدته بوسائل دلت عليها الطبيعة وهدت إليها التجربة كاتخاذ الملابس من الكتان والقطن ، واختيار الأبيض من الجلابيب والعمائم ، ورش الأرض بالماء ، وتحريك الهواء بالترويح ، وتبريد الجسد بالاستحمام . وقد قيل لأعرابى من بدو العراق : كيف تصنعون فى البادية إذا اشتد القيظ وانتعل كل شىء ظله (يريد وقت الظهيرة حين تكون الشمس فى كبد السماء) فقال الأعرابى ووجهه يتهلل بالرضا والغبطة : « وهل العيش إلا ذاك ؟ يمشى أحدنا ميلا فيتصبب عرقاً ، ثم ينصب عصاه و يلقى عليها كساءه ويجلس فى ظله يكتال الريح فكأنه فى إيوان كسرى » على أن هذه الوسائل البدائية لم تلبث أن ارتقت بارتقاء الحضارة وازدادت بازدياد الترف . يحدثنا الطبرى وياقوت أن الأكاسرة كان من عادتهم إذا اشتدت وقدة الحر أن يؤتى لهم بأطباق من غصون الصفصاف الذى نسميه شعر البنت فتجعل ركاماً حول الحجرة ، ثم يؤتى بقطع الثلج الكبار من قمم الجبال فتوضع ما بين أضعافها . وكانت هذه عادة الأمويين بالشام أيضاً .

ولكن الناس فى عهد الخليفة المنصور اتخذوا الخيش الغليظ للتبريد فكانوا يغطون به جدران الحجرات طبقة فوق طبقة ولا يزالون يبلونه بالماء ، فيبرد ما يلامسه من الهواء بفعل البخر . وكان المترفون يغشّون هذا الخيش بظهارة من النسيج الدبيقى المصبوغ بماء الورد والكافور والصندل كان يجلب إليهم من مصر . ثم اتخذوا بعد ذلك بيوت الخيش وهى قباب ينصبونها على شكل خيام المعسكرات اليوم يجرى من فوقها الماء من قنوات صغيرة تبلها على الدوام فيبرد هواؤها أشد البرد حتى ضربوا ببرودتها المثل فقالوا طبعه أو شعره أبرد من قبة الخيش ، حكى ذلك المقدسى فى كتابه (أحسن التقاسيم فى معرفة الأقاليم). وكانوا يتخذون مع الخيش المراوح الكبيرة المعلقة . قال الغزولى فى كتابه(مطالع البدور) : « وكان يستعمل فى البيوت صيفاً مروحة تشبه شراع السفينة تعلق فى سقف البيت و يشد بها حبل يديرها ، وهى تبل بالماء وترش بماء الورد . فإذا أراد الرجل أن ينام وقت القائلة جذبها من حبلها فتذهب بطول البيت وتجىء فيهب منها نسيم بارد طيب » .

ثم تأثرت هندسة العمارة بطبيعة هذه الحرارة فى القرن الثالث للهجرة فبنيت القصور والدور فى سامرا عاصمة العباسيين فى عهد المعتصم وبنيه على طراز يقول الأستاذ (آدم متز) فى كتابه تاريخ الحضارة الإسلامية فى القرن الرابع إنه منقول عن آسيا الوسطى . وذلك أنهم كانوا يبنون الحجرات والأبهاء والمجالس فى الطابق الأرضى سراديب أنيقة الوضع جميلة الزخرف حسنة التهوية بديعة الإضاءة . ثم يديرونها فى شكل مربع على فناء سماوى رحب تتوسطه بركة أو نافورة أو بستان . ولقد زرت وأنا فى العراق أطلال سامرا أو سر من رأى وشاهدت آثار قصر الجعفرى الذى بناه الخليفة المتوكل على هذا الطراز وشق فى فنائه بركته المشهورة التى يقول فى وصفها شاعره البحترى :

تنصب فيها وفود الماء معجلة   كالخيل خارجة من حبل مجريها

كأنما الفضـــة البيضاء سائلة ... من السبائك تجرى فى مجاريها
إذا علتها الصبا أبدت لها حبكا ... مثل الجواشن مصقولا حواشيها
فحاجب الشمس أحياناً يضاحكها ... وريِّق الغيث أحياناً يباكيها
إذا النجوم تراءت فى جوانبها ... ليلا حسبت سماء ركبت فيها

وهذا الوصف الدقيق الرقيق يدل على عظم البركة وفخامة القصر .

وفى القرن الخامس للهجرة يقول الرحالة الفارسى ناصر خسرو : إن من خصائص مدينة أرَّجان أن فيها من الأبنية تحت الأرض مثل ما فوقها . ومصداق هذا الخبر ما تراه اليوم فى مدينة النجف بالعراق ؛ فإن موقعها على طرف الصحراء وموضعها من شرف الأرض جعلاها أقسى البلاد حراً وأيبسها طبيعة ، فبنى أهلها السراديب طوابق كطوابق الدار ثم عمقوها حتى نزلوا بها خمسة وثلاثين متراً فى جوف الأرض ، ثم اتخذوا على مائها الجوفى مجلساً رحباً تلوذ به الأسرة من حر الهواء ، فتجد به فى قيظ الصيف برد الشتاء . وقد نزلت فى زيارتى للنجف سرداباً من هذه السراديب العجيبة فى مدرسة السيد كاظم اليزدى فوجدت فيه من بديع الصنع ما لا تصدقه الأذن إلا إذا رأته العين . أما مرفهات الصيف عند المترفين من الخلفاء والكبراء والقادة فحسبى أن ألخص لكم صفحة من صفحات هذا الترف المسرف سجلها ابن أبى أصيبعة فى كتابه عيون الأنباء فى طبقات الأطباء عند كلامه عن العالم النصرانى بختيشوع بن جبريل طبيب المتوكل وقد كان يذهب فى عيشه مذهب الملوك . وهو أول من احتال لتكييف الهواء فى الصيف والشتاء ؛ فقد حدث متحدث أنه دخل على هذا الطبيب فى يوم شديد الحر وهو فى مجلس مغشى بطاقات من الخيش بعضها فوق بعض ؛ وفى وسط هذا المجلس قبة مجللة بالكتان الناعم ، مظهَّرة بالدبيقى المصبَّغ ، وكان يلبس رداء من الخز فوقه جبة من الصوف ، فعجب

من زيه . فلما دخل معه فى القبة ناله من البرد أمر عظيم ، فضحك وأمر له برداء وجبة . ثم قال لغلامه اكشف جوانب القبة فكشفها فإذا أبواب مفتوحة من جوانب الإيوان على مواضع مكبوسة بالثلج . وغلمان يروحون بالمراوح على ذلك الثلج فيخرج منه ذلك البرد الذى لحقه . ثم دعا بطعامه فأتى بمائدة عليها من الألوان كل غريب . وأغرب ما كان عليها فراريج مشوية قانية الحمرة، وجاء الطباخ فنفضها كلها فانتفضت . فلما سأله عنها قال له هذه فراريج تعلف اللوز المقشر وتسقى ماء الرمان .

ودخل عليه هذا المتحدث نفسه فى يوم قارس البرد وهو جالس فى إيوان على بستان أنيق الوشى مسكى العبير ، وعلى الإيوان ظهارات من فراء السمور وأكسية الحرير وجلود اليمن وابود المغرب وقد ارتدى غلالة رقيقة ، وبين يديه موقد من الفضة مذهب محرق ، وغلام يحرق فيه البخور المندى . فلما دخل معه الإيوان وجـــد من الحر أمراً عظيما ، فضحك وأمر له بغلالة كغلالته وكشف عن جوانب الإيوان فإذا مواضع لها شبابيك من خشب بعد شبابيك من حديد ، وكوانين فيها فحم الغضا وغلمان ينفخون ذلك الفحم بالأكوار كما يصنع الحدادون . ثم دعا بطعامه فأحضروا له ما جرت به العادة من الشهى الطيب وعلى المائدة فراريج ناصعة البياض فظنها غير نضيجة . وجاء الطباخ فنفضها فانتفضت . فلما سأله عنها قال له هذه فراريج تعلف الجوز وتسقى اللبن وهى تلائم البرد كما تلائم تلك الحر . وبقية هذه الصفحة رواية أخرى عن مأدبة أدبها بختيشوع هذا للخليفة المتوكل فى يوم قائظ جمع له فيهما لم يخطر على بال من فنون الترف والسرف والعلم ؛ فبرّد الحرارة وطرد الذباب من الجو وأدنى متاع الجنة من الضيف . وهذا النمط من العيش الرافه الراغد إنما كان مقصوراً على أولى النعمة من رجال الدولة ودهاقين المال ؛ أما طبقات المجتمع الأخرى فقد راضتها الطبيعة على مكاره الحر حتى ألفوا رمضاء الصحراء

كما ألف الإسكيمو ثلوج القطب . والطبقة التي ميزها الملك الموروث والحكم الفاسد والثراء الفاحش هي الآفة التي تقوض بناء الشعب والعاهة التي تقتل سلامة الأمة . وإن ما قرأناه من بذخ بختيشوع وأمثاله من أهل الترف ، ليذكرنا بما سمعناه عن بذخ يوسف كمال وأشباهه من أهل البطالة . والفرق بين ذلك الطبيب العالم وهذا الأمير الظالم هو الفرق بين الإنسان والوحش ، أو بين الملاك والشيطان ؛ فقد كان أمير نجع حمادى يعيش في جحيم الصعيد كما يعيش هو وسائر الإقطاعيين في نعيم سويسرا . كان يسخر مئات الألوف من الفلاحين ليعقدوا له من دمائهم الذهب ومن دموعهم السرور ومن شقائهم السعادة. ثم يولم الولائم الفاخرة الفاجرة للأقارب من أسرته وللأجانب من ندمائه، ويأمر عماله وفلاحيه أن يصطفوا صفين عن يمين وشمال فإذا مر بينهم هو وضيوفه ركعوا جميعاً . وكان يحشد لهذه الولائم كل متعة ، ويجمع فيها كل منكر ، ثم يضن على الفقراء بالفتات والفضلات فيلقيها في نهر النيل للسمك . واستدرج الله هؤلاء الفاسقين ، وأملى لهم ، ثم استجاب لدعوات المظلومين المحرومين فأخذهم أخذ عزيز مقتدر ! فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين .

وكان ما كان من مُلك ومن مَلك ثم انقضى وكأن القوم ما كانوا

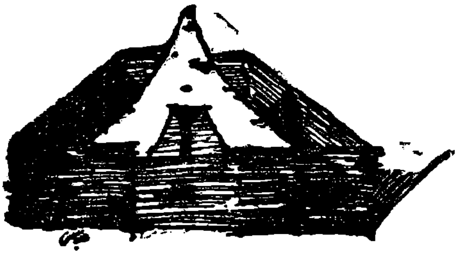

— ٣ —

في باريس :

من مزايا الصيف على سائر الفصول أن الله جعله فصل الخيرات والثمرات في أكثر بقاع الأرض ، وزمن الثورات والحريات في أكثر دول العالم . فإذا نضج فيه غذاء الأجساد من الحب والفاكهة لسر من أسرار الطبيعة ، فقد ينضج فيه غذاء الأرواح من الحرية والاستقلال لسر من أسرار النفس . فشهر يوليو بالذات وهو قلب الصيف كان ميقاتا لتمرد الحرية على قيودها وسجونها في أكثر الأمم . تخلصت في اليوم الرابع منه الولايات المتحدة من ربقة الاستعمار وذلة الاستغلال وسيادة الانجليز سنة ١٨٧٦ . وتحررت في اليوم الرابع عشر منه فرنسا من طغيان الملوك واستبداد القسس واستعباد الأشراف سنة ١٨٧٩ . وتطهرت في اليوم الثالث والعشرين منه مصر من فحش الملك وفجور الحكم وبغى الإقطاع سنة ١٩٥٢ . وليس من قصدى في هذا الحديث أن أتقصى حركات التحرير القومى في الصيف فإن شرح ذلك يطول ؛ إنما أريد أن أحدثكم بطرف من ذكرياتي عن عيد فرنسا القومى الذى احتفل به الفرنسيون منذ أسبوعين ، وعن عيد مصر القومى الذى احتفل به المصريون منذ أسبوع . وبين هذين العيدين مشابه كثيرة في الأسباب والنتائج والآثار تربط بينهما في الذهن كما ربطت بينهما في الزمن . فإذا كانت الثورة الفرنسية قد هدمت الباستيل وهو رمز للسلطان الجائر تمثل في قلعة حصينة من حجر وحديد وظلام ، فإن الثورة المصرية قد هدمت فاروقا وهو رمز للطغيان الفاجر تمثل في كتلة ضخمة من لحم وشحم وعظام . وإذا كان من نتائج تحطيم الباستيل أن أعلنت حقوق الإنسان في أمم الغرب ، فإن من نتائج تحطيم فاروق أن أعلنت حرية الشعوب في دول الشرق .

والفرق بين الثورتين أن ثورة الشعب الفرنسى قد أكلت بنيها وأنكرت مبادئها وجعلت الحرية استعباداً للشعوب، والأخوة استكباراً فى الناس، والمساواة استعماراً فى الأرض، وأن ثورة الجيش المصرى لم تنكر إنسانيتها ولم تكفر بدينها فجعلت الحرب سلاماً والثورة نظاماً والبناء خطة والوحدة غاية والتضحية مبدأ والإصلاح عقيدة.

كنت فى باريس سنة ١٩٢٥ أؤدى الامتحان النهائى فى الحقوق وكان الجسم يومئذ ريان بدم الشباب، والشباب ظمآن إلى ورد الحرية. وكانت مصر وحدها هى التى تحركت للنهوض، أما سائر العالم العربى فكان فى غفلة كالبله أو فى سبات كالموت. ففى صباح اليوم الثانى عشر من شهر يوليو فى تلك السنة استيقظت باريس على دنيا عجيبة الألوان والصور، غريبة الأزياء والشكول، تموج بالمواكب والجموع، وتضج بالأغانى والأناشيد، وتعج بالرقص والموسيقى؛ وفوق كل باب وكل شرفة علم الجمهورية يخفق، وفى كل بيت وكل قلب سرور الغبطة يفيض، وعلى كل تمثال وكل ضريح أكاليل الزهر تفوح. ثم ظلت المتاجر والمصانع والمعاهد والدواوين مغلقة الأبواب معطلة الحركة، وانقلبت الشوارع والميادين مراقص شعبية عامة؛ فأمام كل قهوة وصدر كل مفرق ووسط كل ساحة قام مسرح صغير من الخشب المكسو بالقماش الأحمر، تحيط به سلاسل حمر وزرق وبيض من مصابيح الورق اليابانية، وقد جلست عليه فرقة من موسيقى الجاز تعزف ألحان الرقص المختلفة، والناس من حولها يرقصون أزواجا وأفواجا من غير معرفة ولا كلفة. فالرجل يدعو إلى الرقص أى امرأة فلا ترفض، والمرأة تنتقل من ذراع إلى ذراع ولا تكل، والموسيقى تخرج من لحن إلى لحن ولا تفتر. وكان أكثر الشباب قد أكلتهم الحرب العظمى فقل عدد الرجال عن عدد النساء، ولم يستطع الكهول من كل طبقة، ولا الأجانب من كل جنس، أن يوفروا ذراعاً لكل راقصة. فوقف

كثير من الغيد الأوانس على حلبات الرقص المائجة يستمطفن الراقصين بالنظرات الواعدة والبسمات المغرية ، فإذا ظفرت إحداهن بأحدهم لا تدعه حتى يتمزق جوربها و يتفتق حذاؤها أو يغرقا معا فى سيل جارف من مظاهرة تهتف بالوطن والعيد ، أو موكب يشدو بالحب والحياة . فإذا أقبل الليل لم يكن هو الليل الذى نعرفه ، و إنما هو نهار من نوع آخر تسطع فى سمائه شموس من الكهرباء ، وتساقط فى جوه شهب من الصواريخ ؛ فالعمائر والمتاجر والساحات غرقى فى ضوء باهر تشعشعه ألوان العلم الثلاثة ، وتشعه عقود المصابيح المشكلة . وحينئذ فترت حرارة الرقص وانصرف الناس إلى المسارح والملاهى وقد فتحت أبوابها للشعب بالمجان . ثم قام فى ميدان الجمهورية الفسيح معرض زاخر باللعب واللهو يغص بالفلاحين ومن فى حكمهم من ذوى الأيدى الخشنة فباتوا يقصفون ويمرحون حتى غارت نجوم السماء وانطفأت مصابيح الأرض . واستمرت باريس على هذه الحال من صباح اليوم الثانى عشر من شهر يوليو إلى صباح اليوم الخامس عشر . ثلاثة أيام وثلاث ليال لم تغمض لها فيها جفن ، ولم ينقطع لها لهو ، ولم تفتر لها عن الرقص ذراع ولا قدم .

وفى بكرة اليوم الرابع عشر احتفلت الحكومة بيوم الباستيل فى ميدان (الإتوال) وعرضت الجيش فى ميدان (لون شان) . وكنت قد أرسلت نفسى على هواها فى هذا الفيضان الجائش بالوطنية والحرية والحماسة وأنا على عهد قريب بثورتنا سنة ١٩١٩ فكنت أهتف وأصفق وأنشد وفى ذهنى سعد زعيم الأمة الذى نفاه الانجليز فثارت لنفيه مصر وقطعت المواصلات ، كما كان الفرنسى يهتف و يصفق و ينشد وفى ذهنه (نيكر) صديق الشعب الذى نفاه لويس السادس عشر فثارت لنفيه فرنسا وحطمت الباستيل . كان شعورى وأنا أسير نشوان فى زحمة الراقصين وغمرة المتظاهرين شعور الجندى فى المعركة يمحى فى وجدانه الشعور بذاته والتفكير فى حياته ولا يبالى فى سبيل وطنه أن يُقتل أو يقتل . وكان

وكان معى صديقة فرنسية من طالبات الحقوق لها عقل راجح ورأى حر فقلت لها وأنا أشير إلى يتامى العيد من ضحايا الاستعمار الفرنسى فى أفريقيا وآسيا : أليس هؤلاء من أفراد الإنسان الذى أعلنت ثورتكم حقوقه ؟ أليس لهم أوطان تسعها الحرية ، وإنسانية تشملها الأخوة ، وحقوق تكفلها المساواة؟ فقالت الآنسة بلهجة الصريح وهيئة الجاد : ومن الذى قال إن فرنسا تريد بالإنسان كل بنى آدم ؟ أيكون أخى هذا الحيوان الذى تشير إليه بلونه القاتم وفمه الغليظ وأنفه الأفطس؟ أم يكون مثلى هذا المخلوق الذى ينظر إليك بعقله البدائى وحسه البليد وجهله المطبق ؟ إن معنى ذلك لو صح ألا يكون لنا عبيد فى السنغال والكونغو ، ولا أتباع فى الهند والصين . لا ياصديقى ! إن الباريسيين الجياع الذين أشعلوا الثقاب الأول للثورة فى حى القديس أنطوان وهم يتزاحمون بالمناكب الواهنة الهزيلة على أبواب المخابز المغلقة صائحين : الخبز ! الخبز ! ثم عضهم الحرمان والطغيان فانقلبوا صائحين : إلى البستيل ! إلى البستيل ! لم يكونوا يفكرون فى كل محروم وكل مظلوم ، إنما كانوا يفكرون فى أفواههم الجافة وأجوافهم الخاوية . وإن زعماء الثورة الذين أقاموا دستورها على الحرية والأخوة والمساواة لم يقرروا هذه المبادىء إلا لشعبهم الذى أذله الملوك وظلمه الكهنة وحرمه الأشراف . والقول بأن الثورة الفرنسية كانت رسالة إنسانية تضليل من المؤرخين وخداع من الساسة . صحيح أن الثورة الفرنسية أفادت الإنسانية من طريق العدوى ، فإن تحطيم البستيل كان تحطيما لثلاثين عرشاً كان أصحابها يحكمون أوربا حكم السيد المطلق ؛ ولكن تحرير الغرب لم يستتبع تحرير الشرق ، لأن القوة هى القاضى بين الإنسان والإنسان فى كل زمان ومكان .

وفى اليوم الخامس عشر من يوليو وهو اليوم الأخير من أيام المهرجان افتتح المغفور له يوسف بن الحسن سلطان مراكش جامع باريس ومعهده ومستشفاه وحمامه ومطعمه وقهوته فى احتفال عظيم شهده رئيس الجمهورية ورئيس الحكومة

وصفوة من رجالات فرنسا والشرق . وكنت فيمن شهد هذا الاحتفال ورأى ما كان به من الملق ، وسمع ما قيل فيه من الكذب . ولقيت بعده سي قدور ابن غبريط الذي توفاه الله في باريس منذ شهر . وكان هو المندوب الرسمي للسلطان والقيم الديني على الجامع . وجرى بيننا حديث لا أزال أذكر من شجونه ما يشجي . قلت له وزميلتي تسمع : كيف يبتهج العرب بعيد الحرية وهم عبيد ، ويفتخرون بمجد فرنسا وهم أذلة ؟ فلم يدعني الرجل أتم كلامي وإنما قاطعني محتداً بقوله : لا ياسيدي ، ليس الفرنسيون بأكثر فرنسية منا . نحن نتمتع في ظلال الجمهورية بالإخاء الصحيح والرخاء الشامل ، وإن الجنود الجزائريين في الجيش والشرطة ؛ والعمال المراكشيين والتونسيين في المصانع والمزارع ، يعاملون بما يعامل به الفرنسي القح . أدام الله نعمة فرنسا على شعوب العرب ، ونفع بعلومها وحضارتها أمم الإسلام . فوجمت أنا وابتسمت هي .

وأخذت أوازن في نفسي بين كلام الفرنسية الصريحة وكلام العربي الصميم فأيقنت أن بلية العرب والإسلام ، هي سماسرة الاستعمار من أمثال هذا الإمام. وفي كل برصة من برص الاستعمار وا أسفاه سمسار من زعماء الشرق يعقد الصفقات لنفسه على حساب وطنه .

وقد مات ابن غبريط ولا أدري على أي رأي لقي الله بعد ما رأى بعينه فواجع فرنسا في مراكش ومآسيها في تونس . والله يغفر الذنوب جميعاً؛ ولكن ممالأة العدو في الوطن كبيرة لا يكفر عنها إلا النار ، ولا يطهر منها توبة ولا استغفار .

استقبال شهر رمضان

(أذيعت فى أول رمضان من محطة الإذاعة المصرية)

فى صباح يوم الأثنين الماضى استقبل المصريون ربيع الأجساد فى شم النسيم ، وفى مساء يوم الأثنين هذه الليلة يستقبل المسلمون ربيع الأرواح فى شهر رمضان . و إذا كان ربيع الأجساد فى الحدائق زهوراً وخموراً ومتعة ، فإن ربيع الأرواح فى المساجد صيام وقيام ونسك .

ربيع الأجساد فى أبريل كان انطلاقاً من كل قيد ، واستغراقاً فى كل لذة ، امتدت فيه العيون إلى كل جميل ، وهفت النفوس فيه إلى كل شهى ، أما ربيع الأرواح فى رمضان فهو صيام للجوارح عن الأذى ، وفطام للمشاعر عن الهوى ، يستقبله الناس بعد أحد عشر شهراً قضوها فى صراع المادة وجهاد العيش تكدر فيها القلب وتبلد الحس وتلوث الضمير فيجلو صدورهم بالذكر ، و يطهر نفوسهم بالعبادة ، ويزود قلوبهم من مذخور الخير بما يقويها على احتمال الفتن والمحن فى دنيا الآمال والآلام بقية العام كله . لذلك كان رمضان فى الشرع الإلهى طهوراً من رجس العام ، وهدنة فى حرب القوت ، وروحاً فى مادية الحياة .

رمضان هو التمرين الرياضى السنوى للنفس ، يشترك فيه المسلمون فى جميع أقطار الأرض ، يصومون فى وقت واحد ، و يفطرون فى وقت واحد ، و ينصرفون عن اللذات الحسية والنفسية ليتجهوا بالتأمل والتعبد والخشوع إلى الله ، فيغضوا أبصارهم عن المنكر ، و يكفوا ألسنتهم عن الفحش ،

ويصُموا آذانهم عن اللغو، ويغلوا أيديهم عن الأذى، ويصدوا أهواءهم عن السوء، وتلك هى العناصر الجوهرية لعقيدة الصوم .

إذا لم يكن فى السمع منى تصاون ... وفى بصرى غضٌ وفى منطق صمت
فحظى من صومى هو الجوع والصدى ... وإن قلت إنى صمت يوماً فما صُمت

وهذه القيود والحدود التى تضمنها معنى الصوم هى المجاهدة التى تعود الإنسان ضبط النفس وقوة الإرادة . وضعف الإرادة إنما يقوى برياضة النفس على الحرمان المؤلم، كما يقوى الجسم برياضة البدن على الجهد العنيف، وكما يقوى العقل برياضة الذهن على التفكير العميق . والرياضة الروحية هى حكمة الصيام فى الأديان كلها « يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون » وتقوى الله ومجاهدة النفس هما الغاية من هذه الحكمة وقد اجتمعتا فى قوله تعالى : « وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هى المأوى » فالخوف من الله هو التقوى، ونهى النفس عن الهوى هو المجاهدة . أما قول من قال إن حكمة الصوم هى أن يذوق الغنى عذاب الجوع ليشفق على الجائع ويرأف بالفقير، فقول سطحى توحى به النظرة العابرة والفكرة السريعة فإن إجاعة الأغنياء ليشعروا بآلام الفقراء قد تكون معنى من معانى الصوم ؛ ولكن حكمة الله من صوم رمضان أسمى وأجل وأبعد .

وإن للجوع أثراً شديداً فى تصفية النفوس وتلطيف الطباع، لأن كدر النفس يكون فى الأكثر من كدر الجسد . وقد قالوا : إن البطنة تذهب الفطنة، لذلك اتخذ كثير من أئمة الدين ورجال التصوف الجوع سبيلا إلى تهذيب النفس وتقوية العقل وإذكاء الروح . قال الإمام على رضى الله عنه

يصف العارف بالله : « قد أحيا عقله وأمات نفسه ، حتى دق جليله ورق غليظه » يريد بجليله بدنه الضخم و بغليظه طبعه الكثيف . وقال إبراهيم ابن أدهم · ان ينال الرجل درجة الصالحين حتى يغلق عن نفسه باب النعمة ، و يفتح عليها باب الشدة . وقال يحيي بن معاذ : الجوع للمريدين رياضة ، وللتائبين تجربة ، وللزاهدين سياسة ، وللعارفين تكرمة » .

ولكن بعض الصوفيين غالوا فى تعذيب الجسم لتهذيب الروح فكان منهم من لا يأكل فى أربعين يوماً إلا أكلة واحدة ، وهذا أشبه بما يفعل اليوم زهاد الهنود . والإسلام يسر لا عسر ، والفضيلة هى الطريق الوسط . وقد قال الرسول صلوات الله عليه لرجل أكثر الصيام والقيام حتى غارت عيناه : إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق . إن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى .

على أن هؤلاء الصوامين القوامين قد انقرضوا فلم يعد يستقبل رمضان منهم أحد . إنما يستقبله اليوم أقوام بَعد عهدهم عن الإسلام الصحيح فعادوا أشبه بذلك الأعرابى الذى أسلم فى أول الإسلام ثم قدم على ابن عم له فى بعض المدن قبل أن يذوق حلاوة الإيمان ويفهم حقائق الدين فأدركه شهر رمضان . فقيل له يا أبا عمرو : لقد أتاك شهر رمضان . فقال وما شهر رمضان ؟ قالوا الإمساك عن الطعام . فقال : أبالليل أم بالنهار ؟ قالوا لا ، بل بالنهار : قال : أفيرضون بدلا من هذا الشهر ؟ قالوا لا . قال فإن لم أصم فعلوا ماذا ؟ قالوا تضرب وتحبس . فصام يوماً ثم لم يستطع ، فتحول عنهم وجعل يقول :

يقول بنو عمى وقد زرت مصرهم   تهيأ أبا عمرو لشهر صيام

فقلت لهم هاتوا جرابى ومزودى   سلام عليكم فامكثوا بسلام

فبادرت أرضاً ليس فيها مسيطر   على ولا مناّع أكل طعام

نعم ، يستقبل رمضان أكثر الناس بعقلية هـذا الأعرابى فيستقبلونه لا باعتباره ركناً من أركان الدين الخمسة يقيم الدين من أقامه ويهدمه من هدمه ، ولا باعتباره طهوراً للنفس ونوراً للقلب وجلاء المشاعر ؛ ولكنهم يستقبلونه باعتباره تقليداً من التقاليد الموروثة وعيداً من الأعياد المقررة ، فيتمتعون فيه بنعيم العيش ، و يتفننون فى الطعام والشراب ، و يتأنقون فى الثياب والزينة ، و يتدفقون فى الأنس واللهو ، و يسرفون على بطونهم بالأكل حتى تمرض ، وعلى جيوبهم بالبذل حتى تفرغ ، و ينفقون على هذا الشهر وحده ما يكاد يقرب من نفقة العام كله . وفى الإفراط فى اللهو والأكل والنوم ، تضيع حكمة الإسلام من الصوم .

على أن رمضان العظيم الكريم السمح إذا زال من بعض المسلمين جوهره ، فلا يزال فى أكثر بلاد الإسلام مظهره . ومظهر رمضان جميل رائع ، ترونه فى كل شارع وفى كل بيت ، وتحسونه فى كل شىء وفى كل شخص . خير يتدفق فى البيوت ، و بشر يتهلل فى الوجوه ، وذكر يتعالى فى المساجد ، ونور يتألق فى المآذن ، وسمر ينتقل فى الأندية ، ونفحات من ريح الجنة تهب فترطب القلوب الجافة وتلين الأكباد القاسية . ثم تجدون الحوانيت سامرة وإن لم تبع ، والمصانع ساهرة وإن لم تنتج ، والأبهاء والمقاهى عاطرة بحديث الأصدقاء حتى أول السحر . ولرمضان تقاليد يرعاها الصائمون والمفطرون على حد سواء ، فالسكير يهجر الكأس ، والمقامر يترك الورق ، والشرير يؤجل الشر ، والمجرم ينسى الجريمة . وكل هؤلاء يتشبهون بأهل الصلاح فيمسكون السبحة ويتقون الشبهة ويصنعون المعروف . فإذا استقبلنا رمضان الليلة بالترحيب والبشر فإنما نستقبل فيه عيداً دينياً وقومياً يؤكد أسباب القرب بين الله وعباده، ويوثق عرى

الحب بين الشعب وأفراده . وإذا كان فى دنيا الإسلام من يستقبل رمضان بالوجه العابس والشفة المقلوبة والصدر الضيق فذلك هو المسلم المزيف . هو المسلم الكاذب الذى يستقبل فى رمضان فطاماً لشهواته ولجاماً لغرائزه . فينظر إليه نظرة مادية إقتصادية فيرميه بما يرميه به الأوربيون والأمريكان من قلة الإنتاج وكثرة الاستهلاك وشل الحركة وإضعاف الصحة ، وينسى أن شعائر التلمود القاسية وعقائد التوراة الصلبة لم تعق أشتات اليهود عن المغامرة والتقدم . وشتان بين نظام لإقليم ونظام لدنيا ، وبين شرع لأمة وشرع لعالم ! هذا المسلم الكاذب هو الذى سترونه منذ صباح الغد معرضاً عن رمضان فى استهتار ، متحدياً لأمر الله فى استكبار ، فيستبيح الفطرة الآثمة والكلمة البذيئة والأكلة الدسمة والسيجار الغليظ .

وهذا الرجل وأمثاله ممن لا يرعون للدين حرمة ولا للتقاليد ذمة ولا لأنفسهم كرامة هم فى نظام المجتمعات نشوز وفى قوانين الأمم شذوذ .

هذه تحية صادقة لشهر رمضان المبارك قالها مؤمن وسمعها مؤمنون ، ولا يدرى إلا الله ماذا تدخر مدنية المال ومادية العلم لهذه الروحية التى تتجلى فى الصوم ، ولهذه الغيرية التى تتمثل فى الصائم .

وقى الله رمضان شر العلم الجاهل والدين الكاذب والتقليد الأعمى والتمدن المشوه ، وجدد الله عليكم به الأعوام المقبلة وأنتم ناعمون فى ظلال الأمن ممتعون بنعمة العافية .

أقاصيص

جلاد الشيطان

— ١ —

كان أهل القرية يسمونه (البحبوح) لأنه كان غيثا من الكرم يصيب الأيادى المنكودة ، ونسيما من المرح ينعش الأجسام المجهودة ، وشعاعا من البهجة يغمر النفوس المظلمة . كان ابتسامه الدائم يفيض على وجهه البرنزى إشراقا من الروح العذب يجعله أقرب إلى البياض المشبوب . وكانت نكتته على طرف لسانه يرسلها فى المناسبة الجميلة فتتفجر الضحك من الصدور الكظيمة ، حتى وصفوه بأنه يضحك حجارة القبر !

كان جميل الهندام ، يلبس الجلباب الأنيق المحكم على صِدار من الشاهى أو الجوخ قد زرَّ لفقيه صفٌ منضود من الأزرار الحريرية ؛ ويضع على رأسه طاقية من القماش الأبيض المخرم قد أمالها قليلا إلى الجهة اليمنى من رأسه . ويجعل فى يديه المطرزتين بالوشم الأزرق خاتما من الفضة البيضاء والعقيق الأحمر . أما قدماه فكانتا حافيتين فى الغيط ، ناعلتين فى القرية . وهو على أية حال كان مثال الظرف للشباب ، ونموذج الفتوة فى البلد .

كان المهدى ـ وهذا هو اسمه ـ ممشوق القوام ، مجدول العضل ، جرىء الصدر ، شهم الفؤاد ، لا يتأخر عن الصف الأول فى كل ما يصيب القرية من أمراض ومآتم ومعارك ، فكان رابع ثلاثة من أقرانه اشتركوا فى زعامة القوة ، وانفرد كل منهم بموهبة من المواهب النادرة تجعله رجل وحده . فالمهدى يجيد الزمر فى الأرغول ؛ وأحمد يتقن غناء المواويل الحمر ؛ وحسن يحذق النقر

على (الدربكة) ؛ وعلى يدير حفلات الأنس وغزوات الليل . وتقسموا على هذه المزايا هوى الشبان وإعجاب الشوابّ ؛ فكان لكل منهم حزب من الجنسين يتعصب له ويهتف به وينقاد إليه ، فى غير وقاحة تسقط حياء الفتيات ، ولا خصومة تكدر صفاء الفتيان .

كانوا يدخنون الحشيش لا لأنه حكم من أحكام (الكيف) ومرض من أمراض العادة ، ولكن لأنه كان فى زمنهم من صبوات الشباب ونزوات الفتوة . وكانوا هم وأتباعهم يسرقون القطن ليلاً من حقوله ، لا لأن السرقة فيهم أثر من لؤم الفطرة ، بل لأن قوى الشباب الجياشة كانت تحتدم فى رءوسهم وتصطدم فى نفوسهم فلا يجدون لها متنفسا ولا مفيضاً إلا هذه الغزوات الليلية يتحدّون فيها يقظة الحراس وسطوة الحكومة .

كانت المزرعة البعيدة من مزارع (الأمير طوسون) تمسى وهى بيضاء تتألق بلوز القطن المتفتح كما تتألق السماء الصافية بالكواكب الزهر ، ثم تصبح وهى سوداء كأنها الأرض بعد الجراد أو الدار بعد الحريق . فيرغى (التفتيش) ويزبد ، ويبرق (المركز) ويرعد ، ودار المهدى تغنى وترقص ، وقد أولمت (للجدعان) الذين قضوا ليلهم فى العمل الجرىء وليمة سخية لا يقدم فيها غير الحلاوة الطحينية على الصوانى وفى الأناجر ؛ ثم يخرجون بعد المأدبة إلى ضفاف الترعة الجارية فينامون على بساط النجيل ، تحت الصفصاف الظليل ، يغمهم عبير الفليّة والسِّعد ، وينفحهم نسيم أكتوبر المنعش وقد خلص من حرور الصيف إلى فتور الخريف . ثم يستيقظون على أنغام الناى الحنون يرسلها المهدى فى الفضاء الصافى فتمتزج بأغانى القرويات الجميلات وهن يقطفن فى أحجارهن لوزات القطن العزيز .

كان الناى أو الأرغول للمهدى كاللسان للشاعر أو الحنجرة للبلبل ، ينفخ

فيه روحه ، ويصور به عواطفه ، ويرسل منه رسائله ، ويفعل به ما يفعله كوبيدون بسهمه . فهو فى النهار الروح الطروب الهائم فى هبات النسيم ، يرفه عن اللاغبين فى استراحة الطنبور ، أو ظهيرة الحراث ، أو وحشة الساقية ؛ وفى الليل رسول الطرب المتبوع فى حفلات الأعراس ، يجتمع هو ورفاقه الثلاثة فى دار العريس فيجتمع عليهم نساء البلد ورجالها وأطفالها يتمتعون بنغمات المهدى ، ورقصات على ، ونقرات حسن ، ومواويل أحمد .

وكان الفتيات الناهدات يتكدسن فى دهليز الدار يتوسمن الوجوه الراغبة أو الخاطبة بعيونهم العسلية الحالمة ، وكنا نندسُّ بينهن ونحن صغار فنسمع من بين شفاههن اللُّمس ذلك الإعجاب المتردد الهامس بأولئك الذين يدخلون السرور فى كل قلب ، ويبعثون الإعجاب فى كل نفس ، ويقذفون الرعب فى كل مكان خارج القرية . وكان المهدى على الأخص غرض الأنظار المسددة ، وموضوع الأحاديث المرددة ، وبغية كل فتاة منهن أن يكون خاطبها الموعود ورجلها المنتظر .

لم يكن المهدى قارئاً ولا كاتبا ؛ ولكنه كان خيراً من القارىء والكاتب . كان يحسب قطنه قبل أن يضرِّبه الوزان ، ويكعب أرضه قبل أن يقيسها المساح . وكان يحل الألغاز ويقسم الميراث ويعلم من الشئون العامة ما لا يعلمه الشيخ عبد الجبار معلم القرية . جمع فى بيته مكتبة صغيرة من سيرة أبو زيد الهلالى وقصة عنترة بن شداد وكتاب فى المواويل وآخر فى الفوازير والنكت ؛ ثم كان يلتمس المتقدمين من صبيان الكتّاب ، أو المبصرين من فقهاء البلد ، فيقرأون له ولرفاقه فى هذه الكتب حتى حفظ الأشعار والأخبار عن ظهر قلب . وأذكر — وما أجمل ما أذكر — أنى كنت أحَبَّ قرائه إلى نفسه . ولولاه لما امتلأ ذهنى الصغير بمعانى الشعر وأساطير العرب وأناشيد البطولة .

— ٢ —

نزحت إلى القاهرة في طلب العلم . ثم كنت في الصيف أعود إلى القرية فأنسجم في حياتها ، واختلط ببنيها وبناتها ، فأغسل دمي بهوائها الطهر ، وأجلو شعوري بجوها المستنير ، وأهدهد أحلام مستقبلي في مهد الطفولة .

ففي ذات صيف لاحظت أن بالمهدي مَسحةً من هزال لا يعللها مرض . ورأيت أنه قليل الدعابة كثير الوجوم ، يطرق إطراق المهموم ويذهل ذهول الشاعر ، وأعجبُ أمرِه أنه آثر الأرغول على الناى ، ومال عن سِير الحرب إلى أقاصيص الحب ، وهجر مجالس الفتوة ، وحافظ على الصلوات الخمس في أوقاتها وراء الإمام . فسألته ذات يوم وقد جاءني بعد انصراف الناس يسألني عن الكتاب الذي يجد فيه أشعار الشيخ حسن جابر منشد قصة المولد :

— مالك يا مهدي تغيرت بعض التغير ؟ أبك علة ؟ ألك حاجة ؟

فأجابني وقد استراح إلى موضوع الحديث كأنما أصاب به نفَساً من كربه :

— علتي (ريَّا) ، وحاجتي هي !

— ريا ؟ أتحبها ؟

— أموت فيها !

— ولم لا تخطبها إلى أهلها ؟

— يقول أبوها إنني أسرق غيطان الناس وأتعاطى الحرام ولا أصلي .

— وماذا ترى أن تفعل ؟

— لا شيء . سيتركها خاطبوها إليَّ ، وسيغير أبوها بالطبع رأيه فيَّ .

* * *

أنا أعرف ريَّا لو هل في قريتي الصغيرة من أجهله حتى أجهل ريا ؟

كانت وحيدة أبيها الحاج حسين ، فطبعها على الدلال ، ونشأها على الدعة ، ووسع لها فى الثياب والزينة ، وأعفاها من أكثر عمل الغيط والبيت ، فشبت على أخلاق المترفين عزوفة النفس مرهفة الحس واهنة الأعصاب رقيقة البدن ؛ ولكنها كانت على الغاية من ملاحة الشكل وصفاء البشرة وعذوبة الروح وسحر الملامح . وأبلغ آيات الجمال فيها عينان ساجيتان وأهداب وطف ينبعث منها فى القلوب ما لا تستطيع اللغة أن تسميه ولا العلم أن يصفه . فإذا خرجت ساعة الأصيل فى أترابها الجميلات يحملن الجرار إلى النهر أو من النهر ، ميزتها فى مقدمة السرب بقدها المشوق اللدن ، ومشيتها المختالة الموزونة ، وخلخالها الفضى اللامع من خلال ذيلها الهفهاف ، وجرتها المائلة فى أناقة إلى يمين رأسها كأنها طاقية المهدى ، فلا يسعك إلا أن تصدق ما يقولون من أن أباها يضن بها على الفلاح الذى يبتذل جمالها فى إدارة الطنبور وخدمة الماشية ...

***

— وكيف تلقاها يا مهدى ورأى أبيها فيك هذا الرأى ؟

— ألقاها كل يوم وهى تسقى الجاموسة من الترعة ، تتركها تبترد فى الماء ثم تجلس إلى تحت شجرة التوت فنتساقط أعذب الأحاديث من غرام وشكوى ، وأصحبها وهى ذاهبة على حمارها الأسود الفاره ، تحمل الغداء إلى أبيها فى غيطه البعيد ، حتى إذا قاربناه جلست على حوض الساقية أتعقبها بنظرى حتى ترجع فأعود معها إلى القرية . وفى بعض الأيام يذهب أبوها إلى السوق فأقضى معها ومع أمها ذلك اليوم السعيد ، لا يكل النظر المثبت فى النظر ، ولا يفتر الحديث المتصل بالحديث ، ولا نشعر بالمكان الذى يحصر ، ولا بالزمان الذى يمر ، ولا بالموعد الذى يقترب .

وربما ظلت النهار كله مع أبيها فى المزرعة تضع بذور القطن فى الأرض ،

أو تنقر حب الذرة وراء المحراث . أو تنقى غلات الرز فى وسط الماء ، فلا أستطيع أن أراها ، فأحاول أن أخفف بُرَحاء الشوق عن قلبى العميد بالنظر إلى حمارها وهو يتمرّغ فى الحارة ، أو إلى كلبها وهو رابض على عتبة البيت ، أو إلى عِجلْتها وهى تمشى متئدة أمام أمها إلى الترعة .

أرجو ألا تضحك ! إن حب ريا قد صور لى الأشخاص والأشياء على غير الصورة التى تراها ؛ فأنا حقيقة أرى حمارها أجمل الحمير ، وكلبها أظرف الكلاب ، وجاموستها ألطف الجاموس ! إن فى كل أولئك شيئا منها لا أعرفه . ولو كنت تعلمت لعرفت . !

لقد أحببت غير ريا ، ولكنه كان حباً غير هذا الحب ، لم يتعد السطح ولم ينفذ إلى ما وراء الاحساس فلم يتغير فىّ عادة ولا صفة . أما حبها فقد خلقنى خلقة أخرى ، حتى لألتمس المهدى القديم فى إهابى فلا أجده : أصبحت لا أميل إلى غزو الليل ، ولا أرغب فى لهو النهار ، ولا أفكر فى غير الخير . وفى بعض الساعات والخلوات أشعر أن فى رأسى عالما عجيب الألوان غريب الصور تموج فيه الزهور وتطوف به العرائس ، فأستغرق فيه استغراق الطفل فى « صندوق الدنيا » ، وأحس سيلا من المعانى ينهمر على لسانى فأحاول الكلام فلا يعبر، وأجرب الغناء فلا يجدى ، وأجد الأشعار التى حفظتها من عنترة وأبو زيد لا تصور ما فى خيالى ولا تنقل ما فى خاطرى . ولذلك جئت أسألك عن الكتاب الذى أجد فيه أشعار الشيخ حسن جابر المغنى فإنها أقرب إلى ما أريد .

***

لا تظن ياسيدى أنى أزور لك كلام المهدى على عادة الكتاب لطّرد الحديث على أسلوب واحد . الحق أن المهدى كان بذكائه وعقله كاتبا لا ينقصه إلا القلم ، وبخياله وحسه شاعراً لا يعوزه إلا القيثار . هذه هى معانيه لم أنقص

منها ولم أزد عليها ، ولو كنت أذكر اليوم ألفاظه لما ترددت فى تسجيلها .

انصرف المهدى عنى وغاب فلم أعد ألقاه عندى ولا أراه عند غيرى . فسألت عنه ذات يوم رفيقه أحمد صاحب الصوت الأبيض والموال الأحمر ، فقال وهو يبتسم فى خبث ويشير فى يأس :

— أوه ! إنه لا يكاد يفارق ريا ولا أهل ريا :

يعمل مع أبيها فى الغيط ، ويكاد يعمل مع أمها فى المنزل . وهو الذى يسقى الجاموسة ويعلف الحمار ويرعى شؤون الأسرة .

— إذن قبل أبوها أن يزوجها منه ؟

— نعم ، قبل بعد أن تحقق أنه ترك الحرام وعزف عن اللهو وعكف على العبادة وأخذ عهداً على السيد القصبي . وهم الآن يرصدون الأهبة لحفلة العقد ، ويعدون العدة لزفة الزواج .

— ٣ —

بيع القطن ومسحت على الجيوب الفارغة يد قارون . ومست الشبان الأعزاب مواسٌ الهوى فذهب كل منهم يسمى لأهله البنت التى ضفر لها (الضفائر) ، واشترى لها (الغوايش) ، وأهدى إليها (الحلاوة) ؛ وأخذ الشيخ عبد الوهاب مأذون القرية ينتقل من دار إلى دار وتحت إبطه دفتره العريض وفى حزامه دواته النحاس ، يعقد العقد ويأخذ المنديل ويشرب السكر ويسمع طلقة البندقية التى تعلن عقد الزواج للفتيات المنتظرات حين يقول للعريس : « بارك الله لك فيها » . وأقبل الزمار الصيِّت (أبو سعد) بطبوله ومزاميره ومهرجيه، فلبث فى القرية الساكنة أسبوعين جعلها فيهما صورة صغيرة من (مولد السيد). وتساءل الوافدون على الأفراح : أين المهدى ؟ لم يظهر فى زفة من الزفات، ولم

يسهر فى سامر من السوامر ! وكان العرف الجارى أنه هو الذى يقاول (الطبل)، ويهندم العريس ، وينظم الزفة ، ويقترح الأدوار على (أبو سعد) ، ويرسم لموكب الزفاف لزائط مكان الوقوف وزمان الحركة . ولقد تحدثت المصاطب منذ شهرين أن زفاف ريا إلى المهدى سيكون افتتاح الموسم ، وأن شعراء (الربابة) ومنشدى المواويل ، ولاعبى البرجاس ، وضاربى (الحطب) سيتقاطرون على البلد يؤدون إلى المهدى بعض ما أولاهم فى سالف العهد من أياد وصنائع .

— هل عندك يا على خبر عن المهدى ؟ هل هو مريض ؟

— هو فى أمان الله ، ولكن ريا هى المريضة .

— منذ كم ؟

— منذ شهر

— وماذا تشكو ؟

— يقولون إنها (معذورة) ، فهى لا تتكلم ، ولا تبتسم ، ولا تشتهى الطعام ، ولا تذوق الكرى ، وقد عدتها بالأمس فوجدتها مسبوتة على الحصير، زائغة البصر ، ساهمة الوجه ، ترفع يداً وتضع أخرى . ثم تبكى من غير سبب ؛ وتنتفض من غير حمى ، ويدركها الذهول حيناً فتغمض عينيهـا ولا تتحرك . وكانت أمها على رأسها تروّح عليها ، والمهدى بجانبها يذب عنها ، وأبوها أمام الحجرة يدخن فى تفكير وحزن ، فسألت أمها :

— كيف حال ريا اليوم ؟

— كما ترى . ولقد ذهبت اليوم ومعى منديلها إلى الشيخ فرج ؛ فقاس الأثر وفتح الكتاب ، ثم قال إنها ألقت ماء بالليل أمام الفرن ولم تبسمل ،

فوقع على أطفال من الجن فركبها أبوهم . ولقد كتب لها حجاباً كبيراً حملناه إليها بحملته ، ورسم بالحبر أشكالاً فى طبق ثم محاها بالماء وسقيناها إياه فشربته ؛ ولكن ريا لا تزال ذابلة ذاهلة ، لا يطمئن بها فراش ، ولا يسكن لها عصب !

— ولماذا لا تطلبون لها الشيخ عبد الجبار ؟

— لقد فكرنا فى ذلك . وسيذهب المهدى بعد صلاة العشاء يدعوه :

* * *

والشيخ عبد الجبار هذا ضرير فى حدود السبعين نحيل البدن لاصب الجلد ، ولكنه مسمورا لجسم متين العصب . كان شيخ (الفقهاء) ومعلم الصبيان فى القرية . وقد تنفس به العمر حتى ربى جيلين من رجالها ؛ فكان يتمتع لذلك بنفوذ واسع واحترام عظيم . وكان وافر اللب شديد الدهاء رزين الطبع، ثم أكسبته مزاولة التعليم على الأسلوب القديم سلاطة اللسان وخشونة اليد وقساوة القلب ، فقلما تخرّج من كتابه متخرج دون أن تصاحبه عاهة فى بدنه . لقد كان يضرب الصبى بالجريدة حتى يفقد الوعى . ثم يتركه لأنه تعب لا لأنه أشفق . وكان إذا تهدد أو توعد ظهر غضبه المتسعر فى مقلتيه الجاحظتين على رغم انطفائهما ؛ فلم أر أعمى يؤثر بعينيه غيره . وكانوا يسمونه (جلاد الشيطان) لأن الجن الذين يركبون الجيلات كانوا يرتعدون خوفا من طلعته . وليس الجن وحدهم هم الذين كانوا يرهبونه ، فقد كنا وكان الصبيان إذا مر الشيخ عبدالجبار فى زعبوطه الأسود ، يده على كتف قائده ، ورأسه الدقيق غائب فى عمامته الضخمة ، وخده الشاحب مصعرّ للناس ، وأذنه المنصوبة مرهفة للغط الطريق ، وقفنا صامتين راهبين كأن جنازة تمر !

— ٤ —

لقد كنت وا أسفا من شهود هذا الحادث الفاجع ، فأنا أقصه عليك كما حدث . لا يزال على طول العهد حياً فى ذاكرتى رهيباً فى نفسى كأنه وقع أمس ، والحوادث اليسيرة تجد خلودها فى أعماق الحافظة الصغيرة ، فكيف بالحادث الجلَل ؟

جاء المهدى بالشيخ عبدالجبار بعد صلاة العشاء إلى ريا . وأقبل أهل الحارة ومن سمع من رجال القرية إلى البيت الحزين القلق يساهمون فى الرجاء والدعاء والأسف . فملأُوا الحجرة وشغلوا الدهليز وسالوا خارج العتبة. وكانت ريّا ساهمة كأنها صورة الحلم المنىء . فلما دخل الشيخ عليها حلقت بعينيها ثم صرخت صرخة شديدة . فدمدم النساء آسفات وقال بعضهن لبعض : عرف جلاده ففزع ! ليت ذلك كان من زمان !

جلس عبد الجبار عند قدمى ريا ، وجلس بجانبه عريف الكتاب ومعه حزمة من جريد النخل المشذب المصقول مما يستعمله فى تأديب الغِلاظ الشِّداد من « أولاد المكتب » ، ودواة من الخزف الأخضر ، وقلم من القصب الأبيض ، وخرقة بالية معقودة على شىء . ثم أخذ يسألها سؤال العارف :

— ماذا بك يا ريا ؟

— لا شىء يا سيدنا

فلما رأى سيدنا الصوت طبيعياً والجواب عادياً قال لنفسه وهو يُسمع الناس :

— هيه ! لقد هرب . ولا بد من استحضاره .

ثم فك العقدة عما فى الخرقة فإذا هو فتات من اللبان والجاوى . ودعا العريف بموقد النار فوضع فيه البَخور فملأ أرَجه الحجرة . حينئذ أخذ الشيخ يتلو العزائم بصوت يشبه الدمدمة فلا يكاد يتبين منه حرف . ثم كان يتحمس

عند بعض المقاطع فيشتد ويحتد ويذكر بعض الأسماء الغريبة ، حتى هيج دخانُ البخور وهمهمة الشيخ وازدحام الحجرة أعصاب المريضة المسكينة فاختلجت أطرافها اختلاجاً أحسه الأعمى : فأمسك عن التلاوة وأمر برفع الموقد وأشار إلى عريفه أن يبدأ العمل .

تقدم العريف المجرب وتناول يدها اليمنى وكتب على ظفر إبهامها كلمة أملاها عليه الشيخ همساً . ثم كتب كلمة أخرى على ظفر السبابة ، ثم على أظفار الوسطى والبنصر والخنصر . وفعل باليد اليسرى مافعل باليد اليمنى . ثم تناول القدمين متعاقبتين فكتب على أظفارهما العشرة ماأملاه الفقيه عليه : ثم أعلن بعد ذلك جلاد الشيطان أنه حبس العفريت في جسمها فلا يستطيع أن يخرج . وانقلبت سحنة الشيخ فجأة ، فاربد وجهه ، وجحظت عيناه ، وغلى دمه ،وصاح في غلامه :

— جاد ! هات (الفلقة) !

وجاء جاد بالفلقة فوضعها في قدمى ريا مكان الخلخال الفضى اللامع ، ثم شدها وأمسك من طرف وأمسك شاب آخر من طرف . واستلَّ الأعمى جريدة من الحزمة وبرك على ركبتيه وبصق في يده ، ثم أنحى على المريضة المنهوكة ضرباً دراكا يهدم جسم الجان بله الإنسان !

كانت ريا تصرخ صراخاً عالياً متوالياً من الضرب الموجع ، والقوم صامتون وفي سرهم الشماتة بالشيطان الذى يلتمس الرحمة فلا يجد ، ويحاول الفرار فلا يستطيع .

تحطمت الجريدة الأولى فوقف عبد الجبار وأقبل بوجهه الضامر على ريا الضارعة وقال في تهديد وحنق :

— هيه ! قل لى ما اسمك ؟

— ؟

— أمؤمن أنت أم كافر ؟

— ؟

— قل لى من أى القبائل والفصائل أنت ؟

— ؟

— أتعاهدنى على تركها وأنا أسامحك وأطلقك ؟

— ؟

كان الأعمى يلقى هذه الأسئلة المتحدية على العفريت الأسير فى جسم ريا ، وريا تئن أنيناً متصلاً فى استرخاء وخفوت وضراعة ، والقوم حولها ينتظرون إجابة الشيطان وأبصارهم شاخصة وأنفاسهم معلقة ، والألسنة خارج الحجرة تتناقل صمته الغريب فى همس وعجب ، والشيخ عبد الجبار يحدّق بعينه البيضاء فى عين المصباح الخافت ويقول : ياسلام ! مارأيت أعند من هـذا الملعون ! ياجاد ! هات الجريدة الثانية !

وشد الفلقة جادٌ من جديد ، وبرك الشيخ الجبار على ركبتيه من جديد ، ثم شرع يدق القدمين النحيلتين دقاً عنيفاً بالجريدة الثقيلة ! وهبت قوى الفتاة المذخورة تدافع الألم الممض بالصراخ الدامع والاستغاثة المبتهلة :

— أنا فى عرض النبى ! أنقذينى ياأماه ! أغثنى يامهـدى : أنا أموت ! ليس على شىء ! آه !

لم يجد هذا الهتاف المؤلم سمعاً من أحد ؛ لأنهم يعتقدون بإخلاص أن المارد العنيد يخدعهم عن نفسه ، وأن ريا الحقيقية النائمة فى غلاف من العفـريت لاتدرى ولا تحس . وكلّت يد الجبار من الضرب فحل محله شاب قـوى .

وتحطمت الجريدة الثانية والثالثة ، وجلاد الشيطان يعيد الأسئلة بين فترة وفترة فلا يسمع إلا الجواب الطبيعي أو الأنين المستسلم .

وزاد عجب الناس من عناد الجنى الكافر : واشتد سخط المهدى على هذا الرجيم الذى غلبه على حبيبته ، فتناول الجريدة الرابعة ووقف بجانب الأعمى وقد كان يهمهم ويدمدم ، وأخذ يلهب قدمى حبيبته المعبودتين بالعصا المضرمة المبرومة ! وريا . . أوه ! لا تسلنى حينئذ عن حال ريا . إن فى بعض مظاهر النفس ودلالات الملامح مايقف أمامه البيان الإنسانى أبكم لاينطق وعيياً لايبين . وماذا عسى اللفظ العصى الجامد أن يصور لك حال ريا وقد فتحت عينيها الداميتين فوجدت المهدى — ملجأ فزعها ومرقأ دمعها — يصب على جسمها الناحل هذا العذاب ؟

لم تعد ريا تصرخ ولا تستغيث ، وإنما كانت تنتفض للضربة والضربة انتفاضة الملسوع . ثم ترسل مدامعها الغزار فى صمت ، وتقلص شفتيها الرقيقتين فى مضض : ووقعت عين المهدى على هذا الوجه الشهيد المحتضر فاسترخت يده وارتمى على الأرض مستخرطاً فى البكاء . فانتهز عبد الجبار هذا الضارب الخرِع وتناول الجريدة وصاح :

— جاد ! أعد نظرك فى الأظافر فلعل بعضها قد امحت عنه الكتابة فيهرب .

ففحص العريف أطراف البنان المرسلة وأصابع القدمين الممزقة ، ثم قال فى اطمئنان الواثق بعمله .

— الكتابة سليمة ياسيدنا .

حينئذ أخذ الجبار يفكر فى عذاب آخر ، ولكنه أراد أن ينذر به الجنى قبل تنفيذه . فزحف حتى بلغ رأس المريضة ، ثم ألصق فمه بأذنها وأخذ

يسارُّ الجنى . ولكن ما باله ارتبك ؟ إنه ولاريب لاحظ كما لاحظ القوم أن رياح تَنسم نسما لايكاد لضعفه يدرك ، وأن العفريت مهما عَذب لايخمد هذا الخمود . فأحس الخطر وتوقع الكارثة . وأراد الخبيث أن (ينقذ الموقف) كما يعبرون فقال :

لقد وعدنى العفريت أن يشاور نفسه ! فدعوه الآن هادئا يفكر حتى يصبح الصباح !

* * *

وفى الصباح ذهب عبد الجبار وادعاً يفتح الكتّاب ، وذهب أبوريا هالعاً يفتح القبر !

ومنذ ذلك اليوم المشئوم مات المهدى الذى عرفته فى أول القصة ، وعاش فى جسمه المهدود مخلوق آخر لاهو شخص ولاهو شىء !

سيدنا الشيخ حسن

كان سيدنا الشيخ حسن رجلاً مربوع القامة إلى الطول ، ممتلىء الجسم إلى السمن ، آدمَ اللون فى اصفرار ، مستدير الوجه فى غلظ ، قصير العنق فى اكتناز ، عريض الجبهة فى بروز ، ضيق العين فى كلال ، مرسل الشارب ، مسيل اللحية ، قد شاع فيها مشيب السنة الخمسين .

وهذه هى الصفات الخلقية التى تذب إلى ناظريك أول ماتراه . فإذا رجعت فيه البصر رأيت فى وسط جبينه سمة ظاهرة فى شكل الزبيبة من أثر السجود ، وفى أعلى ذقنه ندبة غائرة كطعنة المسمار من مشاجرة . وليس بين طول السجود وحب المشاجرة تناقض فى خلق الشيخ ، فقد كان رقيق القلب مرهف الشعور ، يهتاج لأدنى باعث ، ويبكى لأقل حادث ، ويتأثر لأى خبر . فهو شديد الرضا إلى حد الاستكانة ، سريع الغضب إلى درجة البطش . ورضاه وغضبه لايخرجان عن حميته لدينه أو عصبيته لرأيه ؛ فالصوفى الذى ينسب إلى الأولياء ماللأنبياء من الخوارق يحرك قلبه ويثير إعجابه حتى ليقبّل رجله . و (الشاعر) الذى يغلّب (أبو سعدة الزناتى) على (أبوزيد الهلالى) يهيج نفسه ويضرم غيظه حتى ليضرب وجهه . يلبس العمامة الضخمة على رأسه الصغير الأصلع فتنطبق على فوديه ، وتستقر على أذنيه ، وتلقى على محياه الأسمر إشراقا حائلا من التقى والهيبة . ويرتدى الزعبوط الخشن الفضفاض على جسمه الرهل الرجراج ، فإذا مشى رفع ذيله على عاتقه الأيسر فيكشف لعينيك عن جانب من سراويله البيضاء يضرب عليها من خطوة إلى خطوة رأس تِكتها السوداء الغليظة . وهو يمشى مطرق الرأس

متكفىء الخطو كأنما يهبط فى حَدُور من الأرض . واضطراب لحمه مع وثاقة تركيبه دليل على أن هذا الرهل عارض من عوارض الجلوس والراحة .

ليس فى حاجة إلى هذا الدليل من عرفه فى ريق شبابه ، فقد قضى عمره الأول ضارباً فى الأرض بقدميه وذراعيه حتى سخرته الحكومة فيمن سخرت لحفر قناة الاسماعيلية وترعة المحمودية. فلما عاد من الهجرة والسخرة شرع يحفظ القرآن على أبيه ليخلفه على خدمة (الزاوية) وهى مسجد القرية الصغيرة. وكان حفظه القرآن على الكبر غميزة يصيبه منها منافسوه من (الفقهاء) ، فيقولون فى خبث الحاسد : إن كلام الله لا يرتسم على لوحة الذهن إلا فى الصغر . ويجهد هو أن يفوّت عليهم مايقصدونه من هذا الغمز فلا يفتر عن استظهاره واستذكاره حتى حمله على ظهر قلبه ، وأداه عن طرف لسانه .

وتوفى أبوه فأصبح خادم (الزاوية) ، وقارىء البيوت ومعلم الكتاب ، ولحاد الموتى ؛ فكان نهاره كله سعياً متصلاً وحركة دائبة . ينفلت من صلاة الفجر فيدور دورته الرتيبة على الدور يقرأ فى كل منها ماتيسر من كتاب الله . ثم يسأل وهو ماش يتدهدى بين الأزقة عن تاريخ اليوم فى التقاويم العربية والأفرنجية والقبطية فيجيب ، ويستفتى عن اليوم المشئوم والميمون فيفتى ، ويطلب منه أن يحسب النجم لهذا أو ذاك فيحسب . ثم تناديه إحدى عجائز البيوت ليبنى لها الفرن فيلبى، ويدعوه أحد الفلاحين ليكيل له القمح فى الجرن فيذهب . ثم يختم دورته اليومية عند الضحى العالى ، ويعود إلى الكتاب فيعلق عمامته وزعبوطه على الوتد ، ثم يقعد على شقة من الحصير ، عن يمينه (الجريدة) ، وعن يساره القلة ، وأمامه حزمة من الخوص المبلول ، وفى يديه ضفيرة يدخل فيها الخوصة بعد الخوصة وأصابعه الكزماء[1] تلوى بها من كل جانب . ثم يستمع إلى أحد الصبيان وهو متربع على الأرض قدامه ، يرتجف

(١) الكزماء . هى القصيرة الغليظة .

من الخوف ويتلو عليه ما حفظ من لوحه . فإذا فرغ سيدنا من استماع قراءة الحافظ ، وعرك أذن الناسى ، وضرب رجل المقصر ، ذهب إلى الزاوية فملأ ميضأتها ومغطسها بالدلو ، ونظف حُصُرَها وحماشيها بالمكنسة . ثم يصلى بالناس الظهر ، ويعود فيتغدى ، ثم يعطى الصبيان حصة العصر ، ويصرف بعضهم إلى أهليهم ، ويرسل البعض الآخر يجمع الحطب من التلول ، أو يجلب السريس من الحقول ، أو يبل له حزم الخوص فى المستنقع . ثم يستبقى فريقاً لتشقيق السعف لجدل الضفيرة ، وفتل الحبال من الليف لخياطة المقاطف . فأما ذوو الخطوط الجميلة فهؤلاء يملى عليهم ما طُلب منه من التمائم والأحجبة : فذا يكتب (السبع آيات المنجيات) ؛ وهذا يكتب (السبعة عهود) ، وذاك ينقل من (الديربى) جدول التأليف بين الزوجين ، وذلك يكتب على خوصة نخلة شرقية تميمة للسعال ، أو على بيضة دجاجة سبتية عزيمة للحمى . وينصرف أولئك جميعاً ويبقى أبرعهم فى القراءة فينقلب أستاذاً (لسيدنا) يحفِّظه قصيدة البردة للأبوصيرى شطرة شطرة ، أو على حد تعبيره هو : (شجمة شجمة) . وهنا تظهر قسوة الإرادة الفتية على الذاكرة الشيخة ؛ فسيدنا يريد أن يحفظ البردة كلها لأنها تُنشد أمام الجنائز كأنها كتاب الموتى ، وهو حريص على أن يتزعم فريق المنشدين فى الجنازة ، يذكِّر الناسين أوائل الأبيات ، ويرسم للبادئين طرائق النغم ، حتى يعتاض بهذه الزعامة عن زعامة القراء ، فإن فيهم من يفوقه فى حفظ القرآن وتجويده . ولكن ما العمل وأنا لا أفهم ما أقرأ ، وهو لا يعلم ما يحفظ ؟ لا حيلة إلا أن ينقشها فى صفحة حافظته على الصورة التى ألفناها من رسم الكلمات ولا أذكر كيف قرأ مطلع هذه القصيدة :

أمِن تذكُّرِ جيران بذى سَلَم مزجت دمعاً جرى من مقلة بدم

وإنما أذكر أنه كان على غير هذا الضبط الذى تقرأه أنت الآن ، وربما

كان أقرب إلى الضبط الذى قرأه عليه أحد أنصاف الأميين من إخوانه المسيحيين إذ قال : أَمِ تِذَّ كُّرْ جُبْرَانْ بِذِّى سَلَمْ

وما كان أصعب عليه رحمه الله من نطقه : (اكففا همتا) فى قول الأبوصيرى :

فما لعينيك إن قلت اكففا همتَاَ وما لقلبك إن قلت استفق يهم

فانه كان يلفظها على أنها كلة واحدة ؛ وهى بهذا الاعتبار تلتوى على لسانه وتعلُ عن ذاكرته .

* * *

كانت لى الحظوة عند (سيدنا) من دون أولاد الكتاب ، لأنى كنت أسمِّع له البردة ، وأكتب له الحجاب الغالىّ ، وأرسم الخاتم الدقيق على رُكَب التلاميذ عصر الخميس حتى لا يستحموا فى النهر يوم الجمعة . وكانت لى الدالة على (امرأة سيدنا) ، لأنى كنت سريعاً إلى قضاء حاجِها من بيت الأسرة . فكنت أعفى من الأعمال الشاقة ، كهرس سنابل القمح بالمطاحن ، ودق كَرَب النخل بالمطارق (١) ، وجر حُزم الجريد من البستان ؛ وأجاب إلى كل ما أسال . ولا أزال أذكر أن العريف قرر ذات حين أن يأتى (الأولاد) بأغديتهم فى الصباح حتى لا يخرجوا من الكتاب فى الظهر . وأغدية التلاميذ تختلف طبعاً باختلاف البيوت فى الغنى والفقر ؛ فكان العريف الماكر يركم الطعام بعضه فوق بعض فيجعل طيبه أسفل ورديئه أعلى ؛ ثم يجمع الصبيان حول هذا الركام ويأمرهم أن يبدأوا الأكل من فوق ، فيأكلوا كارهين ، حتى إذا أوشكت أناملهم الصغيرة أن تهبط إلى الطبقات الخصيبة أعلن انتهاء

(١) الكرب . رءوس الجريد الغلاظ التى تقطع معها (تحف) .

الغداء ، وحمل آخر النهار كل ذلك إلى أهله ! فكان أكثر (الأولاد) يقاسون الجوع ولا يستطيع أحد منهم أن يجأر بالشكوى ، إلا أنا ، فلم أكد أعرِّض (اسيدتنا) بفوضى هذا النظام حتى حملت (سيدنا) على غل يد العريف وإلغاء حكمه .

على أن هذه الحظوة وتلك الدالة لم تستطيعا أن تحببا إلىّ الكتاب ، ولا أن تخففا عن نفسى شدة كربه . فقد كنت كسائر الأطفال أكره الكتّاب كراهتى للموت ،وأخاف من الفقيه مخافتى من الهولة . وكان أسعد أيامنا نحن أولاد الكتاب يوم يموت فى القرية ميت ! فإذا سمعنا فى الصباح الباكر صراخ الندى على بعض السطوح طفرنا من السرور وسكرنا من الطرب ، لأن هذا الميت سينقذنا طول النهار من طلعة الفقيه . فقد كان الشيخ حسن هو الذى يبنى قبره ، وهو الذى يغسله ويكفنه ، ثم يلحده ويلقنه ، وفيما بين ذلك يشارك الجزار فى ذبيحته ، ويرأس المنشدين فى جنازته : فإذا لم يكن فى القرية ميت يشغله تجهيزه ، ولا فى بعض الدور فرن يؤخره بناؤه ، فرغ لنا بنظرته القاسية وجريدته الجاسية وصيحته المنكرة ؛ فهو طول النهار متمكن فى جلسته وهيئته اللتين وصفتهما من قبل ، ونحن قعود على أرض المنظرة ، بعضنا ينقل من المصحف ، وبعضنا يحفظ فى اللوح ، وأحدنا ينود[1] أمامه ، يسمِّع الدرس القديم ، أو يصحح الدرس الجديد ؛ فإذا عثر ولج به العثار أنحى على فخذه بالجريدة المبرومة ، ثم يأمرنا أن نجهر بالقراءة حتى يضيع فى صياحنا بكاء المضروب ! ويتطاير غضب سيدنا إلى نواحى المنظرة فتنخلع قلوبنا من الرعب ، ويتداخل بعضنا فى بعض كما تتداخل الخراف فى الحظيرة إذا ما سمعت هيعة الذئب[2] .

على أن سيدنا كان فى غير ساعة الدرس طيب القلب رقيق الكبد لا ينفك

---

(١) ناد القارىء إذا هز رأسه وكتفيه على نحو ما يفعل قراء القرآن .
(٢) الهيعة : صوت العدو المهاجم .

فى صلواته يدعو الله أن يجعل أولاده من حملة القرآن وطلبة العلم .

* * *

كان أظهر ما فى حياة سيدنا الشيخ حسن غرامه بالزاوية ، فهو لا يفكر إلا فيها ، ولا يعمل إلا لها ، ولا يسأل إلا عنها . هى ميراثه عن أبيه ، ويرجو أن تكون ميراثه لبنيه . أمنيته لنفسه أن يدفن فى الزاوية ، ودعوته لابنه أن يكون خطيب الزاوية ، ورجاؤه فى الله أن يعطف عليها وزارة الأوقاف ، أو يرقق لها قلوب الناس فيرفعوا ما خر من سقفها ، ويقيموا ما تقوض من بناها ؛ ولكن وزارة الأوقاف مشغولة عن الزاوية ، وأهل القرية مكتفون بالمسجد الكبير ، فمن الذى يدنيه من مناله ويسعفه بآماله ؟ لا أحد إلا إيمانه بالله وثقته بنفسه . ألم يكن فى صدر أيامه بنّاء ؟ إذن لا يعوزه إلا الآجُرُّ والحجارة ، وهذا مطلب مع العزيمة المؤمنة ممكن التحقيق سهل الملتمس .
فكان كلما دخل داراً يقرأ فيها (الراتب) نفضها بنظره الحسير ، فإذا رأى آجرّة مهجورة أو طوبة مكسورة حملها فى كمه الواسع إلى الزاوية . وكان يمشى فى الطريق ونظره إلى الأرض ، فإذا رأى حجراً أو بعض حجر لقطه وحمله إلى الزاوية . وكان يرجو بهذه الطريقة أن يتجمع له مع الزمن والاستمرار أكوام من الآجر ، لولا أن الحوادث العوابث حالت بينه وبين ما يرجو . كانت الكلاب الراقدة فوق التلول ، أو الرابضة على العتبات ، أو الراصدة فى الأزقة والحارات ، كلما رأته ينحنى على (الطوبة) يلتقطها ، ظنت أنه يريد أن يرميها بها ، فبعضها يهجم عليه ، وبعضها يولى عنه . ويدعو نباح هذا الكلب وهرير ذاك سائر الكلاب ، فيضطر (سيدنا) أن يقذفها بما معه من الحجارة ، فتحمى المعركة ، ويتفاقم الأمر ، ولا ينحسم إلا بتدخل أهل الحى .
وعرفته الكلاب ، فكان إذا مشى هرّته ولو لم يكن فى يده حجر . فهو فى طريقه إلى الدور أو إلى الزاوية أو إلى الكتاب ، تراه متبوعاً بسرب منها

تنبحه وتهم به ، حتى أكرهته آخر الأمر أن يدع جمع الطوب وأن يحمل المراوة

* * *

وسمع الشيخ بعض النائمين فى الزاوية بين عُمدها المتصدعة ، وفوق حُصرها البالية ، يتحدثون ذات يوم بأن المنشاوى باشا ينفق الأموال فى وجوه المعروف ، ويحبس الأطيان على أعمال البر ؛ فهو يقيم المستشفيات والملاجىء ، وينشىء المدارس والمساجد ، ويفيض من ثرائه الغمر على البيوت الجديبة فتهتز وتورق . ففكر سيدنا ملياً وهو يضع قنديل الزيت فى مشكاته المحطمة ، ثم رجع إلى بيته ساهماً حالماً كأنما يشغل باله شأن خطير .

ورآه المبكرون من رجال القرية ونسائها يأخذ طريق السوق بعد صلاة الفجر ، نعلاه تحت إبطه ، وزاده فوق ظهره ، وعصا غليظة فى يده . فسأله بعضهم :

— إلى أين يا سيدنا فى هذا الوقت ؟

— إلى المنصورة فى شأن من شؤون الزاوية .

— ألم تجد حماراً ؟

— بلى ، ولكننى فضلت أن أحمل نفسى مخافة أن يضيع الحمار .

ولكن مضى اليوم واليومان والأيام وسيدنا لا يظهر فى مكان من أمكنة القرية ، فإلى أين ذهب ؟ كان يطوى المراحل ماشياً حافياً إلى (القرشية) بلد المحسن الكبير المنشاوى باشا ؛ وكان بين قرية الشيخ وبلد الباشا مائة كيلو من الأمتار .

ها هو ذا يهدج [1] فى الطرق الشوكاء والمسالك الحصبة والمرافق الوحلة دامى القدم مرتهك المفاصل طاوى الحشا ، يبيت ليله فى القرية التى تقابله فى المساء ، لا ينزل على العمدة ولا على الشيخ ، وإنما ينزل على خادم المسجد

(١) هدج الرجل : مشى مشية الشيوخ .

أو فقيه الكتاب أو مأذون القرية ممن يتوسم الخير فيه ويرجو المؤاساة عنده .

وبعد عشرة أيام كاملة من السير المجهد واللغوب المضنى ، ورد مناهل الباشا فى القرشية فوجدها تموج بذوى العاهات والحاجات من طلاب الرزق ، بين صحفى يقدم وصل (الاشتراك) ، وشاعر يطلب جائزة القصيدة ، ورئيس مدرسة يبتغى نصيباً من الإعانة ، ومديرة ملجأ ترتجى حصة فى الوقف ، وطوائف مختلفات من المحتالين والعيارين والمشعوذين وأرباب الطرق ، كل يستندى كف المحسن الكبير الذى يوزع ثروته تفصيلا قبل أن يخرجه الموت عنها جملة .

دخل المسافر المجهود فى غمار الناس وهو أشعث أغبر ، فاقتحمته العيون ، وتدافعته الأيدى . وظن الحجاب والخدام أنه طالب طعام ، ولم يدروا أنه ركب المخاطر وتجشم الأهوال ليطلب من الباشا بناء الزاوية ، فدفعوه إلى رواق فسيح كعنابر الجند تكدست فيه العجزة والمساكين على حال من البؤس لا توصف . واحتج سيدنا على هذا النمط الغريب من الإكرام ، وقال ثم قال ، فلم ترتفع إليه عين ، ولم تستمع إليه أذن . وقضى على هذه الحال الأليمة بضعة أيام لم يفتر فيها لسانه عن الاحتجاج واللجاج فى مقابلة الباشا ، والناس من حوله يضحكون منه ويعبثون به ، حتى تسلل فى غفلة الأعين ذات صباح إلى دوار الباشا فوجده جالساً فى ردهة (السلاملك) ؛ فلم يكد يراه حتى هرول إليه قبل أن تقع عليه عيون الخدم وهو يغمغم بالدعوات ويتوسل بالنظرات و يبتهل باليدين . فارتاع الباشا الشيخ ، وصاح بالخدم أن يطردوا هذا الجرىء ، فانقضوا عليه واعتقلوه ثم أخرجوه وهو يصيح :

الزاوية يا باشا ! الزاوية ! ربنا يطول عمرك !

* * *

وفى ذات أمسية قمراء من أماسى القرية الجميلة ، بينما كان الصبيان يلعبون

فى الجرن ، والشبان يسمرون على المصاطب ، والشيوخ يتعبدون فى الزاوية ، إذا بالناظرين إلى سكة السوق يرون الشيخ عائداً وخفاه تحت إبطه وليس على ظهره زاد ، فقالوا :

— أين كانت هذه الغيبة الطويلة ياسيدنا ؟

. . . ؟

— مالك تتهالك على نفسك ؟ هل أدخلوك فى المستشفى الأميرى ؟

— أمرُ الله ! قَدَر الله ! قل لن يصيبنا إلا ما كتب الله لنـا .

وأصبح الصباح فأقبل الزائرون يسلمون على سيدنا فوجدوه طريح الفراش ، عينه رمداء ، وجسده مردوع ، وقوته منسرقة ، فحاولوا أن يعلموا منه سبب هذا الغياب ومصدر هذا السقم فلم يسمعوا إلا قوله : أمر الله ! قدر الله !

وتبلغت العلة بالرجل الصالح . فلم يمض على أوبته شهر حتى خلا مكانه من الزاوية العزيزة والقرية الحبيبة .

وسكت الكتاب فلم يضج ، وهدأت الكلاب فلم تنبح ، وقرت الحجارة فلم تنزعج ، وعوض الله سيدنا البار من بيته فى الأرض ، جنته فى السماء .

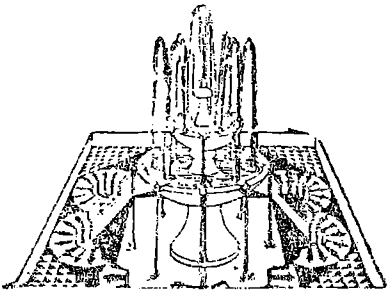

الغرام الأول

ذهبت منذ قريب إلى القرية فى شأن من شئون الأسرة . وللقرية فى رمضان سحر يغلب على القوى الحاسة فتغرق فى فيض من الشعور الرضى الرخى المبهم ،فلا تدرى أهو حلاوة الذكرى الخاطرة ،أم نشوة الطبيعة الشاعرة، أم لذة الأنس الخالص ، أم جمال الإيمان المشترك . وأحب شىء إلى نفسى هناك أن أخرج أنا وصديقى العمدة إلى ملاعب الطفولة ومسارح الصبا ، فأستنشى عبير الذكريات الجميلة ، وأستوحى آثار الذاهبين الأعزة . مشينا على العادة ننقل الخطو الرفيق على أسطار مشرقة من أديم الثرى الحبيب ؛ فهنا نتذكر مجلساً من مجالس الآباء ، وهناك نتمثل ملعباً من ملاعب الإخوة ،وثمت نتخطر موقفاً من مواقف الأحبة ؛ حتى انتهينا إلى مكان ظليل جميل فى ظاهر القرية ، فجلسنا فيه نقول كان وكان ، ونتمتع بملء العين والصدر والنفس من صفاء الجو ورخاء النسيم وإشعاع البيئة . وفى فترة من فترات الصمت العميق الحالم أرسل صديقى نظرة إلى مورد الماشية من الترعة ثم رده على وفى عينه الساجية جميع معانى التعجب ، وعلى شفته الباسمة كل أدوات الاستفهام . فنظرت حيث نظر فإذا امرأة فى أخريات الشباب تورد بقرتها الماء ، وقد أسدلت على وجهها الكامد طرحتها السوداء ، فلم أتبين معرفتها ، وعهدى بالقرية بعيد فلم أعد أميز المرأة بلبستها ومشيتها وبهيمتها كما كنت أفعل .

ارتد بصرى إلى خائباً لا يملك تفسير ما فى نظرة الصديق من عجب ، وما فى ابتسامته من خبث ، فسألته : ماذا ؟

قال : أما عرفتها ؟

فقلت : من هى ؟

قال : فلانة !

فقلت : فلانة ؟ !

قال : نعم فلانة ! ولا أدرى كيف أحببت هذه المرأة وأنت رجل منذ نشأت شاعر القلب ، وهى على ما أرى من ضمور الجسم وجفاء الخلقة ! ماذا فتنك منها وإنك لتراها ...

فقلت له : بالله ربك لا تزد ! لا أريد أن تصفها ولا أحب أن أراها . دع لى صورة الفتاة التى عرفتها وأحببتها . إنها لا تزال فى طوايا القلب طاهرة كالطفولة ، ناضرة كالصبا ، ساحرة كالشبيبة . أما هذه التى ترى فليس بينى وبينها عهد ولا سبب . قم بنا عن هذا المكان وسأريك من هذه الصورة الجميلة خطوطاً تبعثك على أن تتخيل أكثر مما تسمع ، وتتمتع أكثر مما تفهم .

* * *

كان ذلك فى ربيعى السابع عشر والدنيا غير الدنيا ، والناس غير الناس ؛ فالدور يفيض منها الخير ، والمجالس يشيع فيها الوقار ، والأخلاق تغلب عليها السذاجة ، والأمور بين أهل القرية تجرى على نظام سماوى من التسامح والتعاون والألفة والعفة والاحترام والاحتشام والبر . وكان سلطان الأب على الأسرة أشبه بسلطانه عليها فى الجاهلية الأولى ؛ فهو مجمع رأيها فى القول ، ومرجع أمرها فى العمل . لا يُثنَى له يد فى شأن ، ولا يُرد عليه قول فى حكم . لذلك نشأنا على الهيبة فلا نقترب من مجلس ، وعلى الحياء فلا نشارك فى حديث ، وعلى الطاعة فلا نعارض فى أمر ، وعلى الحشمة فلا نتبذل فى عاطفة . فنستطيع

أنت من وصف تلك الحال أن تدرك طبيعة الحب الذى يُولد فى هذه البيئة وبين هذه النشأة .

كنت أقضى عطلة الدراسة كل صيف فى القرية . فلا أكاد أنطلق من قيود الحياة فى القاهرة حتى أعود إلى أحضان الطبيعة الرءوم : أتوخى أفياء الشجر كالطير ، وأحوّم بين الحقول كالفراش ، وأروى مشاعرى الظامئة من الجمال الحلال فى السماء والماء والهواء وصور الناس ووجوه الأرض . فإذا أينع القطن وحان جنْيه حلا لى أن أخرج وراء الجانيات الجميلات بعلة أن أراقب عملهن وأسجل أسماءهن ؛ ولكن الباعث الصحيح على مكابدة القيظ واحتمال العناء كان شغفى بالجانب الشعرى من هذه المشغلة . فقد كان خروج الفتيات من أزقة القرية أسراباً إلى الطريق الضاحك المطلول عليهن صباحة الصبح وإشراق العافية ؛ ووقوفُهن صفاً على رءوس الخطوط فى أعلى الحقل يحيين بأصواتهن الرخيمة الشادية شجيرات القطن وقد انعقدت على أوراقها أكاليل الحباب وسال على أطرافها رُضاب الندى ؛ ومشيُهن الوئيد فى أخاديد الأرض منحنيات على الفروع الموقرة بالثمر الغالى يقطفنه فى لباقة ويضممنه فى خفة وهن يتفكهن بالنكات ويتروحن بالأغانى ويتساررن بالمنى ؛ ثم عودتهن فى طفول الشمس يمرحن كالغزلان ويصدحن كالعصافير فيخلعن على كآبة النهار المحتضَر وضاءة الصباح الوليد ؛ كل أولئك كان يرهف شعورى بالجمال فأسمو على حداثتى وجهالتى إلى أفق الإلهام والشعر .

وكان من بين هؤلاء الفتيات النواهد أربع لهن عليهن السلطان الغالب والإرادة المطاعة ، لامتيازهن بالحسن الرائع أو الصوت العذب أو الدلال العابث . ولهذه المزايا نفسها نشأت بينى وبينهن ألفة ، فكن يتخلفن عن السِّرب يبضضن وجوههن ويصلحن هندامهن حتى تنهض الجمال رائحة بأكياس القطن

فنعود جميعاً صامتين إلا كلمة حيية أوضحكة ندية تقع فى الأذن أوفى القلب حيناً على حين .

وكانت فلانة هذه إحدى هؤلاء الصواحب الأربع . وكانت يومئذ فى عمر البدر تمتاز منهن بحلاوة الصوت ولطافة الروح وقوة الجاذبية. وكان منبع الجاذبية فيها عينين حوراوين تشمان الفتنة من خلال أهدابهما الوُطْف ، وفماً رقيق الشفتين نضيد الثنايا جميل الافترار ، وصوتاً لطيف الغنّة حلو النبرات فضىّ الرنين ، ونفساً رزينة الطبع رقيقة الشعور هادئة الشعاع ؛ فلا تملك وأنت مأخوذ بسحر هذه الصفات أن تفكر فيما فقدته من براعة التكوين وصفاء البشرة وعضارة البدن . وكانت هى من دونهن شديدة الخفر طويلة السكوت خافضة الصوت ؛ تغمغم إذا تكلمت ، وتطرق إذا تبسمت ، وتنظر إذا نظرت خُلسة أو عن عُرْض ، فأغرانى هذا النفور الغزالى بها ، فكنت أسلط عليها رفيقاتها فيداعبنها باليد ، أو يعابثنها باللسان ، فتنظر أو تضحك أو تصيح ؛ فأحس فى دعج عينيها ، وبريق ثناياها ، وحلاوة جرسها ، شيئاً خفياً قوياً لا أجهله لأنه ملء الشعور ، ولا أعلمه لأنه فوق المعرفة .

كنت أقعد تحت الظلة عند مفارش القطن المجموع فتأتى الفتيات فرادى وثُنَى فيضعن ما يثقل حجورهن من القطن ، ثم يثرثرن طويلاً وينصرفن طافرات أو هازجات ، إلا فلانة هذه ، فقد كانت تأتى وحدها فتحل نطاقها على طرف المفرش ، ثم تفرط حجرها وهى خاشعة الطرف باسمة ، فأحاول استنطاقها فترتاع وتنقلب إلى خطها مضرّجة الوجه لا تنبس ولا تلتفت . وفى ذات مرة طلبت منها جرة الماء فجاءت بها على استحياء وهى تحاول أن تغض من وجهها وتكسر من طرفها فلا تستطيع . ووقفت أمامى عيناً لعين ، وروحاً لروح . وجهدت أنا كذلك أن أقول لها كلمة فذهل الخاطر وتعطل اللسان ،

وظل كلانا ينظر إلى الآخر ولا يراه ، ويلتمس الطريق إليه ولا يجده ! ولكن سبباً من أسباب القدر كان قد وصل القلب بالقلب ، فامتزجت النفس بالنفس، وفهم الشعور عن الشعور . وأدركنا معاً أن بيننا سراً ليس بيننا و بين الناس ، جعلها فى نظرى غير من أرى من الصبايا ، وجعلنى فى نظرها غير من تعرف من الصِّبية . ومنذ ذلك اليوم أصبحت تحوم حولى حوَمان الروح حول جسدها الهامد . تعلم أنه لها ، ولكنها لا تملك أن تبعث الحياة فيه .

* * *

ومضت أيام الجنى السعيدة ، وقرّت الكواعب الحسان فى البيوت ، وأقفرت الغيطان فلا تعج بالشباب ، وصمتت الطرقات فلا تهزج بالأغاريد . وأصبح لقاء الأوانس الأربع ، أو الآنسة المرادة من هذا الجمع إن أردت الصدق ، عسيراً على مثلى ممن لا تساعدهم تربيتهم المدنية على أن يغشوا دور الأهلين فى كل وقت ، ويلابسوا طبقات الفلاحين من غير سبب . ولكننى أصبحت على غير ما أمسيت ! ففراغ بالى قد امتلأ ، وأفق خيالى قد امتد ، وسر حالى قد استعلن . وظللت اليوم كله لا أجد فى قلبى غير هواها الملح يعصف به عصف الريح بالشجرة المتهدلة ، ولا أبصر فى عينى إلا جفنيها الكحيلين يُسبِلان فى سكون على ألحاظها الفاترة ، ولا أسمع فى أذنى غير أغنيتها مع صاحباتها فى آخر يوم من أيام الجنى ساعة أقبلت على الحقل فى ضحوة النهار كعادتى ، ومطلعها :

يا بـدر لما جيتْ كانتْ ضلامْ نوّرِتْ

تلمست العلل والحيل لأراها فى بيتها أو ألقاها فى غيطها ، فأخطأنى التوفيق لهذا الحياء الغالب على طبعى ؛ فكنت أمر ببابها ، أو أسير فى طريقها ، فأجدها أحياناً على عتبة الدار داخلة أو خارجة ، أو ألمحها حية على حمارها القصير الأبيض راكبة

على حمل من البرسيم ، فنتخالس النظر ، ونتسارق الابتسام ، ثم يذهب كل منا لوجهه .

لم أكن أعرف على وجه اليقين شعورها بهذا الفراق بعد أيام جمع القطن، ولكننى علمت من بعدُ أنها كانت تبتغى الوسيلة إلى اللقاء الحر حتى اهتدت إلى هذه الحيلة :

كانت فى بيتنا صيدلية صغيرة من العقاقير الضرورية الواقية أو المسعفة . وكان أهم ما فى هذه الصيدلية لتر دائم من قطرة الزنك نجعله لمن يشاء من أهل القرية. فكنت ترى « المنظرة » فيما بين المغرب والعشاء أشبه بالعيادة الناجحة. وكان الذى يتولى هذا العمل الخيرى أنا أو أحد إخوتى فبينما أنا ذات ليلة جالس وحدى على مصطبة الدار إذا بى أراها مقبلة تتهادى فى الظلام ، وقد عصبت عينها اليمنى بمنديل أسود ! فنهضت إليها عجلان فى حال تنم على دهشة المفاجأة وربكة الموقف وقلت لها :

— أهلاً وسهلاً ! سلامةْ عينِك يا نور !

— فقالت نور ويدها ترتجف فى يدى ، وصوتها يتهدج فى أذنى .

— الله يسلمك ! عاوزه أحط أطْرَهْ

— فدخلت بها المنظرة وأجلستها بجانبى على الكنبة ،ورفعت هى العصابة عن عينها فإذا جفناها ملتهبان قليلا . فسألتها عن سبب هذا الالتهاب فقالت إنها حكتهما عامدة بالتوتيا الخضراء فالتهبتا .

فقلت لها وقد فطنت إلى ما رمت إليه :

— ولماذا ؟

— كِدَهْ !

— كده ايه ؟

— أهو كده !

فضحكتُ وضحكتْ ، ثم أملتُ رأسها الصغير على ركبتي ، ووضعت كفي على وجنتيها ، وأنا ملى على خديها ، وطفقت أنظر من هذا القرب إلى هذا الجمال الذى شغفنى وشغلنى . فهذه هى العين التى ترسل السحر حيث ترسل النظر . وهذا هو الثغر الذى يفترّ عن المفاتن كما يفترعن الدرر . وهذا كله هو المحيا الذى يشرق فى قلبى الناشىء إشراق الأمل ، ويتحدث فى نفسى الغضة حديث الصبابة . وأردت أن أحجز تيار الهوى عن الوضع الذى نحن فيه فملأت القطارة وهممت أن أفتح عينيها فنهضت مذعورة وهى تستضحك وتقول :

لا . لا . عينى سليمة ، مافيش لزوم .

حينئذ لم يبق بينى و بين نور إلا شيء له دلائل وليس له لغة . هى تعلم أنى أحبها وأنا أعلم أنها تحبنى ، ولكننا لا نجد لهذا العلم الضرورى اسماً يدل عليه ، ولا كلاماً يعبر عنه . لأننا معشر القرويين — كما تعلم — نعرف الحب بمعناه وننكره بلفظه . فنحن نفرَق منه كما نفرق من ألفاظ الفضيحة والنقيصة والعهر ، ولا نفهم من كلمة الحب إلا انفتاح العين والقلب لواحد من الناس فى غيبة الأسرة . ذلك إلى أن الحياء الطبيعى يعقد اللسان عن شكاية برحائه وحكاية همه ، فكيف بالتصريح به ؟

كانت هذه الساعة التى جلستها إلىّ ظاهرة من أغرب ظواهر النفس . صبيان فى حميا الشباب ومرح الفتوة يتحرق كلاهما شوقاً إلى صاحبه ، فتدنيهما الفرصة المرقوبة ، وتجمعهما الطبيعة المؤلفة ، على غفلة الأعين وهمود الآذان ، فلا تنبسط يد ، ولا ينزلق لسان ، ولا تجمح شهوة ، ولا يكون بينهما الا حديث

حامٌ لا يلبث أن ينقطع لأنه زورٌ على القلب وكذبٌ على الخاطر ؛ ثم يفترقان وفى صدر كل منهما سعير من الوجد يذيب الحشا ويرمض الجوانح ! !

دأبت نور على هذا اللقاء بهذه العلة أسبوعا من الدهر كان شبعا وريًّا لهذه العاطفة المكبوتة فنمت نمو الجبار فى صدرٍ واهن ضيق . ثم خشيتْ فضول الرقباء من طول الاستشفاء فأمرت عينها أن تبرأ ! وانسدل بيني وبينها الستار فلم أعد أراها .

* * *

تذرعت إلى صداقة أخيها بوحدة السن والهوى حتى تمكنت بيننا الألفة . وأنتجت هذه الصداقة نتيجتها المقصودة فكنت أقضى أماسِيّ فى بيته ، بين أمه وزوجه وأخته . نجلس جميعاً على فرن القاعة الدافىء نلعب الورق ونشقق الحديث ، ولكن ماحولنا وما بيننا من الأشخاص والأشياء كان إطاراً وكانت هى الصورة . فالعين لا تقع إلا عليها ، والقلب لا يتجه إلا إليها ، حتى فطنت لحالنا الأم ، واضطربت بحديثنا الألسنة . وعزا الخليُّون هذه العاطفة إلى طيش الحداثة، واستبعدوا أن ينتهى هذا العبث إلى شىء من الجد لاختلاف التربية وتباين الطبقة ؛ ولكن هوى نورَ قد غطى على قراى المدركة فتركنى أضطرب فى دائرة ضربها علىّ فلا أحاول الخروج من حصارها الكثيف ، ولا أقصد إلا الغاية الحتمية للحب العفيف . ذلك أن الحب انجذاب وامتلاك واستئثار ومتعة . وهو يسلك إلى هذه الأطوار ما أمكن من المسالك . فإذا تعددت أمامه المنافذ انسرب من هنا وانسكب من هناك ، حتى ينتشر ويتبدد ؛ وذلك هو الحب فى المدينة . أما إذا انحصر فى حدود من الخلق المتين والتنشئة القويمة هدر هدير الأسير المغلوب ، واضطرب اضطراب المحنق المكروب ، ثم لا يجد له متنفَّساً إلا الفرجة

الوحيدة المشروعة ؛ وهذا هو الحب فى القرية . لذلك قطعت العزم على أن أفضى بذات صدرى إلى أمها قبل رحيلى إلى القاهرة . فلما كلمتها ورجوتها فى ضراعة وتوسل أن تذود الخطّاب عن نور ريثما أعود ، فجأها هذا الرجاء فشخص بصرها وانفغر فوها ، وظلت على هذه الحال برهة لا تطرف ولا تجيب . وأخيراً قالت فى لهجة الحائر المشدوه :

وهل يرضى أبوك ؟

فقلت لها : وماذا عليك ؟ إنى أعرف من يستطيع إقناعه . ولكن أم نور نفسها لم تقتنع ، وكرهت مع ذلك أن تكسع باليأس أمل هذا العاشق الصغير ، فقالت لى بلهجة الأم العطوف : سافر يابنى مطمئناً فهى لك !

* * *

وذهبت إلى نور فى الحقل القريب أودعها وداع الراحل فى الغد ، فوجدتها بين البقرة وعجولها الصغار توزع بينهن العلف ، كما وجد فرتر شرلوت بين أطفالها الستة توزع عليهم الخبز ! فجلست على حزمة من البرسيم ، وجلست هى إزائى على أديم الأرض . ومرت برهة من الصمت الحزين قبل أن أقول لها إننى عاهدت أمها على أمر ستعلم نبأه منها إذا سألتها . وإننى سأسافر فى الغد إلى القاهرة ، وسأعود فى الصيف إلى القرية ، فيجتمع الشمل ويرجع الأنس ويتحقق الرجاء . فتبين الأسى فى وجه نور ، حاولت أن تتكلم فأعياها الكلام . فأطرقت برأسها ، وتحاملت على نفسها ، ولكن وجهها احتقن احتقان المختنق فانفجرت بالبكاء حتى سُمع نشيجها من بعيد . فكانت هذه هى المرة الأولى التى قالت فيها نور بلسان الطبيعة القوى الصريح : إنى أحبك !

وسعى الدهر بينى وبينها ، فوسّع مسافة الخلف بين طريقى وطريقها ؛

وقطعتني القاهرة عن القرية فأصبحت لا أزورها إلا لماما . واستحدثت في نياط القلب أسباب جديدة ؛ وتزوجت نور من ذلك الشقي الذي تعرف ، فألح على براءتها بالشر ، وأنحى على سعادتها بالفقر ، حتى أصارها إلى ما ترى !

وكم ياصديقي في أجادب الدنيا وصحاري الحياة من أزاهير لوحتها السموم وصوحتها الهواجر ، ولو أنها غرست في أطايب الأرض لكانت زينة العيش وبهجة النفس ومتعة النظر !

في سبيل الأرض الطيبة

لم يكد المصلون يفرغون من صلاة العشاء فى مسجد القرية حتى ابتدروا الباب يريدون الخروج . لم ينتظروا ختام الصلاة المفروضة مع الأمام ، ولا أداء الصلاة المسنونة بعد الختام ، وإنما خرجوا وعلى وجوههم اهتمام وفى حركاتهم نشاط . لقد كان موعد النشرة الإخبارية الثالثة التى تذاع فى منتصف الساعة التاسعة قد قرب . والفلاحون منذ سنت حكومة الثورة قانون الإصلاح الزراعى ، حِراص على أن يجتمعوا كل ليلة فى ساحة العمدة يستمعون إلى الإذاعة المصرية وهى تذيع أخبار هذا القانون ، من تفصيل مجمل ، أو تفسير غامض ، أو تعديل نص ، أو تنفيذ قرار . فإذا فرغ مذيع المحطة من خبره ، أو مندوب الحكومة من حديثه ، لم يجدوا فى أنفسهم ما كانوا يجدون قبل اليوم من الرغبة الشديدة فى الاستماع إلى قصائد أم كلثوم ، أو إلى أغانى عبد الوهاب ؛ وإنما وجدوا مكانها رغبة لا يملكون عن قضائها صبرا ، ولا يدركون فى غيرها لذة : تلك هى الرغبة فى التعقيب على أخبار القانون السعيد الذى سيملأ القرى غنى كما ملأها الإقطاع فقرا ، وفى التعليق على خطب الزعيم الجديد الذى سيملأ البلاد عدلا كما ملأها فاروق جورا . ولكنهم كانوا بحكم أميتهم يتفاوتون فى فهم ما يذيعه الراديو باللغة الفصحى ، فالقلة القليلة وهم المتعلمون وأنصافهم يفهمون كله ، والكثرة الكاثرة وهم الأميون وأشباههم يفهمون بعضه . لذلك كانوا إذا ما أسكتوا الراديو يمدون أعناقهم إلى المصطبة الطويلة التى يجلس عليها كبار القوم ، وينشرون

آذانهم إلى ما يقول الشيخ محمود بلغة العامة ، ترجمة عما قال المذيع بلغة الخاصة . حتى إذا فرغ الشيخ من التلخيص ، وأعانه الشيوخ الآخرون على الشرح ، انثالت الأسئلة على المصطبة ، وانهالت الأجوبة على الساحة ، وأخذت الناس حال من الحماسة تكاد تخرجهم من جلودهم الغليظة ، وتغلبهم على عقولهم الرزينة . هذا يزهوه الشموخ الحادث فيعلن الاحتقار لمالك الأرض . وذاك يملكه الحقد القديم فيسر الانتقام من ناظر الزراعة . وهؤلاء يرجون أن يقع ما يملكون فى الأحواض الخصبة . وأولئك يخشون أن يقل ما يأخذون عن الفدادين الخمسة . ثم ينصرفون جميعا إلى دورهم مثنى أو ثلاث أو رباع ، وهم يعلكون ما تبادلوا من الأحاديث ، ويتمثلون ما تخيلوا من المنى ، ويرسلون أعينهم فى ضياء القمر الزاهر إلى الحقول الكاسية بسيقان الرز وأعواد الذرة ، فتملكهم هزة الطرب فيصيحون وهم يرقصون ويصفقون : أحقاً ستصبح هذه الأراضى لنا ؟

— ٢ —

وفى تلك الليلة التى رأيناهم فيها ينصرفون سراعا من بيت الله إلى بيت العمدة ، كان الراديو يذيع أن اللجنة العليا لتنفيذ قانون الإصلاح الزراعى قد استولت على ما فوق المائتى فدان من أراضى الملك الخليع المخلوع وآل بيته ومن استار سيرتهم فى الترف والسرف والطغيان والجور . وكان من بين هؤلاء مالك الأرض التى خلق الله أجسادهم وأرواحهم منها ، وأعاد أجدادهم وآباءهم بعد الحياة فيها ، وجعلها لهم ولأبنائهم مستودع الذكريات والتراث ، ومستقر الحياة والرزق ، ومستراد الهوى والأمل ، قبل أن يغتصبها أبناء (قولة[1]) فيما اغتصبوا ببضعة قرون . فلما انتقل المذيع إلى أحداث الحروب فى (كوريا) ، وأنباء الثورة فى (كينيا) ، أقفلوا الراديو وأقبلوا

(١) أسرة محمد على .

بأبصارهم وأسماعهم على أهل المصطبة . ولم تكد العيون تتلاقى حتى سرى منها إلى القلوب سيال من الشعور المتقد المتحد حرك الألسنة بالهتاف ، وشغل الأيدى بالتصفيق ، وأخرج الشباب عن طورهم فأخذوا يتبادلون اللكمات والركلات على عادتهم حين يستخفهم الفرح . أما الكهول فظلوا فى مقاعدهم هادئين هانئين يتمتعون بما أشعرهم هذا النبأ العظيم من برد السرور وحلاوة الغبطة ؛ لأن انقضاء أكثر العمر فى عبودية المالك وذلة الفقر طبع نفوسهم على التسليم بالواقع والرضا بالمكروه ؛ فحالهم أشبه بحال السجناء حين يتلقون أمر الإفراج ، أو الأرقاء حين يسمعون صيغة العتق ، لا يبطون ولا يميطون ؛ وإنما يقابلون الأمر ببشاشة المطمئن وابتسامة الشاكر .

ذهب أكثر الشباب إلى الحقول القريبة ينفسون فيها بالمرح الصاخب عن الفرح المكظوم ، ويتلذذون بمرأى الأرض وهى ملك كما كانوا يتألمون بمرآها وهى سخرة . وبقى أقلهم أمام المصطبة مع الكهول ، يتذكرون ما كانوا عليه ، ويتفكرون فيما صاروا إليه . وكان الحاج إبراهيم خولى التفتيش القديم يتصدر المصطبة فى غياب العمدة ؛ لأنه أكبر القوم سنا ، وأكثرهم بالزراعة علما ، وأطولهم لموظفى الدائرة صحبة . وكان قد هدف إلى الثمانين من عمره ، ولكنه لا يزال سليم البدن صحيح العقل ذكى الفهم طلى الحديث مهيب الطلعة . تحسب وجهه الأسمر بين كلبوشه الأدكن العالى ولحيته الشهباء المرسلة ، وجه درويش من دراويش الفرس بدت عليه سمات الصلاح ومخايل السكينة . وكان منذ علاه المشيب وخفت عنه أعباء العمل قد قسم يومه بين المسجد والمجلس ؛ فلسانه لا يفتر عن الذكر أو الحديث ، ويده لا تفارق السبحة أو المغزل . وكان أحب الأحاديث إلى نفسه ما اتصل

بالقرية ومن عاش فيها من الأخيار والصالحين ، أو بالأرض ومن تعاقب عليها من الملاك والموظفين . فحافظته سجل واع لما وقع فى البلدة من أحداث وما طرأ عليها من تغير فى خلال قرن من الزمان ، إن لم يكن فيه شاهد عيان فقد كان راوى خبر . لذلك تراه إذا تشقق السمر وتشاجن الحديث يعقب على كل نادرة بنادرة ، ويعلق على كل حكاية بحكاية .

— ٣ —

كان الحاج إبراهيم يخوض مع الخائضين فى حديث التمليك والتوزيع حين سمع محمداً حفيد المهدى البجبوح[1] يظهر الغبطة و يحمد الله على أن سيكون له فى ثرى قريته الحبيبة فدانان أو أكثر . فالتفت إليه الحاج يقول وعلى وجهه مسحة الأسى ، وفى صوته رنة الأسف : ليت جدك يا محمد كان حياً اليوم فيسمع بأذنيه الراديو وهو ينقل إلينا هذه البشرى ، ويرى بعينيه الحكومة وهى توزع علينا هذه الأرض ! إذن لمات ميتة السعيد الذى صبر فنال ، وسعى فأدرك ، واستغنى فشكر !

فقال له الشيخ محمود : ولماذا تخص المرحوم المهدى بهذا التمنى وأهل البلد كانوا جميعا فى مثل حاله ؟

فقال الحاج للشيخ وقد وقف مغزله وترزن فى لهجته وأقبل عليه بوجهه : لأن المهدى يا أستاذ مات شهيداً فى هذه الأرض الطيبة .

فقال الذين لم يعاصروا المهدى و يريدون أن يعلموا أمره ، والذين عاصروه ويحبون أن يستعيدوا ذكره : قص علينا يا حاج ماذا كان من حديث البجبوح واستشهاده فى هذه الأرض ؟

فقال الخولى القديم وهو ينزع الصوف المندوف من يمناه ، ويضع المغزل كله فى يسراه :

(١) مر بعض حديثه فى أقصوصة (جلاد الشيطان) .

كانت هذه الأراضى كلها لنا منذ أنشأنا الله منها ، وجعل حظنا من الرزق فيها ، حتى اغتصبها محمد على فيما اغتصب ، ثم ردها إلينا سعيد صديق الفلاح فيما رد . فلما تولى الخديو إسماعيل وفسق فى البلاد فسوقه الفاجر ، وأسرف فى أموال الدولة إسرافه الفاحش ، وركبه الدين الفادح ، وأعجزه الاقتراض المسعف ، وأعوزه المورد الفياض ، كان يفرض الضرائب الباهظة على الأراضى خصيبها وجديبها ، ويكلف عماله فى الأقاليم أن يجبوها مرارا فى السنة الواحدة . وكانوا إذا لم تف غلات الأرض بمطالب الخديو المرهقة ساموا أصحابها سوء العذاب ، فجلدوا بالسوط ، وحبسوا فى الدوار ، وجمعوا على الحظيرة والدار ، فلا يعصم ملاك الأرض من كل أولئك إلا الفرار منها أو النزول عنها . وأجدادنا رحمهم الله قد فضلوا أن ينزلوا عن أراضيهم للحكومة على أن يخرجوا من ديارهم ، وهى كما تعلمون ملاعب الصبا ، ومسارح الشبيبة ، ومجالى الأحبة ، ومدافن الأهل . وكان يوم استيلاء الحكام عليها يوم فرح فى القرية دوت فيه الطبول ، وصدحت المزامير ، وجلجلت الزغاريد ، وأصبح الناس بعده آمنين لا تفزعهم جباة ولا تروعهم جنود . وجعل إسماعيل هذه القرية وست قرى أخرى بمركز طلخا قطيعة لشريف باشا ورثها عنه ابنه على شريف . فلما توفى الوارث اقتسمها أولاده بينهم فكانت قريتنا من نصيب ابنه عز الدين . وكانت الأرض فى عهد شريف وذريته تزرع (وسية) يدير الموظفون الأرناءود شؤونها بالكرباج ، ويعمل الفلاحون فيها (تملية) بالأجر . وكانت أجرة العامل سبعة مليمات فى اليوم ، وفدانا من الأرض يستغله أهله فى السنة . ثم تنقلت ملكية القرية وأهلها من آل شريف إلى أجناس شتى من الملاك ، فيهم التركى واليونانى والمصرى ، حتى انتهى بعضها إلى وحيد يسرى ، وبعضها إلى البدراوى

فأنتم ترون أننا فقدنا السلطان على أرضنا وأمرنا قرابة قرن من الزمان نسينا فيه طعم الملكية ولذة الحرية وعزة الاستقلال . فأصبحنا كلما رأينا المالكين يبيعوننا بيع البهم ، ويشترونها اشتراء العبد ، ويستغلوننا استغلال الآلة ، وكلما سمعنا أن الفلاحين مثلنا فى المراكز الأخرى لهم أرض يملكونها ، وثروة يدبرونها ، وغلة يخزنونها فى دورهم ، ويتصرفون فيها بأنفسهم ؛ أقول كلما رأينا ذلك وسمعنا هذا استشعرنا الذلة ، وأحسسنا الحرمان ، وأدركنا أننا بعداء عن الشعب ونحن منه ، وغرباء عن الوطن ونحن فيه . وكان المهدى عليه رحمة الله أشدنا ألما من هذه الحال ، وأكثرنا هما بهذا الأمر ، لأنه كان عبداً من عباد الأرض المخلصين ، يكاد لا يرفع يديه منها ، ولا يمل الجولان فيها ، ولا يسأم الحديث عنها يعرف أحواضها قطعة قطعة ، ويميز قطعها سهما سهما ، ولا يخفى عليه من قويها وضعيفها شيء فى غيط ولا ساحل .

وكنا إذا فك المالك الأرض ليعيد توزيعها على المستأجرين تركنا له أمر القسمة ، فيوازن الحوض بالحوض ، ويقارن القطعة بالقطعة ، ويعادل الفدان بالفدان ، ويقضى فى ذلك الشهر أو الشهرين ، ينتقل من مصطبة إلى مصطبة ، ويتقلب من جرن إلى جرن ، لا يجف له ريق ، ولا يخفت له صوت ، حتى يستولى كل مستأجر على أرضه .

كانت أمنية المهدى على الله أن يملكه قطعة من ثرى النيل يقصر عليها جهده وخبرته ، ويقوت منها ماشيته وأسرته ، ويطفىء بها شوقه الملح إلى أن يكون إنسانا له كرامة ، ومالكا له نفوذ ، وزارعا له رأى .

ولم يقنع المهدى بوساوس الأطماع وأحاديث المنى ، وإنما كان يبتغى الوسائل إلى تصديق أحلامه وتحقيق أمانيه . كان يسأل كل طارىء

على البلدة عن ثمن الأراضى فى جهته ، وعن مقدار المعجل والمؤجل من هذا الثمن ، فكانت الأجوبة كلها تتفق على أن ما عنده من المال لا يبلغه بعض ما فى نفسه . وماذا كان عنده ؟ إسورة من الذهب لامرأته ثمنها عشرة جنيهات ، وعجلة من بنات جاموسته ثمنها عشرة أخرى . أما النقد فمن أين يأتيه وكيف يستقر عنده ؟ لم يدخل بيته قطن فيبيعه ، ولم يفضل من أجرته شىء فيدخره . وإنما القطن وأكثر محصول الحقل لمالك أرضه ؛ وأجرته والقروش التى تمر على يده من أثمان البيض أو السمن لنفقة بيته ، والدين الذى عليه لتاجر القماش من جلاليب العيد يوفيه من ثمن كيلات من القمح يقتطعها من قوت أولاده .

إذن لم يبق له من وسيلة لشراء الأرض إلا معجزة من الله تدركه ، أو كنز من المال يصيبه .

وكان المهدى ينتظر هذه المعجزة فى ليلة القدر من شهر رمضان ، ومن بغلة العشر فى شهر المحرم ، ولكنه وا أسفاه بعد طول الانتظار ودوام الترقب لم تنفتح له (الطاقة) فى السماء ، ولم تفكر فيه (البغلة) فى الأرض ؟

٭ ٭ ٭

وفى عصر يوم من أيام الربيع — والربيع فصل الآمال والوعود — عاد البجبوح من المنصورة يطفح وجهه بشرا ويفيض صدره بهجة ، ولم يكد ينزل عن حماره حتى دعا إليه عشيرته وجيرته . فلما اجتمعوا لديه قال لهم بصوت البشير إذا حمل الخبر ، وبلهجة الرائد إذا حمد النجعة : إنى سمعت اليوم فى المنصورة أفندية يقولون إن الحكومة قررت أن

تبيع الفلاحين (وادى الريان)[1] بثمن مقسط على آجال بعيدة ، ولهم عليها أن تدبر الماء ، وتبنى الدور ، وتعطى البذور ، وتقرض المال ، وتهب الماشية .

فصاح القوم أجمعون بلسان واحد · وأين وادى الريان هذا يا مهدى ؟

فقال : سألتهم هذا السؤال فأجابوا إنه فى جهة الفيوم :

وهنا سكت الحاج إبراهيم ليقول لصاحب المصطبة فى شيء من الإنكار :

أين الشاى يا شيخ عبد العزيز ؟

فقال شيخ البلد وهو يسعى إلى داره ليهيىء الشراب المطلوب :

إى والله يا حاج ! إنك تستحق أكثر من الشاى على هذا الحديث .

ومرت برهة تبادل فيها الجلوس السجائر وعقبوا على بعض نواحى الحديث ، حتى جاء الخفير يحمل النقيع الأسود فى قدر كبيرة . فارتشف القوم أقداحه فى التذاذ ونهم . ثم عادوا يرهفون المسامع للقاص الوقور ويقولون له : هيه ، هيه ، يا حاج ؟

— ٤ —

وعاد الحاج يقول :

بات أهل القرية تلك الليلة ولا حديث لهم إلا خبر المهدى ووادى الريان . وكان كل رجل فى كل منزل يدير الرأى فى هذا الأمر فيما بينه وبين أهله : كيف يتركون بيئة عرفوها ومعيشة ألفوها إلى بلد بعيـــد

(١) كان مصدر هذه الشائعة الكاذبة ما نشرته الصحف يومئذ عن التقرير الذى قدمته لجنة المهندسين الدوليين سنة ١٨٩٤ إلى الحكومة المصرية ، عن استخدام وادى الريان فى خزن ماء النيل زمن الفيضان بترعة تمتد من النهر إلى الوادى ، حتى إذا غاض النيل وأدرك فرعيه الجفاف أطلقوا فيه ذلك الماء المخزون فيساعده على أن يروى مليون فدان من الأرض .

ليس لهم فيه قريب ولا عندهم به علم ؟ وكيف ينصرفون عن حياة معلومة مستقرة فرارا من عسر قد يهون ، إلى حياة مجهولة قلقة طمعا فى يسر قد لا يكون ؟

ومن الذى قدر الأرزاق وقسم الحظوظ ؟ أليس هو الله جل شأنه ؟ ورب هنا هو رب هناك . وإذا كان الرزاق الكريم قد شاء أن يبدلنا غنى من فاقة ، وملكا من إجارة ، فإنه قادر أن يهيىء الأسباب إلى ذلك من غير حاجة إلى احتيال ، أو ضرورة إلى هجرة .

ومن العجيب أن القوم كانوا فى هذه الاعتراضات لسانا واحدا كأنما لقنهم إياها ملقن واحد !

والواقع أن فى صدر كل مصرى شيطانا يلقى فى أمنيته كلما تمنى ألا يفترق عن أسرته ، وألا يبتعد عن قريته ، وألا يغترب عن وطنه . فالفلاح يرضى فى بلدته المعيشة الضنك ولا يلتمس العيش الرغيد فى إقليم مجاور . والتاجر يقنع فى مدينته بالربح اليسير ولا يطمح فى مديريته إلى الثراء الضخم . والموظف يحزنه أن ينقل إلى عمل بعيد عن قريته إذا كان فى الريف ، أو عن مسكنه إذا كان فى الحضر . والساكن يشق عليه أن ينتقل من بيت متهدم فى حى قذر طالت سكناه فيه ، إلى بيت جديد فى حى نظيف استجدت صلته به .

فإذا تسايرت أهواء القوم على رفض النزوح إلى صحراء الفيوم كان ذلك استجابة لهذا الشيطان الذى صدنا عن حواضر السودان وهى حبيبة ، وصرفنا عن بوادى النيل وهى قريبة !

كانت الوساوس تنتقل من فم إلى فم ، ومن دار إلى دار ، حتى تصل إلى أذنى المهدى فى منزله بطرف القرية ، فكان يفندها مستعينا بما سمع

من آيات الله ، وبما حفظ من أمثال الماضين . وبما روى من أشعار الهلاليين . ولكن القوم لم يلقوا أسماعهم إليه وفضلوا أن يتريثوا حتى يذهب غيرهم إلى هناك ، فيروضوا الأمور ، ويذللوا الصعاب ، ويحتملوا مكاره البدء .

ولم يرد المهدى أن يُسمع غير سميع ولا أن يقنع غير مستعد ، فآثر السكوت وصمم فى نفسه على أن يكون هو (أبو زيد الهلالى) بطل (الريادة) .

* * *

والحق أن المهدى كان لا يختلف عن بطل الهلاليين إلا فى السواد والفروسية ؛ أما فى صفات الرجولة الأخرى فقد كان يشابهه أو يقاربه . كان أسمر اللون فى ملاحة وجه ؛ وكان شجاع القلب فى سماحة خلق ؛ وكان خشن المراس فى دماثة طبع ؛ وكان على الجملة أشبه بفرسان قصة عنترة الذين تسمعون بهم ، يجمع بين قسوة الجوارح ورقة المشاعر . فهو من جهة يشارك عند الضرورة فى السطو بالليل ، ويبالغ يوم الخصومة فى الحقد على العدو ، ويجيد الضرب بالنبوت والخبط بالفأس ؛ وهو من جهة أخرى يعشق الطرب ، ويهوى الغناء ، ويحسن النقر على الطبلة والزمر بالأرغول والصفير بالناى . ومن أجل ذلك كان موضع الإعجاب من الرجال فى المركز ، ومهوى أفئدة النساء فى القرية .

ولعل الزهو الذى كان يملأه من احترام الفتيان له ، وافتتان الحسان به ، كان بعد طبيعته الطموح الحافز الثانى الذى كان يدفعه إلى العمل ليغنى ، ويغريه بالغنى ليملك ، ويطمعه فى الملك ليكون أعلى مكانة فى أعين الناس ، وأجل كرامة فى رأى نفسه .

ولقد سنحت له الفرصة فى الهجرة إلى وادى الريان لبلوغ غايته ونيل مراده فكيف يدعها ؟ وهل يليق بأهل الفتوة أن يستكينوا لمخاوف تخلقها الأوهام ، ووساوس تبعثها الظنون ؟ إن أرض الله واسعة فلم يرضى

---

(١) الريادة قصة من قصص بنى هلال الكثيرة تدور على ريادة أبو زيد ويونس ومرعى لأرض تونس تمهيداً لنجعة الهلاليين .

بالضيق ؟ وإن رزق الله كثير فلم يقنع بالقلة ؟ وإن البؤس الذى يعيش هو وقومه فيه قد بلغ الحد الذى لا سوء بعده ، فكل تحول عنه لا بد أن يكون إلى أحسن .

وماذا يضره إذا انتجع هذا المكان المجهول ، فإن أصابه الخير اطمأن به ، وإن أخطأه التوفيق انقلب إلى أهله ؟

— ٥ —

كنا فى أواخر شهر مايو والفلاحون قد أوشكوا أن يفرغوا من حصاد القمح ، فلم يبق فى حقوله الجرد إلا جماعات مبعثرة هنا وهناك قد أخرها سعة الأرض أو ضيق ذات اليد . وكان المهدى قد حصد أول الناس ؛ ولكنه كان مديناً بزمال فى الحصد لبعض جيرانه ، وأراد أن يوفيهم هذا الدين قبل أن تحول الأحداث دون الوفاء به ، فخرج مع الحصادين فى الهزيع الأول من الليل ، فى يده منجله ، وعلى كتفه رداؤه . وكان قبل أن يخرج من داره قد لبس أحسن ثيابه ، وقبل يد أمه ، وعانق إخوته ، وودع زوجته وابنته ، ثم أمر أخاه الأصغر أن ينتظره بالحمار والخرج فى مدخل سكة السوق بعد صلاة الفجر .

لقد كان مجلس العائلة قد قرر أن يرحل المهدى وحده إلى وادى الريان ، فيملك الأرض ، ويختار البيت ، ويتسلم الجاموسة ؛ ثم يرسل إليهم فيلحقون به .

وبات المهدى ليلته الأخيرة فى القرية يحصد ، ويغنى ، ويغازل ، و(ليلاه) من ورائه تلم الحصيد وتكومه أكواماً صغيرة ؛ ثم تلمس عمداً كعبه الخشن بيدها الناعمة من حين إلى حين ، تريد أن تنبهه إلى وجودها من خلفه . ولكن المهدى كان مصروف الفكر عمن حوله . كان يتغنى لسامع بعيد ، ويتغزل بحبيب مجهول ، ويتفكر فى دنيا جديدة ، وينظر من آنة إلى أخرى فى نجوم الشرق يبحث بينها عن نجمة الصباح .

وأخيراً هتكت يد الفجر أستاره الوردية ، فانبثق النور ، وهللت الديكة ، ولعلع صوت (أبوعامر) على سطح المسجد الصغير يقول الله أكبر ! الله أكبر !

فترك المهدى منجله ورداءه إلى ليلى وذهب ليتوضأ ويؤدى ركعتى الصبح

وبعد قليل كان على حماره فى الطريق إلى طانخا ، تحته خرجه ، ووراءه أخوه . فلما بلغ المحطة كان قطار الساعة السادسة على وشك القدوم ، فاشترى تذكرة إلى الفيوم ، ثم اتخذ مقعده بين الركاب . ولم يكد يستقر فيه حتى استغرق فى نوم عميق ما كان يوقظه منه إلا صوت مأمور القطار يطلب منه التذكرة من محطة إلى محطة . وفى طنطا نبهوه أن ينتقل إلى قطار القاهرة فانتقل . وكان قد أحس الجوع فأدخل يده فى الخرج وأخرجها بقرصة من الفطير وقطعة من الجبن فأفطر . ثم تحلل به التعب والسهر فوضع رأسه على رأس المسندونام.

ولما وقف القطار فى محطة القاهرة نزل جميع المسافرين ولم يبق فى العربة غيره . فسأل أحد الحمالين : أهذه هى الفيوم ؟ فأجابه : هذه هى القاهرة . فإذا كنت تقصد الفيوم فاسأل عن رصيف الوجه القبلى وامكث هناك حتى يقف عليه قطار الصعيد فاركب فيه .

حمل المهدى خرجه ونزل من العربة ، ومضى يسأل الناس عن رصيف الصعيد ، فبعضهم يمشى ولا يجيب ، وبعضهم يشير ولا يتكلم ، حتى وجد رجلا يحمل زكيبة وكريكا ، فسأله فقال له: تعال معى . فمشى معه المهدى واضعاً بين عينيه غرضه ، فلا ينظر ذات اليمين ولا ذات الشمال ، ولا يذكر أنه الآن يتنفس هواء القاهرة التى يسمع أن فيها آل البيت وحديقة الحيوان وأهرام الفراعنة ، حتى دخل هو ورفيقه فى زحمة المسافرين الصاعدين ، فحط كل منهما حمله وقعد بجانبه حتى جاء القطار .

— ٦ —

دخل المهدى مدينة الفيوم فى الليل وليس له بها معرفة ، ولا له فيها صديق . فمشى يعتسف الأزقة والشوارع لا يعرف مكاناً يأوى إليه ، ولا يقصد إنساناً يسأل عنه ، حتى دُفع إلى بحر يوسف ، وهو النهر الذى يخترق المدينة ، واتخذ سبيله فى الشارع الواقع على شاطئه الأيمن حتى بلغ ساحة فسيحة تظللها الأشجار ، ويكثر فيها التجار ، ويتطرح فى جنباتها العمال والباعة يسترفهون من الإعياء ، ويستروحون طراوة المساء ، ويناقل بعضهم بعضاً أحاديث الناس وأخبار المدينة .

ألقى المسافر الغريب خرجه بجانب سور الترعة الآخذة من البحر فى شرقى الساحة ، واطلع قبل أن يقعد فرأى ساقية عظيمة تدور فترفع المـاء من غير بقرة ولا مكينة . فعجب كل العجب ، وحاول أن يعرف سرها فلم يستطع . فاستبشر بذلك ، وأيقن أن سواقى وادى الريان كلها من هذا الطراز . وتمنى أن تـكون النوارج والمحاريث كذلك ؛ فإن فى هذا الطراز اقتصاداً فى جهد البهيمة يكثر الشحم و يدر اللبن . ثم وجد فى نفسه الحاجة إلى الطعام فأخرج من الخرج فطيراً وجبناً وأكل حتى شبع . ثم أشعل سيكارة وأخذ يفـكر فى الغد المجهول ويقول لنفسه :

ليت شعرى إذا أسفرت هذه الريادة عن صدق ذلك الخبر ، أتلحق بى أسرتى وحدها ، أم تهاجر معها قريتى كلها ؟ وإذا بقى أهل القرية هناك ، وظللت أنا وأسرتى هنا ، فما لذة الأرض الملك إذا لم يرها الصديق فيفرح ، أو العدو فيحزن ؟

وهل يبلغ المرء من الهوان والضعة أن يفضل العيش فى بلدته وهو عبد ، على العيش فى غيرها وهو سيد ؟

صحيح أن قيراطـاً فى أرض بلدك ، خير من فدان فى بلد غيرك ؛ ولـكن

كيف السبيل إلى امتلاك هذا القيراط وأرضنا بين (باشا) يستحيل عليه أن يكف عن الشراء ، و (أمير) يستحيل عليه أن يفكر فى البيع ؟

على أننى متى أرجع إلى القرية زائراً ورآنى الناس أمشى فى الحذاء المفصل، وأخب فى الصوف الفاخر ، وأتلفع بالحرير الأصيل ، وأتعامل بأوراق النقد ذوات المأذنة ، لايلبثوا أن يقطعوا عزمهم على الهجرة .

وأشرق الأمل فى صدر البحبوح وتشوفت نفسه إلى تحقيقه . وتحقيقه لايبدأ قبل الصباح ، وبينه وبين الصباح هذا الليل الثقيل الطويل ، فرأى أن يقصره بالنوم . فاستلقى على الأرض ، وخرجه تحت رأسه ، ولفاعته حول عنقه ، وهراوته فى يده ، ثم نام ملء عينيه .

وفى مطلع الفجر استيقظ على عادته ، فوجد الشوارع ساكتة والمنازل ساكنة والحوانيت مغلقة . فقام إلى الترعة فتوضأ ثم عاد فصلى وأفطر . وانتظر حتى هبت الفيوم من الرقاد ، ودبت فى مسالكها الحياة ، ثم دنا من رجل وقور توسم فى وجهه الخير وسأله :

كيف الوصول إلى وادى الريان ياسيدى ؟ فأجاب الرجل مبهوتاً وهو يفكر :

وما وادى الريان هذا ؟ ليس فى إقليم الفيوم كله مدينة ولا قرية بهذا الإسم . لعلك تقصد بركة قارون ؟

فقال له المهدى مستفهماً : وما بركة قارون هذه ؟ لم يرد فى الخبر الذى سمعته فى المنصورة مكان بهذا الإسم . أريد وادى الريان الذى توزع الحكومة أرضه على الفلاحين ، وقد قالوا إنه فى مديرية الفيوم . فقال له الرجل آسفاً : سل غيرى يا أخى فربما كان يعلم .

ولم يسترب البحبوح فى شىء إلا فى علم الرجل . فتركه ومضى منحدراً مع بحر يوسف يسأل الهابط والصاعد عن وادى الريان فلم يجد علمه عند أحد ، حتى بلغ قرية (الغديمين) فجلس ليستريح ويتغدى .

وكان يختار لسؤاله المتكرر ذوى العمائم واللبد والطواقى من أهل طبقته لأنه عليهم أجرأ وبهم آنس . فلما لم يجد عندهم الجواب المقنع بدا له أن يستفهم أحد الأفندية . وقادته المصادفة إلى موظف مثقف سأله فأجاب :

وماشأنك بوادى الريان ؟ فقال : علمت أن به أرضاً للحكومة تريد أن تبيعها الفلاحين بثمن قليل . فقال له الرجل وملامح وجهه تترجم عن عجبه :

إن وادى الريان يقع فى الجنوب الغربى من الفيوم وهو واد منخفض مجدب لاينبت به زرع ، ولايعيش فيه حى ، ولايسافر إليه أحد . وكل ما أعلمه من أمره أن وزارة الأشغال تريد أن تجعله خزاناً للنيل ، تملأه منه وهو يفيض ، ثم تفرغه فيه وهو يغيض ، فيظل ماء النهر طامياً طول السنة فبهت للهدى وشخص ببصره وأقام لايطرف . ثم انصرف عن الأفندى دون أن يعقب على جوابه ورجلاه لاتكادان تحملانه من هول الصدمة . ومشى متساقطاً من الهم حتى بلغ جداراً فجلس فى ظله وأخذ يحدث نفسه بصوت يكاد يسمعه السائر ، يقول :

ياخيبة المسعى وياضيعة الأمل ! ماذا أقول لقومى وقد وعدتهم الوعود ، ومنيتهم المنى ، وجعلت لهم البر عسلا والبحر طحينة ؟

هل أعود ثانية إلى المالك يبيع فى ويشترى ، وإلى الناظر يفتات على ويفترى ! أينقطع الرجاء الأخير فى أن أملك قطعة من الأرض الطيبة التى استأثرت بحبى ، ونزلت فى أوسع مكان من قلبى ؟

ولكن لماذا أيأس من الأمر لدى أول سؤال ؟

لم لا يكون هذا الأفندى من الذين يلذهم أن يجيبوا عن كل سؤال بأى كلام ، فيفتوا من غير علم ، ويشيروا من غير خبرة ؟

وبعث فيه هذا الشك روحاً من النشاط فحمل خرجه وسار ينتقل من قرية إلى قرية ، ويسأل رجلا بعد رجل ، وكلهم كانوا يجيبونه إجابة الشيخ الذى سأله فى الفيوم ، أو إجابة الأفندى الذى سأله فى القدميين . فلم يبق لديه شك فى أن خبر المنصورة كان أفيكة أفاك وفرية مفترى .

وتعاقبت على خاطره الحقائق والأحلام ، فتارة كان يرى العودة إلى قريته ليستأنف حياة الشقاء ، وتارة كان يرى التجوال فى هذه البلاد الكثيرة الأطيان القليلة السكان ، طلباً للغنى وطمعاً فى الملك ؛ حتى إذا اغتنى أو امتلك رجع إليهم بالمال أو أقدمهم عليه للملك .

وكان الخرج قد خلا من الزاد ، والكيس قد صفر من النقود ، فاضطر المهدى إلى أن يؤجر نفسه يوماً بعد يوم لأعمال الفلاحة ليعيش .

واتفق ذات يوم أن كان عمله عند رجل من الفلاحين واسع الخبرة بالزراعة ، طويل التجربة للزراع ، فأعجبه من المهدى متانة عضله وقوة جلده ، وضربة فأسه ، وقبضة محراثه ، فعرض عليه أن يشتغل عنده مشاهرة بثلاثة جنيهات غير المطعم والملبس والمسكن . فقبل البجبوح العرض إلى أن يستبين له الأمر ، وينكشف أمامه المستقبل

— ٧ —

دخل المهدى دار حمدان كما دخل موسى دار شعيب . كان حمدان رجلا كبير السن ، رقيق البدن ، حسن الحال ، يملك اثنى عشر فداناً من أجود الأرض يعتمد فى زرعها على الناس ؛ لأنه كان أباً لثلاث بنات ، تزوجت كبراهن ووسطاهن وبقيت الصغرى تطرد الوحشة عن البيت ، وتشيع البهجة فى الغيط .

ولم يكن حمدان يعمل بيده ، وإنما كان يكترى العمال ويقف وراءهم ، يرشدهم إلى مايريد ، ويكرههم على مايحب . أما فكيهة ابنته فقد كان عملها أن تذهب إلى أبيها بالغداء أو الماء أو الشاى ، وأن ترجع إلى أمها بالخضر أو الفاكهة أو العلف . وكانت فى ذهابها أو إيابها محط الأنظار ومطمح القلوب . وفتاة كفكيهة تحوم عليها نفوس الشباب لثروة أبيها ، فكيف إذا كانت مع ذلك وسيمة الوجه ، خفيفة الظل ، رقاقة البشرة ؟ كان الخطاب يتهافتون عليها تهافت الذباب على العسل ؛ ولكن أباها كان يرفض أو يسوف ، لأن نيته كانت أن يزوجها من فتى كريم مستقيم ينزله منه منزلة الابن ، فيساكنه فى البيت ، ويعاونه فى الغيط ، ويعاضده فى القرية . ولكن علوان أحد الخطاب كان طماحا ملحاحا لم ييئسه من خطبته تسويف حمدان ولا إعراض فكيهة . كان يبتغى الوسيلة إلى حب البنية بالهدايا فى كل مناسبة ، ويلتمس السبل إلى رضا الأب بالمساعدة فى كل عمل : ولكن فكيهة لم تجد فى علوان الزوج الذى تحبه ، وحمدان لم ير فيه الصهر الذى يرضاه .

ومضت الأيام على هـذه الحال حتى دخل المهدى عضوا جديدا فى هذه العائلة الصغيرة وكان من طبيعة المهدى كما علمتم أو سمعتم الجد فى العمل والصدق فى النية والإخلاص فى العشرة. فدبر أمور الزراعة تدبير ابن الأرض الذى يجد لذته فى خدمتها ، وسعادته بين تربتها . فوقع ذلك من نفس حمدان موقع المسرة والغبطة . واستبشر أن يكون المهدى هو الابن الذى ينتظره والصهر الذى يرجوه . وسرى إعجاب المالك بأجيره إلى زوجته وابنته ،فبالغت الزوجة فى العناية به ، ورغبت البنت فى التودد إليه . ورخص الوالدان لفكيهة أن تقوم على شؤونه الخاصة ، فتغسل ثيابه ، وتنظف فراشه ، وتهيىء طعامه،وترفه عنه بالحديث إذا ماراح متعبا من أعمال اليوم .

وكان المهدى لايزال مشغول البال بأمسه الخائب ويومه القلق وغده المبهم، فلم يفطن إلى ماينعم به فى هذه العائلة الرقيقة من رعاية الأب وعناية الأم ووداة البنت . ولكنه لم يكد يقطع عزمه على انتجاع هذا الإقليم سعيا وراء الغنى حتى تنبه فجأة إلى أن بجانبه أجمل فتاة تنشد الزوج ، وأن تحت يديه أخصب أرض تطلب الفلاح، وأن أمام عينيه أكرم زوجين يخطوان إلى الموت خطى سريعة .

فقال فى نفسه وهو يرد فنجان الشاى فارغا إلى فكيهة : أليست هذه هى الفرصة التى طالما ارتقبتها بعين لا تغفل ، وانتظرتها بصبر لاينفد ؟ زوجة جميلة تكون أختا لزوجتى ، ودار وسيعة تكون مأوى لأمى وإخوتى ، وأرض خصيبة تكون عما قريب نواة لملكى وثروتى !

ولم لايكون الحظ السعيد هو الذى ألقى إلى خبر وادى الريان فى المنصورة لأنتقل من بؤس محض إلى نعيم خالص ؟

وتفتح قلب المهدى للحب ، واشتد شعوره بالجمال ، فرأى فى فكيهة منية نفسه وقرة عينه وبهجة فؤاده . ووجد فى الفيوم مالم يجده فى إقليم آخر من تبرج الطبيعة فى مروجه الفيح ، وأوديته الخضر ، وحدائقه الغُنّ ، فتحركت فيه غريزة الفنان فتغنى بالمواويل الحمر ، واستعان على ترجمة عواطفه المشبوبة بأنغام الناى . وتمكنت الألفة بينه وبين شباب القرية فكانوا يخالصونه الود. ويقاسمونه الأنس ، ويتمنون لو يتزوج من فكيهة لتستقر به النوى عندهم ، ويطيب له العيش فيهم .

وتوثقت بينه وبين فكيهة عرى الحب ، فكان لايسعى إلا معها ، ولا يتحدث إلا عنها ، ولايفكر إلا فيها ، حتى أجمع الناس على أنه الخطيب المختار والحبيب المفضل .

وبارك الشيخ حمدان وزوجه وأهله هذه الخطبة : وافتخرت فكيهة على

أترابها بهذا الخاطب ، واغتبطت القرية جمعاء بهذا المواطن ؛ فلم يبق فى القوم من ينظر إلى هذا القران نظرة الحقد إلا علوان .

كان علوان الشقى يطمع فى أن تصبح فكيهة زوجه ، ويتوقع أن تصير فدادينها ملكه ، ويؤمن إيمان المغرور بأنه كان أقرب الخطاب إلى الظفر بفكيهة قبل أن يجىء هذا المنافس الغريب فيقلب أمله يأسا ونعيمه بؤسا وفوزه خيبة . كان يرى أنه الفتى الأول فى القرية ، لأنه كان مرهوب العداوة لشدة بطشه ، مرغوب الصداقة لكثرة لهوه . ولكن هذا البجبوح المرهوب المرغوب جاء فغض من قدره ، وطأطأ من تعاليه . ثم أصبح بعد خطبته لفكيهة العقبة التى تصده عن غايته ، والهوة التى تحجزه عن سعادته ، لذلك صمم على أن يزيل من طريقه كل حائل يحول من دون مرامه ، وطوى صدره على أمر .

— ٨ —

قال الحاج إبراهيم وقد تغرغرت عينه وتهدج صوته :

وانقطعت عنا أخبار المهدى ستة أشهر فلم نعرف له مكانا ولم نتلق منه رسالة :

وفى عصر يوم من أيام الخريف — والخريف فصل الهمود والزوابع — عاد خفير الأحوال من المركز ومعه إشارة من المأمور إلى العمدة يقول فيها : « أخطرنا بوليس الفيوم أن رجلا يدعى المهدى البجبوح من بلدكم قد أطلق عليه الرصاص وقد نقل إلى المستشفى الأميرى بين الحياة والموت » .

وما هى إلا دقائق معدودات حتى شاع النبأ فى القرية فاستولى عليها حال من الجزع لايتصورها إلا من رآها . ولم نضع الوقت فى عتاب

القدر . فسافرنا إلى الفيوم ، ودخلنا على البائس الصريع فوجدناه لايتقار على الفراش من مض الألم ومن حوله جماعة من الرجال والنساء يبكون .

فدنا منه العمدة ونحن وقوف نغالب الدمع ونكتم العويل ، وكشف عن وجهه الغطاء . فلما رآه المهدى ورآنا ، هم بالنهوض فردته المرضة . وانصرف الأخرون وجلسنا فى مقاعدهم على جانبى سريره . وكان حضورنا قد قوى من روحه وزاد فى تجلده ، فحيا عواده ، وسأل أخاه عن أمه وابنته . ثم سأله العمدة عما جرى له من يوم فارقنا إلى يوم لقيناه . فقص علينا ماسمعتوه الليلة على فترات كان يقطع بينها شدة الوجع أو غيبوبة الحمى .

وفى المساء عاود الجريح نزف الرئة فانقطع أمل الجراح من نجاته . وشاء الله أن تنجح عملية الموت وأن تخفق عملية الحياة ، فعدنا بجثة الشهيد إلى الأرض التى خلق منها وعاش فيها . فاستقبلته القرية كلها بالنحيب والعويل ، وحزنت عليه حزنا لم تجد العزاء عنه حقبة طويلة .

ثم أمسك الحاج عن الكلام بعد أن عبر بشفتيه وكفيه عن معنى سبقه إليه الشاعر القائل :

وارحمتا للغريب بالبلد النازح ماذا بنفسه صنعا
فارق أحبابه فما انتفعوا بالعيش من بعده ولا انتفعا

رجلان وامرأة

— ١ —

أما أحد الرجلين فأديب معلم . بلغ الثلاثين أو أربى عليها بقليل ؛ فهو فى كمال بنيته وعقله . كان على شىء من وسامة الوجه وجمال الهيئة ، وعلى أشياء من سهولة الخلق ، ولطف الروح ، وبراعة الظرف ، وعذوبة المنطق . ولعل أظهر مايميزه حياؤه المفرط وصمته الطويل ؛ فأكثر مايجيب عن أكثر مايسمع ابتسامة حيية . فإذا نطق رمى بالكلمة أو الكلمتين فى خفوت وحذر ، فتذهبان فى ضجة الحديث كما تذهب النسمة اللينة فى الدغل الشاجن ، أو القطرة العذبة فى الموج الصاخب ، فيزداد امتعاضاً وانقباضاً ووحشة .

ومن الغريب أن حياءه كان يغرى به النساء ؛ لأنه كان حياء من نوع غريب ، لاينم عن ذلة أو ضعة أو جبن ؛ وإنما ينم عن حشمة فيها عزة ، وعن رقة فيها ترفع ، وعن طيبة فيها شجاعة . فكان النساء يفهمن هذا الحياء على غير معناه : يحسبنه استخفافاً وراءه كبر ، أو انصرافاً تحته سر . والمرأة يهين دلالها الكبر فتريد قهره ، ويثير فضولها السر فتحاول كشفه . لذلك كانت يفاعته وشبيبته موجات من حبهن الجرىء ، تتعاقب عاتية على قلبه البرىء ، فتفنى فناء الصوت فى قفرة ، أو ترتد ارتداد السهم عن صخرة . فإذا بسطت الألفة من انقباضه ، وأزالت الصداقة من احتشامه ، وجدته محدثاً عذب الحديث ، مفاكهاً حلو الفكاهة ، يصل مابين قلبه وقلب سامعه بكلام رقيق الحواشى ، وصوت رخيم النغم . وهو إلى ذلك شاعر يحس الحياة بقوة ، فنان يفهم الجمال بعمق ، إنسان يأخذ الصداقة بإخلاص . ومن أجل ذلك كثرت خلواته ، لأنه فضلا عن حيائه لايجد اللذة إلا فى التأمل ، ولا السعادة إلا فى العمل ،

ومن أجل ذلك أيضاً قلت صداقاته ، لأنه لايحب إلا عن نبل ، ولا يصادق إلا عن حب .

* * *

وأما الآخر فطبيب ناشىء لايزال فى ربيعه الخامس والعشرين . جميل الصورة ، أزهر اللون ، ممشوق القوام ، يروعك منه أول مايروعك شعره الفاحم المتموج ، وثغره الباسم النضيد ، ووجهه السوى القسيم ، وسمته الهادىء الوديع ؛ ولـكنه لايزيد على تمثال أتقن المثال صنعه وسوى خلقه . ليس فيه روح يفيض الحياة فى جسمه ، ولا قلب يدفق الشعور فى دمه ، ولا لسان يبث البيان فى حديثه . إنما يتحرك وكأنه لايحس ، وينفعل وكأنه لايدرك ، ويتـكلم وكأنه لايفـكر .

ومن وجوه الشبه بينه وبين التمثال أيضاً فقد الإرادة . فأنت تحطه فينحط ، وتنقله فينتقل ، وتقوده فينقاد . لايمتنع ولا يعترض ولا يحرن . وهو ذكى بالقدر الذى يبعده عن الغباء ؛ أى بالقدر الذى يدنيه من التساهل ؛ ضعيف إشعاع الروح فلا هو ثقيل الظل ولا خفيفه ، قليل إشراق النفس فلا هو غليظ الطبع ولا ظريفه . وهو بعد ذلك كله طيب القلب فلا شر ولا ضر ؛ سليم الصدر فلا حسد ولا حقد ؛ زهيد العين فلا طموح ولا طمع ؛ صارم الجد فلا لهو ولا عبث ؛ صافى المودة فلا جفاء ولا غدر .

* * *

وأما المرأة ففتاة فى سن العشرين ، أدركت شيئاً من الثقافة ثم توفرت على التطريز والموسيقى فنالت منهما قسطاً لابأس به .

جميلة ؛ ولـكن حظها من الجمال جمله الله فى وجهها وروحها . أما سائر جسمها فلا يقيد البصر ولا يحرك القلب . ومع ذلك تستطيع أن تقول إنها فتانة : فتانة

ببشرتها الخمرية الرفافة ؛ فتانة بعينيها الحوراوين اللتين خلقتا لقسحرا لا لتنظرا ؟ فتانة بخديها الأسيلين اللذين يقف عليهما البصر الحالم ساعة لا يرتد ولا يطرف ؛ فتانة بشفتيها الرقيقتين المنفرجتين دائماً عن ثغر قل أن تجد له مثيلا حتى فيما يتخيل الشاعر ويصور المصور ؛ فتانة بحديثها الصادر عن قلبها النابض بالعواطف ، ووجدانها الجائش بالأحاسيس ، وذهنها الزاخر بالمعانى ؛ فتانة بدلالها الطفلى الذى يتمثل فى حديثها الغزل ؛ فيتشكل على فمها كل شكل ، ويتلون فى صوتها كل لون . وهى شحنة قوية من الشهوات والصبوات والميول ، لا تحتملها أعصابها ولا تسعها قواها . فهى دائماً تطلب . وهى أبداً لا تكتفى . هوايتها أن تحب ، ولذتها أن تغامر ، وسعادتها أن تذوق ، وديدنها أن تغير . أجمل ما فى حياتها موعد مضروب ، وموعود منتظر ، وساعة أو ساعتان فى مطعم أو ملهى أو حديقة أو فيهن جميعاً . تعيش يوماً بيوم ؛ فلا تذكر الأمس ولا تفكر فى الغد . ويومها كله زينة تتخذ ، وجولة فى محلات الأزياء تجال ، وصديقة تستقبل ، وزيارة ترد ، وحفلة تقام ، وسهرة تقضى ؛ وفيما بين ذلك عود تحتضنه ، وغناء توقعه عليه .

— ٢ —

تعارف الرجلان على شاطىء (جليم) من رمل الإسكندرية عام ١٩٢٣ . عرّف أحدهما بالآخر صديق مشترك . ولم يكد الصديقان يتعارفان حتى تآلفا ، وجد كل واحد منهما فى أخيه ما يرضيه : هنا تمثال من الحسن يلذ الفنان أن يراه . وهنالك شدو من شعر القلب يلذ الإنسان أن يسمعه . وبين الصديقين فضلا عن ذلك مشابه فى رقة القلب وحياء الطبع وسلامة النية والتزايل من الناس . فكانا يجدان فى لقائهما وحديثهما من المتاع والأنس ما لا يجدانه فى ملهى من ملاهى المصيف ، ولا فى مجلس من مجالس السمر . لذلك جددا

اللقاء وأطالا الاجتماع حتى توثقت بينهما الصلة وتمكنت الألفة ، فصار كل منهما للآخر حاجة نفسه ومصدر أنسه . ثم انتهى التصييف فعاد الصديقان إلى القاهرة فى يومين متعاقبين كل واحد مع أسرته . وعاد لقاؤهما فى مجامع القاهرة ، على النحو الذى كان فى ملاهى الإسكندرية .

كان أمين الصديق الأصغر يزور كل يوم حافظاً الصديق الأكبر ، فيقضيان الأماسى معاً فى سينما أو فى قهوة . وكان أمين كلما أقبل إلى صديقه كل مساء يقول : جئت من بيت عمى . وتغديت على مائدة عمى . وأخذت بريدى من صندوق عمى . فسأله حافظ ذات مرة : أتسكن مع عمك ؟ فإنى لا أراك تتحدث إلا عن بيته ، ولا تتكلم إلا من تليفونه :

فأجابه : إنى أسكن مع أبى ، ولكنى أعيش مع عمى .

فقال حافظ : ما عهدت أحداً يفضل عمه على أبيه ، ولا زوجة عمه على أمه .

فقال أمين وهو يضحك : لا أفضل عمىّ على أبوىّ ، وإنما أفضل مخطوبتى عليهم جميعاً ، وهى ابنة عمى . وقد أحببتها حباً ملأ شغاف قلبى ، وشغلنى عن كل الناس إلا عنك . وأنا أقضى معها وقت فراغى ولا أكاد أتركها إلا إليك . وهى تعرفك بالسماع . وكثيراً ما تحدثنا عنك . وأخوها تلميذ لك فلا يبرح لاهجاً بذكرك . وأقرب الأيام هذا اليوم ، فقد سألتنى أن أستزيرك . ويسرنى أن تنعم لها بما طلبت .

فقال له حافظ : ولم لا تؤجل زيارتى إياكم إلى أن تكون فى بيت الزوجية ؟

فقال أمين : أوه ! إن بيننا وبين الزفاف سنة طويلة . ويصعب علىّ أن أقسم وقتى بينها وبينك ؛ ولكنك إذا عرفتها وعرفتك ، ضمنت ألا أفترق عنها ولا عنك .

* * *

وفى عصر يوم من أيام الخميس ركب الصديقان الترام إلى منزل العم . وكان الشارع الذى نزلا فى بعض محطاته شارع الجيزة ، فسارا فيه . وكانت أواخر الصيف قد اتصلت بأوائل الخريف فى جو سبتمبر ، فكسرت من حره ، وعدلت من نسيمه ؛ كالصهباء تشعشعها بالماء فتكون منها النشوة ولا يكون فيها الحميا[1] . وكان شجر الدردار المنضد على جانب الطريق لا يزال ممسكا بأوراقه العريضة ، فلم تسقطها بعد رياح أكتوبر . وكان النيل بوجهه المتورد يتراءى من بين الشجر ومن خلال القصور جميلا جليلا ، فيغرى السائر بالوقوف ليتملى ويتأمل . فقال الأديب للطبيب : مل بنا إلى الشاطىء نستمتع قليلا بجمال النهر ؛ فإنى — كسائر القاهريين — أكاد أنسى أن النيل يجرى فى القاهرة ؛ لأننا لا نراه إلا عابرين مسرعين على جسوره ، أو سائرين ذاهلين على شواطئه .

فقال الطبيب للأديب وكأنه لا يشعر بما شعر ولا يفكر فيما قال : هذا هو بيت عمى . وها هى ذى (عقيلة) واقفة فى الشرفة تنظر وتنتظر . فاطلع الأديب فرأى فتاة قصداً فى النساء ، لا هى قصيرة ولا طويلة ، ولا هى سمينة ولا نحيلة . ترتدى حلة من قطعتين : بِلُوزةٍ حمراء فى لون القرمز ، وجُونلَّة بيضاء فى لون الزنبق . وبجانبها كلب صغير أبيض يطل من فرجة بين قضبان الدربزين . فلما رأتهما ابتسمت وارتدت إلى الداخل لتلقاهما لدى الباب .

تعارفا فى الصالة . ثم تقدمتهما إلى الصالون . وأقبل الخادم بأقداح الشاى وأطباق الحلوى . وبدأ الحديث . ولكنهم لم يتجاذبوا أطرافه ؛ لأن الحديث لم يكن له إلا طرف واحد أمسكت به عقيلة طول الوقت . وظل الزائران يستمعان ويوافقان ؛ لأن حافظاً عقَل لسانه الحياء ؛ ولأن أميناً قطع كلامه العِى . ثم هم الصديقان بالانصراف ، فودعتهما عقيلة لدى المصعد وهى تقول لحافظ

(١) الصهباء : الخمر . والحميا شدتها وسورتها .

بلهجة الإصرار والتوكيد : أرجو أن تزورنا في أى يوم ومن غير دعوة . ولكن حافظاً لم يستطع أن يحقق هذا الرجاء الأول ؛ لأنه سافر إلى باريس فى رحلة تستغرق العام كله .

— ٣ —

تتابعت الرسائل من الأديب الكاتب إلى الطبيب الخاطب تحمل أجمل الأحاديث وأرقها عن مفاتن باريس ومتاحفها وحدائقها ومسارحها وملاهيها وعن كل جميل فيها . وكانت الأجوبة عن هذه الرسائل تتوالى كذلك حاملة صدى تلك الأحاديث وأثرها فى نفس أمين ، ورجاءه إلى صديقه أن يكثر منها ويطيل فيها . وكان حافظ قد فطن إلى أن الروح التى تشيع فى هذه الرسائل ليست روح أمين . روح من ؟ لا يدرى ! وإنما يعتقد على أى حال أن هناك (سيرانو) بجانب (كرستيان)[1] . فاحتفل لرسائله أشد الاحتفال، وجعلها أشبه باليوميات يسجل فيها مشاهد اليوم وخواطر الساعة ، وما يتعاقب على نفسه الشاعرة من رضا وسخط ، وانبساط وانقباض ، وإعجاب وإنكار ، وميل ونفور . ولبى رغبة صديقه فأسهب بعض الإسهاب فى وصف من لاقى من أوانس (البلفار) وغوانى (مونمارتر) .

وألقى إليه البريد ذات يوم رسائل مصر ففض أول ما فض غلاف أمين لأنه يعرفه بخطه ، فإذا بداخله رسالتان : رسالة طويلة بإمضاء أمين ، ورسالة

(١) إشارة إلى موقف سيرانو دى برجراك الشاعر الفارس ، من منافسه كرستيان دى نوفلليت الضابط الجميل ، فى المسرحية التى كتبها (إدمون روستان) الروائى الفرنسى سنة ١٨٩٧ فقد كان سيرانو يعشق الحسناء روكسان وهى لا تعلم . فلما علم أنها تحب كرستيان كتم حبه وقنع بموقف الصديق بين الحبيبين . وكان كريستيان على جماله عييا لا يكاد يبين ، وكانت ركسان كبنات عصرها تهوى البلاغة وتعشق الكلام الجميل . فتطوع سيرانو أن يكتب لمنافسه رسائل غرامه فى السر ، ويلقنه مناجاة حبيبته فى الظلام . وكان يبث فى تلك الرسائل وتلك المناجيات عواطفه الخاصة وأشواقه المكظومة . وظل هذا الأمر مكتوما خمس عشرة سنة حتى قتل كرستيان فى إحدى المواقع ، وجرح سيرانو فى بعض المبارزات ، فأفضى العاشق لركسان بالسر وهو يموت فى زيارته الأخيرة لها بالدير .

صغيرة بإمضاء عقيلة . فتناول رسالة الآنسة وأخذ يقلب فيها النظر : في إمضائها المائل ، وخطها المنمق ، وورقها الفاخر ، وشكلها الأنيق ، ولونها المورد . ثم عاد يقرأ :

« عزيزي صديق ابن عمي .

ولي العذر إذا لم أقل صديقي ، فإنك أغفلت ذكري في رسائلك التي أقرأها كلمة كلمة . وأحتفظ بها رسالة رسالة . ولا أدعي أن من حقي عليك أن تسلم علي ، فإن زيارة واحدة لا تنشيء بين الزائر والمزور صداقة . ولكني حسبت أن صداقتك لأمين وهي من السعة والعمق بحيث تشمل خطيبته على الأقل . على أني أعرفك منذ زمن طويل مما قرأت لك وسمعت عنك . وهب أن المعرفة بيننا كانت قديمة وثيقة ثم نسيت أن تحيينا على البعد ، فإننا نعذرك كل العذر ، لأن من في باريس لا يذكر من في القاهرة ، ومن يصبح بين غواني (مونبرناس) ويمسي بين حسان (سان جرمان) ، لا يجد وقتاً للتفكير في ساكني شارع الجيزة أو قاطني حي المنيرة . أرجو ألا تحمل كلامي على محمل العتاب ، فليس لي أن أعتب عليك . أحمله إن شئت على محمل الاستجداء . فإني أجد في قراءة رسائلك لذة لا أجدها في متعة أخرى ! فإذا كتبت إلى كما تكتب إلى أمين ، تصبح الرسالة رسالتين ، والسعادة سعادتين . وما أظنك تبخل على إنسان بلذة لا تؤلمك ، وبمنفعة لا تضرك .

بنت عم صديقك

عقيلة

فلما فرغ حافظ من قراءة هذه الرسالة بدءاً وعوداً ، قرأ رسالة أمين فوجده يرجو ويلح في الرجاء أن يكتب إلى عقيلة ولو على حساب الكتابة إليه . ويفضل أن يحدثها عن مباهج النهار وملاهي الليل ، وعما يتصل بالمرأة الباريسية

من معروف ومنكر . فلم يسع صديق الخطيبين إلا أن يلبي مبتغاهما في الحدود التي يحددها حياؤه ويفرضها أدبه . ولكنه كان يحرص كل الحرص على أن يدرج الرسالتين في غلاف واحد .

لا أريد أن أعوق القارىء عن حوادث القصة برواية ما كتب إليها وما كتبت إليه . فإن ذلك وإن لذ وأمتع لا يضيف إلى الموضوع إلا مرامى تختبيء وراء السطور تكشف للذهن اللماح طرف النقاب عن وجه المستقبل . فلنعد مع حافظ من باريس — بعد أن قضى حاجته منها — إلى الإسكندرية في أواخر أغسطس ليجد في استقباله على الميناء أميناً وعقيلة .

وكان عم أمين أو أبو عقيلة يصطاف على عادته من كل عام في شاطىء (جليم) فاقترحا على حافظ أن ينزل في فندق (سمر بلاس) ليكونوا جميعاً في حي واحد . ولم يريدا أن يتركاه لنفسه تلك الليلة ، فصحباه إلى غرفته ، وشاركاه في عشائه ، ولازماه في سهرته . وكان مدار الحديث في هذه الأمسية ، وما تلاها من أماسى ، على ما رأى حافظ وما سمع في مدينة النور من عجائب الحضارة وغرائب الناس . كان الخطيبان يريدان أن يسمعا ذلك من فمه بعد أن قرآه بقلمه . وكانت عقيلة تسأل وحافظ يجيب وأمين يسمع . وكانت الرسائل التي تبادلها الأصدقاء الثلاثة في ثمانية وأربعين أسبوعاً قد أزالت من بينهم الكلفة ، وأطلعت كل واحد منهم على دخيلة الآخر ، فكانت عقيلة تطمئن إلى الصديق كما تطمئن إلى الخطيب ، فتتبسط في الكلام وتتساهل في الدعابة : وتحول التيار الكهربي حيث تشاء برفع الكبس من هنا ووضعه هناك ، فترى أن أثره في الخشب غير أثره في المعدن ، وأن فعله في نفس أمين غير فعله في نفس حافظ ، فتقبل بنفسها وحسها على الأديب أكثر مما تقبل بوجهها وقولها على الطبيب . وكان أمين يجد في تمكن الألفة بين خطيبته وصديقه رضا قلبه وغبطة نفسه ،

لأنه يرى فى تودد عقيلة إلى حافظ إعجاباً منها بصحة رأيه فى انتخابه للصديق ، وفى تحبب حافظ إلى عقيلة ثناء منه على حسن ذوقه فى اختياره للزوجة . ولم تكن ملاطفة حافظ لحبيبة صديقه عرضاً من أعراض رغبة ناشئة ، ولا أثراً من آثار عاطفة حبيسة ، وإنما كان رجلا قريب عهد بالحياة الباريسية التى تجعل التلطف بالمرأة والتظرف لها أدباً مرعياً من آداب السلوك . وهو بطبعه رقيق الحاشية ، يلاين ولا يخاشن ، و يتبسم ولا يتجهم . أما عقيلة فكانت تنشد شيئاً فوجدته فيه . كانت تريد أن تسمع من يقول لها : أنت جميلة ! و إن فيك ما ليس فى أترابك من عذوبة الروح وصفاء الحس وقوة الجاذبية . وكانت تحب أن ترى أثر فتنتها فى عين تنظر بإعجاب ، وشفة تفتر عن دهش ، ولسان يهتف فى خشوع . وكانت تود لو يكون بجانبها من إذا أعجبت بمنظر من مناظر الطبيعة ساهم فى هذا الإعجاب ؛ و إذا تحدثت فى موقف من مواقف السينما شارك فى هذا الحديث ، وإذا شعرت بعاطفة من عواطف القلب استجاب إلى هذا الشعور .

فلما قرأت لحافظ وهو فى باريس ، وتحدثت إليه وهو فى الاسكندرية ، وتقلبت معه على شواطىء (الرمل) ، استقرت نفسها بعد طموح بعيد ، وسكن طرفها بعد نظر طويل ، وقطعت نفسها عن أهلها وصواحبها واكتفت به . يرتادان الشواطىء والحدائق طول النهار ، ويترددان إلى المسارح والملاهى أكثر الليل ، وأمين يرافقهما إلى كل مكان ، ويوافقهما على كل اقتراح ؛ فكان الثلاثة أشبه بالأقانيم المسيحية الثلاثة : متحدين فى الروح ، متعددين فى الجسد . فحافظ هو الأب وأمين هو الابن ، وعقيلة هى روح القدس !

— ٤ —

أقبل سبتمبر وهو الشهر الذى يعود فيه الموظفون من الإجازة ليستأنفوا كارهين العمل فى الدواوين . ويعود فيه الطلاب والتلاميذ من العطلة ليستعدوا خائفين

لامتحان الدور الثانى أو ليقدموا طلباتهم إلى الجامعات أو إلى المدارس، ويعود فيه أعيان الفلاحين من المصيف ليتأهبوا راجين لجمع القطن وضم الرز وبذر البرسيم ، فخلت أكثر الأكشاك ، وفترت حركة الشواطىء ، وخفت زحمة الكرنيش، وهدأت حياة البحر ، فلم يبق على شواطىء الرمل إلا المترفون الذين لا تحفزهم ضرورات العمل إلى السفر، والإسكندريون الذين يبدأون على عادتهم الاصطياف فى هذا الشهر .

وعادت أسرة عقيلة مع العائدين ، فاستبدلت حالة بحالة ، وتحولت من حياة إلى حياة . عاد الأب إلى أعمال المكتب ، والأم إلى شؤون البيت، والأولاد إلى واجبات المدرسة ، وعقيلة إلى الإبرة والكتاب ، وإلى الزيارة والاستقبال، وإلى العود والغناء . وسرعان ما اطمأن كل إلى عمله الأول ، واستقر على وضعه المألوف، إلا عقيلة لم تجد فى بيت الجيزة ما كانت تجده قبلا من رخاء البال، ولم تذق فى شارع فؤاد ما كانت تذوقه قديما من حلاوة الأنس. سمج فى عينها كل إنسان ، وتفه فى ذوقها كل شىء ، وثقل على سمعها كل حديث . وأدركت أن علة هذا التغير إنما هو فقدها الثالوث على الحال التى كان عليها فى الإسكندرية . ولكن كيف يتسنى لها فى غير المصيف أن تمرح طول النهار ، وأن تلهو أكثر الليل ؟ نعم تستطيع ذلك إلى حد ما مع أمين ، لأنه ابن عمها فهو أخوها فى الحاضر ؛ ولأنه خطيبها فهو زوجها فى المستقبل. ولكن الأمر بينها وبين حافظ جد مختلف: لا تصله بها صلة من قرابة ، ولا تصله بأبيها صلة من صداقة . وصلته بأمين وإن كانت وثيقة لا ترفع الحجب حتى ترى بجانبه فى كل ملهى ، ولا تدفع الحواجز حتى تذهب فى صحبته إلى كل مكان . والولاية عليها لا تزال لأبيها . والتقاليد الإسلامية لا تنفك متبعة فى الأسر الوسطى . أما التفكير فى أن تقنع بلقائه مرة أو مرتين أو ثلاثا فى الأسبوع فذلك ما لم يخطر ببالها ولو بتداعى المعانى وتوالى

الفروض . لقد أصبح وجوده فى حياتها جزءاً من وجودها هى فى الحياة . فلا تتصور أن تعيش من غيره ، ولا تهنأ بطيب العيش مع غيره . وإذن فلا سبيل إلا أن تدخل على أبيها وهو يتمزز فنجان الشاى مع أمها فى ساعة صفو وتقول:

بابا ! إنك تعلم أن اللغة الفرنسية من ألزم العناصر لثقافة الفتاة العصرية ، وأن القدر الذى ثقفته منها فى المدرسة لا يكفى للحديث فى مجتمع راق، ولا للقراءة فى كتاب قيم . وأرى إذا سمحت أن أعود إلى تعلمها بعزم أقوى وعلى منهج أتم فإنى تعرضت مراراً للخجل الشديد أمام صديقاتى المتخرجات فى (الميردى ديو) حين يحادثننى بها فأتلعثم أو أخطىء أو أتوقف .

فقال أبوها ، وكان قليلا ما يرد لها طلبا : لا بأس يابنيتى ! اصنعى ماتحبين . وقالت أمها ، وكانت كثيراً ما تمكنها من بغيتها : إن المدموازيل هيلين التى كانت تعلمك الموسيقى تستطيع أن تعلمك الفرنسية خاطبيها وكلميها .

فقالت عقيلة وقد سرتها موافقة أبويها : عفواً ياماما ! إنى أريد أن أتوسع فى نحو هذه اللغة وصرفها ، وأتضلع من بيانها وأدبها . والمدموازيل هيلين لا تعرف من الفرنسية إلا الحديث الدارج والكلام المألوف . وإن لابن عمى صديقاً توفر حظه من هذه اللغة . وقد قال أمين حين حدثته فى هذا الأمر إنه يضمن أن يعطينى كل يوم درساً من غير تحديد وقت ولا تقدير أجر .

قالت ذلك وهى لم تتحدث إلى أمين عنه ، ولم تعرف رأى حافظ فيه ؛ لأنها تعلم أن أميناً طوع لها فيما تحب ، وأن حافظاً لا يتشدد على أمين فيما يريد ، وكان رأيها فى الصديقين صحيحاً ، فابتدأت الدروس بعد يومين اثنين فى المكتب المنعزل من بيت عقيلة ، وفى الساعة الخامسة من مساء كل يوم .

— ٥ —

بدأت الدروس طبيعية فى الأسبوع الأول كما تكون بين معلم يحب أن يعلم ، وتلميذة تريد أن تتعلم ؛ لأن الأب كان يدخل عليهما فيسلم ويشكر ، والأخ كان يلم بهما فيسمع ويستفيد ، والخطيب كان يجلس إليهما فيشارك أو ينتظر . وخشيت عقيلة أن يستمر الأمر على هذه الحال ، فرغبت أن يكون الدرس فى الصباح حين يكون الأب فى ديوانه ، والأخ فى مدرسته ، والخطيب فى مكتبه ، فحققوا لها هذه الرغبة وقد ساعد على تحقيقها أن المعلم كان لحسن الحظ أو لسوئه فارغا من العمل فى الساعات الثلاث الأولى من اليوم المدرسى أكثر الأسبوع .

وفى السكون الشامل والخلوة الصحيحة مضت الدروس فنية جدية أول الأمر ، ثم ظهرت النية وبرح الخفاء فتحولت إلى حديث صرف أقله بالفرنسية وأكثره بالعربية ، يتشقق بعضه من بعض ، فيتناول أخبار الأسر ومغامرات الأوانس ورغبات العرائس ونزعات العصر ! فيحاول المعلم أن يحجز سيله الدافق بحمل التلميذة على أن تتحدث بالفرنسية ؛ ولكن الفرنسية لا تواتيها فتعود إلى العربية ، لأن هواها أن تتكلم لا أن تتعلم . وكانت تدرس فى ثنايا الحديث بعض المعانى الخاصة فيتجاهلها المعلم ويصرفها بلباقته إلى المعانى العامة ، فتعود هى اليها وتلح عليها كما تلح النحلة الشرهة على رحيق الزهرة كلما ذبها أحد عنه .

وبرم المعلم بهذه الدروس التي يتلقاها ولا يلقيها ، فقرر فى نفسه أن يصارح التلميذة فى اليوم التالى بأنها تخسر الوقت ولا تكسب المعرفة ، وأن من الخير اذا كان همها الحديث أن تكتفى بما يجرى منه بين ثلاثتهم فى مساء كل خميس ويوم كل جمعة .

وكان اليوم التالى يوم اثنين ، فلم يكد يحييها ويجلس حتى قالت له وهى تنظر بفتور ، وتبسم فى دلال : « اسمع يا أستاذ ! إن درسى اليوم سآخذه فى الطريق ؛ فإن لى عند الخياط فستانا أريد أن أقيسه ، وعند المصور صورة أحب أن أراها . ولا تريد أمى أن أخرج وحدى ، فما رأيك ؟ » .

فقال لها حافظ : « ومتى كان لأحد عندك رأى ؟ هلمى ! فما الدرس على المكتب بخير منه فى الطريق مادام الأمر لايتعدى « الدردشة » . وكانت قد ارتدت من قبل ثوب الخروج فنهضت ونهض على أثرها . فذهبا إلى الخياط فى شارع قصر النيل ، ومرا على المصور فى شارع عبد العزيز . ثم اقترحت عقيلة على حافظ أن يجلسا قليلا فى محل معين من محلات الحلوى تفضله على غيره لنظافته وهدوئه . فلما دخلاه انتبذت ناحية فى ركن خال من أركان المحل فجلسا فيه . ولو جلسا إلى أى مائدة من الموائد لما حرك السكونَ من حولهما أحد ؛ لأن خلو المحلات العامة فى مثل هذه الساعة من النهار أمر مألوف . والخلوة فى هذا المحل على الأخص مضمونة فى كل وقت لانزوائه عن ضجة الناس فى شارع البواكى .

وكانت النُدُل فى هذا المحلَى من الفتيات الحسان فى زيهن التقليدى الأسود . والفتيات بالطبع يحترمن اختلاء الرجل بالمرأة ، فلا نظرة فضول ولا علامة تعجب . أما الزوجان اللذان كانا يجلسان فى الركن المقابل فكانا منهمكين فى حديث غزلى حاد صرفهما عن الدنيا كلها لاعن المحلى وحده . إذن ليس هناك مايدعو عقيلة إلى التحفظ فى الجلوس ، أو يحملها على التورية فى الحديث . فوضعت الشوكة فى طبق

الحلوى ، وفتحت حقيبة يدها فمسحت شفتيها بالمنديل الأبيض ، ومرت عليهما بالإصبع الأحمر ، ثم أثبتت عينيها فى عينى معلمها وعادت إلى حديثها تقول : : « لنعد إلى موضوع الدرس الذى بدأته فى الطريق . أنا أوافقك على أنى أجعل الدرس وسيلة للحديث . وماذا فى هذا مما تنكره ؟ ولم لايكون الحديث المرسل وسيلة إلى الدرس ؟ أليست فيه جملة تصوب أو فكرة تصحح أو مشكلة تحل ؟ على أنك أذكى من أن أموه الحق عليك وأكتم ذات نفسى عنك . أنا منذ رأيتك استلطفتك . فلما قرأتك أحببتك ، ولما خالطتك عشقتك . وجدت فيك كل ما أبتغيه من رجل ، ووقعت منك على كل ما أرتجيه فى حبيب . فذوقك وذوقى متحدان ، وشعورك وشعورى متجاوبان ، وحظك وحظى متشابهان . فلك زوجة لاتفهمك ، ولى خطيب لايفهمنى . وفيك حساسية تتعبك ، وفى حساسية تتعبنى . ولا أخفى عليك ، فقد كان لى نزوات مع الشبان كنت أبغى من ورائها نشدان من أحب ، ووجدان من أخطب . ولكنى علمت بعد طول الجولان والدوران أن القرين الصالح لايكون فى الأماكن التى أزورها ، ولا فى الدورات التى أدورها . فقنعت بابن عمى ، وهو كما تعلم يملأ العين ولا يملأ القلب ، ويرضى العقل ولا يرضى الذوق . وخير مافيه خلق صريح ، وضمير نقى ، ولسان عف ، وثقة بمن يحب لا تجوز عليها ريبة ولا تنال منها وشاية . فأنا لا أحبه ولا أبغضه ، ولا أقبله ولا أرفضه . ولكنى منذ عرفتك ضاقت نفسى بهذه القناعة ، وعادت مرة أخرى تتطلع إلى حياة النور والشعور والحب ، فوقفت عندك وحامت عليك . ولا أدرى وقد فتحت لك قلبى ، وصارحتك بحبى ، أتستجيب إلى أم تنبو على ؟

قالت ذلك ووضعت على المائدة مرفقيها ، وأسندت ذقنها بكفيها

ثم حدقت فى وجه حافظ وسكتت تنتظر مايقول . وكان حافظ يستمع إليها وهو ساهم واجم مطرق . لايقاطع ولا يراجع ولايعترض . فلما فرغت من حديثها رفع إليها طرفه وقال : يظهر ياعقيلة أنك ذكرت نفسك ونسيت غيرك . نسيت أنك مخطوبة وبنت عم ، وأنى متزوج وصديق (أمين) . فهمت عقيلة بأن تجيب لولا أن قال لها حافظ : اسمعى إلى كما سمعت إليك ، ولا تراجعينى قبل أن أفرغ . إن أمينا صديقى وصفيي ، ومن حقه على أن أحفظ ذمته وأرعى حرمته . ولقد لابسته طويلا فما ذممت عهده ولا اتهمت وده ثم إنى عرفتك لأنى عرفته ، وصادقتك لأنى صادقته . وما دخلت بينك وبينه إلا لأوثق الألفة بين قلبك النافر وقلبه المطمئن ، فقد شكا إلى كثيراً طول إعراضك عنه وسوء رأيك فيه . وما أراك تكرهين منه إلا حسن نيته وخلوص طويته واستقامة خلقه . وهل يضير الرجل ألا يكون فكه الطبع وهو صاحب جد ،وألا يكون لبق الحديث وهو صاحب عمل ؟ إن الفتاة التى تعرف معنى الزوجية وتدرك سر الأمومة لاتجعل من بيتها ناديا ولا مرقصا ولا حانة ، ولا تطلب من زوجها أن يكون شاعراً يطارحها الغزل ، ولا سميراً ينافلها الحديث ، ولا نديما يقارعها الكأس. وإنما تجعل من بيتها عشاً يفيض بالحنان والحب،وحرما يشيع الراحة والسكينة؛ وتطلب من زوجها أن يكون عاملا يكسبها الثروة ، وفاضلا ينيلها الشرف ، ومخلصاً يذيقها السعادة . وأمين جدير بأن يكون هذا الرجل ، إذا كنت أنت جديرة بأن تهيئى له ذلك البيت .

ثم سمعتك تذكرين الحب وتفسرين به تلك العاطفة التى تجدينها فى قلبك لى ، وأنا أيضاً لا أكذبك قد شعرت بأن نبتة من هذه الفصيلة الحمقاء قد نبتت فى قلبي لك ؛ ولكننى أحاول جاهدا أن أمنع عنها الغذاء والرى حتى

تموت . لا أقبل أن أكون قطيعة قلبين أرجو أن أؤكد بينهما الصلة ، ولا أن أكون شقاء صديق أريد أن أوفر له السعادة . وماذا يقول الناس عنى ! ألا يقولون : صدق المثل : « أرسلته لى خاطبا فتزوج ! وماذا يقول الناس عنك ؟ ألا يقولون : لعوب تخرج من قلب لتدخل فى قلب ، كما تخرج من ثوب لتدخل فى ثوب !

عالجى المشكلة ياصديقتى بالروية والحزم . واعملى على أن تظل العلاقة التى بينك وبينى علاقة صديق بصديق ، أو علاقة تلميذة بمعلم . وستجدين فى الحب الذى يخلصه لك أمين ، وفى الصداقة التى يختصها بك حافظ ، متعة الروح وسكينة القلب وبهجة العيش .

فقالت عقيلة : هل أفصحت عن كل ما فى نفسك ؟

فقال لها : بالقدر الذى يعادل ما قلت .

فقالت : أما كلامك فإذا قسناه بقياس العقل والمنطق فلا اعتراض عليه ولا معارضة فيه . وأما إذا قسناه بقياس القلب والشعور انقطعت حجته ووهى دليله . . إن الحب لا يخضع لمبادئ ولا يستكين لقيود . ومن يرد أن يطبق قواعد الأخلاق على الحب ، كان كمن يريد أن يطبق مواد القانون على الجنون . فأنا أحبك وكفى . وفى سبيل هذا الحب لا أتردد فى قطع كل صلة ، وإبعاد كل قرابة ، وإنكار كل عرف .

فقال لها : وما ثمرة هذا الحب إذا لم يفض إلى زواج ؟

فقالت أنا أريد هذا الزواج . فإذا لم ترده أنت فلتكن ثمرة الحب كما تكون . عاهدنى بشرفك أن تظل دائما معى كما يكون الزوج مع زوجته ، أو الحبيب مع حبيبته . ولا أبالى بعد ذلك أن تكون علاقتى بك عقدا عند مأذون أو عهدا عند شيطان ! وأعاهدك بشرفى أن أظل لأمين الخطيبة

الوفية و لزوجة المطيعة . ثم رفعت يدها اليمنى وحركت سبابتها فى الهواء منذرة وقالت : « إنى أريدك ياحافظ بأى ثمن ! فإذا بدا لك يوماً أن تقف دون إرادتى تركت لك الوجود كله ! »

فقال حافظ وهو يتكلف الابتسام ويتصنع الهدوء :

« عبث طفولة ونزوة شباب ! ومازلت قوى الرجاء فى أن تراجعى نفسك وتشاورى عقلك فيما قلتُ وقلتِ » .

وكان عقربا الساعة قد اجتمعا عند الساعة الثانية عشرة ، فقالت وهى تنظر فى ساعة يدها وتشير إلى العقربين المجتمعين : « يجب أن نظل هكذا وعقرب الثوانى بعيداً ! » ثم نهضت ونهض حافظ وركبا سيارة لبثا فيها صامتين مفكرين حتى بلغت بهما البيت فردها ثم رجع :

— ٦ —

لم يشأ حافظ أن يغير من نظامه ولا أن يخرج عن عادته ؛ فقد رأى من الحكمة أن يعالج الأمر باللين ، ويستعين على الداء بالمسكن ، حتى ينكشف الأمر . فذهب إلى عقيلة فى موعد الدرس فوجدها مضطربة البال ، كاسفة الوجه ، محمرة العين ، لاتستقر على حال من القلق . كانت تخشى ألا يجيء ؛ لأن هيئته فى السيارة ولهجته عند الوداع لم تبعثا فى نفسها الطمأنينة . فلم تكد تخلو إليه فى المكتب حتى أقبلت عليه والدمع يترقرق فى عينيها ، وأمسكت كتفيه بيديها وهزتهما هزاً رفيقاً وقالت له : لك الله ياحافظ ! لقد أسهرت جفنى حتى الصباح . كان شيطانى يوسوس فى صدرى بأنك لا تجيء !

ثم أدنت صدرها من صدره كأنما تريد أن تعانقه . فردها بيديه رداً ليناً ؛ ثم أجلسها على الكنبة وجلس بجانبها يريد أن يسكن من روعها . ولكنها

انفجرت بالبكاء وألقت بنفسها عليه . فارتبك حافظ وحاول أن ينحيها عنه ليهض مخافة أن يدخل عليهما المكتب داخل سمع البكاء . ولكنها ضغطت بساعديها على ركبته وأنحت على يده وذراعه بالتقبيل واللثم وهى تقول فى نحيب وضراعة : لاتفارقنى ياحافظ ! قل لى إنك لى ! أنت أول من أحببت فلا تفجعنى فى حبيبى الأول ! ليس مابى عبث طفولة ولا نزوة شباب كما قلت؛ إنه هو الحب الذى طالما سمعت به وقرأت عنه . عذبت كثيرا من الشبان عن عبث ولهو فانتقم الله لهم منى . عدنى بأن تكون لى على أى حال . وإذا كان أمين هو العقبة فإنى سأفسخ خطبته ، وأنكر قرابته » .

ودخلت الخادمة تحمل القهوة وعقيلة على هذا الوضع ، فتظاهرت بالإغماء وأخذ حافظ يربت خدها ويدلك يدها . وطلب من الخادمة شيئا من روح النشادر أو ماء الكولنيا فذهبت مسرعة . وجاءت الأم لهفى تحمل المنبهات ، فأضجعت ابنتها على صدرها الرءوم وهى تقول لحافظ : « توقعت أن تصبح عقيلة مريضة ؛ فقد باتت ليلها تتململ وتتقلب ، وتخرج من الغرفة إلى الشرفة ؛ ثم تدخل من الشرفة إلى الغرفة ! »

ثم بدا من عقيلة مادل على أنها أفاقت ؛ فنقلتها أمها إلى الفراش وانتهى الدرس وانصرف المعلم .

* * *

خرج حافظ كالهائم لايدرى كيف يسير ولا أين يتجه . لم يكن يحسب أن الحب قد برح بعقيلة إلى هذا الحد وفى هذه السرعة . وعزا هذا الطغيان الغرامى العاتى إلى تأبيه عليها وتحفظه معها وتجافيه عنها . فإن الفتاة العاطفية المدللة التى تعودت أن ينزل على حكمها الأهل ، وتجرى على هواها القلوب ، لاتطيق أن ينصرف عنها وجه ، أو يمتنع عليها طلب ، أو يطيش لها سهم .

ولكنه لا يستطيع أن يفعل غير ما فعل . الأمر بينها وبينه واضح : أما أن يتزوجها فتكون كارثة على صديقه ، وإما أن يخادنها فتكون نكبة على ضميره ! فأما الحالة الثالثة وهي الصداقة البريئة فقد ردتها بعنف ورفضتها بعناد . على أنه قدر في نفسه أنها إذا يئست من الزواج والخادنة رجعت بالطبع إلى المصادقة . واليأس وإن كرب الصدر وصدع الفؤاد ينتهي بعد زمن قصير أو طويل إلى الراحة .

وكان قد رجع إلى منزله، فجلس على مكتبه وأخذ يكتب إليها هذه الرسالة :

عزيزتي عقيلة :

لقد كان من فوق احتمالي أن أراك تبكين هذا البكاء الحار بين يدي في هذا الصباح بعد أن علمت من أمك ما كابدت من الأرق والقلق طول الليل. لا أدري كيف تطور الأمر بيننا هذا التطور الذي يكدر الصفو ، ويفرق الشمل ، ويمزق هذا الثالوث الذي جمعه الود وألفه الإخلاص ليس لك يد فيما كان . إنما هو القدر الذي يصيب بالحب كما يصيب بالحمى ، ويضل بالهوى كما يضل بالعمى . ولقد شبهتنا في حديثك بالأمس نحن الثلاثة بعقرب الساعات وعقرب الدقائق وعقرب الثواني في تمام الساعة الثانية عشرة . يجتمع اثنان في هدوء ، ويفترق الثالث في اضطراب . وقد كنت أنا قد شبهتنا من قبل بالأقانيم الثلاثة التي يتكون منها واحد في رأي المسيحية ،وهي الأب والابن وروح القدس. وأستطيع بعد أن ما سمعت منك ما سمعت في محل الحلوى وفي مكتب الدرس أن أشبهنا أيضا بثلاثة (جيتة) ، وهم فرتر وكستنر وشرلوت . ومن العجيب أن الثلاثات الثلاث تتشابه في أن واحدا منها لابد أن يصاب في نفسه ، ليضمن السلامة لغيره ؛ فعقرب الثواني كتب عليه أن يدور منعزلا في مداره الخاص لينتظم عمل الساعة . والابن صاب على قول النصارى ليكفر عن خطيئة آدم . وفرتر انتحر على رواية جيتة ليوفر السعادة لحبيبته ولصديقه . وأنا ياعقيلة لا أريد ولا أنت

تريدين أن يموت واحد منا . أريد وأود لو تريدين أن يعيش ثلاثتنا في ظلال الصداقة الخالصة وادعين هانئين لايدخل بيننا شيطان ، ولا يشوب حبنا ريبة . ولعل من الخير أن نقطع الدرس من الغد لنستأنفه حين يثوب الهدوء وتؤوب العافية . أما زيارتي إياك فلن تنقطع سأزورك مع أمين في كل ليلتين ماأسعفتني الفرصة وأمكنتني الحال . وسأكون لك ولخطيبك على الأبد المحب الوفي والصديق الأمين . (حافظ)

ثم غلف الرسالة وبعث بها مع خادمه إلى منزل عقيلة .

وفي صباح اليوم التالي زاره في بيته أمين وأخبره وهو جزع مضطرب أن حالة ابنة عمه سيئة ، فقد قضت ليلة أمس الأول على غير عادتها ساهرة تتردد بين الغرفة والشرفة ، تقرأ ساعة وتفكر أخرى ، فأصابها برد شديد بلغ الرئة وقد تركتها بين يدي الطبيب وحرارتها تسع وثلاثون ، لأصحبك إليها فقد طلبتك .

جزع حافظ لهذا الخبر وأشفق على عقيلة من عقبى هذا الداء . وأسرع فارتدى ثيابه ثم انطلق مع صديقه إلى منزل عمه .

كانت عقيلة حين دخل عليها الصديقان مستلقية على ظهرها في الفراش وعلى جبينها كيس الثلج ، ومن حولها أمها وبعض سيدات الجيرة . فلما رأتهما أشارت إلى أمها أن تخلي لهما مكاناً بجانب السرير . فانصرف السيدات وجلس الرجلان حيث أرادت المريضة .

والتفتت عقيلة إلى حافظ بقدر ماسمح لها كيس الثلج — وكانت عيناها وخداها يتوهجان من وقدة الحمى — وأخذت يده في يدها وقالت : قرأت رسالتك مراراً على رغم مابي . ثم دسستها تحت الوسادة ليقرأها أمين . وإني أشكرك ما أفضته على صداقتي لك من نبل ، وما أسديته إلى علاقتي بأمين

من فضل . وأحمد الله على أن اختارنى من بين ثلاثتنا لأكون فداء لما قد ينال صحبتكما من فرقة ، و يصيب مودتكما من فتور . وأنا بهذه التضحية مغتبطة وعنها راضية . لقدأذقتمانى فى هذه الفترة القصيرة من عمرى ألذ ما فى هذه الحياة المرة من حب وغبطة .

كانت لذتى فى أن أمرح وألهو فهيأتما لى هذه اللذة . وكانت سعادتى فى أن أحِب وأحَب فوفرتما لى هذه السعادة . فإذا قضى الله أن أفارقكما اليوم كما يحدثنى بذلك قلبى ، فلن أقول فى وحشة القبر إنى لم أنعم بالأنس ، ولا فى ظلمة العدم أنى لم أسعد بالوجود . وحسبى ياحافظ أن أحيا فى ذاكرتك وذاكرة أمين . ستجدانى ثالثتكما فى كل مكان تقصدانه ، وفى كل حفل تشهدانه . وستحس ياحافظ حين تأكل أو تشرب تلك اليد العابثة التى كانت تتغفلك عن طعامك فتنهبه ، أو عن شرابك فتشربه . . .

وغلبها البكاء فسالت مدامعها الحرار الغزار على صدغها الملتهب . ولم يملك الصديقان عينيهما فانتحبا انتحاب الطفل . وتجلد حافظ فغيض من دمعه وقال لها وهو يمسح ظهر كفها بباطن كفه : لا بأس عليك ياعقيلة ! إنك بخير . وستعافين بعد أيام فيلتئم الشمل ويستمر الدرس وتعود البهجة !

ولكن عقيلة وا أسفاه كانت أصدق تعبيراً عن مشيئة القدر ؛ ففارقتهما بعد أيام وخلفتهما للحسرة التى لا تهدأ ، وللعبرة التى لا ترقأ . لا يجدان العزاء فى تسلية ولا متعة ، ولا يجتمعان إلا على ضريحها صباح كل جمعة .

أحاديث

الأدب والثورة

- ١ -

علاقة الأدب بالثورة

كل نفس في هذه الحقبة من الزمان ثائرة ! فلا فرد من الأفراد راض عن حظه من الدنيا ، ولا أمة من الأمم قانعة بنصيبها من الأرض ؛ إنما أصاب الناس ذلك القلق الروحي الذي يرفع إلى فوق ، ويدفع إلى أمام ، ويبعث في الخاضع التمرد ، وفي القانع الطموح ، وفي الغافل الوعي ، وفي الضعيف التكتل ، وفي المستعبَد التحرر ، وفي القوي التنافس .

والقلق الروحي هو أخص خصائص الإنسان الراقي ، لاتجده في البدائيين ولا في المستعبدين ولا في المتبطلين ولا في الذين يعيشون يوماً بيوم ولا ساعة بساعة . لاتجده في الموظف الذي قنع بوظيفته فلا يطمح ، ولا في المتعلم الذي اكتفى بشهادته فلا يبحث ، ولا في المستكين الذي رضي بمهانته فلا يغامر ، ولا في الصانع الذي وقف عند القديم في صناعته فلا يجدد ، ولا في الفلاح الذي ظل على الموروث في زراعته فلا يبتكر . وأثر القلق الروحي الشعور بالنقص والتطلع إلى الكمال . أثره النفور من الضعف والنزوع إلى القوة . أثره تغيير ما بالنفوس المراد من قول الله عزت حكمته : « إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا مابأنفسهم » وأقوى العوامل أثرا في تغيير ما بالأنفس مايصوره الأدب من أحلام ويثيره من آمال ويسنه من مناهج ويرسمه من غايات ويقيمه من مُثل ، بوسائله المختلفة من كتابة وخطابة وصحافة وإذاعة وتمثيل .

ولولا خلال سنها الشعر مادرى   بناة المعالي كيف تبنى المكارم

فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما يمدها ويعدها ثورة فكرية تظهر أولا على ألسنة الشعراء وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم ، وصفاء النفس منهم ؛ ثم ينتقل تأثرهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة.

مَنِ الذين مهدوا للثورة الفرنسية ؟ ديدرو ومونتسكيو وروسو . ومَن الذين مهدوا للثورة الروسية ؟ تولستوى وجوركى وتورجنيف. ومَن الذين مهدوا للثورة العرابية ؟ جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسامى البارودى وعبد الله نديم . ومَن الذين مهدوا لثورة الضباط المصريين الأحرار ؟ مهد لها تلك الصرخات والزفرات التى انبعثت فى أجواء البغى والفساد منظومة فى قصائد ، أو مصورة فى مقالات ، أو محللة فى قصص ، أو ممثلة على مسرح. وما كان الضباط الأحرار لينفعلوا بها ويستجيبوا لها لولا ما ركب فى نفوسهم من حس الأدب وموهبة البلاغة . والأدب البليغ من لوازم القوة لا ينفك عنها إلا فى الندرة . والمراد بالقوة قوة الروح لا قوة العضل ، فإن قوة العضل مظهرها قوة الحركة ، أما قوة الروح فمظهرها قوة الكلمة . فكلما قويت الروحية فى المرء قويت فكرته . وكلما بلغت الإنسانية فيه بلغ بيانه . أولئك على والحجاج وطارق ؛ وأولئك الاسكندر وقيصر ونابليون ؛ وأولئك كمال وموسولينى وهتلر ؛ كلهم كانوا مثلا عالية فى شجاعة القلب واللسان ، ومضاء السيف والقلم . أجادوا القول فى الخطبة ؛ كما أجادوا الفعل فى المعركة ، وحذقوا السياسة فى السلم ، كما حذقوا القيادة فى الحرب . فلا تدرى أتجعلهم فيمن جرى على أيديهم أدب الموت ، أم تجعلهم فيمن جرى على ألسنتهم أدب الحياة . وما قواد الثورة اليوم إلا تطبيق لهذه القاعدة وتصديق لهذا الرأى .

لقد بهروا العالم ببراعة السياسة وحسن الإدارة وإحكام الخطة ، كما بهروه بصدق البيان وبلاغة اللسان وقوة الحجة. وما مَرس هؤلاء بالحكم ولا تخصصوا فى القضاء ولا تفرغوا للأدب ، ولكنها البطولة الحق تقوم على قوة الرأس وقوة النفس وقوة اليد وقوة الروح. والرجل القوى يغلب عليه من الصفات والألقاب ما تُغلبه طبيعة عمله؛ فهو قائد أو سياسى أو مصلح أو كاتب أو شاعر على حسب ما تتجه إليه قواه . فخالد ونابليون ، ومعاوية وبسمرك ، والجاحظ وفلتير، والمتنبى وهوجو ، لا يختلفون فى عبقرية الرجولة وإن اختلفوا فى دلالة اللقب .

والنبوغ فى هؤلاء جميعاً لا يكاد يختلف فى قيمته ودرجته ، وإنما يتفاوت فى شهرته ونفوذه .

فالأدب والثورة إذن متلازمان تلازم الفكر والعمل ، أو تلازم الرأى والعزيمة . فمن يزعم أن الأدب لم يثر مع الثائرين كان متجنياً على الحق متحدياً للواقع . لقد ثار الأدب وحده حين سكتت على الأذى كل نفس ، وأغمضت على القذى كل عين ؛ وحين تناصر ذلك الملك الخليع اللاهى والساسة المحترفون على إذلال هذه الأمة ففرقوا كلمتها وعوقوا نهضتها ، وبددوا ثروتها وسوأوا سمعتها ، ودفعوا بها إلى هوة من هوى الشر والفساد لا سبيل بها لنجاة ، ولا بصيص فيها لأمل . ثم سكنت ثورة الأدب بعض السكون حين تيقظ الوعى وعم السخط وانتشر القلق وثار الجيش ونهض الشعب . وواجب الأدب كان قبل الثورة أن ينبه ، وسيكون واجبه بعدها أن يوجه . وسيؤدى رجال السيف ما عليهم من الدين لرجال القلم ، فيعاونونهم على أداء التوجيه المرشد كما أعانهم هؤلاء على التنبيه الموقظ . وسيعنى قادة الثورة المباركة بروح هذا الشعب كما يعنون بمادته . وسييسرون له غذاء عقله كما ييسرون له غذاء جسمه . وستجد صحافة الأدب الرعاية لتبقى ، وسينال شباب الأدب التشجيع لينتج . وسيظفر مجمع اللغة العربية بالمال لينشر انتاجه الضخم . وستنشأ فى القاهرة دار لترجمة العلوم والآداب والفنون فتعيد للناس عهد بيت الحكمة فى عصر المأمون ، ودار الحكمة فى عصر الحاكم . وستظل مصر مشرقا لنور الإسلام ، ومبعثاً لنهضة العروبة ، ومقراً لزعامة الأدب ، وصلة العلم بين الغرب والشرق ، وبرزخ الحضارة بين القديم والحديث . تلك أمانى مجملة سقتها مساق الوعود المنجزة ، اعتقادا بأن الإصلاح فى هذا العهد السعيد سيشمل كل جانب ويحقق كل أمل .

— ٢ —

كيف مهد الأدب للثورة

حضارة الإنسان منذ وعى ثورة مستمرة ، إذا خمدت فى مكان أو هدأت فى آخر ، فإنها تظل مشبوبة فى أكثر بقاع الأرض ، بين القوة والضعف ، وبين الكمال والنقص ، وبين الجدة والقدم ، وبين الحياة والطبيعة . ففى ظهور كل دين ثورة ، وفى قيام كل دولة ثورة ، وفى نشوء كل مذهب ثورة ، وفى طموح كل نفس ثورة . ومظهر هذه الثورات جميعاً فى شتى نواحيها ، وفى مختلف دواعيها هو الأدب . فحيثما نجد الأدب نجد الوعى كثيراً أو قليلا على قدره . وحيثما نجد الوعى نجد التقدم سريعاً أو بطيئاً على حسبه .

وفى ثلاثة أرباع القرن الماضى كان الأدب العربى خامدا لا روح فيه ، وكان الشعب المصرى تبعاً لذلك غافلا لا وعى له . كان فى عهد محمد على طماح « قولة » الذى جلس بالخديعة على عرش صلاح الدين فى قلعة القاهرة أشبه بالدواب تساق بالكرباج فتسير ، وتسخر للانتاج فتذعن ، وتجازى بالحرمان فترضى . ذلك لأن هذا الجندى التركى الأمى الحاكم كان قد قطع ما بين قلبها والدين ، وما بين نفسها والأدب ، وما بين عقلها والعلم . ولم يكن همه إلا إعداد الجيش ليملك ، وإلا جباية المال ليسود . وظل الشعب فى بلادة الحيوان الصابر حتى تفتحت فى الربع الأخير من ذلك القرن بواكير الوعى فى أذهان النابغين من رجال الدين فى الأزهر ، والعائدين من طلاب العلم في فرنسا . فشعروا أول الناس بالأغشية التى تحجب الأبصار ، وبالعلل التى تخدر المشاعر ، فأشعلوا بعض الضوء فى الظلام الحالك ، وأرسلوا بعض الصوت فى السبات العميق . وكان من أثر ما كتب رفاعة الطهطاوى ، وعلى مبارك ، وعبد الله فكرى ، وجمال الدين ، ومحمد عبده ، وعبد الله النديم ، تلك الهزة النفسية التى أدركت بعض قادة الجيش فنهضوا يحاولون تحطيم ذلك النير الثقيل الذى يبهظ كواهل

الشعب فرزح تحته ولم ينهض . ولكن ذلك النير أو النافى كان فرعا غليظا من تلك الشجرة العلوية الملعونة صفحه الانجليز بالحديد والذهب فلم يستطع عرابى تحطيم توفيق .

خمدت إذن ثورة الجيش الأولى لأن الوعى الشعبى كان من الضعف بحيث لا ينهض فضلا عن أن يثور . وظلت ثورة الأدب متقدة تبدد الظلام وتوقظ النيام وتهيىء العدة . فاستمر محمد عبده وهو فى منفاه يكتب فى مجلة « ثمرات الفنون » ببيروت ، ثم فى مجلة « العروة الوثقى » بباريس ، فصولا يعالج فيها تأخر المسلمين وأسبابه بالمنطق القوى والأسلوب البليغ . واستأنف عبد الله النديم جهاده الأدبى فى مجلته « الأستاذ » بأسلوبه العصبى اللاذع .

ثم امتدت ألسنة المستعمرين والمبشرين بالطعن فى مصر والشرق والإسلام فنهض جمال الدين لأرنست رينان ، ومحمد عبده لهانوتو ، وقاسم أمين لدوق داركور ، فدافعوا بالحجج الملزمة ما لفقوا من أباطيل وما شوهوا من حقائق . ثم حملتهم تلك الحملة الإستعمارية على النظر فى تطهير الشرق من هذه المآخذ بتصحيح الزائف ، وتقويم المعوج ؛ فمضى كل مصلح يتحرى وجوه الاصلاح والتحرير ، فى الوطن ، أو فى الفكر ، أو فى الأدب ، أو فى القضاء ، أو فى التعليم ، على حسب استعداد عقله وطبيعة نفسه . وكانت الأهرام والمؤيد ميدانا لهذه الثورة الأدبية على فساد الأخلاق وسوء العادات وانتشار الأمية وشيوع الجهالة وخمود الحواس ، فظهر فى تلك الحقبة كتاب « الإسلام والنصرانية » للامام ، وكتابا « تحرير المرأة » « وأسباب ونتائج » لقاسم . . ثم نقل أحمد فتحى زغلول فى سنة ١٨٩٩ كتاب « سر تقدم الإنجليز السكسونيين » للكاتب الاجتماعى الفرنسى « إدمون ديمولان » فصادف هذا الكتاب القيم حاجة فى نفوس الأدباء فقرأوه ودرسوه ووازنوا بين مثله الأعلى ومثلنا الأدنى فى التربية

والأخلاق والثقافة والحضارة والنظام ، فتمردت العقول على الجمود ، وهفت النفوس إلى الرقى ، وتحركت الهمم للاصلاح ، وهبت طائفة من الكتاب الثائرين يبحثون مشكلات الأمة ويطبون لأدواء المجتمع ، فظهر فى سنة ١٩٠٢ كتاب « حاضر المصريين وسر تأخرهم » لمحمد عمر ، عالج فى أقسامه الثلاثة رذائل الأغنياء ومعايب الأوساط ونقائص الفقراء بلسان صادق وبيان صريح .

وفى سنة ١٩٠٧ أنشأ محمد المويلحى كتابه البليغ « حديث عيسى بن هشام » وصف فيه الأخلاق المصرية والمفاسد الاجتماعية أبلغ الوصف وأصدقه . وعلى منواله نسج حافظ إبراهيم فى كتابه « ليالى سطيح » ثم نشر مصطفى لطفى المنفلوطى نظراته الاجتماعية تباعا فى المؤيد تصف الآلام وتمثل العيوب . وكان مصطفى كامل فى تلك الفترة نفسها يرفع « اللواء » ويلهب الشعور الوطنى بخطبه ، ويكافح النفوذ الأجنبى بمقالاته . وانضوى إلى لوائه الشاعر حافظ إبراهيم فنظم فى قصائده الغر أمانى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد . ثم انطوى بالموت لواء مصطفى ، وخفت بالمرض صوت حافظ ، فاعتلى سعد المنبر ، وحمل شوقى القيثار . ومثل مصطفى وسعد كل خطيب ، ومثل حافظ وشوقى كل شاعر . ومن هذه الروح الألهية المنبثة فى الخطب والمقالات والقصائد والكتب انبعثت الحياة فى الجذوع الميتة ، وتدفقت الحساسية فى الأجساد الهامدة ، وتألف من الآراء الخاصة رأى عام ، وتكون من الطوائف المتفرقة شعب مجتمع . والمستذل يأنف حين يحس ، والمستغل يغضب حين يعى ، والقطيع من البقر أو الغنم إنما يظل قطيعا مادام لا يعرف إلا العشب يأكله وإلا الراعى يطيعه ؛ فإذا ما أدرك يوما أن راعيه يأكل لحمه ويشرب لبنه ويستغل جهده ، وليس له عليه من فضل إلا أن برأسه حيلة هى أضيق من قواه ، وأن فى يده عصا هى أضعف من قوته ، لم يعد قطيعا وإنما يصبح أمة . .

والأمة المصرية شعرت أخيرا بفضل ماوخزتها الأقلام ونبهتها الآلام أن لها وطنا يجب أن يستقل ، وأن لها عليه سلطانا يجب أن يسود ، وأن لها عدوا ثقيلا يجثم منذ سبع وثلاثين سنة على صدرها ، يستبد بأمرها ، ويستقل بخيرها ، فتعمل ولا تريد ، وتنتج ولا تستفيد ، ثارت فى وجه المحتل ثورتها الثانية سنة ١٩١٩ . وكادت تظفر بحقها الطبيعى فى الحرية والاستقلال ، لولا أن ابتلاها الله بزعماء من طلاب المال والحكم فأضلوها السبيل ، وأوردوها السراب ، وعوقوها عن الغاية . وكان الوعى الأدبى والوعى القومى قد قاربا الإدراك والنضج ، فنشبت فى العشرين سنة الأخيرة معركة شعواء بين المادية والروحية ، بين الأنانية والغيرية ، بين الاحتلال الباطل والاستقلال الحق ، بين الطغيان الفاجر والدستور الذليل ، بين الثراء الفاحش والفقر المدقع ، بين الترف المسرف والحرمان المهلك . وكان الملك والحاشية والاقطاعيون والسياسيون والإنجليز فى جانب ، والدين والأدب والأخلاق والقيم والمثل فى جانب . والغلبة إنما تكون أولا وظاهرا للشيطان لتحكم الغرائز وتسلط الشهوات ، فطغى الفساد وتوقح البغى وحسب الناس أن الليل سرمد وأن الذل خلود ، «حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كُذبوا جاءهم نصرنا فنجى من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين » . نعم جاء نصر الله فاصطفى لإعلانه رهطا من رجال الجيش ؛ لأن رجال الجيش يتميزون على رجال السياسة بأن صناعتهم الدفاع ، ووسيلتهم القوة ، وطبيعتهم النظام ، وخلقهم الطاعة ، وعيشهم التقشف ، ومبدأهم التضحية. نعم جاء نصر الله فبات الشعب ذات ليلة من ليالى يوليو وهو مظلوم محروم ؛ ثم أصبح فإذا هو صاحب العرش وصاحب الجيش وصاحب الحكم وصاحب الثروة . نام وهو لاشىء ، ثم استيقظ وهو كل شىء ! وكان الأدب هو المهىء لذلك كله . كان الحس فى خمود الشعب لأنه غذاء القلب . وكان الهدى فى ضلال الشعب لأنه شعاع الروح .

كان الأدب فى الربع الأخير من القرن الماضى ناشئا ضعيفا فثار الجيش وحده مع عرابى . وكان فى الربع الاول من القرن الحاضر بالغا فتيا فثار الشعب وحده مع سعد . ثم كان فى الربع الثانى منه قويا جارفا فثار الجيش والشعب جميعا مع أبطاله الأحرار .

ياقومنا إذا كان من إعداد الجيش للجهاد أن تكون له موسيقى ، فإن من إعداد الشعب للحياة أن يكون له أدب . وإذا كانت مهمة الموسيقى أن تنشط وتنعش ، فإن مهمة الأدب الحر أن يسوس ويقود .

— ٣ —

نهضة العرب وثورتهم فى القرن السادس

لايمكن أن تكون ثورة إلا إذا سبقتها نهضة . ولا يمكن أن تكون نهضة إلا إذا بشرت بها دعوة . والدعوة إما بعثة نبى أو رسالة مصلح وليس للنبيين من عُدة إلا أدب الوحى ، ولا للمصلحين من أداة إلا وحى الأدب . فالنهضة والثورة تتفقان فى المصدر وتختلفان فى المظهر : النهضة انتباهة ، والثورة انتفاضة . النهضة علاج يوقظ الوعى الغافى ويقوى الجسم الضعيف ، والثورة جراحة تستأصل الداء وتقى للمريض النكسة . النهضة نهر فياض يتنفس بالحياة ويفيض بالخصب ويهيىء البلاد للعمران ، والثورة سيل جارف يحطم الحواجز ويقتلع الصخور ويهيىء الأرض للربيع . النهضة دعوة باللسان مادام هناك عقل مستعد ، والثورة جهاد بالسيف متى تغلب على العقل هوى مستبد . والنهضة والثورة قوامهما كما قلت واحد هو الأدب . يكون للنهضة غذاء يحيى ونوراً يهدى ، كما يكون للثورة وقوداً يشعل وناراً تطهر . فإذا زالت العقبات واستقرت الأمور وسكنت الثورة انفرد الأدب بالنهضة يفعمها بروحه حتى لاتضرى ، ويضحها بنداه حتى لا تجف . وضراوة النهضة وجفافها معناهما المادية . والمادية هى علة الشقاء للانسان الحديث . أصيبت بها المدنية الأوربية حين وقعت الجفوة بينها وبين الدين ، وانقطعت الصلة بينها وبين القلب ، فتباعدت القربى ، وتشعبت الحاجات ، وتنافست الأطماع ، وتكاشفت الأحقاد ، واضطرب الناس فى سبيل الكدح ، وألهبتهم حوافز الهم ، حتى عجزوا بخلقتهم وطبيعتهم عن مسايرة الحضارة الخالية من الروح والضمير والحب ، فسموا بالطائرت وعملوا بالآلات ونظروا بالتلسكوب وسمعوا بالميكروفون ، وضاقت عليهم الأرض برحبها فضربوا فى الآفاق واختصموا على بلاد

المستضعفين وحكموا بينهم السلاح ، فكانت هذه المدنية المادية أشبه بسعير الآخرة ، تنضج الجلود ولا تزهق الأرواح ليستمر الاضطراب ويتجدد العذاب ويدوم للطبيعة الخداعة هذا الثوب البراق بفضل هذا الإنسان الأحمق الذى يعمل ولا يعرف لماذا ؟ ويسرع ولا يدرى إلى أين !

لا نستطيع إذن أن نفصل بين نهضتنا والأدب ، ولا بين حضارتنا والدين ، اتعاظا بالفشل المروع الذى نكبت به الحضارة الغربية ، وإيمانا بأن لنا نحن العرب رسالة روحية اصطفانا الله لأدائها جيلا بعد جيل ، ليبقى الإتصال بين السماء والأرض ، ويدوم المدد بين الله والإنسان .

سنظل مؤمنين مصدقين بما قال الله تعالى فينا « وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيداً » .

وسنعتقد دائماً أن روح العروبة هو الأدب . وحّدها بعد شتات فى القرن السادس ، ثم أحياها بعد ممات فى القرن العشرين .

وفى هذين القرنين سجل التاريخ للعرب نهضتين عظيمتين مهدت الأولى للإسلام وكانت فتحا لعالم جديد ؛ ومهدت الأخرى للسلام وستكون فاتحة لعالم أفضل .

كانت النهضة الأولى موطنها الحجاز ومبعثها مكة . ذلك لأن مكة كانت فى النصف الثانى من القرن السادس الميلاد محطا للقوافل التجارية الآتية من الجنوب تحمل البضائع من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها فى أسواق الشام ومصر . وكانت طرق مكة الموصلة آمنة لحرمة البيت ومكانة قريش ، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة آمنين ، فينزلون الأسواق ويهبطون المدن

فيستفيدون بسطة فى العلم وقوة فى الفهم وثروة فى المـال وخبرة بالحياة .

وكانوا بحكم إيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن، ورحلة الصيف إلى حوران من أشد العرب اختلاطاً بالحبشة فى الجنوب ، وبالفرس فى الشرق ، وبالروم فى الشمال . ثم كانوا على أثارة من العلم بالـكتب المنزلة : باليهودية فى يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء ، و بالنصرانية فى الشام ونجران والحيرة .

ذلك إلى أن مكة كانت فى الجاهلية كما هى فى الإسـلام موضع البيت الحرم ومكان الحج المفروض فتفد إليها قبائل العرب من أقطار شبه الجزيرة يقضون المناسك ويتبادلون المنافع . وبفضل هذا الاجتماع الدينى العام كانت تقوم سوق عكاظ السنوية فى شهر ذى القعدة على مسافة قريبة من مكة ، فيجتمع فيها الحجيج وهم فى حمى الأشهر الحرم ، وهى المدنة العامة المقدسة ، فيبيعون ويشترون . ثم تدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول والمفاوضة فى الرأى والمبادهة بالشعر والمباهاة بالفصاحة . وكان الشعراء من أمثال النابغة والأعشى ، والخطباء من أمثال عمرو بن كلثوم وقيس بن زهير ، والكهان من أمثال قس بن ساعدة وأمية بن أبى الصلت ، يقومون فى هذه السوق مقامات مشهورة للمدح والفخر والوعظ . تحرض بعض النفوس على الشر ، وتوجه بعض النفوس إلى الخير ، وتسن للفتوة العربية خلال المجد ومناهج الحمد ، وتذيع فيها تذيع وحدة الخلق والعادة واللغة والغاية .

كان أثر عكاظ فى نهضة العرب أشبه بأثر الجناز فى نهضة الأغريق . كان الإغريق يقيمون الجناز للألعاب الرياضية فى مدينة أولمبيا كل أربع سنين كلما حجوا معبد (جو بتير) كبير الآلهة . وكانوا يحرمون القتال على أنفسهم مدة الحج واللعب على نحو ما كان يفعل العرب فى الأشهر الحرم . ثم أصبح هذا

الملعب الرياضى ميدانا لرجال الفكر والشعر والخطابة والتمثيل كان له الأثر البالغ فى ازدهار الأدب الأغريقى على الجملة .

على أن عكاظا كان أثره فى نهضة العرب والأدب أقوى ومداه أبعد ، فقد كان الرواة ينصرفون منه إلى أحيائهم وقراهم وعلى ألسنتهم ما حفظوا من شعر ، وما سمعوا من قصص ، وما اكتسبوا من علم ، وما شهدوا من وقائع ، فينشرونه بين الناس فى السوامر والأندية فيتفتح الوعى وتنشأ المعرفة .

وهكذا اجتمعت الأسباب الطبيعية لنهضة عرب الشمال قبل الإسلام من احتشادهم فى هذه الأسواق ، واجتماعهم لأداء الحج ، واختلاطهم بأول الحضارات والديانات من الأمم المجاورة ، واحتفالهم بقرض الشعر وتأثرهم به ، وطموحهم إلى المجد وسعيهم له ، حتى كان من ثمار تلك النهضة أولئك الأبطال الأعلام الذين قبلوا الإسلام وفهموه وفقهوه ونصروه ونشروه وقاموا على أمره كأبى بكر وعمر وعثمان وعلى وعمرو وخالد وسعد . وليس أدل على نضج العقلية العربية فى ذلك الحين من هؤلاء . وكلهم من أقطاب الفكر والرأى والخطابة

ولسلطان الأدب على النفوس فى هذه النهضة كانت معجزة الإسلام الوحيدة هى البلاغة ، وسلاحه القاطع هو التحدى . ثم كانت من معارك الدعوة النبوية العظمى معركة الشعر . نشبت بين حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة من شعراء الإسلام ، وبين عبد الله بن الزبعرى وأبى سفيان وعمرو بن العاص من شعراء الشرك . فلما اصطدمت الدعوة بالعناد ، ووضع المشركون فى طريقها السيف ، أمر الرسول بالجهاد فكانت الثورة وكان الفتح وكان السلام . واستمر الأدب يؤازر الثورة كما آزر النهضة ، فكان يشجع القلوب بالشعر ، ويحمس الجنود بالقصص ، ويروض الأمور بالخطابة ، حتى ظهر الإسلام على الدين كله ، وتم نوره فى الشرق كله .

هذا إجمال القول فى النهضة العربية فى القرن السادس ، مهد لها الأدب ، ومهدت هى للإسلام ، وأتم الإسلام الألفة بين القلوب والوحدة بين القبائل ، ثم أشعل الثورة على الوثنية والأرستقراطية والفساد حتى طهر الأرض وحرر الناس ومدن العالم .

أما نهضة العرب الأخرى فى القرن العشرين وأثر الأدب فيها فهى موضوع الحديث التالى .

— ٤ —

نهضة العرب وثورتهم فى القرن العشرين

حدثتكم عن أثر الأدب فى نهضة العرب فى القرن السادس . ثم وعدتكم أن أتحدث عن أثر الأدب فى نهضة العرب فى القرن العشرين . وليس للأمة العربية فى تاريخها الطويل الحافل غير هاتين النهضتين : نهضة كانت بالدين انطلاقا من الجهل ، ونهضة كانت بالعلم انبعاثا من الموت . وكان الأدب فى كلتا النهضتين كما قررنا وكررنا هو الباعث الأول . كان فى الأولى ومضة المنارة التى تذهب الضلال ، وكان فى الأخرى نفخة الصور التى تسبق البعث . فكيف كان العرب بعد أن تقدموا وقدموا الدنيا ، وكيف صاروا بعد أن تأخروا وأخروا الدين ؟

كان العرب فى القرن الرابع للهجرة قد بلغوا من السلطان والعمران ما لم تبلغه من قبلهم أمة . كانت لهم فى عصر واحد ثلاث خلافات تشع الحرارة والنور فى القارات الثلاث : خلافة العباسيين ذات العلم الأسود ببغداد فى آسيا ، وخلافة الفاطميين ذات العلم الأبيض بالقاهرة فى أفريقيا ، وخلافة الأمويين ذات العلم الأخضر بقرطبة فى أوربا . وكان العالم القديم كله من شرقه إلى غربه يعيش فى ظلال هذا الملك العظيم خاضعا للعرب الحاكمين خضوع الجيش للقائد أو القافلة للدليل . فلما أخلد العرب إلى الترف ، وفقدوا بالانقسام والخصام واللهو قوة الاتحاد ، وقوة السلطان ، وقوة الدين ، وقوة العلم ، أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك والفرس والجركس والأسبان . وفعل التتار فى العراق ، والصليبيون فى الشام ، والفرنج فى الأندلس ، ما تفعله الزلازل والبراكين بالعمران المزدهر . ثم انحصر العالم العربى فى أواخر القرن الثامن عشر للميلاد فى العراق وسورية وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب . وآل السلطان والحكم فيه إلى الدولة

العثمانية سنة ١٥١٦ فحكمته بالعسف والقهر ، وأذاقته بالجهل والفقر ، وفرقت بين أجزائه بالعزل والقطيعة ، وطردت اللغة العربية من الدواوين حتى من محاكم الشريعة ، واستعملت التركية فى التعليم حتى فى دروس النحو ! ثم انقطع ما بين العرب والدين الصحيح والأدب الحر فاعتراهم ما يشبه الخدر فى الحواس فلم يشعروا بالوجود ولم يحفلوا بالحياة ، حتى غشى الأرض ما غشى من طغيان عبد الحميد ، وقاست العروبة ما قاست من اضطهاد الأتراك ، فأخذ تاريخ المجد العربى يثور فى رؤوس بعض الزعماء والقادة ، ومأثور الأدب العربى يحيا فى نفوس بعض الشعراء والكتاب . وانبعثت من وراء الرقابة الشديدة والجاسوسية اليقظة أصوات الأدباء تهيب فى خفوت وحذر بالراقدين أن يهبوا ، وبالقاعدين أن ينهضوا . وسمع الناس أول ما سمعوا صرخات العرب المسيحيين لسوء سياسة الترك فيهم ، وقسوة الحكام عليهم ، كفتح الله مراش ، ورزق الله حسون ، وأديب اسحق ، وإبراهيم اليازجى صاحب البائية المشهورة التى نظمها فى سنة ١٨٩٦ م ومطلعها .

تنبهوا واستفيقوا أيهـــا العرب — فقد طمى السيل حتى غاصت الركب
كم تُظلمون ولستم تشتكون وكم — تَستغضبون ولا يبدو لكم غضب
ألستُم من سطوا فى الأرض واقتحموا — شرقا وغربا وعزوا أينما ذهبوا
فما لكم ويحكم أصبحتُم همـــلا — ووجه عزكم بالهون منتقب
لا دولة لكُم يشــــتد أزركم — بهـــا ولا ناصر للخطب ينتدب
أقــــداركم فى عيون الترك نازلة — وحقكم بين أيدى الترك مغتصب

والقصيدة كلها على هذا النسق من استنهاض العزائم لاسترجاع المجد الذاهب ، واسترداد الحق المغصوب . وهى مثل لما كانت تنشره الصحف وترويه المجالس فى مهاجر الأحرار بمصر وأوربا وأمريكا . وكانت هذه الصيحات المذكرة

المنذرة تجد تشجيعاً من مدحت باشا والى تركية على العراق ثم على سورية ، لأنه كان يطمع فى أن يستقل بالشام كما استقل محمد على بمصر. فقويت حركة الإصلاح واتسعت دائرة المعارضة ، واشترك فيها المسيحيون والمسلمون على سواء.
ونهض يومئذ المصلح الحلبي العظيم الشيخ عبد الرحمن الكواكبي المتوفى سنة ١٩٠٢ فألف كتابيه القيمين : « طبائع الاستبداد » و « أم القرى » دعا فى الأول إلى تحرير المجتمع العربى من العادات الضارة والاعتقادات الفاسدة . ودعا فى الآخر إلى خلافة عربية يكون مقرها جزيرة العرب . فكان لهذين الكتابين أثر قوى فى انعاش الفكرة العربية قطع الترك على المؤلف من جرائهما كل سبيل وشردوه فى كل أفق .

ثم تجاوبت بأناشيد الذكرى والألم والأمل صيادح الشعر على ضفاف دجلة وبردى والأردن . فيقول الرصافى من قصيدة عنوانها : « تنبيه النيام » :

عجبت لقـــوم يخضعون لدولة يسومهمُ فى الموبقات عميدها
وأعجب من ذا أنهم يرهبونهـــا وأموالها منهم ومنهم جنودها

ويقول الزهاوى من قصيدة نظمها فى سنة ١٨٩٧ :

لقد عبثت بالشعب أطماع ظالم يحمِّله من جوره ما يحمـــل
فياويح قوم فوضوا أمر نفسهم إلى ملك عن فعله ليس يُسأل

ويقول عبد الحميد الرافعى فى طرابلس من قصيدة مطلعها :

ما تصلح الدنيا ولا ناسهـــا ما لم يل الأقوام أجناسهـــا
هبوا بـــنى العرب إلام الكرى وقد دها الآمال دهاسهـــا
طلبتم الإصـــلاح من عصبة توتّر بالإفساد أقواسهـــا
ألستم نســـل القروم الأُلى تنتعل الهـامات أفراسهـــا

فكم تقيمون على ذلة ... وروضة الصبر ذوى آسها
فجردوا العزم الذى طالما ... شق صدورا طال وسواسها

ويقول سليمان الفاروقى فى فلسطين :

بنى انهضوا واحيوا حياة عزيزة ... حياة تعيد المجد للعرب ثانيا
ألا نهضة شرقية عربية ... تزلزل أقواما وتوهى رواسيا ؟
ألا رجل ذو مرّة فيلمكم ... ويرأب صدعا فيكم بات واهيا ؟
يقوم فلا يرتد أو يبلغ المدى ... ويقضى ولكن يبعث السيف قاضيا

ثم انضم إلى أدباء العرب الثائرين على طغيان السلطان أحرار الأدباء من الأتراك أنفسهم من أمثال رضا توفيق وولى الدين يكن ، فكان من أولئك كله وقود جزل للثورة التى أشعلتها فى تركيا « جمعية الاتحاد والترقى » وكان أن أعلن فى نورها الدستور العثمانى فى سنة ١٩٠٨ ، ثم كان أن سقط فى نارها عبد الحميد فى سنة ١٩٠٩ .

وظن العرب أنهم سينعمون فى ظلال الدستور بالحرية والمساواة ولكن الظن كذب والأمل خاب ، وعاد الشعراء يقولون مع الفاروقى :

كنا نعلل بالدستور أنفسنا ... بفارغ الصبر ذاك اليوم نرتقب
حتى إذا جاء لم يحدث لنا حدثا ... ولا استجيب لنا فى مطلب طلب

واشتدت الخصومة بين العصبيتين العربية والتركية ، واحتدمت ثورة الأدب ثانية فى المجلات والصحف ، وترددت أصداؤها فى المحافل والأندية ، وتجمعت القوى المتفرقة فتألفت الجمعيات السياسية فى العواصم المختلفة كجمعية المنتدى العربى وجمعية العهد فى الآستانة ، والجمعية القحطانية والجامعة العربية فى مصر ، والجمعية الإصلاحية فى بيروت . وكلها كانت تعتمد فى الدعاية على الأدب فى شتى

ضروبه وجميع مظاهره ، حتى شبت الحرب العالمية الأولى فى سنة ١٩١٤ وكانت تركية خصما فيها لانجلترا وفرنسا وهما الدولتان الطامعتان منذ زمن طويل فى إقتطاع الشرق العربى وابتلاعه من تركة الرجل المريض كما كانوا يسمون الدولة العلية . وأراد الله جل شأنه أن يهيىء الأمور لتحرير الأمة التى اختارها لإظهار دينه وإعلاء حقه ، فأسرف الأتراك فى البغى وأمعنوا فى الجور وحكموا بالإعدام ظالمين على صفوة من أقطاب الأدب والسياسة ، شنقوهم سنة ١٩١٥ فى ساحات بيروت ودمشق ، فكان استشهادهم المروع مناحة للأدب فى كل قطر . واستغل الاستعمار الراصد هذه النكبة ، فتقدمت انجلترا إلى الحسين بن على شريف مكة فى سنة ١٩١٦ بالوعد أن تجمع له الأقطار العربية كلها تحت تاجه ، فكانت ثورة الحجاز ، وكان انخذال الترك ، وكان استقلال العرب .

كذب الإنجليز وعدهم وصدق الله وعده ، وانتهى أمرهم إلى الانتداب والأمر لله وحده .

ذلك ما اتسع له القول فى جهاد الأدب لأنهاض العرب فى هذا القرن . أما جهاده فى جمع كلمتهم وتحقيق وحدتهم فهو موضوع الحديث التالى .

— ٥ —

فضل الأدب على وحدة العرب

علة العلل في شقاء العرب وبلاء الشرق هي انجلترا ما في ذلك شك . وليس من موضوع هذه الأحاديث أن أشرح هذه العلة ولا أن أصف ما جرته علينا من انحلال وتأخر ، ومن تخاذل وتواكل ، ومن انقسام وفرقة . وحسبي أن أشير إلى وعدين اثنين من وعود الاستعمار الكثيرة قطعهما الشرف البريطاني على نفسه فكان نكبة على الشرق الأوسط كله : وعد كاذب وعده (مكمهون) للعرب سنة ١٩١٥ وكان من نتائج كذبه مهزلة الانتداب ، ووعد صادق وعده (بلفور) لليهود سنة ١٩١٧ فكان من نتائج صدقه مأساة فلسطين . رأت انجلترا وهي تصلى نار الحرب العالمية الأولى أن تستفيد من تمرد العرب على طغيان الترك فوعدت شريف مكة الحسين بن علي إذا ناصر العرب الحلفاء أن تتوجه ملكا على دولة عربية موحدة تجمع الحجاز وسورية ولبنان وفلسطين والعراق . وكانت فكرة الجامعة بعد إعلان الدستور العثماني وما أعقبه من سفه الاتحاديين منتجع الخواطر ومهوى القلوب في كل قطر من أقطار العروبة . فصدق زعماء العرب الطيبون هذا الوعد ، وحملوا نصيبهم من أوزار الحرب ، وأخرجوا الجيوش التركية من بلادهم بالسيف . وانتصر الحلفاء ، وتبوأ قائد الثورة العربية فيصل ابن الحسين عرش الأمويين في دمشق . وفي الثالث والعشرين من شهر أكتوبر لسنة ١٩١٨ احتفل العرب برفع علمهم المربع الألوان في الساحة التي قتل فيها شهداؤهم . وكان للأدب في هذا المهرجان وفي جميع البلدان هتاف بالنصر وفرح بالاستقلال وابتهاج بما من الله عليه من تحقيق أحلامه وتصديق أمانيه . وتجاوبت في الصحف وعلى المنابر شدوات الشعراء وسجعات الخطباء تحيي المجد العائد وتبارك العهد الجديد . نختار شيئا منها على سبيل المثال .

قال فؤاد الخطيب من قصيدة مطلعها :

حى الشريف وحى البيت والحرما ... وانهض فمثلك يرعى الحق والذمما
يا آل جنكيز إن تثقل مظالمكم ... على الشعوب فقد كانت لهم نعما
فالظلم أيقظ منهم كل ذى سِنة ... ما كان ينهض لولا أنه ظُلما
فمن يكن من أباة الضيم فى صمم ... فليسمع اليوم صوتا يحسم الصمما
فقد تكلم صوت النار مرتفعا ... من الحجاز يشق البيد والأكما
يا ابن النبى وأنت اليوم ناصره ... قد عاد متصلا ما كان منفصما
والتف حولك أبطال غطارفة ... شم الأنوف يرون الموت مغتنما
إيه بنى العرب الأحرار إن لكم ... فجرا أطل على الأكوان مبتسما
من ذلك البيت من تلك البطاح على ... ذاك الطريق مشت أجدادكم قدما
لستم بنيهم ولستم من سلائلهم ... إن لم يكن سعيكم من سعيهم أمما
إلى الشآم إلى أرض العراق إلى ... أقصى الجزيرة شدوا واحملوا العلما

وقال خير الدين الزركلى من قصيدة يبكى فيها الشهداء ويذكر الثأر لهم :

نعت لغة العُرب من أحكموا ... لسان قريش وتبيانها
وناحت على من بنوا عزها ... وأعلوا بها أثلوا شانها
أبى السيف إلا انتقاما لهم ... وخاف على الضيم خسرانها
أثار بنى هاشم فى الحجاز ... وأنطق فى القبر حسانها
كتائب هبت تلبى الدعاء ... وتطوى القفار وكثبانها
برمح يرن وعضب يئن ... ينبه فى الشرق وسنانها
هو الثأر أدركه الثائرون ... وأشجى فروقا وسلطانها

وقال العاملي صاحب الحماسيات من قصيدة :

أجل بزغت في الشرق شمس الحقائق برغم العدى والمزعجات الطوارق
غداة انتضى العضب المهند فيصل بكل كمي رابط الجأش صادق
لعمرك ما العرب الكرام يهولهم صليل المواضي أو دوي البنادق
ولا راعهم ماجُرعوا من مرائر وقد نصبت قدما حبال المشانق

وقال الزهاوي من قصيدته (النائحة) :

وجاءت خيول العرب تعدو وراءها بعقربة للانجليز خيول
هنالك أهل الشام صاحوا وكبروا وكبر أعلام بها وسهول
وكان لأخذ الثأر قد سار ضيغم له في مغار العابثين شبول
أغر كريم الأصل من فرع هاشم فطاب له فرع وطاب أصول

وقال رشيد أيوب من شعراء المهجر :

من أقاصي الروم نهديك السلام مع نسيم السحر
صاحب السيف الصقيل المستهاب في دياجي المحن
أنت من قوم لهم تعنو الرقاب من قديم الزمن
خضتها حربا على الباغي تدور بكماة أسد
وتركت الترك أصحاب الفجور عبرة للأبد
فأدر يا أيها الساقي الكؤوس حان وقت الطرب
واسقنا من خمرة تجلو النفوس من ظلام الكرب

واصغ للبلبل إن لاح الصباح   صاح فوق القضب
فلتعش للعز فى تلك البطاح   دولة للعـــــرب

ولم يشارك الأدب المصرى فى هذه الفرحة العامة ، لأنه كان مصروفا يومئذ إلى مجاهدة المحتلين بعد الهدنة : يؤيد موقف الزعماء منهم ، ويمهد للثورة عليهم ؛ ولأن الأدباء كان هواهم مع الخلافة مراعاة لشعور الكثرة المسلمة ، ومهاواة للأسرة التركية الحاكمة ؛ ولأن المصريين فوق ذلك كانوا يعلمون أن لأعدائهم الإنجليز يداً فى ثورة الحجاز وغرضاً من نصرة الحسين ، فلم يدخل أدبنا فى ثورة الأدب العام إلا بعد أن ضاعت الخلافة وتبلورت النهضة وتوحد العدو واتفقت الغاية .

على أن العرب لم يلبثوا أن عرفوا بعد انقضاء عام واحد على قيام دولتهم بالشام أن وعد الإنجليز مكذوب ، وأن عهد الحلفاء منقوض ، وأن الغدر بهم مبيّت . . فقد قررت عصبة الأمم ، أو جماعة الذئاب ، أن الأقطار التى انفصلت عن تركيا لما تبلغ الرشد فلا بد أن تقوم عليها وصاية من الدول الكبرى ، فانتدبت انجلترا لفلسطين والعراق ، واختيرت فرنسا للبنان وسورية . وبذلك القرار خرج العرب من ظلم معلوم إلى ظلام مجهول ، ومن استبدادِ فوضى إلى استعباد منظم ، ومن سلطان دولة ضعيفة إلى سيطرة دول قوية . هنالك عصفت النخوة فى نفوس الأدباء وفى رءوس القادة فقطرت الأقلام سما فى هجاء الحلفاء ، وسالت النفوس دما فى واقعة « ميسلون » . ولكن قدر الله غالب ، والمعتمد على غير الله مغلوب ، فانتقم الصليبيون من العرب ، وانتصر القائد جورو على الملك فيصل ؛ وتبددت فكرة الجامعة العربية فى صراحة الواقع ، كما يتبدد الحلم الجميل فى حقيقة اليقظة . وهب الشعراء يتفجعون على مسمى أخفق وأمل خاب وملك ما قام حتى تقوض . من ذلك قول الزركلى :

أبكى ديارا خلفت للجمال | أبهى مثـــال
أبكى تراث العز والعز غال | صعب للنـــال
أبكى نفوسا قعدت بالرجال | عن النضـــال
أبكى جلال الملك كيف استحال | إلى خيـــال

ثم نزل صقر قريش فيصل عن عرش بنى أمية فى دمشق ، ليعتلى عرش بنى العباس فى بغداد . فودعه الشعر محزونا على بردى ، ليستقبله مسرورا على دجلة . فالزهاوى يقول مثلا :

إنا محيوك فاسلم أيها الملك | ومصطفوك لعرش شاءه الفلك
عرش العراق ضمان للعراق وفى | تأييده الشعب والأحزاب تشترك

وكان العرب قد خرجوا من الحكم التركى الأسود ضعفاء فقراء جهلاء فلم يستطيعوا أن يدافعوا الاستعمار الأوربى عن استقلالهم ووحدتهم ، فقُسمت فلسطين ، ومزقت سورية ، واحتل العراق ، وأصبحت الأمة العربية كلها من جبل طارق إلى خليج فارس حقول استغلال ومناطق نفوذ بين دولتى الإستعمار فرنسا وانجلترا . واقتضت هذه التجزئة أن تنقطع بين العرب الأسباب ، وأن يشق على الإخوة التواصل ، فلم يعد لهم من قوة ولا جمعة إلا الأدب يتعارفون به ويستمدون منه ويجتمعون عليه . ورأى قادة الفكر وصاغة الشعر أن العروبة التى كانوا يرجون لها أن تعود كما كانت شعلة وهاجة فى العالم قد تقطعت بقرار الدول أقباسا كشموع الأطفال لا تقوى على نسم الريح ولا تظهر فى حلك الليل ، فنقلوا جنودهم وجهودهم من صراع الطورانية الجاهلة فى بغى الأتراك الاتحاديين ، إلى كفاح الآرية الجائعة فى جشع السكسونيين واللاتينيين .

فهل استطاع الأدب أن يعقد ما تفكك من العرى ، وأن يجمع ما تفرق من الكلمة ، وأن ينعش ماذوى من الأمل ، وأن يهيىء النفوس للثورة على هذه الحال ؟ ذلك ما سنحاول الجواب عنه فيما يلى .

— ٦ —

كيف تسنى للأدب أن يجمع الشمل ويمهد للثورة

قلت إن الدول المستعمرة الغادرة ، بما أخلفت من وعدها للحسين ، وبما نقضت من عهدها للعرب ، قد وضعت أيديها بعد الحرب العالمية الأولى على ما بقي فى أيدينا من تراث محمد باسم الوصاية أو الحماية أو الانتداب ، فأصبحت مراكش والجزائر وتونس وسورية ولبنان فى يد فرنسا ، ومصر والسودان وفلسطين والعراق والبحرين والكويت وعمان وعدن فى يد انجلترا ، وليبيا بولاياتها الثلاث فى يد إيطاليا . وهذا المُلك العربى العظيم كان قد آل إلى الخلافة العثمانية بعد أن سقطت الخلافات العربية الثلاث فى العراق وفى مصر وفى الأندلس ، فما زالت هذه الدول تنقص من أطرافه ولاية بعد ولاية وقطراً بعد قطر حتى أتت عليه كله بمعاهدة لوزان سنة ١٩٣٢ ، فلم يعد لأبناء العروبة بعد هذا التمزق والتفرق من وسيلة يتعارفون بها ، ولا من سبيل يتواصلون عليها غير الأدب . كانت الكتب المصرية والمجلات المصرية تجتاز الحدود المزعومة على الرغم من رقابة المحتل وإرادة المستعمر ، فتدخل المدارس فى كل قطر ، وتقتحم البيوت فى كل مدينة ، حاملة إلى الإخوة الأشتات نبضات الروح العام وومضات المجد المشترك . والأدب صلة الأول بالآخر ، ورباط الماضى بالحاضر ، وتراث الأجداد للأحفاد . وهو أرواح آبائنا وعقول أدبائنا تتدفق فى دمائنا وأعصابنا فتملأنا حياة وقوة وفخراً وأملا وعملا وحرية وعزة .

عرف كل عربى عن طريق الكلمة المكتوبة أن له من وراء الآفاق المحجوبة إخوة يقاسمونه المحنة ويبادلونه العطف ، فقويت نفسه وانتعشت آماله .

وكانت الثورة المصرية الثانية قد زلزلت أقدام المحتل الغاصب وهزت أركان الشرق الأوسط ، فحركت أبناؤها العراق فهب يقول ما قاله زعماء مصر

ويفعل ما فعله أبناء مصر ، ويطلب من الإنجليز المحتلين أن يكشفوا عن بصره الغطاء ليرى ، وأن يرفعوا عن فمه الكمامة لينطق ، وأن يعقدوا مؤتمراً يمثل الشعب العراقي ليقرر نظام الحكم ويختار رئيس الدولة ، فأبى الإنجليز عليه ذلك ، ونفوا من نفوا ، واعتقلوا من اعتقلوا . فثار العراقيون عليهم ثورة الأباة الأعزة بعد أن أفتاهم أئمتهم بالجهاد المسلح ، وغذاهم أدباؤهم بالشعر المثير .

من ذلك قول السيد باقر الشبيبي :

بني يعرب لا تأمنوا للعدى مكراً خذوا حذركم منهم فقد أخذوا الحذرا
يريدون فيكم بالوعود مكيدة ويبغون إن حانت بكم فرصة غدرا
فلا يخدعنكم لينهم وتذكروا أضاليلهم في الهند والكذب في مصرا
ومن مات دون الحق والحق واضح إذا لم ينل فخراً فقد ربح العذرا

وقول خيري الهنداوي من قصيدة يخاطب فيها وطنه :

أنت أذنبت أم بنوك أم الظلام شاءوا أن يغصبوك الحقوقا
بيتوا أمرهم بليل وجاءوك جميعاً يتلو فريق فريقا
حاولوا لا أبا لهم أن يكون الشرق كالعبد مستضاماً رقيقا
فنهضنا كالأسد في أوجه القوم لنجتث بغيهم والفسوقا

وانبث الشعراء والخطباء في الفرات وقراه يؤلبون القبائل ، ويحمسون الكتائب ، حتى رأى الإنجليز أن الثورة جد وأن مقاومتها هزيمة فأذعنوا كعادتهم لسلطان القوة ، واستجابوا على رغمهم لمطالب الأمة ، ووطأوا عرش العراق للملك فيصل فاعتلاه في أغسطس من سنة ١٩٢١ . واستقر الأمر بعض الاستقرار ؛ ولكن الأدب لم يستقر ، وإنما ظل متبرما بهذا الاحتلال ملحا في طلب

الاستقلال ساخطا على الذين يمكنون للمحتل بالسياسة المذبذبة والقيادة المستسلمة ، يحضرني من ذلك قول الرصافي من قصيدة .

من أين يرجى للعراق تقدم   وسبيل ممتلكيه غير سبيله
لاخير في وطن يكون السيف عند   جبانه ، والمال عند بخيله
والرأي عند طريده والعلم عند   غريبه ، والحكم عند دخيله

وقوله من قصيدة أخرى : يخاطب فيها المرحوم أمين الريحاني .

وإذا تسأل عما   هو في بغداد كائن
فهو حكم مشرقي الضر   ع غربي الملابن
وطني الأسم لكن   إنجليزي الشناشن
قد ملكنا كل شيء   نحن في الظاهر لكن
نحن في الباطن لا نملك تحريكا لساكن

ثم كان هذا النجاح الجزئي الذي ظفرت به الثورة المصرية والثورة العراقية قد شجع سورية على أن تطلب من فرنسا ما تطلبه كل أمة تعرف أن لها وطنا لا يملك أحد غيرها أن يصرف أمره ويقرر مصيره . ولكن الفرنسيين الذين يتبجحون بأنهم أول من ثاروا ليعلنوا حقوق الإنسان أبوا أن يعترفوا للسوريين بأنهم ناس كسائر الناس لهم وطن لا يشركون به ، واستقلال لا يساومون عليه ، وسلطان لا ينزلون عنه فكان من ذلك أن شبت الثورة السورية سنة ١٩٢٥ ولم ينطفيء لظاها إلا بسقوط الانتداب وقيام الجمهورية في سنة ١٩٣٢ .

وكان من الشعراء الذين حملوا الوقود لهذه الثورة شوقي وحافظ في مصر ، والرصافي والزهاوي في العراق ، والغلاييني والحوماني في لبنان ، وطوقان وقتي الجبل في فلسطين ، والشاعر القروي وأبو الفضل الوليد في المهجر .

وهكذا نجح الأدب فى إضرام النار على دول الاستعمار حتى صار لكل قطر من أهله دولة ، ولكل دولة مع أخواتها هدف . والهدف فى هذه المرة كان السعى لجمع ما تبدد من الشمل ، وتوحيد ما تشتت من القوة ، حتى تكون الوحدة التى تحقق الاستقلال وتضمن السيادة .

والوحدة والجماعة هما لباب العقيدة الإسلامية ؛ فالوحدة هى الأساس الذى حمل ، والجماعة هى الصرح الذى قام . كانت الوحدة هى الأساس لأنها توحيد لله وتوحيد للأمة وتوحيد للكلمة وتوحيد للسلطة وتوحيد للقبلة . وكانت الجماعة هى الصرح لأنها جمعة القلوب التى ألف بينها الله ، وجملة الشعوب التى رفع شأنها محمد .

ثم قامت سياسة الإسلام على استدامة القوة بالمحافظة على الوحدة والحرص على الجماعة . فالفرد الذى يكفر بوحدة العقيدة والأمة يقتل . والطائفة التى تبغى على جماعة المسلمين تقاتل . والصلاة إنما يعظم أمرها ويضاعف أجرها إذا أديت فى جماعة ؛ وهذه الجماعة تتكرر خمس مرات فى كل يوم ، ثم تكبر فى صلاة الجمعة كل أسبوع ، ثم تعظم فى صلاة العيدين كل عام ، ثم تضخم فى أداء الحج مرة فى كل عمر . فالوحدة إذن عمل توجبه العقيدة وتقتضيه الطبيعة . ولقد كان للصحافة الأدبية المصرية أعظم الفضل فى تهيئة النفوس لها بالتعريف والتأليف والنصح . كانت تدعو إلى الجامعة العربية لأن التكتل هو الدواء الذى عالجت به الطبيعة ضعف النمل والنحل وكل حيوان كتب عليه أن يعيش فى جماعة . وكانت سياسة الاستعمار تدعو إلى الإقليمية ، لأن التجزؤ يسهل عليه ابتلاع العالم العربى قطعة قطعة . وكان الوطن القومى فى الخمس عشرة سنة الأخيرة قد نضج وقوى فاستجاب للأدب الداعى إلى الوحدة . وتجلت هذه الاستجابة فى المجمع اللغوى ، وفى التعاون الثقافى ، وفى مؤتمر الأطباء ، وفى مؤتمر المحامين

وفى مؤتمر السيدات ، وفى مهرجان أبى العلاء ، وفى بعوث الأقطار العربية فى معاهد مصر العامية ، وفى الدعوات والرحلات ، وفى الكتب والمجلات .

ثم استرخت قيود الاستعمار وأغلاله من جراء الحرب العالمية الثانية ، فقصرت يد فرنسا ، ولانت يد إنجلترا ، وامتدت يد أمريكا ، وهددت يد روسيا . وكان من أثر هذه الظروف المساعدة أن استقلت سورية ولبنان ، وأوشكت أن تستقل مصر والعراق ، ونهضت لتستقل مراكش وتونس . وازداد التضامن والتعاون بين أمم العروبة فأسست حكوماتها جامعة الدول العربية .

وجامعة الدول العربية كانت غاية لوسيلة أدق وأشق ، وستكون بإذن الله وسيلة لجامعة أتم وأعم . وإذا كانت دسائس الاحتلال توهن من قوتها اليوم ، فإن عزائم الاستقلال ستوثق عقدتها غداً .

نسأل الله أن يرفع للشرق رأسه المفكر وهو العرب ، وأن يحفظ للعرب قلبه النابض وهو مصر .

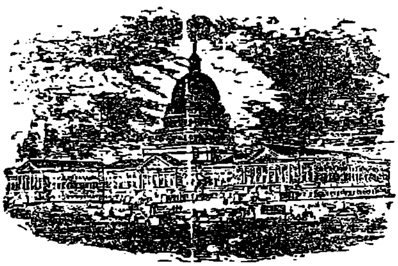

— ٧ —

أهو جوع الروح أم جوع الجسد ؟

كتب إلى مستمع كريم يقول ما معناه : تبين لى من أحاديثك عن الأدب والثورة أن الأدب هو الدافع القوى إلى كل ثورة ، لأن الأدباء بما فطروا عليه من قوة الحس وصفاء النفس يشعرون قبل غيرهم بالنقص ، ويطمحون أكثر من غيرهم إلى الكمال ، وهذا صحيح . ولكن من الصحيح أيضاً أن الجوع أو الخوف منه هو العامل الفعال فى شبوب الثورات القومية ، فكيف نوفق بين هذين الرأيين ؟

وأنا لا أجادل السائل الفاضل فى صحة العامل المادى فى الثورة ، كما أنه لم يجادلنى فى صحة العامل الأدبى فيها ، وأرى أن التوفيق بين القولين سهل . نعم إن بعضاً من فلاسفة التاريخ والاجتماع يحاولون أن يفسروا الحروب والثورات تفسيراً اقتصادياً فيرجعوها جميعاً إلى الجوع أو إلى الخوف منه .. فأما الجوع فهو كافر بالأخلاق والقيم والعواطف والقوانين والأنظمة ، وأما الخوف منه فهو علة ما يصيب الأفراد من الأثرة والشح ، وما يحمل الدول على الاستعمار والتنافس . .

ولقد جرؤ بعض المستشرقين المعاصرين من الروس فزعموا أن دعوة الإسلام كانت ثورة على رأسمالية قريش . وهذا الرأى وأمثاله إنما نشأ من الخلط بين الحيوانية والإنسانية فى بنى آدم ؛ فالإنسان باعتباره حيواناً تتحكم فيه غريزتان : غريزة حفظ الحياة ممثلة فى القوت ، وغريزة حفظ النوع ممثلة فى المرأة . وأسباب الخصومة بين الأفراد والجماعات إنما هى النزاع المستمر على هاتين الوسيلتين . كانت المرأة فى بدء الخليقة هى حواء ، وكان القوت فى حياة الجنة هو الشجرة ،

وكانت الأثرة والطمع والحسد هى إبليس ، وكانت الضحية لهؤلاء جميعاً هى سعادة آدم .

مضى هؤلاء الثلاثة يعملون فى دنيا الأرض ما يشاء القدر ، يخلقون التنافس لتنشط عناصر الحياة ، ويوجدون الخلاف لتتفق عوامل الموت ، حتى قال ابن أبى الحديد شارح نهج البلاغة : « لم تسل السيوف إلا لوجه أصبح من وجه ، ولقمة أسوغ من لقمة » .

على أن اللقمة كانت أشد الثلاثة إيقاداً لنار الخصومة ؛ لأن الفرد أو الشعب يصاب فى حريته فيصبر ، ويؤذى فى كرامته فيستكين ، ويفتن عن عقيدته فيرضى ؛ ولكنه إذا حرم الرغيف انقلب ضارياً كالوحش ، جارفاً كالبركان . وكان الإمام مالك بن أنس رضى الله عنه يذكر عثمان وعلياً وطلحة والزبير فيقول : « والله ما اقتتلوا إلا على الثريد الأعفر » ويريد بالثريد الأعفر الخبز المفتوت فى مرق اللحم الدسم . وإذا تقصينا أسباب الصراع بين أمم الشرق وأمم الغرب ، أو بين الرأسمالية والاشتراكية ، لا نجد إلا السبب الذى قاله كثير بن شهاب لغلامه وقد طلب منه الطعام يوماً فقال له : ما عندى إلا خبز وبقل : « ويحك ! وهل اقتتلت فارس والروم إلا على الخبز والبقل ؟ » وكل ذلك حق لا نزاع فيه إذا اعتبرنا ابن آدم حيواناً ليس غير ، له معدة وليس له قلب ، وله شهوة وليس له عقل . أما إذا اعتبرناه إنساناً فإنه ينزل من خلق الله فى المنزل الوسط بين البهيم والملاك ، فيكون بماديته مرتبطاً بالأرض ، وبروحيته متصلا بالسماء . وبهاتين الطبيعتين فيه يشارك الحيوان فى رغائب جسده فيثور أو يهدأ تبعاً لما يجد فى حسه ، ويشارك الملاك فى رغائب روحه فيسخط أو يرضى تبعاً لما يجد فى نفسه . وكلما بعد همه وارتفع هواه ربأ بنفسه عن مواطن الذل ، وسما بعزمه إلى معالى الأمور ، فيطمح إلى أبعد من المال ، ويسعى لأكثر

من القوت ، ويغضب لما هو أشد من الفقر ، ويثور لما هو أعظم من الجوع : يطمح إلى العلا ، ويسعى للمجد ، ويغضب للكرامة ، ويثور للحرية والإنسان يظل حيوانا ما دام يكفيه من العيش قضاء شهوته . والرقيق يظل عبداً ما دام يغنيه طعام سيده عن حريته .

ولا خير فيمن كان غاية همه من العيش أن يلقى لبوساً ومطعما

وقد عبر الملك الشاعر الثائر امرؤ القيس عن المطمع الأسمى للنفس الرفيعة ، والمثل الأعلى للحياة الكريمة فقال :

ولو أن ما أسعى لأدنى معيشة كفانى ولم أطلب قليل من المال
ولكنما أسعى لمجد مؤثل وقد يدرك المجد المؤثل أمثالى

نعم ، لو كان امرؤ القيس قد قنع من حياته بالنصيب الأخس لكفاه سرح من الإبل أو قطيع من المعز ، ولكنه ركب ما ركب من غمرات الهول ، وكابد ما كابد من ويلات الحرب ، ليدرك مجداً غاب ، ويرجع ملكا ذهب .

فالثورة إما أن يبعثها الحس الحيوانى فى الناس وإذن تبدأ بها العامة ، وإما أن يبعثها المعنى الإنسانى فيهم وإذن تبدأ بها الخاصة . وسواء أبدأت بها العامة أم بدأت بها الخاصة ، فإنها تنتهى فى الغالب إلى أن تكون ثورة الفريقين جميعاً . وإن لنا فى ثورتنا الثانية على الاحتلال والاستعباد ، وفى ثورتنا الثالثة على الطغيان والفساد ، أصدق الشواهد على ذلك .

ثارت عامة الشعب على الإنجليز فى سنة ١٩١٩ لأنهم استغلوهم وقتلوهم . سخروا قوات شبابهم وأقوات دوابهم ليمونوا بها الجيوش فى الحرب ، وغصبوا حميرهم وخيولهم وبغالهم ليحملوا عليها عتاد الحرب فهلك من هلك من الأنفس ، وضاع ما ضاع من الأموال ، فتنبه من كانوا غافلين من الفلاحين إلى أن هؤلاء الدخلاء الذين سلبوهم رزقهم وثروتهم ، هم الذين سلبوهم وطنهم وحريتهم ،

فصرحوا لهم بالشر ، وتفجروا عليهم بالغضب ، فقطعوا المواصلات فى الطرق والأنهر ، وقاتلوا الإنجليز فى المدن والقرى .

ثم تلاقت فى هذه الثورة قوة الأدب من أعلى وقوة المادة من أسفل ، فظفرنا بإلغاء الحماية وإعلان الدستور .

ثم ثار الجيش فى سنة ١٩٥٢ على طغيان الملك وفساد الحكم وفجور الغنى ، وتبعهم الشعب ، لا لأنه أصيب فى شبابه وأقواته ومواشيه ، ولكن لأن وعيه كان قد نضج ، ورشده كان قد اكتمل ، ومثله كان قد علا ، فرأى أنه أمة من الناس يصدق عليه قول الله تعالى : « ولقد كرمنا بنى آدم وحملناهم فى البر والبحر ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلا » ثم جرى فى خواطر خاصته معنى الحديث المحمدى المأثور : « كيفما تكونوا يول عليكم » . فأقبل بعضهم على بعض يتساءلون . أنحن من الفجر والفحش والضلال والانحلال والعفن بحيث يتولى أمورنا ملك داعر كهذا الملك ، وحاشية فاجرة كهذه الحاشية ، وحكومة فاسدة كهذه الحكومة ؟ ولكن الأجوبة التى انبعثت همساً من أفواه العامة إلى آذان الخاصة أقنعت الشباب الأحرار من قادة الجيش أن الوطن سليم وإنما المرض فى زعمائه ، وأن الشعب صالح وإنما الفساد فى كبرائه ، فخافوا على مصيره قول الله تعالى : « وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا » فثاروا على هذه الحال وأخذوا ذاك الملك الخليع وألقوه فى البحر ، وقبضوا على الحاشية الماجنة وطرحوهم فى السجن ، واتقوا الساسة المريبين فحجزوهم فى المعتقل ، وفرزوا الموظفين الفادرين ورموهم فى الشارع . ثم فتحوا أبواب الصلاح والإصلاح على عهد جديد فيه العزة للوطن ، والكرامة للمواطن ، والعدالة لكل مظلوم ، والرعاية لكل عامل ، والعناية بكل ضعيف ، حتى شعر كل مصرى بأنه ارتفع

إلى مقام الإنسان الكريم الحر ، فأرضه له وحكامه منه وسعيه لنفسه وزمامه بيده .

فالثورتان كما يلاحظ المؤرخ الاجتماعى اختلفتا فى الأسباب المباشرة والوسائل المؤدية والأيدى البادئة على حسب اختلافهما فى البواعث المادية والأدبية ، وفى آثار تلك البواعث فى نفوس العامة والخاصة ، ولكنهما اتفقتا فى النتائج القريبة ، والغايات البعيدة ، والفكرة الجامعة ، على حسب اتفاقهما فى الخير العام والوطن المشترك والغرض الواحد . فإذا قلنا إن ثورتنا بعد الحرب العالمية الأولى كانت لعوامل اقتصادية ساعدتها عوامل أدبية لانجاوز الحق: وإذا قلنا إن ثورتنا بعد الحرب العالمية الثانية كانت لعوامل أدبية ساعدتها عوامل اقتصادية لانخالف الواقع . وما يصدق على ثورتينا يصدق على كل ثورة . ومادام ابن آدم خاضعاً فى بعض حالاته لمطالب الجسد وفى بعضها الآخر لمطالب الروح ، فلابد أن تكون بواعث الثورة فيه إما جسدية كالجوع ، وإما روحية كالعبودية . ولم تجدوا ولن تجدوا شراً على الإنسانية من هذين الشرين ، ولا أبعث على العداوة والحرب من هاتين البليتين .

حياتنا الفكرية بعد الثورة

— ١ —

كيف كانت حياتنا الفكرية قبل الثورة

حدثتكم فى عام الجلاء الذى انقضى عن أثر الفكر فى الثورة ؛ وسأحدثكم فى عام الرخاء الذى بدأ عن أثر الثورة فى الفكر . وليس الأثر كما تعلمون من طبيعة واحدة . أثر الفكر فى الثورة طبيعى مباشر، كأثر الماء فى الإنبات وأثر النار فى الإنضاج وأثر النور فى الهداية . وأثر الثورة فى الفكر تبعى غير مباشر، كأثر تقسيم الوحدة الصناعية أو تثليث الدورة الزراعية فى الرخاء العام . فالشأن فى فكر المصلح أو الأديب أن ينبه الغافل إلى أنه حى ، ويشعر الجاهل بأنه إنسان . فإذا أدرك الأفراد يوماً أن لهم حرية تقيد وكرامة تهان وحقوقاً تغصب أبوا الانقياد وثار الشعب . والشأن فى ثورة الأمة أو الجماعة أن تثور على طغيان ملك أو فساد حكم أو استعلاء طبقة أو عدوان فقر . فهى تعنى أول ماتعنى بإزالة ما ترك الاستبداد والفساد والترف والفاقة فى سياسة الدولة وفى حياة الأمة من التخلف والتعسف والتفاوت والبؤس ، ولذلك بدأت الثورة المصرية بعلاج المسائل السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى وقت واحد . فأقامت نظام الحكم على الأساس الشعبى الثابت ، وعالجت معضلة السودان بالعلاج الناجع الحاسم ، وحلت مشكلة الاحتلال بالجلاء المطلق الناجز ، وكفكفت عادية الأحزاب بالأمر القوى الحازم ، وقوضت صرح الإقطاع بتحديد الملكية العاهل . ثم رفعت قواعد العمل المثمر ، ووسعت دوائر الإنتاج الضخم ، ويسرت الأداة والحياة للعامل والفلاح لأنهما عماد الثروة ، ووفرت العتاد والاستعداد للجيش والشرطة لأنهما عدة الوطن .

كل ذلك وطأته الثورة ورأت أنه أحق بالتقديم وأولى بالتحقيق لأنه النتيجة المحتومة لها والغاية المقصودة منها ، ولأنه النظام الذى سيتسق عليه كل نظام ، والإصلاح الذى سيشتق منه كل إصلاح .

ولقد تساءل رجال الفكر فى الأمة من علماء وأدباء وفنانين : ما نصيب الفكر من هذه الثورة ؟ وأين يقع مكانه من مجلس الإنتاج ؟ ومتى يحين زمانه فى عهد الإنشاء ؟ وكيف يكون حاله فى اطراد هذه النهضة ؟ أيمكن أن يعيش الشعب من غير روح ، وأن يسير الجيش من غير موسيقى ، وأن يثمر العمل من غير علم ، وأن تسمو النفس من غير أدب ، وأن تجمل الحياة من غير فن ، وأن يتقدم الناس من غير مثل ولا غاية ؟

ليس من المعقول أن يغفل القادة شئون الفكر ورجال الفكر ، ولكن سياسة البناء والإنشاء التى بدأت بها الثورة تجعل بطبيعتها الماديات ضرورة وحاجة ، وتجعل أكثر المعنويات كمالا ومتعة . فإذا قام البناء وتم على الوضع الذى تريده نظرت بعد ذلك فى الروح الذى يسكنه ، وفى العقل الذى يدبره ، وفى الذوق الذى يزينه ، وفى الحب الذى يبقيه . وها هى ذى قد أخذت توجه عنايتها إلى التربية والتعليم ، وتبسط رعايتها على الصحافة والمحاماة . وستمد هذه الرعاية وتلك العناية إلى كل عمل من أعمال الفكر وإلى كل فن من فنون الثقافة . وليس من شك فى أن حياتنا الفكرية بعد الثورة ستنهض تبعاً لنهوض حيواتنا الأخرى . ولكن نهوضها إذا ترك لهذه التبعية وحدها سيكون متعثراً بطيئا لا يتفق ولا يتسق مع هذه النهضة الثورية العامة . فلا مناص إذن من أن يضع القادة والمتخصصون لإنهاض الفكر المصرى سياسة محددة الخطة ، معينة الغاية ، لتستطيع أن تجدد العقلية العربية وتؤهلها للتوجيه الروحى والأدبى والعلمى والفنى والاجتماعى الذى يوافق مبادىء الثورة ويطابق حقيقة الإسلام ويلائم طبيعة الشرق ، ولا يتعارض فى الوقت نفسه مع المذاهب السليمة التى تجرى عليها

حضارة الغرب . هذه السياسة الفكرية تحتاج فى درسها ووضعها إلى الآراء التى أنضجها الزمن ومحصها العلم وسددتها التجارب وأفادتها الأخطاء . وعندنا ولله الحمد ثروة مدخرة منها فى رءوس النابغين فى كل فرع من فروع المعرفة . والمهم أن يجد أولو الأمر الطريقة المثلى للانتفاع بهذه الآراء ووضع ما صح منها موضع التنفيذ العاجل لتتساير قوى الأمة كلها فى سبيل واحدة على نظام واحد .

ولم يكن الركود والجمود والفساد والفوضى مقصورة فى العهد القديم على النواحى التى ثار عليها الجيش ؛ ولكنها كانت فى الواقع شائعة فى جميع النواحى وعلى الأخص فى ناحية المدرسة ، فإن المفروض فى المدرسة أن تكون مربى للنشء ومصدراً للثقافة ومنشأ للفكر ، ولكن المدرسة المصرية لا تزال على الوضع الذى أنشأها عليه كاهن الاستعمار الإنجليزى « دنلوب » : تعلم ولا تربى ، وتحفظ ولا تفقه ، وتهيء للشهادة لا للثقافة ، وتخرج للوظيفة لا للحياة .

ولقد حاول المعلمون الذين نشئوا على هذا الأسلوب أن يعدلوا المنهج ويغيروا الطريقة ويرسموا السياسة ، ولكنهم ظلوا أكثر من ثلث قرن يجربون ويفشلون ويبنون ثم يهدمون ، وتتوالى الوزارات ويتعاقب الموظفون فينقض الخلف ما أقامه السلف ، ويخطىء هذا ما استصوبه ذاك ، حتى أصبحت المدارس حقولا للتجارب نجد فيها الخطأ والاضطراب ، ولا نجد الاستقرار ولا الصواب . وكان غرس هذه الحقول التى كابدت هذه الآفات وقاست تلك المتناقضات هو هذا الجيل الذى أنقذته الثورة .

كان هذا الجيل ثمرة من ثمرات الاحتلال نشأه المستعمر أو أذنابه على الرضا بالدون ، فاستكان للذل ، واستنام للظلم ، وتلقى رسالة العلم والدين فلم يعرف كيف يبلغها ، وحمل أمانة الأدب والفن فلم يدر كيف يؤديها . وتولى أمر الإرشاد والتوجيه فى الصحافة والتمثيل فالتبست عليه الوجهة والتوت فى لسانه

اللغة ، واستعصى على قلمه البيان ، فانصرف عن الفصحى إلى العامية ، وتحول من الفن إلى التهريج ، وآثر الثقافة الضحلة على الدراسة العميقة ، واستحب القراءة اللذيذة على القراءة المفيدة . ولولا أن الله يصطفى من كل جيل قوماً يعلمهم الكتاب والحكمة ، ويلهمهم الأدب والفن ، لينفعوا وطنهم بما عُلموا ، ويمتعوا قومهم بما أُلهموا ، لكان حالنا أسوأ من هذه الحال وحاضرنا شراً من هذا الحاضر .

لقد كان من آثار ذلك العهد القديم العقيم أن تمكنت الأمية فى العامة ، وتفشت العامية فى الخاصة . وإذا كانت الأمية كل الجهل فإن العامية بعض العلم ، وبعض العلم كـكل الجهل لا يستقيم عليهما فكر ولا ينتظم بهما عمل .

ومن آفات الحياة الفكرية فى مصر تعدد الثقافات ، فهى شرقية وغربية ؛ والشرقية قديمة وحديثة ودينية ومدنية ، والغربية فرنسية وانجليزية وألمانية وأمريكية . ولكل ثقافة من هذه الثقافات مذاهب وعقائد وتقاليد وأساليب تختلف عن الأخرى . والتعليم الأساسى عندنا ليس من القوة بحيث يجعل من هذه الثقافات المتعددة ثقافة مصرية واحدة ، فيها أثرنا البارز وعليها طابعنا المميز . فإذا أضفنا إلى تعدد الثقافات بتعدد المناهج ، وتنوع العقليات بتنوع الأجناس ، تبينا العلة فى أننا لا نتحد فى مطلب ، ولا نتفق فى شعور ، ولا نجمع على رأى . ومنذ أكثر من نصف قرن قال الإمام الشيخ محمد عبده : اتفق المصريون على ألا يتفقوا .

ومن الحقائق المقررة أن هذا الاختلاف الذى شتت الوحدة وبدد الجهود كان من أقوى العوامل فيما أصاب مصر من تخاذلها فى الشدة ، وتواكلها فى الرخاء ، وضعفها أمام المستعمر والحاكم ، وتخلفها فى طريق الإنشاء والبناء .

والرجاء المعقود بأولى العزم من رجال الثورة أن ينظروا فى حياتنا الفكرية باعتبارها رواسب مما خلفته عهود الظلم والظلام فى نفوس هذا الشعب . ولعلهم أدركوا وهم يعالجون أمورنا العامة بالعلاج الصواب والفهم المحقق أن اختلاف العقلية كان سبب اختلاف الحكامة فيما يجب الاتفاق عليه ولا يجوز الافتراق فيه . « إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » وإن نفوسنا ستتغير ، وإن عقولنا ستتجدد ، وإن نهضتنا ستبلغ الكمال لا محالة . إن البناء على غير أساس لا يقوم ، وإن الإصلاح بغير إيمان لا يدوم .

هذا إجمال ما كانت عليه الحال فى حياتنا الفكرية . وسأحاول فى الحديث المقبل أن أجمل وصف العلاج لهذه الحال .

— ٢ —

المدرســـة

إذا كانت أصول الحياة المادية تنبت فى الحقل والمصنع ، وأصول الحياة الخلقية تولد فى البيت والبيئة . فإن أصول الحياة الفكرية تنشأ من المدرسة والكتاب . وإذا حرصت الثورة على أن توفر للحقل والمصنع وسائل الإنتاج ، وأن تهيء للبيت والبيئة عدد التنشئة ، فإنها ستحرص كل الحرص على أن تمهد المدرسة والكتاب سبل التثقيف . ذلك لأن الجهل هو علة العلل فى اضطراب الأسرة وانحطاط البيئة وفساد المجتمع وضعف الرأى العام ، فإذا وفقت الثورة بالفعل فى أن تمحو الأمية وتنسخ الجهالة خف عنها عبء الإصلاح باعتماد كل امرىء على نفسه فى تدبير عيشه من طريق الكفاية فلا يكون فقر ، وفى علاج بدنه من طريق الوقاية فلا يكون مرض ، وفى تهذيب خلقه من طريق الدراية فلا يكون شر . والمدرسة لم تستطع بعد قرن وربع قرن أن تنفى الأمية فى مصر إلا عن نحو ثلاثين فى المائة من الذكور وعشر فى المائة من الإناث. وإذا كانت الوزارة التى سماها الاحتلال الأنجليزى وزارة المعارف قد أخفقت فى تأدية رسالتها هذا الاخفاق ، فإن الوزارة التى سمتها الثورة المصرية وزارة التربية والتعليم ستجعل من إخفاقها نجاحا ومن أخطائها عبرة . وهى الآن بسبيل أن تتخذ من التعليم الالزامى حلا حاسما لمشكلة الأمية المزمنة . ولكن ماذا تستطيع الثورة أن تصنع لهؤلاء السبعين فى المائة من الزراع والصناع والعمال والباعة ممن فاتتهم فرصة التعليم فى الصغر حتى جاوزوا سن الدراسة وهم سواد الأمة وعماد الدولة وعدة الإنتاج ؟ تستطيع ولا ريب أن تدفع عنهم معرة الجهل بادخال عنصر

الجد فى مدارس محو الأمية ؛ فقد كانت فيما مضى اسما لا معنى له وعبثا لا جدوى منه وادعاء لا دليل عليه . فإذا عمم هذا النظام فى المدن والقرى ، وأخذ القائمون على تنفيذه بالمراقبة والمحاسبة ، وحُشد له العامة عن طريق الإغراء المادى والإكراه غير المباشر ، كأن تفرض للمنتهين والمتفوقين جوائز مالية ، وأن يشترط على طلاب الرخص والعمل الألمام بالقراءة والكتابة ! وإذا تولت وزارة الدفاع تعليم الجنود فى جميع الأسلحة مبادىء المعرفة ، وحملت الحكومة الشركات على أن تجعل الترقية وقفا على العمال القارئين ، رجونا بذلك أن تموت الأمية وأن يحيا الوعى .

كذلك فشلت المدرسة القديمة فى تخريج القارىء الذى يقرأ عن فهم ، والكاتب الذى يكتب عن علم ، والمفكر الذى يفكر عن أصالة ، لأن المنهج المقرر طويل متشعب ، والزمن المقدر قصير موزع ، والفصل المحدد مزدحم مهوش ، والمدرسون مضطرون إلى الإلمام دون التعمق ، والتلاميذ مدفوعون إلى الاختصار دون التوسع . فهم يقنعون من العلم بالقدر الذى ينقلهم من سنة إلى سنة أو من شهادة إلى شهادة . فإذا ما تخرجوا تبخر من رءوسهم ما حفظوه وعادوا كما بدأهم الله أميين لا يقرأون — إذا قرأوا — إلا السهل ، ولا يطلبون هذا السهل إلا فى قصة عامية تخدر الشعور ، أو فى مجلة فكاهية تنبه الغريزة . لذلك كثر التخريج وقل النبوغ ، واتسع التعليم وضاق العلم . وإذا كان فى النية — كما علمت — أن تنشىء وزارة التربية والتعليم مجلسا للإنتاج الفكرى على غرار مجلس الإنتاج الاقتصادى ينظر فى عيوب التعليم الموروثة فيعدل المنهج على النحو الذى يؤدى إلى تخريج المتعلم والعالم والمتأدب والأديب والفنى والفنان ، ويعد المعلم على الطراز الذى يربى الشباب على حب

العلم وإدمان القراءة وطلب الكمال ، ويؤلف الكتاب على الوضع الذى يساعد على تعمق الأصول وتقصى الفروع وتقريب البعيد ، رجونا أن تهيأ لنا حياة فكرية أرقى ونهضة علمية أوسع . أما تعدد الثقافة وما يجره من تنوع العقلية فعلاجه أن يجرى التعليم الابتدائى والثانوى على منهاج واحد فى المدارس الأجنبية والوطنية ، وفى المعاهد الدينية والمدنية . ثم يختلف فى التعليم العالى بعد أن تكون عقليات النشء قد تكونت على نمط متماثل وإدراك متقارب . ولعل التعليم الأزهرى هو الذى يفرق بين عقليات الشباب على مدى أوسع من مدى غيره ، لأنه يسلك بالناشىء وهو فى سن الحداثة مسلكا يختلف عن مسلك التعليم المدنى فى المنهج والطريقة والكتاب . وقد اقترحت منذ سنين علاجا لهذه الحال ، أن يلغى التعليم الابتدائى من جميع المعاهد الدينية ليلقى بمقاليده إلى وزارة التربية ، تلزمه وتقسمه وتممه على الوجه الذى تراه . وذلك بدء الوحدة الثقافية بين أبناء الأمة . ثم تجعل المعاهد الدينية فى القاهرة والأقاليم مدارس يدخلها حاملو الشهادة الابتدائية العامة ، وتعلم فيها اللغات والرياضيات والآداب والعلوم على منهج وزارة التربية . وفى أول السنة الثالثة منها يتجه الطلاب اتجاهين على حسب مرادهم واستعدادهم : إما اتجاها إلى الدين وعلومه، وإما اتجاها إلى اللغة وعلومها . فإذا انقضت السنوات الدراسية الخمس تقدم طلاب الشعبتين إلى امتحان الشهادة الثانوية مع سائر اخوانهم من جميع المدارس ، يمتحنون معهم فيما يتفقون فيه ، وينفردون انفراد شعب التوجيهية فيما اختصوا به .

ولقد كان من جراء هذا التعليم السطحى الناقص المختلف أن اتجه تفكير نا اتجاهات متعارضة لا تتساوق ولا تتقابل ، بعضها إلى اليمين ، وبعضها إلى

اليسار ، وأكثرها إلى الخلف . والتقدم على مثل هذه الحال متعذر أو بطىء . وهذا التعليم نفسه كان العلة فيما كنا عليه قبل الثورة من الضلال والحيرة حين تفرقت السبل وتعدد الأدلاء ، وسار بعضهم وراء السلطان ، وبعضهم وراء الشيطان ، فتنازعوا الزعامة وتجاذبوا الأزمّة ، فأخرجنا هذا من مذهب إلى مذهب ، وصرفنا ذاك من مطلب إلى مطلب . حتى إذا انكشفت عن عيوننا الغفلة وجدنا أنفسنا بعد الجهد الجاهد ندور حول الموقف الذى بدأنا السير منه ! ذلك لأننا عُنينا بالتعليم قبل التربية ، وبتعليم الابن قبل تعليم البنت ، فكان من أثر هذا الوضع المقلوب أن نبغ فينا رجال لا يقلون فى ضروب الثقافة عن أمثالهم فى الغرب ؛ ولكن خلو المدرسة من المربى القادر الذى يعلم ، وافتقار البيت إلى الأم المثقفة التى تربى ، أضاعا فى المتعلمين ثمرة العلم والنبوغ ، ففاتتهم الكفاية عند التطبيق ، وخانتهم الشجاعة عند العمل ، وفارقهم الضمير عند الواجب . وإن فى إصلاح المدرسة المرجو ، وفى تعديل المنهج المنتظر ، وفى توحيد الثقافة المقترح ، وفى إنشاء مجلس الانتاج الفكرى المعد ، لعلاجا أدبيا شافيا لأدواء الماضى ، ونظاما تربويا صالحا لبناء مجتمع يكون فيه الدين قائما والضمير حاكما والعمل عقيدة والإحسان طبيعة والواجب مرعيا والمسؤولية مفروضة . وحينئذ ينتظم وضعنا الشاذ ، ويتسق وجودنا النافر ، ونموت من الهزال مطايا الرجعية الذميمة .

— ٣ —

اللغـــة

كان حديثى الماضى عن المدرسة فى العهد القديم وسوء أثرها فى حياتنا الفكرية والأدبية ، وعما نرجوه لها فى هذا العهد الجديد السعيد من إصلاح عاجل شامل ينتظم المنهاج والكتاب والمعلم . أما حديثى اليوم فعن اللغة وصلتها بالفكر وخطرها فى النهضة وأثرها فى الوحدة ، فإن الكلام من حولها يكثر ، والرأى فى أمرها يختلف . وما كان لكثرة الكلام عنها داع ولا لاختلاف الرأى فيها موضع ، لولا أن فوضى الأدب فى مصر قد جعلت من اللغة العربية وأدبها مسألة تريد الجواب ومشكلة تطلب الحل . ولهذه المسألة أو المشكلة أصلان .. الاستعمار والجهل .. أما الاستعمار فلأنه رأى أن الرابطة بين المسلمين على اختلاف الأقطار وتباعد الديار هى الدين واللغة . وما دامت أمة محمد روحا واحدا بالإسلام ، ولسانا واحدا بالعربية ، فإن استغلالها موقوت وإن طال ، وإن استقلالها آت وإن تأخر .

لذلك سعت فرنسا سعيها الدائب فى الجزائر ، لفتنة البربر عن دينهم بإصدار الظهير المعروف ، وقطع العرب عن لغتهم بطردها من المدارس والدواوين ؛ ولكن دين الله كان أقوى من ظهير فرنسا ، ولغة المصحف كانت أبقى من لغة السيف .

واكتفت إنجلترا على عادتها من الدهاء والكياسة بمحاربة الفصحى فدعت إلى العامية بلسان موظفيها ومبشريها ومستشرقيها ، لأن اللغات العامية تختلف فى البلاد العربية اختلافا شديدا يكاد يجعل كل لهجة منها لغة مستقلة . وإذا انهزمت أمامها اللغة المشتركة وهى الفصحى استحال

التفاهم وضعفت العقيدة وانقطعت الصلة وتفرقت الوحدة وتبددت القوة واستطاع المستعمر أن يبتلعها قطعة قطعة ، ولكن هذه الدعوة فشلت بضعف الاستعمار فى الشرق وقوة الوعى فى العرب .

وأما الجهل وهو الأصل الآخر لمشكلة اللغة العربية فقد خلف الاستعمار فى هذه الدعوة المجرمة .

والمراد بالجهل جهل أبناء العربية بها ، وعزوفهم عن علومها وأدبها . وهو جناية المدرسة القديمة ، فقد فشلت كما قلت فى تخريج القارىء الذى يقرأ عن فهم ، والكاتب الذى يكتب عن علم ، والمفكر الذى يفكر عن أصالة . وليس أدل على هذا الفشل من أن الطالب يتعلم النحو عشر سنين دأبا ، ثم لا يستطيع بعد ذلك أن يعبر عن فكره تعبيرا صحيحا لا بلسانه ولا بقلمه . فإذا دفعه استعداده الأدبى إلى الكتابة آثر العامية على الفصحى ، ودعا إلى التحلل من القواعد والقيود ليجعل الفوضى نظاما والخطأ مذهبا والعجز شركة . وعلة هذا الفشل هى النحو نفسه ، فإن فيه من التناقض والشذوذ وتعدد الأوجه وتباين المذاهب ما ينفر الطلاب منه .

والذين صبغوه بهذه الصبغة هم الرواة الذين رادوا البوادى وشافهوا الأعراب ، ودونوا كل ماسمعوه ، فاجتمع لهم بذلك المترادفات والاضداد وتعدد الجموع والصيغ للفظ . واختلاف النطق للكلمة . وكان النحاة مضطرين إلى أن يمطوا قواعدهم لتشمل هذه اللحون وتستوعب تلك اللهجات ، فأغرقوا القواعد فى الشاذ ، وأفسدوا الأحكام بالاستثناء ، حتى ندر أن تستقيم لهم قاعدة أو يطرد عندهم قياس . وزاد فى هذه البلبلة أن أعاجم النحاة أسرفوا فى التعليلات والتقديرات حتى جعلوا النحو

والصرف ضربا من الرياضة الذهنية والقضايا الجدلية التى لا يصلها باللغة سبب ، ولا يقوم عليها فن ولا أدب . فإذا كان القائمون على اللغة العربية بوزارة التربية والتعليم ينظرون فى النحو والصرف على أنهما قواعد للغة واحدة ولهجة واحدة ، فيقتصر منهما على القواعد الثابتة التى تحفظ هذه اللغة وتقوّم تلك اللهجة ، على شرط ألا تجرد علوم العربية من خصائص القوة والخصوبة والبراعة ، وألا تُجعل بالاختصار أشبه بالهيكل العظمى ، فيه الخفة والبساطة والشكل ، وليس فيه العضل والعصب والروح . وإذا كانوا يعيدون النظر فى علوم البلاغة بعد أن اختلفت مذاهب القول ، وتعددت أغراض الكتابة ، واستحدثت المقالة والقصة والرواية ، فيصلح منها الفاسد ، ويكمل الناقص ، ويفصل المجمل ، لتتسع لأغراض الحياة ومقتضيات الحضارة ومطالب العصر ، وإذا يسرت الحكومة لمجمع اللغة العربية الوسائل لنشر ما وضع من مصطلحات لتوسيع اللغة ، وتنفيذ ما اتخذ من قرارات لتيسير النحو ، رجونا أن تسفر جهود الثورة عن إصلاح لغوى كامل شامل يحبب اللغة إلى الطلاب ، ويسهل الكتابة على الكتاب ، وينفى عن الشباب معرة الجهل بلغتهم وأدبهم فلا يدعون إلى اللغة العامية ، ولا يتمردون على الآداب العربية . وليس من شك فى أن قادة الثورة الذين يتزعمون اليوم نهضة العروبة ووحدة الإسلام سيولون هذا الإصلاح اللغوى ما يستحقه من الجد والجهد والعناية ؛ لأنهم يعلمون علم اليقين أن اللغة الفصحى هى عماد الثقافة الإسلامية ورباط الجامعة العربية ، وأن أدبها هو التراث الروحى المشترك الذى يثور فى دمائنا لننهض ، ويصرخ فى آذاننا لنتحد ، ويشتد فى حدائنا لنلحق . .

وفى اعتقادى أن أصل الأصول فى الإصلاح اللغوى أن تصلح

الطريقة التى تعلم بها اللغة فإنها لاتزال تعلم باعتبارها ألفاظا مفردة وقواعد مجردة لاتتصل بالعقل ولا بالنفس ولا بالحياة . وكان الطريق الأمثل أن تعلم على أنها الوسيط الذى تتمثل فيه الأفكار والآراء ، فنحن لانفكر إلا بلفظ ، ولا نلفظ إلا بفكر . والتلميذ منذ الحداثة يسمع الفكر باللغة ويقرؤه باللغة ويبرزه باللغة . فالتلازم بينهما شديد والتفاعل بينهما ظاهر وهذا هو الفرق بين لغة نتكلمها منذ الصغر ، ولغة نتعلمها فى الكبر . فالعربى إذا تعلم الفرنسية مثلا وأراد أن يعبر بها فكر أولا بلغته الأصيلة ، ثم ترجم فكره إلى اللغه الدخيلة .

وهذا يوجب على المعلمين أن يصلوا فكر الناشىء بالفصحى فى جميع أطوار عمره المدرسى ، فيسمع بها دروسه فى كل مايتعلم ، ويؤدى بها أفكاره فى كل مايكتب . ثم ينشأ للطفل أدب قائم بذاته يتألف من الحكايات والأساطير المنتزعة من أدب الشعب ، تيسر عليه اللغة وتحبب إليه القراءة وتضيق فى ذهنه الفرق بين لغة الكتابة ولغة الحديث . ثم يستعان على تقويم لسانه وتقوية ملكته بالأناشيد القصيرة الموقعة ، والمسرحيات البسيطة المنوعة . فإذا بلغ طور المراهقة وكان قد نشأ فى هذا الجو الجميل من القصص والشعر والغناء والتمثيل ، طلب المزيد من ذلك فى دروس الأدب ، فتحلل له أبلغ الروائع ليذوق ، وتشرح له أجمل النماذج ليحفظ ، وتختار له أمتع الكتب ليقرأ ، حتى إذا تخرج وجد القراءة قد أصبحت من عادته فلا يكف عن الاطلاع ، والكتابة قد صارت من طبائعه فلا يضيق بالإنتاج . وبذلك يكون تعليم اللغة على هذا الوجه قد أحدث آثاره الثلاثة : أثره العقلى بربط الفكر باللغة ، وأثره النفسى ببعث اللذة من تذوق الأدب ، وأثره العملى فى

خلق القدرة على القراءة والكتابة . وإذا استطاع الشاب بعد المدرسة أن يقرأ فيفهم ويكتب فيحسن ويفكر فيصيب استطاع أن يجد السبيل إلى كل علم والدليل إلى كل غاية .

أما تعليم الفصحى بالعامية وتحفيظ القواعد ليقرأ بها الطالب كتاب المطالعة دون أى كتاب ، ويكتب بها موضوع الإنشاء دون أى موضوع ، وتدريس الأدب على أنه سجل ولادات ووفيات ، وديوان حوادث وروايات ، فذلك هو الذى كره الدارسين فى اللغة ، وزهد الناشئين فى الأدب ، وصرف أدباء الشباب إلى الآداب الأوربية . فالمتفرنسون مثلا يحفظون هوجو ولا يحفظون المتنبى ، ويدرسون فلتير ولا يدرسون الجاحظ ، ويقرأون لا مرتين ولا يقرأون البديع . ومن هنا نشأت هذه التبعية المعيبة التى فرضت على أدبنا لآداب الغرب . فأساليب الكتابة اليوم هى أساليب الكتابة فى الغرب ، ومذاهب الأدب عندنا هى مذاهب الأدب فى الغرب ، حتى الرمزية بنت الأفق الغائم والنفس المعقدة واللسان المغمغم ، يريدون أن تتبناها العربية بنت الصحراء المكشوفة والشمس المشرقة والطبع الصريح ، وحتى الوجودية وليدة الخلق المنحل والذوق المنحرف والغريزة الحرة ، يحاولون أن تتقبلها العربية لغة الرسالة الآلهية التى كرمت الإنسان وفضلته على سائر الحيوان بحدود من الدين والخلق لا يتعداها وهو عاقل ، ولا يتحداها وهو مؤمن .

إن الثورة التى هزمت الفساد وقهرت الاستبداد وحررت الوطن جديرة بأن تكفل الإصلاح للتعليم ، والاستقلال للأدب ، والحرية للفكر ، والحماية للفصحى ، لتسير الأمة صحيحة الجسد والروح ، قوية الذات والمعنى ، متحدة الرأى والهوى ، إلى ما نرجوه لها من سلطان وعمران وعزة .

— ٤ —

التأليف والترجمة

مظاهر الحياة الفكرية فى مصر هى التأليف والترجمة ، والصحافة والإذاعة ، والتمثيل والسينما . وسألم بكل منها المامة تكشف عما لنا فيها من صلاح ، وعما لها علينا من إصلاح . وليس من شك فى أن أقوى المظاهر الفكرية فى حياة الأمة العقلية هو تأليف الكتاب . لأن التأليف يستلزم الروية والدرس ، ويستهدف البقاء والخلود . وعمل المؤلف العالم أشبه الأشياء بعمل النحل : تنتقل بين الرياض والحقول فترشف الرحيق من كل زهرة وثمرة ، ثم تخرجه شرابا مختلف الألوان فيه غذاء للجسم وشفاء للنفس . . . والكتاب المؤلف مقياس دقيق لحال الأمة من العلم والثقافة : فهو بتحقيقه وعمقه وتقصيه وأصالته يدل على علم المؤلف . وهو بموضوعه ووزنه وطبيعته ومقدار انتشاره يدل على ثقافة القارىء . فإذا اتخذنا هذا المقياس العام لنكشف به الحياة الفكرية التى نحياها اليوم ساءنا الكشف وطامنت من كبر يائنا النتيجة .

ذلك لأن الإحصاء الرسمى يشهد بأن ما نشر فى سنة ١٩٥٣ من الكتب فى الأدب والعلوم والطب والهندسة والاجتماع والتاريخ والدين والتصوف والتربية وعلم النفس والفلسفة والمنطق والقانون والسياسة والحرب والفنون والصناعات والزراعة واللغة والإقتصاد والمعارف العامة لا يتجاوز عدده أربعمائة وثلاثة عشر كتابا ، ثلاثة أرباعها فى الأدب والدين والتصوف والقانون والتاريخ والاقتصاد والاجتماع ، والربع الباقى فى المواد الأخرى . ومن هذا العدد التوافه التى لا تحسب ، والمختصرات التى لا تغنى ، والقصص التى لا تعيش . فإذا نخلناه سقط أكثره من العيون فلا يبقى إلا نحو المئة . ومن هذه المئة المختارة ما ألف من قبل وأعيد طبعه فى تلك السنة . ومنها ما ألف للتلاميذ

والطلاب على نحو معين ومنهج مقرر . فإذا أضفنا إلى ذلك أن الناشر يطبع من الكتاب ألفين أو ثلاثة ، وأن هذا المطبوع لا ينفد إلا فى عامين أو ثلاثة ، وأن المؤلف يؤلف لخمسين مليونا من العرب فى مصر وفى الأقطار الأخرى ، أدركنا انخفاض المستوى لحياتنا الفكرية إلى درك لا يطمئن عليه المصلح ، وقلة الغذاء للعقل كقلة الغذاء للجسم لها أثرها السيء فى فتور النشاط وقلة النتاج وبطء التقدم . والعلة فى ضعف التأليف وقلته هى القارىء العربى وحده ، فإن الصلة التى بين المؤلف والقارىء هى الصلة التى بين المنتج والمستهلك ، يحكمها أو ينظمها قانون العرض والطلب . فالقراء بمقتضى أحوالهم من القلة والكثرة والسطحية والعمق والزهد والرغبة ، يؤثرون فى إنتاج المؤلفين تأثيرا يتناول الكم والكيف . فإذا كان القارىء من العلم والفهم بحيث يطلب الكتاب الوزين والموضوع الجد والأسلوب البارع ، أمكنه المؤلف من طلبه وأدناه من مناله باستنفاد الجهد واستقصاء الوسائل . وإذا كان منهما بحيث يفضل اللذيذ على المفيد والسهل على الصعب والمختصر على المطول ، تقاصر المؤلف وتصاغر حتى ينزل إلى مكانه و يصل يده بمبتغاه . فإن المؤلف يريد أن يعيش فهو لا يؤلف إلا ما يقوت ، وإن الناشر يريد أن يربح فهو لا ينشر إلا ما يروج . وما دام التأليف متروكا أمره لحاجة المؤلف المتساهل ورضا القارىء الجاهل وهوى الناشر المنتفع ، فإن المكتبة العربية لن تظفر بما يكمل نقصها من جديد العلم وطريف الثقافة . إذن لا مناص من تدخل الإدارة العامة للثقافة فى وزارة التربية والتعليم ، وفى الأمانة العامة للجامعة العربية . وتدخلهما فى شأن الكتاب من التنقيب عنه والمكافأة عليه والدعوة إليه أقوى الأركان التى تقومان عليها . ولقد كان لهما فى عهود الوعود والأضاليل بعض النشاط ، ولكنه ما لبث أن خمد . فبدأوا كتبا ثم وقفوا بها دون النهاية ، واقترحوا أمورا ثم اكتفوا منها بالدعاية .

والرجاء فى قادة هذا العهد أن يهيئوا الأسباب لظهور الكتاب القيم ، فيشجعوا القادرين على وضعه ، ويساعدوا الناشرين على طبعه ، ويرفعوا القيود الجمركية عن تصديره ، ثم يعدوا العدة لتأليف دائرة للمعارف العربية ، فإن من المآخذ التى يضيق عنها العذر أن تكون لكل أمة من الأمم الكبيرة والصغيرة موسوعات لأشتات العلوم ولا يكون لمصر موسوعة واحدة ، ولقد حاول البستانى ووجدى عليهما رحمة الله أن يصنف كل منهما دائرة معارف يدرأ بها معرة العجز عن علماء العرب فمات الأول قبل أن يتم ، وأتم الآخر قبل أن يموت . ولكن دائرة المعارف بحكم تأليفها وطبيعة موضوعها واعتبار الغرض منها ووجوب الثقة بها تقتضى التضلع والتخصص والإحاطة . فلا يمكن أن يستقل بعملها فرد .

على أن الأمة وهى فى طور الانبعاث والنهوض تكون أحوج إلى الترجمة منها إلى التأليف . كذلك فعل العرب فى عصر الرشيد ، وكذلك فعل الفرنج فى عصر الإحياء والتجديد . والناظر فى سجل الإحصاء الرسمى لما ترجم فى عام ١٩٥٣ من الكتب الأجنبية فى شتى العلوم والفنون يجده أربعة وخمسين كتابا أكثرها سيىء الترجمة قليل القيمة . وهذا على علاته لا يجدد أدبا ولا يزيد علما ولا يوسع ثقافة . والواقع الذى لا نزاع فيه أن أدبنا لا يزال ناقص الخلق بطىء الشباب لأنه أنكر قديمه وجهل جديد الناس ، فلم يغذه ماض ولم ينمه حاضر . ولقد كان أدبنا القديم فى حدود مراميه اللسان العام لخوالج النفس الإنسانية فى أكثر بقاع الأرض ، فلم تكن هناك فكرة تجول فى ذهن كاتب ، ولا صورة تتمثل فى خاطر شاعر ، إلا وجدت فى هذا المحيط صدفة تستقر فيها . فلما تحولت عن مذاهبه الأنهار ، وجفت على جوانبه الروافد ، عاد كالبحيرة المحدودة لا يمدها إلا قطرات المطر ودفعات السيل حينا بعد حين . فالقارىء

العربي الحديث لا يجد فيما أثر مده ولا أكثر ما استجد فيه غذاء عقله ولا رضا شعوره ، لأن المأثور منه ناقص لانقطاعه عن سير المدنية ، والجديد منه ناقص لخلوه من الآداب الأجنبية . والغريب المخجل أن المرء يقرأ أى نابغة من نوابغ العالم فى أى لغة من لغات التمدن إلا فى اللغة العربية ! حتى التركى مثلا يستطيع أن يقرأ فى لغته هوجو كله وشكسبير كله وجيته كله ، ولكن العربي لا يجد فى لغته لهؤلاء العباقرة العالميين إلا بضعة كتب اختارها المترجم على ذوقه ونشرها على حسابه . فإذا أردنا لأدبنا أن يتسع فى حاضره كما اتسع فى ماضيه فليس لنا اليوم غير سبيل الأمس : نرفده بآداب الأمم الأوربية ، ونصله بتيار الأفكار الحديثة ؛ فإن لكل أمة مزايا ولكل بيئة خصائص . ولن يكون أدبنا عالميا ما لم يلقح بآداب العالم . والمحاكاة والاحتذاء من أقوى العوامل أثرا فى الأدب . وما قلناه فى الأدب نقوله أيضاً فى العلم والفن . فإن ما فى العربية منهما لا يعدو فى الغالب أن يكون ملخصات مجهولة النسب ومقتبسات قليلة الغناء إذا نفعت أحدا فإنما تنفع طلاب المدارس .. أما الشعب الظامىء إلى المعرفة فلا يجد بين يديه من أمهات الكتب العلمية والفنية ما ينقع غليله و يسد عوزه :

إن العلوم اليوم أوربية وأمريكية ما فى ذلك شك . وإن الفروق التى باعدت بين الشرق والغرب فى مدلول الإنسانية الراقية إنما يجمعها كلها لفظ العلم . وهذا العلم الذى سخر السموات والأرض للانسان الضعيف ، وذلل القطعان الملايين للراعى الفرد ، سيبقى غريباً عنا ما لم ننقله إلى ملكنا بالتعريب ونعممه فى شعبنا بالنشر . ولا يمكن أن يصلنا به او يدنينا منه كثرة المدارس ولا وفرة الطلاب ، فإن من المحال أن ننقل الأمة كلها إلى العلم عن طريق المدرسة ، ولكن من الممكن أن ننقل العلم كله إلى الأمة عن طريق الترجمة .

فالترجمة إذن هى الوسيلة الأولى لدفع القصور عن اللغة ، وسد النقص فى الأدب ، وكشف الظلام عن الأمة . وإذا نقلنا إلى العربية نتائج القرائح لأقطاب العلوم والفنون والآداب من الأوربيين والأمريكيين أصبح هؤلاء العالميون جزءا من كياننا الأدبى وركنا فى بنائنا العلمى نعتز به ونستمد منه ونفتن فيه ونزيد عليه . لذلك أقترح على بناة مجتمعنا الجديد أن ينشئوا دارا للترجمة يكون لها من جلال القدر واستقلال الأمر ما لإحدى الجامعات ؛ ثم يختار لها مائتان على الأقل من المترجمين النابغين فى لغتهم وفى اللغات الأوربية الثلاث ينقلون الروائع الأجنبية نقلا كاملا صحيحا ، فلا يدعون علما من أعلام الأدب والعلم والفن والفلسفة إلا نقلوا مؤلفاته ونشروها على حسب ترتيبها فى طبعاتها الأصلية . فإذا ما فرغوا من ترجمة الموجود فرغوا لترجمة المستجد ، فلا يكون بين ظهور الكتاب فى أوربا وأمريكا وظهوره فى مصر إلا ريثما يترجم هنا ويطبع .

وإن ما ينفق فى سبيل هذا العمل العظيم من المال قليل مهما يكثر فى جانب ما يؤتيه من تطعيم الأدب وتعريب العلم وتعميم الثقافة وتدعيم النهضة . وفى تحقيق منفعة واحدة من هؤلاء تخليد لذكرى من قام بهذا العمل أو شارك فيه أو أعان عليه ، فما بالكم إذا حقق هذه المنافع جميعا ؟ .

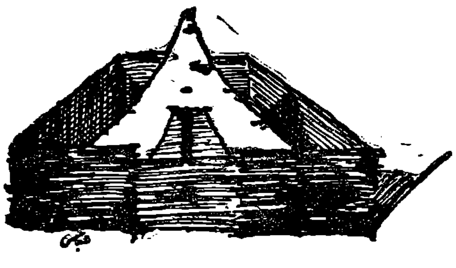

— ٥ —

واجب الفكر على الثورة

تبين من هذه الأحاديث أن حياتنا الفكرية كانت كسائر الحيوات الأخرى قبيل الثورة واقفة لا تسير ، فإن سارت فإلى غير اتجاه ، وإن اتجهت فإلى غير غاية . وعلة ذلك الركود أو الشرود بقعود الحكومة عن تغذية الفكر ، وفشل المدرسة في محو الأمية ، وقصور التعليم عن نشر الثقافة . ورجوت أن تنشط هذه الحياة بعد الثورة تأثرا بالنشاط الشامل ، واستجابة للنهضة العامة . فإذا أبطأ هذا النشاط الفكرى قليلا فذلك لأن الثورة وإن قامت على المعنويات لا يظهر أثرها الأول إلا في الماديات ، فلا بد أن تبدأ بإصلاح أداة الحكم ، وتقوية وسائل الإنتاج ، وتنمية موارد الرزق ، ثم تفرغ بعد ذلك لإنعاش العقل بالعلم ، وإذكاء الروح بالأدب ، وإنهاض الشعب بالثقافة .

وهناك سبب طبيعى آخر للركود المؤقت الذى يعترى الأفكار عند حدوث الثورة ، هو أن الثورة تغير مفاجىء للنظام الذى تحكم به الدولة ، وللوضع الذى يقوم عليه المجتمع ، وللطريق الذى تسير فيه الأمة . فإذا ما فجئت الناس وهم يعملون لحياتهم على ما ألفوا كان لا بد للسائر أن يقف انتظارا لتوجيه القيادة ، وللمفكر أن ينتظر استبانة لخطة الإصلاح ، وهذه هى فترة الركود . كذلك كان الحال فى جميع الثورات الكبرى التى قلبت وجهة العالم وغيرت وجه التاريخ . فالدعوة الإسلامية مثلا وهى أعظم ثورة فى تاريخ الإنسان قد نشأ عنها خمود مؤقت فى الحياة الفكرية التى كان يحياها العرب فى الجاهلية ؛ لأن الإسلام قلب العقلية العربية قلبا ، وشن على الحياة الجاهلية حربا ، ورسم للعرب مثلا أعلى يخالف ما ألفوه ويناقض ما عرفوه . وهذا التغير فى العقلية يستلزم حتما تغير ما يصدر عنها من فكر وتصور وقول ؛ فالشاعر الذى كان

يستلهم شيطانه قصائد الفخر والهجاء ، والخطيب الذى كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء ، والفارس الذى كان يرتع ليله ونهاره فى الدماء والأشلاء ، والرئيس الذى كان يعيش على امتياز الرؤساء ، والغنى الذى كان يتجر ويثرى بدماء الفقراء ، وقف هؤلاء جميعاً صامتين منصتين لدعوة الإسلام ، لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول . فلما سكنت فورة الفتوح وفعل الإسلام فعله وأحدث التطهير أثره شغلت الدعوة الفكر فسمت الروح ونضج العقل واتسع الفهم وتقدم العلم وظهر أثر ذلك جلياً فى أقضية عمر وأحكام على وفتاوى ابن عباس وآراء ابن مسعود وآداب بنى أمية . وكان ذلك كله نواة للعلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التى طبقت الأرض ومهدت لرقى الإنسان الحديث .

على هذه السنة الطبيعية سارت الثورة المصرية فبدأت بالتحرير والتطهير والإصلاح ، ثم ثنت بالتحضير والتعمير والإنتاج . وها هى ذى تتجه اليوم إلى التربية والتعليم والتثقيف اتجاهاً ثورياً لا يعرف التردد ولا التلكؤ ولا الهوادة . فهى تبحث المناهج وتفحص الكتب وتنشىء المدارس وتصلح الأنظمة وتعد المعلمين وتعمل لإقرار الحياة الفكرية على قواعد ثابتة وأصول منتجة . ثم رأت أن تتصل مباشرة بالفكر العام تغذيه وتهديه وتعاونه ، فاعتزمت نقل الروائع الفكرية العالمية من أدب وعلم وفن وفلسفة . وفكرت فى إنشاء مجلس أعلى للعلوم والآداب والفنون ، يرسم الخطة ويوجه النهضة ويعالج العلة التى سببت ضعف الأدب وقللت من انتشاره . وسيرى هذا المجلس حين يخلق أن محنة الأدب والفكر بوجه عام أن الأدباء والمفكرين ينتج بعضهم لبعض ، فهم الذين يكتبون ، وهم الذين يقرأون . أما الخاصة فلجهالتهم لا يفهمون الأدب ،

والعامة لأميتهم لا يعرفون الكتاب . وإذا حرم الأدب تشجيع الخاصة لا يزدهر ، وإذا لم ينل إقبال العامة لا ينتشر ، وإذا لم يكن ضرورة لهؤلاء وأولئك لا يتنوع . وعلاج ذلك أن يشتمل برنامج المجلس الأعلى للانتاج الفكرى على المكافآت والجوائز تعويضاً للأدب من تعضيد الجمهور . والجوائز فوق ذلك تحفز القرائح للعمل ، وتضمن الإجادة بالتنافس ، وترفع المستوى بانتخاب الأجود . وبضعة آلاف من الجنيهات تنفق الخزانة العامة أضعافها فى تمهيد طريق أو تشييد دار تخلق فى الأمة أدباء عالميين ، وتجمع لها من الأدب الصحيح والعلم النافع ثروة .

بقى أن نقول إن السادة الكتاب يختلفون فى أى أنواع المعرفة نبدأ الترجمة . أنبدأ بالروائع الأدبية ، لأن أدبنا ناقص لم يكتمل ، وفننا مضطرب لم يستقر ، وذوقنا منحرف لم يستقم ؛ وفى تطعيم أدبنا بالآداب العالمية التى أخصبها العلم وهذبها الفن ونوعها التطور وصقلتها الحضارة تقوية لأدبنا فى التصور وتجديد لأسلوبنا فى التصوير وإرهاف لحسنا فى الإدراك . وأقل ما نستفيده من ذلك مشاركة أدبنا العالم المتمدين فى فهمه للحياة وشعوره بالجمال وطموحه إلى الأفضل. والأدب للانسان كالأجنحة للملاك ينقله من كثافة المادة فى الأرض إلى لطافة الروح فى السماء ؟ أم نبدأ بترجمة الروائع العلمية ، لأن الفروق التى باعدت بين الشرق والغرب فى مدلول الإنسانية الراقية يجمعها كلها لفظ العلم ، ولأن أعداءنا الثلاثة وهى الجهل والفقر والمرض لا يدفعها عنا ديوان شعر ولا مجموعة قصص ولا كتاب فلسفة ، وإنما يدفعها عنا العلم الذى يعرفنا كيف نستخدم الآلة ونستغل الأرض ونحفظ الجسد ؟

وأنا حين اقترحت فى (الرسالة) ثم فى الإذاعة إنشاء دار للترجمة تنقل الروائع العالمية إلى اللغة العربية لم أفضل نوعاً على نوع ، ولم أقدم إنتاجا على إنتاج ، وإنما طلبت أن تنقل المعارف الأجنبية نقلا كاملا صحيحاً فلا يترك علم من أعلام الأدب والعلم والفن والفلسفة والاجتماع إلا نقلت كتبه

ونشرت على حسب ترتيبها وتبويبها فى طبعاتها الأصلية . فإذا فرغ المترجمون من نقل الموجود فرغوا لنقل المستجد ، فلا يكون بين ظهور الكتاب فى أوربا وأمريكا وبين ظهوره فى مصر إلا ريثما يترجم ويطبع . طلبت ذلك وأنا موقن بأن العمل سيسير فى كل أولئك جميعا ، لأنى لم أطلب ذلك من حكومة تجرى على النهج القديم من مسايرة الروتين ومشاورة اللجان ومماطلة الحوافز حتى يتراخى الزمن ويفتر العزم وينتهى كل شىء إلى لا شىء . إنما طلبته من ثورة تصنع المعجزات ، ولا تعرف معنى للعقبات والصعوبات . وإن العزيمة التى تشق شارعا فى أيام ، وتبنى مدينة فى أشهر ، وتنشئ مديرية فى عام ، لا يشق عليها أن تؤسس مكتبة عالمية فى خمسة أعوام . وخير الطرق وأقربها إلى إرضاء العلميين الذين يؤثرون العقل ، والأدبيين الذين يؤثرون الروح ، أن يقوم بهذا العمل الخطير فريقان : فريق يتعاون على روائع الإنتاج الأدبى الذى سبر أغوار النفس وكشف أسرار الحياة فيترجم ويراجع ويحقق ، وفريق يتوفر على روائع الإنتاج العلمى الذى أحدث ثورة فى الفكر وأضاف ثروة إلى العلم ، فينقل ويفسر ويعلق . والثورة من وراء الفريقين تضمن التنظيم المثمر والتنفيذ السريع . وليس لهذا العمل غاية يقف عند بلوغها ، ولا مدة ينقضى بانقضائها ، وإنما هو عمل الدهر وتراث الأعقاب يستمر باستمرار التأليف ، ويتجدد بتجدد العلم ، وما لا يترجم اليوم يترجم غدا . والمهم دخول الثورة فى الفكرة ، واتخاذ الأهبة للعمل . والمشروع فى الواقع متى ينفذ يكن فاتحة عهد عظيم يعم نفعه مصر والعرب والشرق بل العالم بأسره ؛ لأن ثمرات المطابع كثمرات المصانع سلع عالمية ينتجها الجهد الإنسانى المشترك. فمن الخير للإنسانية والمدنية أن تتبادلها الأمم فى مختلف أقطار الأرض ، لتقرب بين الناس فى طرق التفكير والتعبير ، وفى طبائع الأذواق والأخلاق ، وفى وسائل التعبير والإنشاء . وبهذا التقريب يحسن التفاهم . وحسن التفاهم بين أفراد الخليقة كحسن التفاهم بين أفراد الأسرة ، سبيل إلى التواصى بعمل الخير والتعاون على حفظ السلام .

— ٦ —

الصحافة والإذاعة

كان الفكر فى العصور المواضى لا يجد متنفساً ولا مفيضاً إلا فى الكتاب والمجلس . أما هو فى هذا العصر فقد وجد فيهما ، وفى أنهار الصحف ، وعلى أمواج الأثير ، وفى دور التمثيل والعرض ، من وسائل الشيوع والذيوع مالا غاية بعده .

وأقوى هذه الوسائل وأعمها الإذاعة ، وعلى الأخص فى الأمم الأمية ! لأنها تنقل الفكر إلى الذهن عن طريق السمع ، فيستوى لديها الأمى والقارىء ، والعامى والمثقف ، والضرير والمبصر ، والبعيد والقريب ، والبادى والحاضر ، والمنقطع من العمران والمتصل به . والصحافة تلى الإذاعة فى ذلك ولا تجاريها ؛ لأن انتقال الفكر عن طريقها مقيد بإحسان القراءة . والقراءة فى الأمم الجاهلة لا تتهيأ لأكثر الناس . لذلك كان رواج الصحافة رهنا برواج الثقافة . فكلما انتشرت المدارس انتشرت الصحف ؛ فهى فى العاصمة أذيع منها فى الأقاليم ، وفى المدن أروج منها فى القرى . فحالها أشبه بحال الكتاب يروج مع العلم ويكسد مع الجهل ، وليست كذلك الإذاعة . ومن هنا كانت الدعاية والهداية والتثقيف والترفيه عن طريقها أتم وأعم وأقوى وأقرب .

والإذاعة والصحافة تتفقان بعد ذلك فى أنهما مدارس جوالة تلاحق طلابها بالكتب والمحاضرات والمختبرات فى كل مكان وفى كل زمان وفى كل سن وفى كل طبقة . فتغريهم بالمعرفة عن طريق التسلية ، وتدعوهم إلى الجد من باب التلهية ، وتوجههم بالإيحاء إلى رأى جميع وغاية مشتركة .

وللاذاعة المقام الأول فى السياسة الدولية اليوم . ولقوة أثرها وجلالة خطرها

جعلوا أمرها فى أيدى الحكومات ، تصطنعها فى السلم النافعة والضارة ، وتستخدمها فى الحرب الباردة والحارة ، وتتخذمنها أداة فعالة لتوجيه الرأى الشعبى فى الداخل ، وتبصير الرأى العالمى فى الخارج . فضلا عما لها من عظيم الفضل على عامة الشعب فى تهذيب نفوسهم بالأدب والفن ، وتثقيف عقولهم بالعلم والحكمة ، وتفريج كروبهم بالغناء والموسيقى . فاذا كانت الصحافة مملكة ذات جلالة ، فان الإذاعة جمهورية ذات سلطان .

ولقد كانت إذاعتنا فى عهد الفساد أفسد شىء فيه . فلما أدركتها عناية الثورة جعلت منها إذاعة عالمية لها صوتها المرفوع ورأيها المسموع فى السياسة والثقافة والاجتماع . والذى يعنينا من تطور الإذاعة المصرية هو مايتصل بشؤون الفكر والثقافة . ومايتصل بهما فى برامج الإذاعة غزير خصب منتج متنوع . وإن أولاها بالذكر تلك الأحاديث القيمة فى الدين والأدب والعلم والفن والاجتماع ؛ وتلك الأركان المختلفة المثقفة لطوائف المجتمع وطبقاته فى البيت والحقل والمصنع والثكنة والملعب ؛ ثم هذه التمثيليات المختارة فى إحياء المجد وإيقاظ الوعى ونقد العيوب . ذلك إلى استعمال اللغة الفصحى فى الأكثر الأغلب مما تذيعه . ولذلك الأثر البالغ فى رياضة الآذان والأذهان على إساغتها وإدراك بلاغتها ، فضلا عما يستتبعه من توجيه الفكر العربى العام إلى غاية مشتركة ووحدة جامعة . وليتها تقتصد قليلا فى الغناء والموسيقى ، لتنفق كثيرا فى الإرشاد والتثقيف . فان الأمة المتخلفة التى نهضت لتلحق تحتاج إلى الدليل الذى يكشف لها الطريق بالعلم ، أكثر مما تحتاج إلى الحادى الذى يرفه عنها بالنغم . والذين حرموا المعرفة بسبب الفقر كالذين حرموا الثروة بسبب العجز ، يجدون لذة فى الحصول على ماحرموه . والعلم جزء من حقيقة الإنسان ففقده نقص ؛ ولكن اللهو عرض من أعراضه فوجوده كمال .

ذلك عن الإذاعة . أما الصحافة المصرية فمن الحق أن نقول إن تقدمها سبق

تقدم الفكر ، وإن نهوضها مهد لنهوض الأمة . كانت الحس الواعى فى الجمود العام ، والنور الهادى فى الظلام الحالك . وكانت الصحف هى النوافذ المفتوحة على حضارة الغرب وعلومه فاطلعنا منها على أسرار الكون وآثار المدنية، ونفذت إلينا منها أشعة المعرفة ونسمات الحرية . وظلت منذ الربع الأخير من القرن التاسع عشر أوسع دائرة للتثقيف والتوجيه ، تنير أذهان العامة ، وتهذب أفكار الخاصة ، وتسجل أحداث الزمن ، وتجمع مادة التاريخ . حتى قامت الثورة الثانية وحكم الدستور ، وتألفت الأحزاب ، وشغلت السياسة حياة الناس، فعظم شأن الصحافة بتعدد الصحف وتنوع المجلات ، واشتدت بينها المنافسة فى جمال الإخراج ووفرة الإنتاج وسرعة التوزيع . ولكن هذه المنافسة كلفتها من النفقة مالا يوفيه الدخل لو اقتصرت على توجيه الخاصة ، فاضطرت إلى توسيع انتشارها باجتذاب العامة إليها عن طريق الخفة والتسلية والإغراب ، فانصرفت عن الرأى المرشد إلى الخبر المثير ، وعن الفكرة الموجهة إلى الصورة المغرية ، واكتفت من حديث الأدب والعلم والفن بنتف من الأخبار تنشرها فى زاوية من الصحيفة وقد كانت فيما مضى تخصص لكل منها صفحة كاملة .

لا أنكر أن صحافتنا تنهج سبل الصحافتين الأوربية والأمريكية فى تفضيل مايثير على مايفيد ، وتقديم مايمتع على ماينفع ؛ ولكن الحال هنا تختلف عن الحال هناك . . المجتمع العربى مريض . والمريض يحتاج إلى الطبيب لا إلى النديم ، ويستفيد من الدواء لا من الحلوى .

وأعود فأقول إن العلة فى كساد الكتب العلمية ، واحتجاب المجلات الأدبية ، وهزال الصحف السياسية ، هى القارىء الذى لا يقبل على القراءة ولا يميل إلى الجد : وإن العلة فى قلة الإقبال على القراءة وضعف الميل إلى الجد هى فشل المدرسة فى تعليم اللغة وتدريس الأدب .

ولقد كانت الصحف فى الجيل الماضى أيام كانت تعنى بالأدب الصحيح . وتحتفل للأسلوب البليغ المصدر الأول لثقافة النشء الأدبية . كان الطالب يستثقل قواعد اللغة لجفافها وصعوبتها ، فينصرف عنها ويقبل على قراءة الصحف فتقوى فيه ملكة الكتابة بكثرة الاطلاع على النماذج الرفيعة من البيان المشرق ، حتى إذا جاء يوم الامتحان قصر جهده على موضوع الإنشاء فيحسن كتابته ثم يضيف إلى جانبه جزءاً من جواب وشيئاً من إعراب وقليل من أدب فينجح !.

أما اليوم فلا المدرسة تفقهه فى اللغة ، ولا الصحافة تغريه بالأدب ، فلاعجب إذا أصاب حياتنا الفكرية هذا الركود ، وتخلفت ثقافتنا الأدبية هذا التخلف .

إن الصحف فى انجلترا مثلا تصدر فى اليوم الواحد خمس مرات . والقارىء الذى قرأ الطبعة الأولى فى الصباح الباكر يقرأ ما يتلوها من طبعات دون أن تغريه الصحيفة بغرائب خيالية أو بجوائز مالية . وما دمنا لا نرى القراءة ضرورية للروح . كما نرى التغذية ضرورية للبدن ، فهيهات أن تزدهر ثقافة ، أو تنتشر صحيفة ، أو يتنوع أدب ، أو يتخرج أديب !.

— ٧ —
التمثيل والسينما

التمثيل والسينما أضعف المظاهر تمثيلا للفكر المصرى وأقلها تأثيراً فى تهذيب العقل وتوجيه الرأى وتعميم الثقافة . ذلك لأنهما يتوخيان الربح من أقرب الطرق وأيسر الوسائل ، فيتملقان غرائز الجمهور ويبغيان مرضات العامة .

والمتصدر للاصلاح فى أى ناحية من نواحى المجتمع ، وبأى وسيلة من وسائل الإرشاد ، واجبه أن يرفع الهابط إلى فوق ، ويدفع المتخلف إلى أمام . أما أن يهبط هو إلى قرار الفساد ليزين للناس العيش فيه والاغتباط به ، فذلك هو الطبيب الذى يعالج مريضه بالمسكر لا بالدواء ، أو المعلم الذى يثقف تلميذه بالحكاية لا بالدرس . واللهو الفارغ تستسهله النفس وتفضله . وإذا استرسل المرء فيه خمدت نفسه بترك الفكر كما يخمد جسمه بترك العمل .

كان التمثيل منذ ابتنى اسماعيل دار الأبرا أجنبياً أرستقراطياً لا يشهده إلا الأمراء والحكام . فلما بنى اسكندر فرح مسرحه فى شارع عبد العزيز بالقاهرة وضم إليه الشيخ سلامة حجازى أصبح وطنياً شعبياً يشهده الجمهور . وكان التمثيل يومئذ قاعدته الغناء والمجون ، وطريقته الأسلوب المسجوع الملحون . وأول خطوة خطاها هذا الفن فى سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التى ألفها جورج أبيض وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب . كانت هذه الفرقة والفرق التى سارت على هداها تختار المسرحيات العظمى ، وتستعمل اللغة الفصحى ، وتستهدف الغرض الأسمى ، وتحاول أن ترفع الجمهور إلى المستوى الرفيع للفن ببلاغة الأسلوب وبراعة الأداء . وكان المطمح الأول لهؤلاء الرواد الأولين أن يقيموا فن التمثيل فى مصر على قواعد ثابتة . وفى سبيل هذا المطمح

كانوا يجاهدون ويضحون حتى نالوا أكثر ما أرادوا ، وتخرج على أيديهم هؤلاء الأعلام الذين يرجع إليهم الفضل فى بقاء المسرح إلى اليوم .

فلما دهى التمثيل مادهاه من منافسة السينما له وإعراض الجمهور عنه ، اضطر أربابه إلى استمالة العامة بالتهريج والإضحاك ، فمثلوا المهازل الخليعة ، واستعملوا اللغة العامية . وإسفاف المسرح إلى مستوى العامة فى التفكير والتعبير يحرمه شرف المشاركة فى الجهاد الفكرى لتوفير العلم والخير لهذه النهضة . والسبيل إلى وقاية المسرح من الإسفاف والتبذل أن تبسط الحكومة حمايتها عليه ، فتضمن لأعيان الممثلين تكاليف العيش ليقصروا جهودهم على ترقيته كما فعلت بإنشائها الفرقة القومية . وكان الأمل أن تظل هذه الفرقة فى مكانها الأعلى من الفن ليرتفع إليها من يحب الكمال ويؤثر الجد ، ولا يهمها أن يزدحم الجمهور على شباكها أو لا يزدحم مادام الغرض منها إصلاح الأذواق لا تحصيل الأرزاق . والشعب كلما سمت عواطفه ورقت مشاعره طلب اللذة العقلية فى البيان والفن . ولكن القائمين على شئون هذه الفرقة ملوا الانتظار ، وتعجلوا الربح ، وحنوا إلى دوى التصفيق ، فأعادوا النظر فى الأمر . وكأنهم بحثوا عن الأسباب فى انهزام المسرح أمام الشاشة والصالة فوجدوها كلها مجموعة فى اللغة الفصحى والأسلوب الصحيح ! ومن هنا نشأت مشكلة اللغة التى نكتب بها المسرحية : أهى لغة الخاصة أم لغة العامة أم هى لغة بين بين . والرأى الذى نعارضه هو رأى المتطرفين الداعين إلى العامية على إطلاقه. وكل ما يمكنهم أن يقولوه تبريرا لدعوتهم أن شرط الامكانية فى الفن المسرحى يوجب أن تكون العامية لغة المسرح ، لأنها لغة الأشخاص التى سايرتهم فى كل سن ولابستهم فى كل حال . فعبرت عن خلجات نفوسهم ونبضات قلوبهم ، وحملت خلاصة تجاربهم وثمرات قرائحهم من لطيف الكنايات ، وطريف الأمثال ، وبليغ الحكم ؛ ولأنها مرآة لبيئتهم انعكست عليها صور حياتهم ومظاهر اجتماعهم ؛ ولأنها أكمل دلالة وأسهل إبانة عن التصورات الجديدة التى

تخرج من أعماق النفس أو تدخل فى ثنايا الحوار . وهذا كلام لو قالوه ظاهر الوجاهة ، ولكنا نسأل : متى طبق شرط الإمكانية بنصه على اللغة والأسلوب؟ إن الناس فى كل زمان ومكان لا يتكلمون فى الواقع كما يجعلونهم يتكلمون على المسرح ؛ وهذه هى جميع المآسى ومعظم الملاهى مكتوبة بالشعر العالى أو النثر البليغ . فهل كان أشخاصها فى الحقيقة يتحاورون بالشعر ويتجادلون بالمجاز ؟ وهل كانت لغة راسين وشكسبير وهوجو وجيته وأضرابهم من عباقرة الفن هى لغة الشعب الذى كانوا يمثلونه أو يمثلون له ؟ وإذا جاز لهم أن يجعلوا الفرنسيين والإنجليز فى المسرحيات المترجمة يتكلمون على المسرح المصرى بلسان عربى فلم لا يجوز لنا كذلك أن نجعل خاصة المصريين بل عامتهم أيضاً يتكلمون بلهجة عربية صحيحة وهى أقرب إلى هؤلاء منها إلى أولئك ؟ إن الفن الحقيقى أبدى خالد . ومن المحال أن تخلده لغة جيل واحد ولهجة قطر واحدة ؛ لأن العامية تتغير من جيل إلى جيل ، وتختلف فى قطر عنها فى قطر . ونحن لا نريد أدباً مصرياً فحسب ، وإنما نريد أدباً عربياً يمثل حضارة مصر وثقافة مصر وينقلهما إلى الأقطار النائية والأجيال الآتية .

على أن أحداً من الناس لم يقل إن المسرح لابد أن يعرض الحقيقة جرداء عارية ، بل المعروف أن من واجبه أن يحسنها بالخيال ويزينها بالكذب . وفى ذلك التحسين وهذا التزيين سحره وجاذبيته . والمشاهد ذاهب إليه وفى نفسه أنه سيخدع . وهو راض بهذه الخديعة مادام فيها لذته وفائدته . ومن قواعد المسرح أن الصدق يتوخى فما يؤثر فى الذهن والنفس من الأفكار والعواطف . أما ما يؤثر فى السمع والبصر من الأوضاع والزخرف فلا بأس فيه من الكذب . فشكل الأسلوب من النظم أو النثر ، والعامى أو الفصيح كشكل المسرح من المناظر والستائر والأضواء والأصباغ ، تعرف الآذان

والعيون أنه صناعى مختلق ، ولكن الأذهان والنفوس لابد أن تتأثر بما يقع فى الإمكان من الأخلاق والعادات والمواقف .

إن المسرح مهبط البيان وطريق النفوس إلى الجمال والخير والحق ، فليس من غايته اللهو والمتاع ، وإنما يعمد إليها تخفيفاً لثقل الحكمة على النفوس كما يساغ الدواء الشديد المرارة بالشراب الحلو . فإذا لم يخرج المشاهد من المسرح وهو أوفر علما وأحسن حالا منه قبل أن يدخل ، فقد أخطأ المسرح غرضه وضل طريقه .

هذا إجمال القول فى التمثيل من حيث اتصاله باللغة والفكر والإصلاح ، وهو نفسه ما نقوله فى الفن السينمائى من حيث اتصاله بهذه الأغراض . ونزيد عليه أن السينما فى مصر لا تزال تتعثر فى سيرها البطىء ، وأن عدة النهوض وأداة النجاح من قصة وتمثيل وتصوير وإخراج لم تكتمل لأكثر القائمين عليها بعد . وإن إنتاجها الذى يظهر مع هذا النقص جيده مسروق ورديئه مبتكر . وإن إسرافها فى التبذل والعامية قد صرف عنها المثقفين والخاصة ، وأن إحجام الموهوبين فى الفن القصصى عن إمدادها بالأصيل الجميل منه أضعف أثرها فى حياة الفكر . ولعل فى الرعاية التى توليها إياها حكومة الثورة ما يشجعها على النهوض ويساعدها على التقدم ، فقد أعلنت وزارة الإرشاد القومى عن مسابقة بين الأفلام فى هذا العام ، وجعلت جوائزها ثلاثة وعشرين ألف جنيه ، وأوصت اللجنة المؤلفة فى وزارة التجارة والصناعة للنهوض بالسينما أن تؤسس الحكومة بنكا لهذه الصناعة يجمع المال لتشجيعها وتمويلها ، وأن تنشىء وزارة الإرشاد معهدا يتخرج فيه الفنيون القادرون على ترقيتها وتكميلها . وهذا لون من ألوان العلاج ناجع ، وعمل من أعمال الثورة مجيد .

— ٨ —

الثورة تطور إلى أحسن

كان الأدب وهو أقوى مظاهر حياتنا الفكرية وأشدها حساسية أول ما يهتز للعاصفة التي أسقطت الأوراق الذابلة وحطمت الجذوع النخرة .

اهتز الأدب للثورة للصلة الطبيعية بين الرأى والعزم ، أو بين الفكر والعبارة ، كان يفكر لها فأصبح يعبر عنها ، وكان يؤثر فيها فأصبح يتأثر بها . فكل ثورة من ثورات السياسة تحدد مرحلة من مراحل الأدب تتميز من سوالفها بسمات يحدثها الانقلاب في التفكير والتعبير والغرض . ولكن الانقلاب الأدبى لا يمكن أن يأتى فجأة كما يأتى الانقلاب السياسى فجأة . لا بد له من زمن يقصر أو يطول ، تتفاعل فيه النزعات وتتطور الرغبات وتتبين المقاصد ، وإلا كان انقلابا مفتعلا لا يلبث نشاطه أن يخمد وأثره أن يزول . فالسادة الذين فجئوا الناس فى صباح الثورة بالتمرد على الأصول المقررة للغة ، وعلى القيم المقدسة للفن ، لم يكونوا جازين مع النهضة ولا معبرين عن معنى الثورة . إن الثورة نهوض إلى أعلى وتطور إلى أحسن ، والتقدم الذى يلائمها فى حياة الفكر هو أن تتحرر الأفكار وتتجدد الألفاظ وترق الأساليب وتسمو الأغراض وتتنوع المذاهب ويعتمد الأدب على الصدق فيكون مرآة لنفس الكاتب كما يكون الكاتب مرآة لنفس الشعب .

أما أن نتمرد على القواعد اللغوية فندعو إلى التحرر من كل قيد لتكون الفوضى ، والتخلص من كل ضابط لتكون البلبلة ، فتلك هى البدائية اللغوية التى لا تدرك لبلادتها وغلظها سحر اللفظ ولا جمال العبارة .

وأما أن نتمرد على القيم الأدبية فندعو إلى أن يغفل الأدب رغائب الروح ويقبل على مطالب الجسد ، فنشكو صغر الرغيف وتندب غلاء اللحم وتبكى

قلة الخضر ، فتلك هى الحيوانية المادية التى خلقت لها الزراعة والصناعة والعلوم ، ولم تخلق لها الفلسفة ولا الآداب ولا الفنون .

إن للروح غذاء يزكيه ويقويه ، كما أن للجسد غذاء يحفظه وينميه . والغذاءان ضروريان لحياة الإنسان لا يستغنى بأحدهما عن الآخر . والأدب كما قلت من قبل للانسان كالجناحين للملك : يرفعه من كثافة الحسد فى الأرض إلى لطافة الروح فى السماء . والدنيا فيها المسجد والسوق والمدرسة والمصنع ، والحديقة والمطعم ، والمقْسَن والورشة ، وكل جهة من الجهات المعنوية ، تعدل الجهة التى تقابلها من الجهات الحسية . فلماذا نكره الأدب على أن يتقلب فى الجهات الدنيا لا فى الجهات العليا ، وأن يعيش ابن آدم فى حيوانيته لا فى إنسانيته ؟ والأدب بطبعه أرستقراطى كابليس يقول أنا من نار والجسد من طين . والنار ضوء وحرارة ، والطين ظلام وبرودة .

قال لى أحد هؤلاء السادة — وهو رئيس تحرير لإحدى الجرائد الكبرى — نريد أن نكتب كما نتكلم . فقلت له لا ترسل القول على إطلاقه . لا كل كتابة ولا كل كلام . كتابة الكاتب الصحفى كلام مكتوب ، وكلام الخطيب الأديب كتابة مقروءة . والبلاغة مطابقة الكلام لمقتضى الحال . والأسلوب يختلف باختلاف الذهن والثقافة والنوع والغرض والحال . وهو يختلف فى الكاتب نفسه باختلاف الفن الذى يعالجه والموضوع الذى يكتبه والشخص الذى يتكلم بلسانه أو يتكلم عنه . فأسلوب القصة غير أسلوب المقالة ، وأسلوب التأثير غير أسلوب الإقناع ، وأسلوب الصحفى غير أسلوب الأديب ، وأسلوب العالم غير أسلوب العامل . وكل أسلوب بليغ فى بابه ، مقبول عند أصحابه .

ولكن الأساليب مهما تختلف باختلاف الأفراد ، وتتنوع بتنوع الأغراض ، فإنها تتسم جميعاً بالصحة أولا ، وبالبلاغة بعد ذلك .

أما أن نقول كما قال بعض الناس من قبل إنا نتكلم ليفهم الحاضر، ونكتب ليفهم الغائب، فلماذا لا نكتب كما نتكلم؟ لماذا نفضل أن يقال: إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا، على أن يقال كبرت سنى وشاب رأسى، فذلك إنكار لحس الجمال فى الإنسان وهو أسمى خصائصه. والرجل الذى لا يدرك الجمال الفنى فى قول الله تعالى: «إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا» لا يستطيع أن يدرك الفرق بين صوت البلبل وصوت الحمار، ولا بين رسم المصور ونبش الدجاجة. والغض من شأن الجمال التعبيرى بدعة من بدع هذا العصر الذى اعتلت به الأذواق واختلت فيه المقاييس. وليس لأكثر البدع مسوغ من الفطر السليمة والفكر الصالحة، وإنما هى نزوات فى بعض الرءوس تصدر عن شذوذ فى الفكر أو فساد فى البدن أو عجز عن الكمال. وإلا فكيف يعلل إنكارهم تجميل الأسلوب وهم لا يبرحون كسائر الناس يطلبون الجمال فى شتى ضروبه ومختلف صوره؟ لماذا يثورون على تنسيق الكلام بدعوى أن الغرض منه الفهم والعلم ولا يثورون على تزيين الطعام وتجميل الهندام وتزويق المسكن والغرض الأصيل منها الوقاء والغذاء؟ لماذا لا يقفون موقف الحيوان عند حدود الضرورة من مآرب العيش ومطالب الجسد فلا يتفننوا فى تلاؤم الأجزاء فى اللباس، ولا يتأنقوا فى تنضيد الألوان على المائدة، ولا يتنافسوا فى تنجيد الأثاث فى البيت؟ وإذا كان أحدهم لا يحب أن يلبس الثوب المرقع، ولا أن يسكن الكوخ البالى، ولا أن يتزوج المرأة الدميمة، ولا أن يسلك الطريق الوعر، ولا أن يركب المركب الخشن؛ فلماذا يكره أن يسمع الكلمات العذبة والجمل المنسقة والأصوات المؤتلفة، وجميع جوارح البدن وحواسه كما قال صاحب الصناعتين تسكن إلى ما يوافقه، وتنفر عما يضاده ويخالفه. والعين تألف الحسن وتقذى بالقبيح، والأنف يرتاح للطيب وينفر للنتن، والفم يتلذذ بالحلو ويمج المر، والسمع يتشوق للصوت الرائع وينزوى عن الجهير الهائل. واليد تنعم باللين وتتأذى بالخشن، والفهم يأنس من الكلام المعروف ويصغى إلى الصواب ويهرب

من الجمال و ينقبض عن الجافى الغليظ . ولا يقبل الكلام المضطرب إلا الفهم المضطرب والذوق الفاسد » والإنسان كما قال طاغور فنان فى الكثير الغالب من أمور دنياه . وجمال العبارة وجلال الأسلوب من الصفات المشتركة فى الناس تتفق فى الوجود والمظهر وتختلف فى الطاقة والقدرة . والعامة يستعملون الوزن والسجع والجناس متى جاشت فى صدورهم عاطفة أو جرت على ألسنتهم حكمة. فمواويلهم موزونة ، وأمثالهم وحكمهم وضوابطهم مسجوعة . وكلما سمت الطبقة واتسعت الثقافة وصدق الشعور وصفا الذوق وأرهفت الأذن سما الأسلوب من الجميل إلى الأجمل ، ومن الجليل إلى الأجل ، حتى يبلغ الأوج عند كلام الله . واتفاق الطبائع فى توخى الكلام الجميل قد أثر فى تكوين اللغة ونشأة الأدب فجعلهما بالطبع قائمين على حلاوة الجرس وعذوبة النغم . فإذا سلمت فى المنشىء الفطرة وواتته الموهبة وساعده الاطلاع وكان قد تضلع من علوم اللسان وأحاط بأسرار اللغة صدر عنه الكلام رقيقاً من غير قصد ، أنيقا من غير كلفة . والسمو إلى هذه المكانة من الفن الموهوب والمكسوب مُنية كل لسان ينطلق وبغية كل أذن تعى . فإذا كان من حملة القلم من يقدح فيه و ينفر منه كان ذلك من باب الكذب على النفس مرده إلى أسباب يعرف بعضها ذلك الثعلب الفاضل الذى :

رام عنقودا فلما أبصر المنقود طاله
قال هذا حامض لما رأى ألا ينـــاله

من أدب الأمثال

- ١ -

نشأة الأمثال وأنواعها

الأمثال حكمة الدهور وصدى التجارب وخلاصة الفلسفة وثمرة البلاغة. تجرى على الألسنة الموهوبة فى خلال حديث ، أو فى أعقاب حادث، فتتناقلها الأفواه وتتوارثها الأجيال لوجازتها وحسن صياغتها وصدق مغزاها . حتى إذا وقع من الأمر ما يشبه الحال التى ورد فيها المثل تمثل به القائل ليكون كالبرهان يؤيد قوله ويؤكده، أو كالبيان يوضح معناه ويقرره . ومن الامثلة القريبة التى تبين لكم كيف ينشأ المثل ويسير ، تلك الجملة التى قالها أستاذنا الجليل أحمد لطفى السيد لمن سأله عن رأيه فى معاهدة سنة ١٩٣٦ فقال : « لقد أصبحت غير ذات موضوع » .

هذه الجملة لقوتها ووجازتها ، ولجدتها وطرافتها ، لم تلبث أنْ سارت مثلا فى الناس ترددها الالسنة والاقلام فى كل حال تشبه حال تلك المعاهدة فى زوالها بزوال علتها ، وانقضائها بانقضاء غرضها .

والمثل فن إنسانى من فنون القول لا يتميز به زمان على زمان ، ولا يختص بهأمة دون أمة . ولم يسر شىء كما سار ، ولم يعم كما عم ، حتى قالوا : أسير من مثل. والشاعر يقول :

ما أنت إلا مثل سائر   يعرفه الجاهل والخابر

وللمثل ميزة على سائر فنون القول فى تقريب المعنى من فهم المخاطب وتقريره فى ذهن السامع . ولذلك كان من الاساليب المختارة فى الكتب المنزلة والأحاديث المرسلة والمواعظ العامة . وقد ضرب الله الأمثال فى مواضع كثيرة من كتابه فقال

تعالى : وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ، وضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شيء وهو كَلٌّ على مولاه ، أينما يوجهه لا يأت بخير . هل يستوى هو ومن يأمر بالعدل وهو على صراط مستقيم ؟ وضرب الله مثلا قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغدا من كل مكان فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . ومثل كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ، تؤتي أكلها كل حين بإذن ربها ... ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار .

ومن أمثال الرسول صلوات الله عليه قوله : ضرب الله مثلا صراطا مستقيما ، وعلى جنبي الصراط أبواب مفتحة ، وعلى الأبواب ستور مرخاة ، وعلى رأس الصراط داع يقول : ادخلوا الصراط ولا تعوّجوا . فالصراط الإسلام ، والستور حدود الله ، والداعي القرآن .

وقوله : « إن مثل ما بعثني الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوا وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت عشبا » .

والمثل في الأدب العربي يطلق على ما يراد من كلمتي (Fable) و (Proverbe) في الآداب الأوربية ؛ ولذلك تنقسم الأمثال إلى قسمين : أمثال واقعية وأمثال فرضية . فالواقعية ما انتزعت من واقع الحياة وأعمال الناس كقولهم : رجع بخفي حنين . وأصله أن إسكافا من أهل الحيرة يسمى حنينا ساومه أعرابي على خفين يشتريهما منه ، فاختلفا حتى أغضبه الأعرابي ، فأراد حنين أن يكيده . فلما انفضت السوق أخذ أحد الخفين وألقاه في الطريق الذي يعود منه الأعرابي إلى أهله ، ثم ألقى الآخر بموضع آخر من الطريق وكمن عنده ، فلما مر الأعرابي بالخف الأول قال في نفسه : ما أشبه هذا الخف بخف حنين ، لو كان معه صاحبه لأخذته . فلما مر

بالآخر ندم على تركه الأول . وأناخ بعيره وعاد فى الطريق يبحث عنه . فخرج حنين من مكمنه وأخذ الجمل بما حمل ، ورجع الأعرابى إلى أهله بخفيه .

والأمثال الفرضية ما افترض الناس وقوعها على ألسنة الحيوان أو النبات أو الجماد ، كقول الامام على رضى الله عنه حين رأى تخاذل الصحابة واختلاف من اختلف فيه وخروج من خرج عليه : انما أكلت يوم أكل الثور الأبيض . يريد أنه خذل يوم خذل عثمان . وأصل المثل أن أسدا وثورا أسود وثورا أحمر عقدوا فى بعض الأجمات معاهدة صداقة . فقال الأسد ذات يوم للثورين الأحمر والأسود: ان هذا الأبيض يكشفنا للناس بلونه . فاذا تركتمانى آكله أمنا الظهور واتقينا الفضيحة . فأذنا له فى أكله . ثم قال للأحمر : هذا الأسود يخالف لونى ولونك . ولو بقى لظنك من يراك أسدا مثلى ، فدعنى آكله . فسكت عنه فأكله . ثم قال للثور الأحمر : لم يبق إلا أنا وأنت وأريد أن آكلك . فقال له الثور: إن كنت فاعلا ولا بد فدعنى أصعد هذه الهضبة وأصيح ثلاث صيحات . فقال له افعل ماتريد . فصعد الهضبة وصاح ثلاث مرات يقول : « ألا إنما أكلت يوم أكل الثور الأبيض ! » .

والأغراض من الأمثال الواقعية لاتكاد تعد ولا تحد ، لأنها لفتات من الذهن وفلتات من اللسان تقال عفو الساعة وفيض الخاطر فى شتى المناسبات فتعلق بالأذهان لاشتمالها على حكمة أو ملحة ، أو لدلالتها على طبع أو خلق . وهى ماعدا الأدبى منها صورة للطباع ومرآة المجتمع . فمن الأمثال الأدبية قولهم: إنك لاتجنى من الشوك العنب . رب كلمة تقول لصاحبها دعنى . رب عجلة تهب ريثا . ورب فروقة يدعى ليثا . ورب غيث لم يكن غيثا . من سلك الجدد أمن العثار . يدك منك ولو كانت شلاء .

ومن الأمثال الاجتماعية التى تكشف عن عقلية القائل وطبيعة بيئته قول

عامر بن الطفيل عند موته : « أغدّة كغدّة البعير وموت فى بيت سلولية ؟! » وذلك أنه أصيب بالطاعون تحت ذقنه وهو منصرف من عند الرسول صلوات الله عليه ، فالتجأ إلى بيت امرأة من سلول وهى قبيلة من أضعف القبائل فأكرمته ومرضته . ولكنه حين حضره الموت غلبت عليه الأرستقراطية القبيحة فلم يحزن على مال ولا ولد ولا جاه ، وإنما حزن على أن مات هذه الميتة القذرة فى بيت هذه المرأة الوضيعة !

كذلك المثل الذى سار عن ذلك الأعرابى القاسى الذى حكم على الجانى على نفسه بعقوبة القدر من غير عاطفة ترقق العقل ولا رحمة تلطف العدل . فقد قالوا إن رجلا أراد أن يعبر نهرا وهو لا يحسن السباحة فنفخ قربته وربطها وعام عليها . فلما توسط النهر فك الرباط وخرجت الريح وأوشك الرجل أن يغرق . فاستغاث باعرابى على الشاطىء ، فتركه يغرق وقال له : يداك أوكتا وفوك نفخ . يعنى أنه هو الذى نفخ القربة بفمه وربط فمها بيده فجنى على نفسه ولم يجن أحد عليه .

وقد يسير المثل الواقعى لما تضمنه من فكاهة لا مغزى لها . كقول القائل : ذكرنى فوك حمارى أهلى . فقد ورد أن شابا غزلا ضل لأهله حماران فخرج يبحث عنهما ، فمر بامرأة منتقبة ، فراقه ما رأى من جمالها فى النقاب ، وما سمع من رقتها فى الحديث ، فجلس إليها ونسى الحمارين . فلما سفرت عن وجهها رأى فمها قبيحا فانصرف وهو يقول : ذكرنى فوك حمارى أهلى .

— ٢ —

فلسفة الأمثال ومغازيها

إن بين الأمثال الواقعية والأمثال العرْضية فروقاً فى الأسلوب والدلالة والغرض ؛ ولكن أبين هذه الفروق وأبعدها أن الأمثال الواقعية قلما تسير إلا فى الأمة التى نشأت فيها ، كقولهم : وافق شن طبقة . فإن هذين الزوجين المتوافقين كانا من العرب ، فلم يضرب بتوافقهما المثل إلا فى أقطار العروبة .

ومن الأمثال الواقعية النادرة التى شاعت فى غير أمتها وبيئتها قول يوليوس قيصر لأقرب الناس إليه وأعزهم عليه وقد ائتمر به مع المؤتمرين ليقتلوه : «وأنت أيضاً يا بروتوس ؟ » . وقول لويس الخامس عشر حين أخذته الصيحة من اعتراض النواب واحتجاج القسس وتوجيه الفلاسفة وهو عاكف على لذاته غارق فى شهواته : « وبعدى الطوفان ! »[1] .

ولكن الأمثال الفرضية عالمية تتناقلها الأفواه من قبيل إلى قبيل وتتوارثها الأعقاب من جيل إلى جيل . والغرض المقصود منها تقويم الأخلاق بالحكمة ، ورياضة النفوس بالموعظة ، عن طريق التعريض والرمز . وهذه الأمثال وليدة الشرق ؛ لأنه كان موضع الحكم المطلق والاستبداد العنيف ، انبعث من صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتاً لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفساً ولا طريقاً إلى آذان الأقوياء المستبدين إلا هذه الكنايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصيحة وعظة . وربما عرض الأمر الذى ينكل عنه عقل الطاغية فيحتاج إلى المشورة فيلجمهم عنها الخوف والهيبة فيلجأون إلى هذه الأمثال يضربونها فيدركون بها ما يريدون من غير تعرض

---

(١) قال : « كل شىء سيبقى على حاله مابقيت . ولينقذ خلنى نفسه ما ورطته فيه . وبعدى الطوفان » .

لسخط ولا مواجهة لخطر . وفى مقدمة (كليلة ودمنة) تفصيل لما وقع بين دبشليم الملك وبيدبا الفيلسوف وهو يؤيد هذه الفكرة .

وقد ذكر صاحب التذكرة أن الطاعون فشا سنة بدمشق ، فهمّ عبد الملك ابن مروان بالفرار منها . فدخل عليه بعض الفضلاء وقال . بلغنى يا أمير المؤمنين أن ثعلبا صادق أسدا على أن يجيره من السباع ، فكان أبدا بين يديه . فظهر فى يوم من الأيام عُقاب فى الجو نخافه الثعلب ووثب على ظهر الأسد ، فانقض عليه العقاب واختطفه . فصاح الثعلب : يا أبا الحارث ! العهد ، العهد ! فقال الأسد: إنما عاهدتك على أن أحفظك من أهل الأرض . أما أهل السماء فلا قبل لى بهم .

فلما سمع عبد الملك هذا المثل قال : والله لقد وعظتنى . ثم أبى أن يفارق المدينة . وربما احتالوا ببراعة المثل ولطف مدخله لنيل مأرب أو دفع بلية ، كما فعل نصر ابن منيع ، وكان خارجيا ثار على المأمون ، فسير إليه جيشاً تمكن منه وقاده إلى الخليفة فأمر بقتله . فقال نصر . يا أمير المؤمنين ، اسمع منى قبل أن تقتلنى مثلا . فقال قل . فقال .

زعموا بأن الصقر صادف مرة عصفور بر ساقه التقدير
فتكلم العصفور تحت جناحه والصقر منقض عليه يطير
إنى لمثلك لا أتم لقمة ولئن شويت فإننى لحقير
فتهاون الصقر المدل بصيده كرما وأفلت ذلك العصفور

فعفا المأمون عنه وأطلقه .

نشأت الأمثال الفرضية أو الرمزية فى الهند ، ثم انتشرت منها فى الصين ، ثم انتقلت إلى فارس ، ثم إلى بلاد العرب ، ثم إلى بلاد الإغريق . وأقدم ما عرف منها مثل فى التوراة ذكر فى الفصل التاسع من سفر القضاة وهو مثل الأشجار التى أرادت أن تنصب عليها ملكا . ثم أمثال لقمان الحكيم العربى ، وأمثال إيزوب الرومى ، وأمثال بيدبا الهندى ، ولا فونتين الفرنسى . وأشهر

من كتب فيها من أدباء العرب ابن المقفع مترجم كليلة ودمنة ، وسهل بن هرون صاحب كتاب « ثعلة وعفرة » ، وابن الهبارية ناظم الصادح والباغم ، وابن عرب شاه صاحب (فاكهة الخلفاء) .

وقد عالج الأمثال بعض الأدباء فى العصر الحديث فوفقوا فيها ، كرزق الله حسون فى كتابه (النفثات) ، وأحمد شوقى فى ديوانه (الشوقيات) ، ومحمد عثمان جلال فى كتابه (العيون اليواقظ ، فى الأمثال والمواعظ) ولكن معظم ما أتى به منقول عن لافونتين الفرنسى .

وهذه الأمثال تجرى بين حيوانين ، كالمثل الذى ضربه هوميروس الشاعر اليونانى لإيرخس وقد افتخر عليه بكثرة شعره وسرعة عمله ، وعيره ببطء عمله وقلة شعره ، فقال : بلغنا أن خنزيرة بأنطاكية عيرت لبؤة بطول زمن الحمل وقلة الولد وافتخرت عليها بضد ذلك . فقالت اللبؤة : صدقت .

إنى ألد الولد بعد الولد ، ولكنه أسد ! .

وقد تجرى بين جمادين كقولهم : قال الخشب للمسمار : لقد فلقتنى ! فقال له المسمار : لو سمعت الدق الذى فوق رأسى لعذرتنى .

وقد تجرى بين جماد وحيوان كمثل الفخ والطائر الذى سار فى الرياء . فقد رووا أن رجلا من بنى إسرائيل نصب فخا . فجاءت عصفورة و نزلت عليه ، فقالت للفخ : مالى أراك منحنياً ؟

فقال : لكثرة صلاتى انحنيت .

قالت : فمالى أراك بادية عظامك ؟

فقال : لكثرة صيامى بدت عظامى .

قالت : فمالى أرى هذا الصوف عليك ؟

فقال : لزهادتى فى الدنيا لبست الصوف .

قالت . فما هذه العصا عندك ؟

فقال : أتوكأ عليها وأقضى بها حوائجى .

قالت : فما هذه الحبة فى يدك ؟

فقال : هى قربان : إن مربى مسكين ناولته إياها .

قالت : فإنى مسكينة .

فقال : خذيها .

فدنت منه وقبضت على الحبة فإذا الفخ فى عنقها ! فجعلت تقول وهى تضطرب : لا غرنى ناسك مُراء بعدك أبدا ! .

وقد تجرى بين إنسان وحيوان كالذى قالوا إن رجلا صاد قبَّرة . فقالت له ماذا تريد أن تصنع بى ؟ فقال أذبحك وآكلك . قالت : والله ما أشفى من نهم ولا أغنى من جوع . ولكنى أعلمك ثلاث خصال هى خير لك من أكلى . أما الواحدة فأعلمكها وأنا فى يدك . والثانية إذا صرت على هذه الشجرة . والثالثة إذا صرت على الجبل . فقال : هاتى . قالت : لا تتحسر على مافاتك . نخلى عنها . فلما صارت فوق الشجرة قال : هاتى الثانية . قالت : لا تصدق بما لا يكون أنه يكون . ثم طارت فصارت فوق الجبل فقالت : ياشقى ! لو ذبحتنى لأخرجت من حوصلتى جوهرة زنتها عشرون مثقالا . فعض الرجل على شفتيه وتحسر، ثم قال : هاتى الثالثة ! فقالت له : أنت قد نسيت الاثنتين فكيف أعلمك الثالثة؟ ألم أقل لك : لا تتحسر على مافاتك ، فقد تحسرت علىّ إذ فتّك . وقلت لك لا تصدق بما لا يكون أنه يكون . فصدقت أن فى حوصلتى جوهرة زنتها عشرون مثقالا وأنا وعظمى ولحمى وريشى لا نبلغ بعض ذلك !

وقد يساق المثل الرمزى مساق التشبيه لتقرير حال أو تصوير واقع ، كقول أحد الحكماء . مثل الدنيا والمغرور بها مثل رجل ألجأه الخوف إلى بئر تدلى فيها

وتعلق بغصن نابت على شفيرها . ونظر إلى أسفل البئر فإذا ثعبان ضخم فاغر فاه نحوه . فرفع بصره إلى الغصن الذى تعلق به فإذا فى أصله فأران أبيض وأسود يقرضان الغصن دائبين . فبينما هو مغتم لنفسه مهتم بنجاته إذ وجد قريبا منه جحر نحل قد وضعت فيه شيئا من عسل ، فتطاعم منه فشغلته حلاوته عن الفكر فى أمره ، والتماس النجاة لنفسه ، ولم يذكر أن الفأرين دائبان فى قرض الغصن الذى يتعلق به ، وأنهما متى فرغا منه أوقعاه فى فم الثعبان ولم يزل لاهيا غافلا حتى هلك.

أراد الحكيم بالبئر الدنيا ، وبالغصن الحياة ، وبالفأرين الليل والنهار ، وبالثعبان الموت ، وبالعسل الأمل واللهو والمتاع .

— ٣ —

من أمثال الرسول فى الحرية والجماعة

من أحاديث سيد البلغاء محمد رسول الله صلوات الله عليه قوله :

« إن قوما ركبوا سفينة فاقتسموا . فصار لكل رجل منهم موضع . فنقر أحدهم موضعه بفأس . فقالوا له : ما تصنع ؟ قال هو مكانى أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » .

أسمعتم ما قال نبي الوحدة ورسول الجماعة يا زعماء العرب ؟ لكأنى بالرسول الأعظم كان ينظر إلى الغيب من ستر رقيق فرأى بألمعية ذهنه وإشراق نفسه أمته تمزقها الأهواء وتفرقها المطامع فضرب لها هذا المثل ، وأراد بالسفينة الوطن العربى العام تقسمه الإخوة والبنون فى عهود الضعف والانحلال فصار لكل منهم وطن ودولة . ولكن هذه الأوطان المتعددة تجمعها دنيا واحدة كما تجمع السفينة مواضع الركاب . فكل وطن وإن استقل بنفسه مرتبط فى قوام حياته بغيره . فهو حرى ألا يوبق بحريته الوطن الجامع ، وألا يفسد بسياسته الصالح المشترك . فإذا نزغ أحدهم من شياطين الاستعمار نزغ فأراد أن يخرق السفينة من موضعه وجب على سائر الراكبين أن يأخذوا على يده ويقفوه عند حده ، وإلا هلك وهلكوا . وإنكم لتعلمون علم اليقين يا رجال العرب من الذى خرق السفينة وهدد راكبيها بالغرق ، كما تعلمون علم اليقين من الذى حاول أن يضرب على يد هذا الخارق وهو يقول له ما قال الله تعالى على لسان فتى موسى : أخرقتها لتغرق أهلها ؟ لقد جئت شيئا إمرا . ولا يزال الخرق يتسع ، والسفينة تضطرب ، والركاب يصرخون ، والناس على الشواطىء القريبة والبعيدة ينظرون ويسمعون ، فمنهم العدو الذى يرسل الفؤوس ويثير الأعاصير ليتم الغرق . ومنهم الصديق الذى يرسل الأدعية ويبتغى الوسائل لتكون النجاة . وكان المأمول من أمة العرب بعد أن كابدت فى دهرها الطويل

ما كابدت من ذل الانقسام وفشل الفرقة أن تتعظ بالخطوب وتستفيد من الأخطاء وأن تذكر أن العصبية هى داؤها الموروث وعدوها الكاشح ، وأن سياسة الإسلام الأولى كانت التأليف بين القلوب ، والمساواة بين الأجناس ، والتوحيد بين الأشتات ، حتى من الله على رسوله بقوله : لو أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم .

على أن العصبية التى أفسدت كيان العرب وأوهنت بناء الإسلام لم تمت إلا فترة قصيرة فى حيـــاة الرسول . فلما استعز الله به انبعثت فى (السقيفة) بين المهاجرين والأنصار تقول منا أمير ومنكم أمير . ثم سلطها الشيطان على الخلافة فانقسم العرب شيعا : وأغراها بالدين فانشعب المسلمون فرقا ، تتقاطع بالضلال وتتعادى فى الباطل وترى كل فرقة أنها هى وحدها الناجية . ولو كان تحزب العرب وتشعب المسلمين لمبادىء تصلح الدنيا وتعز الدين لكان ذلك أخلق بهم وأولى منهم ، ولكنهم اختلفوا تعصبا للجنس والنفس أو اتباعا لهوى الأجنبى توسلا لبلوغ الحكم أو إخضاع الخصم أو مرضات الدخيل . ولو ذهبنا نستقرى عوامل الشقاق والانشقاق بين العرب فى جميع الأطوار والأقطار لما عدونا ما ركب فى طباعهم من حب الظهور ورغبة التفرد ورذيلة الحسد . وكان أخشى ما يخشاه الزعيم الأعظم على أمته الخلاف والفرقة لتأصل هذين الداءين فى طباع البدو ، فقد اضطرهم جدب الصحراء إلى أن يأكل بعضهم بعضا بالإغارة والغزو فجر ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن وتشعث الألفة. فلما ظهر الإسلام كان أول ما دعا إليه التوحيد فى الله وفى العقيدة وفى الكلمة وفى اللغة وفى القبلة وفى الحكم وفى التشريع وفى الغاية . ثم حض على لزوم الجماعة ودوام الألفة فسن الجماعة فى الصلاة وفرض الاجتماع فى الحج . وأرسل الرسول فى ذلك الأحاديث وضرب له الأمثال فقال : يد الله مع الجماعة . المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا . المؤمن آلف مألوف . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف .

ولكن الداء كما قالت مخامر ، والطبع غلاب ، فمضت العصبية المهلكة تفرق الكلمة وتحلل العقدة وتصد العقول عن إدراك الصالح ، وتحجب العيون عن رؤية الخطر ، حتى لنجد العرب اليوم يهد قوامهم هذا الداء فيتدابرون ويتناكرون ولا يعالجون ضعفهم بما عالجت به الطبيعة ضعف النمل والنحل من التكتل والتعاون والتضامن ، وإنما غرتهم الأماني فاتخذوا عدو الله وعدوهم أولياء وحلفاء ، وغلبت عليهم الأثرة فتخاذلوا فى الشدة وتحاسدوا فى الرخاء . والشعوب العربية من ضعف الإيمان ورهبة السلطان لا يستطيعون أن يقولوا للقائد الذى ضل وللدليل الذى جار : من ههنا الطريق .

ومن أحاديث الرسول فى هذا المعنى قوله : إنما يأكل الذئب من الغنم القاصية ، والقاصية هى النعجة التى استهواها بعض العشب على جانب الطريق فتلهت به حتى انفردت عن القطيع وغابت عن أعين الرعاة . فلما دهمها الذئب لم تجد بجانبها راعيا يذود ولا كلبا يحمى فأكلها . ولو أنها بقيت مع القطيع تأكل ما يأكل وتشرب ما يشرب وتسير حيث يسير ، لما كتب لها القدر من دون أخواتها هذا المصير .

وقد تنبأ الرسول صلوات الله عليه بمصير أمته إذا تفرقت بها السبل وتقطعت بينها الأسباب فقال : يوشك أن تتداعى عليكم الأمم كما تتداعى الأكلة على قصعتها ولينزعن الله من قلوب أعدائكم المهابة منكم ، وليقذفن فى قلوبكم الوهن . فقال قائل : أو من قلة نحن يا رسول الله يومئذ ؟ فقال لا . انكم يومئذ لكثير . ولكنكم غثاء كغثاء السيل :

والمراد من التشبيه بالغثاء انحلال من غير تماسك ، وشتات من غير وحدة ، وكثرة من غير قوة ، وصورة من غير روح .

تلك يا زعماء العرب سياسة الرسول وهداية دينه . فهل آن لكم أن تتذكروها وتتدبروها فتعملوا للوحدة وتعودوا إلى الجماعة ؟ إن فى يقظة الوعى العربى ، وإن فى نهضة العالم الإسلامى التى بدت فى تعاطف الإخوة على البعد ، وتناصفهم فى القرب ، وتحالفهم على الأحداث المغيرة ، وتمردهم على الأحلاف المريبة ، لأشعة من تباشير الصباح قبلها الليل المظلم ، وبعدها النهار المشرق .

— ٤ —

بعض الأمثال فى بعض الشعوب

(اسرائيل كان عدو الاسلام فى يثرب ،
وهو عدو العروبة فى فلسطين) .

لكل شعب من الشعوب خصال من المدح أو الذم رسخت فى أصوله بحكم الفطرة ، وانتشرت فى فروعه بفعل الوراثة ، فتناقلتها الأجيال وسارت بها الأمثال وتندرت بها المجالس . فكما تضرب الأمثال بالسكسونيين فى البرود والصبر والأناة ، تضرب باللاتينيين فى الحمية والحدة والتهور . وكما تضرب الأمثال بالعرب فى الشجاعة والفصاحة والكرم ، تضرب باليهود فى الأنانية والعصبية والحرص . وقد جعلت حديث الليلة سرداً لبعض الأمثال التى أرسلت فى شعب إسرائيل ، فإن الحديث عنه لا يزال فى الشرق والغرب يحز الآذان ويخدش الأذهان كل يوم . وأبدأ بالمثل الذى ضربه الله فى كتابه الكريم وهو قوله تعالى : « مثل الذين حُملوا التوارة ثم لم يحملوها كمثل الحمار يحمل أسفارا . بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله » أرسل الله موسى بالتوراة إلى بنى إسرائيل وكلفهم العمل بما فيها فلم يعملوا ، فكان مثلهم مثل الحمار الذى يحمل فوق ظهره الكتب القيمة ولا ينتفع بها لجهله وفساد عقله .

ومن أمثال العرب فى حب اليهود للمال قول أبى حيان فى رجل لطيف الحس : هو أعشق للجمال ، من اليهود للمال . ومنه قول حافظ ابراهيم يصف غادته اليابانية :

كنت أهوى فى زمانى غادة　　وهب الله لهـــا ما وهبا
ذات وجه مزج الحسن به　　صفرة تنسى اليهـــود الذهبا

وعشق بنى إسرائيل للمال وجمعهم له وحرصهم عليه وبخلهم به طبع فى أصل الخلقة نشأ فى أغلب الظن من طول ما مدوا أعينهم إلى ذهب الفراعنة وهم فى مصر . يتبين ذلك من قول يوسف عليه السلام لفرعون وقد أصبح أثيرا

عنده كريماً عليه : « اجعلنى على خزائن الأرض إنى حفيظ عليم » فطلب يوسف ابن اسرائيل الولاية على بيت المال ولم يطلب الولاية على غيره . كذلك تتبين غريزة حبهم للمال مما فعلوه يوم خرجوا من مصر مع موسى ، فقد استولوا بالخديعة والحيلة على مقدار ضخم من حلى المصريين . أخذ كل منهم ما أخذ من صديقه أو جاره على سبيل الاستعارة وهو يضمر الفرار به فلما دخلوا صحراء سينا وذهب موسى إلى ميقات ربه على جبل الطور عمدوا إلى ما سرقوا من الحلى فأذابوه فى النار وصاغوه عجلا ظلوا عاكفين على عبادته حتى يومهم هذا . ولقد قال لهم المسيح عليه السلام . « لا تعبدوا إلهين : الله والمال » فلم يكترثوا لقوله ومضوا يخلصون الدين للذهب و يصدقون الجهاد فى سبيله . فشعائرهم الصياغة والصرافة والسمسرة وأعمال البنوك ، وقرابينهم أكل السحت وإشاعة الربا واستحلال المنكر وتخريب البيوت ، وأحبارهم المقدسون قارون ويهوذا وشيلوك .

فقارون كان من قوم موسى فبغى عليهم ، وآتاه الله من الكنوز ما إن مفاتحه لتنوء بالعصبة أولى القوة . وهو الذى قالوا فيه مثلهم المعروف : قارون ولا هرون . يريدون أن صاحب المال أحب إليهم من صاحب النبوة .

ويهوذا كان من حواريى عيسى فأضله حب المال فخانه بثلاثين فضة بعد أن قبّله وهو منصرف تلك القبلة المعروفة بقبلة يهوذا .

وشيلوك هو المرابى الذى أبدع تصويره شكسبير فى مسرحيته (تاجر البندقية) فسيره مثلا فى الطمع والقسوة والحقد .

ومن طريف ما يتداعب به الناس على حب اليهود للمال أن حاخاما كان عائدا من الكنيس مساء السبت فأبصر على جانب الطريق قطعة من النقود الذهبية ، فوقف أمامها جامدا كأنما سمرت قدماه فى الأرض ! ماذا يعمل؟ أيلتقطها ودينه يحرم عليه أن يقبض مالا أو يعمل عملا يوم السبت ، أم يتركها وطبيعته تأبى عليه أن يترك قطعة من قلبه وشعلة من روحه ؟ وأخيراً اهتدى إلى

حل يوفق بين عقيدته وطبيعته ، فخلع رداءه وطرحه على القطعة الذهبية ونام فوقه حتى طلع الفجر ؟

على أنهم بهذا المال المعبود استطاعوا أن يشتروا انجلترا ، وأن يحكموا أمريكا ، وأن يغتصبوا فلسطين مشرق الهدى والسلام ، ومهبط الوحى والإلهام ومجتلى عين موسى ، ومسرح قلب عيسى ومسرى روح محمد ، وقبلة الإسلام الأولى ، وقلب العروبة النابض ، ووطن مليون ونصف من العرب ؟

ومن تلك الأمثال قول العرب : أذل من يهودى بيثرب . وذلك أن يهود المدينة كانوا قد عاهدوا الرسول على الأمان والضمان ، ولكنهم نقضوا العهد وظاهروا العدو وائتمروا بالرسول ليقتلوه . فحاربهم المسلمون حتى أجلوهم عن يثرب إلى الشام وخيبر . فكان اليهودى من غير بنى النضير إذ دخل يثرب دخلها ذليل النفس وضيع المكانة .

ومن أمثال الأندلسيين فيهم قولهم : أضل من اليهودى التائه . واليهودى التائه رمز على شعب إسرائيل بعد أن مزقهم الله فى الآفاق وضرب عليهم الذلة والمسكنة

وأصل المثل أن المسيح عليه السلام مر بدار أحد اليهود وهو منهوك القوة من ثقل ما يحمل ، مكروب النفس من شدة ما يعانى ، فأراد أن يستريح قليلا فى ظل الدار فدفعه اليهودى عن ظلها بقسوة وشدة . فقال له المسيح وهو يخاطب فى شخصه كل اليهود : « ستظل تائها فى الأرض حتى أعود » . فهل عاد المسيح فى ثياب (جون بول) أو (العم سام) أم كذبت نبوءة السيد ؟ إن لعنة الله ودعوة المسيح لا تزالان تحرقان قدمى إسرائيل . فهو لا تثبت له قدم فى أرض ، ولا تطمئن له نفس فى وطن . وكان من أثر ضلاله البعيد فى الأرض أن اكتسب أخلاق النوَر ؛ فهو يلص ليعيش ، ويخدع ليغلب ، ويتوحش ليأمن ، ويتعصب ليدافع ، حتى انقطعت بينه وبين الناس علائق النوع فأصبح خلقا آخر لا يألف

ولا يؤلف . فمحاولة إسكانه مع غير أهله وفى غير أرضه تكذيب لكلمة الله وتزوير على قانون الطبيعة .

لم أجد فيما علمت من الأمثال مثلا سار بخصلة من خصال المدح فى شعب الله (المختار) لا المختار، إلا مثلا واحداً ضرب به العرب فى الوفاء بالسموءل فقالوا : « أوفى من السموءل » · والسموءل بالعربية أو صموئيل بالعبرية شاعر يهودى كان له حصن بتيماء سماه الأبلق الفرد . وكان امرؤ القيس الملك الشاعر قد جمع جيشاً من بعض القبائل ليثأر لأبيه من بنى أسد . ولكن المنذر بن ماء السماء عالنه بالحرب لموجدة كانت فى نفسه على قومه . وأمده كسرى أنو شروان بجيش من الأساورة ، فتفرقت جموع امرىء القيس خوفاً من المنذر ، وسار هو فى القبائل يطلب النصر حتى سدت عليه وجوهه . فلجأ إلى السموءل بن عاديا فاستودعه دروعه وطلب منه كتاب توصية إلى الحارث بن أبى شمر الغسانى ملك الشام ليوصله إلى قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان زوج تيودورا . فلما بلغ امرؤ القيس القسطنطينية أكرم القيصر وفادته وطمع أن يكون قوة له فى العرب يريض له الأمور ويضعف نفوذ الأكاسرة . ولكن الموت أدركه فى أنقرة وهو عائد إلى وطنه . فلما أتى المنذر خبر موته ذهب إلى السموءل يطلب منه أن يدفع إليه ودائع امرىء القيس لأنها من مغانمه ، فأبى أن يردها السموءل إلا لأهله . ورأى الشر من الملك فاعتصم بحصنه . وأحكم المنذر عليه الحصار . واتفق أن تخلف ابن السموءل عن دخول الحصن قبل أن يغلق فأسره المنذر ونادى أباه من وراء السور أن يدفع إليه الدروع وإلا ذبح أبنه . فاستمهله السموءل ليلته ، ثم بات موزع الرأى بين العاطفة والواجب ، مضطرب النفس بين الثكل والعار . فلما أصبح أطل على المنذر وقال . لا سبيل إلى دفع الدروع فاصنع بأسيرك ما أنت صانع . فذبح ابنه وهو ينظر إليه .

لقد كان من الجائز ألا نقبل هذا الشذوذ فى طبيعة إسرائيل ونحمل الأمر على أن الدروع حلت فى عين السموءل فاستأثر بها وفاء لنفسه لا وفاء لامرىء القيس ، معتمدين على أن معاملة إسرائيل للعرب كانت سلسلة من الشقاق والنفاق والغدر ، لولا أن الأعشى وهو قريب عهد بالحادث قد نوه به وقال :

كن كالسموءل إذ طاف الهمام به ... فى جحفل كسواد الليل جرار

بالأبلق الفرد من تيماء منزله ... حصن حصين وجار غير غدار

فقال غدر وثكل أنت بينهما ... فاختر فما فيهما حظ لمختار

فشك غير طويل ثم قال له ... اذبح أسيرك إنى مانع جارى

على أن السموءل إن يكن يهودى الأصل فهو عربى النشأة بدوى الطبع . وقصيدته اللامية الخالدة فى الفخر تباعد ما بينه وبين إسرائيل ، وتمثل الشمائل العربية فى نفسه أصدق تمثيل . فلنسقط إذن من الحساب مثل الوفاء ، ولنكتف الليلة بهذا القدر فإن مساوىء صهيون لها ابتداء وليس لها انتهاء .

جمهورية من نوع جديد

(١٨ يونية سنة ١٩٥٣)

تاريخ الإنسان حافل بالثورات والانقلابات ، ولكنها كانت فى الأكثر الأغلب غزوات جنس لجنس ، أو نزوات طبقة على طبقة . تقوم إما استئثارا بخير أرض ، وإما استبدادا بحكم شعب . أما مبادىء العدل الاجتماعى والخير الاشتراكى والإخاء الإنسانى ، فقد كانت تذكر — إذا ذكرت — على سبيل النفاق الذى يحجب الضمير الفاسد ، ويستر النية السوء . كانت على أفئدة الغزاة وألسنة الساسة أشبه بالغطاء الذهب على الناب العضوض ، أو بالصبغ الأرجوانى على الظفر الحاد !

لم تقم ثورة ولا جمهورية كما قامت ثورة مصر وجمهورية مصر . قامتا على أساس من الحق الطبيعى الصريح والرأى الذاتى الحر ؛ ولم تقوما على شهوة تطلب السيطرة ، ولا على قوة تبغى الاستعمار . قامتا على السلام لا على الحرب ، ونشأتا فى النظام لا فى الفوضى ، ونبتتا بالعمل لا بالمنى ، وسقيتا بالعرق لا بالدم ، وأثمرتا للمنفعة العامة لا للمصلحة الخاصة ، واعتمدتا على الاشتراكية المسلمة لا على الرأسمالية المشركة ، ونبعتا من إرادة الشعب الأصيلة لا من مشيئة القوة الدخيلة ، وبرهنتا بالفعل للشعوب المستضعفة المستذلة أن أغلال العبودية وأثقال الطغيان مهما تهد من بنيانها على تتابع القرون ، وتضعف من إيمانها بتوالى الخطوب ، لا بد أن تشعر يوما من الأيام أن لها قوة تأتى العجب إذا أرادت ، وأن لها إرادة تحقق المستحيل إذا وعت ، وأن لها وعيا ما دام لها عقل ، وأن لها عقلا لا يطفىء نوره إلا الجهل ، ولا يميت شعوره إلا الرق ، وهيهات أن يجعل الله الليل سرمدا على العيون فلا تبصر إنما هو ليل يعقبه صباح ، ونوم تتلوه يقظة . ولقد طال الليل على مصر حتى نسيت النور ، وثقل عليها النوم حتى جهلت الحياة . طال ليلها فى الاستعباد

خمسة وعشرين قرنا لم يتول فيها أمرها وخيرها أحد من بنيها ، وإنما كانت طوال هذه القرون نهبا للغزاة والفاتحين من كل جنس ومن كل لون ومن كل أرض.

بدأ هذا الليل الطويل باستيلاء الفرس على ملك مصر سنة ٥٢٧ قبل الميلاد ، ولم ينته إلا بقيام هذه الجمهورية سنة ١٩٥٣ بعده : ألفان وأربعمائة وثمانون سنة مضت على سقوط الدولة المصرية الأولى ، تعاقب على عرشها المغصوب فى خلالها الفرس واليونان والرومان والعرب والكرد والزنج والجركس والترك والأرناؤد والفرنسيون والإنجليز ! وكانت مصر فى كل عهد من تلك العهود ضيعة يستغلها الحاكم الأجنبي لنفسه ولجنسه . وكان المصرى فى كل دولة من تلك الدول عبدا للمالك يسخر بأمره ، ويخضع لحكمه ، حتى تأصلت فيه صفات العبودية من الرضا والقناعة والاستكانة والصبر ، يستبد بحكمه طاغية كالحاكم بأمر الله فيستكين ، ويغلب على عرشه خصى ككافور فيخضع ؛ وتملك عليه إمرأة كشجرة الدر فيطيع ؛ ويسيطر على أمره الأجنبي فيرضى ؛ ويستأثر بخيره المستعمر فيقنع ؛ ويخفضه بالقتل صاحب الحكم فينقاد ؛ ويسمع بالأحداث تتدفق على وطنه وتتواثب على قومه فلا ينبض فيه عرق ، ولا يغلى له جوف ! كأنما كل امرىء فى مصر — وبخاصة فى الريف - أمة وحده . شأنه يعنيه ، ورزقه يكفيه ، وكوخه يأويه ، وكل ما خرج عن بيته وغيطه لا يعنيه ! وعلى ذلك عاش الفلاح المصرى هذا الدهر الداهر عبدا للأرض لا يعرف أن فوقها سماء فيها الروح والرفعة ، وأن وراءها حدودا فيها الطموح والأمل. ولم يكن من المعقول فى منطق المستعمر ولا فى شريعة الغاصب أن ينبهه من يستذله ويستغله إلى أنه إنسان : فمن حقه أن يحيا الحياة الكريمة الحرة ، وإلى أنه صاحب هذا الوطن وعماد ثروته وحصن دفاعه ، فمن حقه أن يتمتع بالأمن فى ظله ؛ لأن مالك القطيع لا يستطيع أن يستأثر بلحمه ولبنه وصوفه ونتاجه إلا إذا ظل جاهلا ما فى مجموعه من قوة ، وغافلا عما فى قرونه من سلاح .

وهكذا ظللنا خمسة وعشرين قرنا من قيام قمبيز الفارسى ، إلى سقوط فاروق

الأبانى ونحن خاضعون للحاكم الغريب الواغل ، نمسك الفأس وهو يمسك الكرباج ، ونأكل التراب وهو يأكل الذهب ، حتى أراد الله أن تنبعث نخوة الفراعين والعرب فى نفوس فتية من شباب هذا الوادى نشأوا من صميم أهله ، ودرجوا فى حقول قراه ، فانتفضوا إنتفاضة العزة ، وثاروا ثورة الكرامة . ثم نفخوا فى الصور ، فنهض الجيش ، وانبعث الموتى ، وحكم الفلاحون مصر ، وآن لفرعون الذى قال : « أليس لى ملك مصر وهذه الأنهار تجرى من تحتى أفلا تبصرون » أن يطمئن فى تابوته إلى أن ملكه قد عاد إلى بنيه من جديد ، بعد هذا الدهر الطويل الثقيل الذى عاشوه عيش العبيد !

قامت الثورة منذ ثلاث سنوات لاستخلاص الوطن لبنيه بطرد الدخيل وإجلاء المحتل ، وقامت الجمهورية منذ سنتين لإقرار الحكم فى أيدى المواطنين الصالحين بتمكين الشعب الكادح من التشريع لنفسه والقيام على شؤونه . وأخذ الأحرار يحيون فى النفوس التى ألح عليها الاستعباد معانى الاستقلال والاستعلاء ، وأقبل قائد الثورة على كل مواطن يقول له ارفع رأسك يا أخى فقد مضى عهد الانحناء » . وشعر المصرى لأول مرة فى تاريخه أن أرضه له ، وأن حكامه منه ، وأن ماينتجه يدخل فى يده ، وأن ماينفقه يعود إلى بلده . وقد كان من قبل ذلك يزرع وصاحب الأرض يحصد ، ويصنع وصاحب المال يبيع ، ويدفع وصاحب الحكم يتمتع ، ويشقى وصاحب العرش ينعم !

كان تاريخ مصر كله سلسلة متصلة الحلقات من المجاعات والطواعين والغرق والشرق والاضطهاد والاضطراب والسخرة . وكان الشعب مع أولئك كله يؤدى الضرائب ويدفع (الفردة) وهو معدم ، ويفلح الأرض ويقاتل العدو وهو مريض . فلما أشرق صباح العهد الجديد بإعلان الجمهورية أصبح هذا التاريخ فى يد الشعب نفسه ، يوجهه إلى القصد الذى يريد ، ويجريه على الوجه الذى يحب .

لقد أصبح الملك والأمر للشعب . هو الذى يدبر ماء النيل ويعالج جديب الأرض ليدفع عن نفسه الفقر . وهو الذى ينشىء المدارس وينشر الثقافة ليدفع عن قلبه الجهل . وهو الذى يقيم المستشفيات ويعمم الوقاية ليدفع عن جسده المرض . وهو الذى يعد القوة ويهيىء العدة ليدفع عن وطنه العدو . وهو الذى يطلب منه قادته اليوم أن يختار النظام الذى يحكم به ، والدستور الذى يسير عليه.

لقد أصبح إذن صاحب العرش وصاحب الجيش وصاحب الحكم وصاحب الثروة ، فمن حقه أن يحتفل بعيد الجمهورية هذا اليوم ، مزهواً بجهاده ، فخوراً بقواده ، معبراً بهتافه المرتفع وتصفيقه المدوى وحماسه المتقد وسروره الدافق عن اطمئنانه الواثق إلى حاضره المستقر ، وعن أمله الفسيح فى مستقبله المشرق.

يوم الجلاء

(٢٧ يوليو سنة ١٩٥٤)

ما أعظم هذا اليوم من تاريخ مصر ؟ وأى يوم أعظم من يوم الجلاء ؟ جلاء المحتل عن أراضى الوطن ، وجلاء الذل عن نفوس الشعب . ولكل أمة من الأمم الحية الناهضة يوم كهذا اليوم ، يشرق فى ماضيها إشراق العيد ، ويمض فى مستقبلها وميض الأمل . وهو أجل من آجال الله إذا جاء لا يؤخر . إنما يسبقه ليل طويل بالألم ، مظلم باليأس ، مرعد بالهول ، مطلول بالدم . أوائله خطوب وأواخره ضحايا ؟ ولقد كان ليل مصر الباسلة من أطول هذه الليالى وأهولها . كان طوله اثنين وسبعين سنة ثقالا قضيناها تحت نير الاحتلال الإنجليزى الباهظ ، نحرث وهو يسوق ، ونزرع وهو يحصد ، وننتج وهو يستفيد ، ونعمل وهو يوجه !

كان لنا عرش ولم يكن لنا مُلك . وكانت لنا حكومة ولم يكن لنا حكم . وكان لنا وطن ولم يكن لنا أرض ؟ كان الملك الفعلى لانجلترا ، والحكم النافذ للعميد ، والأرض الطيبة للدخيل .

وكان الذين مكنوا للاحتلال ووسعوا من نفوذه وأطالوا من عمره خلفاء الخائن (توفيق) ومن وزر لهم أو اعتز بهم من طلاب الحكم ومحترفى السياسة . وأكثرهم دخيل لم يجر فى عروقه الدم المصرى الكريم ، فلما أذن الله لهذا الليل الطويل أن ينجلى ، ولهذا الاحتلال الثقيل أن يزول ، جعل حكم مصر فى أيدى نفر من أبنائها لم يولدوا فى مهود النعيم ، ولم يصابوا بأمراض الغنى ، وإنما نشأوا فى قرى الريف فذاقوا الألم ، وشبوا فى مدن الحضر فعرفوا

النقص ، وانتظموا فى كتائب الجيش فكشفوا الداء . ثم تجلت فيهم عبقرية الجنس فثاروا ثورتهم المباركة على الطغيان الفاحش فكان يوم الحرية ، ونهضوا نهضتهم الحازمة للاحتلال الظالم فكان يوم الجلاء .

أما يوم الحرية ، أو اليوم الثالث والعشرون من شهر يوليو سنة ١٩٥٢ فكان خاتمة لاثنين وأربعين قرنا من العبودية ، ابتدأت برفع (مينا) على العرش، وانتهت بخلع (فاروق) من الملك . كان الشعب المصرى طيلة هذه القرون أشبه بقطيع من الدواب لا إرادة له فى نفسه ، ولا قيادة له من جنسه؛ وإنما كان يتولى قياده رعاة طغاة سموا أنفسهم آلهة أو ملوكا أو ولاة ، سخروه ليظلموه ، واستغلوه ليحرموه ، ولم تعصمه هداية الدين من عبث خليفة كالحاكم ، ولا مدنية العلم من فجور ملك كفاروق .

أما يوم الجلاء ، أو اليوم السابع والعشرون من شهر يوليو سنة ١٩٥٤ فكان خاتمة لأثنين وسبعين عاما من الذل ، جثم فيها الاحتلال الثقيل على صدر الوادى من جنوبه إلى شماله جثوم الكابوس المهلك ، فحجب الضياء ومنع الهواء وشل الحركة . وحاولت مصر أن تزحزحه بسلاح الحق وسلطان الحجة فلم تظفر إلا بالوعود الخالبة والأقوال الكاذبة . ثم استعان على قهرنا بالضعف والجهل ، فمنع جيشنا السلاح والتدريب ، وحرم شعبنا العلم والتهذيب ، وقطع ركبنا عن قافلة الحياة فأخرنا فى المسافة والمدة .

إن معركة القنال رد حاسم على معركة التل الكبير . وإن انتصار جمال عبد الناصر فى السياسة انتقام عادل لهزيمة أحمد عرابى فى الحرب . وإن الجيش الذى أخرج الإنجليز من مصر بقوته ، قد غسل العار عن ذكرى الجيش الذى أدخلهم فيها بضعفه ؟ .

فاليوم ، وليس قبل اليوم ، نستطيع أن نقول بملء الفم إن جهادنا ختم بالنصر ، وإن نصرنا كلل بالفخر ، وإن فخرنا فخر من سعى فأدرك وجاهد ففاز وغالب فغلب . لم يعد على رأس دولتنا طاغية غريب الدم ، ولا على رأس حكومتنا سياسي خسيس الهوى ، ولا على أرض وطننا دخيل فاسد النية . وذلك هو الاستقلال الكامل الذى تسمو به النفوس ، وتنهض فيه العزائم ، وتطيب معه الحياة .

إن أول من ذكر الجلاء بصدق ، وأراد معناه بحق ، وجاهد فى سبيله بإخلاص ، هو الزعيم الشعبي الأول مصطفى كامل . فقد اضطرمت فى جسده الناحل روح الله فثار ثورة الجبارين ؛ وثبت ثبات الرسل ، وقام فى وحدة النبي وإيمان الشهيد يجاهد الشرك بالوطن والكفران بالأمة ، ويقارع المحتلين بالحجج الثائرة . والمحتلون يومئذ كانوا علة العلل ودولة الدول ، ثم عاش كأصغرنا ، وسعى كأفقرنا ، ومات كأفقرنا . فكان مثالا للوطنية التى لا تتاجر ، وللوطنى الذى لا يداجى ، وللزعيم الذى لا يخون .

ثم خلفه على تكاليف الدعوة زميله محمد فريد ، فحبس على أمته ثروته ورضى بالجوع ، ورصد لها قوته وصبر على المرض ، واستمر يدعو إلى الجلاء حتى اشتد عليه أذى المحتلين وكيد المنافقين فهاجر ناجيا بحريته وفكرته . ثم كابد فى سبيل وطنه الفقر والمرض والغربة حتى أدركه الموت وليس فيه إلا فم يهتف بالحرية وإلا قلب يخفق لمصر .

لذلك كان من النبل أن يذكر رئيس الحكومة وبطل الحرية والاستقلال هذين الشهيدين فى يوم الجلاء ويحيى ذكراهم فيمن حيا ؛ فان الجهاد فى سبيل الوطن غاية لكل جيل فى طريقها خطوة ، وبناية لكل عامل فى إقامتها حجر .

والخطوة اللاحقة لا ترد الخطوة السابقة ، والحجر الأعلى لا ينقض الحجر الأسفل .

أما الآخرون من بعد (سعد) فقد اتخذوا طلب الجلاء حرفة ، وجعلوا الدفاع عن الدستور وسيلة . لذلك كثر الكلام ، وقل العمل ، وتشعبت المسالك ، وبعدت الغاية .

إن هذه الثورة المباركة الخصبة نصر من الله ونور من الحق . صنعت لمصر فى عامين ما لم تصنعه الحكومات المتعاقبة فى نصف قرن . ذلك لأن الجيش من طبعه أن يعمل ولا يقول ، ويعزم ولا يتردد ، ويقدم ولا ينكص . وإن السياسة الجدية العملية التى يضعها قادة الثورة من غير لجان ، وينفذونها من غير إعلان ، لسخرية أليمة من تلك الخطب الطوال التى كان يلقيها رئيس الحكومة باسم رئيس الدولة فى افتتاح كل دورة من دورات البرلمان فيجعجع بها جعجعة الرحا التى تطحن القرون ، تسمعك ما يصدع ، ثم لا تريك ما يفيد .

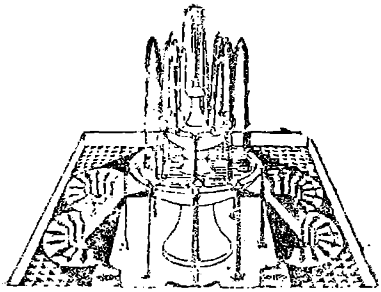

محمد إقبال

تحية لشاعر الإسلام فى يوم ذكراه

فى مثل هذا اليوم من عام ١٩٣٨ ابتسم إقبال للموت تلك الابتسامة التى جعلها علامة الموت فى آخر بيت قاله ، ثم توارى بالمغيب كما تتوارى الشمس بالحجاب بعد أن قبس العالم الإسلامى حرارة ستجدد له الحياة ، ونوراً سيضيء له الطريق . وما كان إقبال إلا بضعة من طبيعة الهند المؤمنة ، نفخ فيها الإسلام من روحه فخلصت خلوص الحق ، وسطعت سطوع الهدى ، وصفت صفاء الفطرة . ثم تبلورت فيها برهمية الهند الموروثة ، ومحمدية العرب المكسوبة ، فكان منهما فلسفة شعرية فريدة ، لاهى عدمية مترددة شاكية كفلسفة أبى العلاء ، ولا هى وجودية ملحدة قاسية كفلسفة نتشه ؛ وإنما هى الإسلامية الموحِّدة المؤلفة السمحة كما أوحاها الله بروحيتها النابعة من القلب الشاعر بآلام الأرض ، وماديتها الصادرة من العقل المتصل بإلهام السماء .

فهم إقبال الإسلام على حقيقته التى أنزلها الله . وعلى رسالته التى بلغها الرسول ، وعلى سياسته التى نفذها الصحابة . فهمه على أنه عمارة الدارين بالعمل الصالح ، وسعادة الحياتين بالإيمان الحق ، وقوة المشرقين بالوحدة الشاملة . فدعا إلى استقلال الذات فى الفرد عن طريق الإيمان والعبادة فى ديوانه (أسرار خودى) ، وإلى يقظة الوعى الإسلامى فى المجتمع عن طريق الثورة والجهاد فى كتابه (بانك درا) أو صلصلة الناقوس ، إلى توثيق الأخوة الإسلامية فى الشرق عن طريق التوحيد والتعاون فى ديوانه (بيام مشرق) أو رسالة الشرق .

ثم كان هذا الرجل المختار الذى نبت جسده فى رياض (كشمير) ، وانبثق روحه من ضياء (مكة) ، وتألف شعره من ألحان (شيراز) ، لساناً لدين الله فى دنيا العجم . يفسر القرآن بالحكمة ، ويصور الايمان بالشعر ، وينشىء الفرد على الاستقلال والعزة ، ويؤسس المجتمع على التقوى والمحبة ، ويدعو إلى حضارة شرقية قوامها الله والروح ، وينفر من حضارة غربية عمادها الانسان والمادة ، ويشيد بماضى الاسلام الذى حرر الرءوس وطهر النفوس وأصلح الأرض . ويندب حاضر المسلمين الذى مزق التراث المحمدى كل ممزق ؛ ويشنع على طغاة الاستعمار الذين سخرهم الشيطان لافساد الكون فسخروا العلم لاستغلال الطبيعة ، وسخروا الطبيعة لاستعباد الناس . وهم الذين عناهم إقبال بقوله فى بيت شعر من شعره معناه : « خلقت يارب من النار إبليساً واحداً ، وخلقت من الطين مليون إبليس ! » . ثم يقطع الشعر حسرات على دين أحاله الجهل والضعف فى نفوس أهله إلى شعائر من غير شعور ومناسك من غير نُسك . ويعيى على المصلين ألا تنهاهم الصلوات عن الفحشاء والمنكر ، وعلى المزكين ألا تطهرهم الزكوات عن الأثرة والشح . ويقول لأولئك الألوف الذين يذهبون كل عام إلى الحجاز وهم لا يدركون سر الحج ولا معنى الجماعة فى بيت من شعره الثائر الساخر :

« أما يسأل أحد أولئك العائدين من حج البيت المحرم ! ألم يجدوا هناك ما يهدونه إلينا غير قارورة من ماء زمزم ؟ ! . »

فإذا كان حسان شاعر الرسول فإن إقبالا كان شاعر الرسالة . وإذا كان لحسان من ينازعه شرف الدفاع عن محمد فلم يكن لاقبال من ينازعه شرف الدفاع عن المحمدية . وشتان بين من يمجد الداعى الأكبر عن عصبية ومن

يمجد الدعوة الكبرى عن عقيدة . وإذا كان فى شعراء الصوفية من عطر مجالس الذكر بفضائل الإسلام وشمائل النبوة كجلال الدين الرومى ، فليس فيهم من بلغ مبلغ إقبال فى فقه الشريعة وعلم الحقيقة ، والتأمل الفلسفى فى كتاب الله ، والنظر العلمى فى كلام الرسول ، والجمع بين قديم الشرق وجديد الغرب فى قوة تمييز وسلامة فهم وصحة حكم .

عرفت إقبالا عن طريق فكرته وعلمه ، لا عن طريق لغته وفنه . والحكم على العالم الفيلسوف بما ينقل من علمه وفكره جائز ؛ ولكن الحكم على الشاعر الفنان بما ينقل من شعره وفنه مستحيل . وما علمناه من آراء إقبال فى الإسلام والمسلمين مجرداً من وحى اللغة وسحر الأسلوب وحلية الفن وإشعاع الروح يحله محل الزعيم المصلح ، فكيف إذا قرأناه علماً فى فن ، وشعوراً فى شعر ، وواقعاً فى خيال ، وحقيقة فى مجاز ، وفكرة فى صورة ؟ !

على أننا تذوقنا شيئاً من فن إقبال فى فن صديقه عزام بالقدر الذى تعطيه الصورة الشمسية من الصورة الطبيعية . فقد تلاقى الرجلان فى ديوانى (رسالة المشرق) و (ضرب الكليم) فكان تلاقيهما المبارك الموفق رفداً للأدب العربى خصب عليه روضه ، ونضر به عوده . والمرجو أن تنقل نفحات إقبال كلها إلى لغة القرآن ، فإنها لآياته المحكمة المفصلة بمثابة التفسير الملهم .

ولقد انتقل شاعر الخلود إلى دار الخلود وفى نفسه أن يقرأه العرب كما يقرأه العجم . فمن الوفاء لذكراه أن نحقق له هذه الأمنية . ومن البر بالعروبة أن نرفدها هذه العبقرية . ومن فضل الله على إقبال أن حقق له أكثر أمانيه .

فها هى ذى باكستان كما أراد يلتئم شملها ، وتجتمع قواها ، فتنهض فإذا هى معقد رجاء الإسلام ومهوى فؤاد العروبة .

وها هى ذى أمة القرآن كما تمنى يشرق صبحها من جديد فتستيقظ وتعى ، وتتآلف وتتعاطف ، ثم تتقارب وتتحد ، ثم تهب فى كل مكان فتثور على المستعمر ، وتتمرد على الطغيان ، وتنبو على القيد ، و تملك قيادها رجال السيف ، وتولى أمورها أهل العمل ، وتريد أن تكون فى السياسة الدولية كتلة ثالثة يستقر بها النظام ، ويطمئن لها السلام ، ويصلح عليها الأمر .

رحم الله محمد إقبال رحمة الصالحين المصلحين ، وأثابه ثواب العاملين المخلصين ، وأتاح له من يواصل دعوته لتدوم . ومن ينشر فكرته لتعم .

أصول الفن الخطابى

خلاصة حديث ألقى على أعضاء لجنة الخطابة فى بعض المعاهد

الخطابة كالشعر من أقدم الآثار الأدبية عهداً لاعتماد الانسان منذ خلق على أن يدفع عن نفسه وقومه بلسانه ، كما يدفع عنهم بسيفه وسنانه . ولكنها أجل من الشعر خطرا وأقوى أثراً لذهابها فى الدفاع مذهب التأثير والاقناع . فهى أداة السياسة والقيادة ، ولسان الزعماء والسادة ، لا يتعاطاها إلا حكيم أو زعيم أو أمير . وهى فى كل دعوة لسانها الناطق وصوتها المرفوع ، وفى كل ثورة وقودها الجزل ولهبها المشبوب ، وفى كل نهضة روحها الحافز وقوتها الدافعة . لم يقم حكم ولا ملك إلا عليها ، ولم يؤيد سلطان ويدفع طغيان إلا بها . كانت سلاح الحرية فى أثينا ، ولسان الديمقراطية فى روما ، وفصل الخطاب يوم السقيفة ، وعماد الملك الأموى فى زلازل الثورات وعواصف الفتن ، ومعلنة حقوق الانسان فى فرنسا . وهى اليوم على الاخص ضرورة من ضروريات الاجتماع لا يستغنى عنها حاكم ولا نائب ولا كاتب ولا محام ولا معلم ولا ممثل ولا واعظ ولا طبيب ، حتى الدكتاتورية التى تقوم على السيف والارهاب لا تدخل على النفوس إلا عن طريق الخطابة . وكل إنسان ظاهر الشخصية لابد أن تقفه الظروف يوماً موقف الخطيب فيستقبل أو يودع أو يكرم أو يؤبن أو يهنىء أو يشكر . فمن نقص التربية وسوء التعليم إذن ألا يؤخذ النشء بها وألا يراضوا على ثقافتها وأدبها ؛ فان وقت الدراسة هو أنسب الاوقات للمرانة عليها لحسن استعداد النفس وإمكان الدرس وصلاح البيئة ووجود المرشد . فواجبكم أن تذكروا دائماً أن رياضة اللسان ورياضة العقل ورياضة الجسم هى أصول الثقافة الحديثة . وسبيلكم أن تمرنوا أنفسكم عليها بالإنشاء

والالقاء والمناظرة ، وسبيلنا أن نعضدكم ونرشدكم ونديرلكم جوانب الطريق لتصلوا سراعاً إلى الغاية المرجوة .

ماقصدت بهذه الكلمة العجلى أن أفيض القول فى فضل الخطابة وضرورتها ، وان أذكر ماقاله العرب وغير العرب فى أثرها ومكانتها ، فان ذلك يكاد يجرى فى العقول مجرى البداهة . إنما أردت أن ألم ببعض الالمام بقواعدها الأولية لتكون لكم دستوراً تسيرون عليه فى قصدكم ، وترجعون اليه فى بحثكم ونقدكم .

عرفوا الخطابة بأنها فن من فنون الكلام يقصد به التأثير فى الجمهور عن طريق السمع والبصر معا . فما يدخل أثره من طريق السمع هو الأسلوب والالقاء والصوت ، وما يدخل أثره من طريق البصر هو الوقفة والهيئة والحركة والملامح . وتلك المؤثرات هى قوام هذا الفن وملاكه . وسأقول كلمة وجيزة فى كل ركن من هذه الاركان بقدر ماينكشف عن سر الجمال والفن فيه :

فالأسلوب الخطابى كالأسلوب الكتابى فى أصوله وقواعده . فكلاهما قائم على إيجاد الافكار على نور العلم ، وتنسيقها على أصول المنطق ، ثم أدائها على مقتضى البلاغة . وكلاهما يختلف باختلاف الحال والغرض . ولكن للسمع أسلوبا يمتاز من أسلوب القراءة بتخير الالفاظ المنسقة ، والجمل المنمقة ، والصور البيانية ، والأخيلة الشعرية ، والأساليب السهلة الطلية ، والاعتماد على العاطفة والشعور لا على العلم والمنطق ، والافتنان فى تنويع الاسلوب والقصد فيه .

أما تمييز الالفاظ المنسقة والجمل المنمقة والصور البلاغية فلأن كلام الخطيب لا يصل إلى الاذهان إلا من طريق الآذان . وللاذن ذوق فى الجمال لا بد من مراعاته ومرضاته .

وأما استعمال الأخيلة الشعرية فلانهــــا تستهوى المشاعر وتسترق الخواطر وتملك على العقول مذاهب التفكير فلا تستطيع نقداً ولا نقضاً ولا معارضة ؛ وإنما تظل تحت سلطان الخطيب عاطلة ذاهلة حتى ينزلها على

حكمه ، أو يسيرها على نهجه ورسمه .

وأما توخى الأساليب السهلة فلأن عقلية الجمهور السامع غير عقلية الفرد القارىء. فالقارىء لا يؤوده عمق الفكرة ولا صعوبة العبارة لأنه يتذوق ما يقرأ بعقله ، فيقف ويتأمل ويعيد ويوازن ويستنتج ويحكم . وقد يترك الكتاب ليعود إليه مرة أخرى ، ولكن السامع سائر مع الخطيب مدفوع بتياره لا يملك التخلف عنه ولا الإفلات منه . فإذا كانت الفكرة أسمى من علمه ، والعبارة أقوى من فهمه، انقطعت الصلة بينهما وفقدت الخطابة من التأثير بمقدار ما فقد السامع من التتبع والتأثر. وليس معنى السهولة أن يتبذل الخطيب فيستعمل ألفاظ السوقة ومعانى العامة ، فإن الفن جميل نبيل يرفع الجمهور إلى سمائه ، دون أن ينحط إلى حقارته وغبائه. وأما الاعتماد على العاطفة والشعور دون العلم والمنطق ؛ فلأن العقول فى الجماعات تضطرب وتتبدد فلا يقيدها المنطق ، ولا يقنعها الدليل . فإذا اشتملت الخطبة على حقائق العلم ودقائق الفلسفة دون أن يكون لها من العواطف روح وحرارة وحركة بعثت السآمة فى النفوس والبلادة فى الطباع فيستولى على الجمهور فتور كالجمود وسكون كالموت .

قال بوسويه : إن الأهواء والعواطف هى الخطيب فى الجماهير .

وقال ميرابو : سر البلاغة الخطابية أن يكون الخطيب ملتهبا بالعواطف .

وقال أعرابى لبعض الوعاظ وقد سمع موعظته فلم تقع من قلبه بموضع : يا هذا إن بقلبك شراً أو بقلبي .

وأما الافتنان فى تنويع الأسلوب فلأن النفوس تسأم النغمة الواحدة واللذة المتكررة والصور المتشابهة والأسلوب المسوق على نمط واحد . فلا بد إذن للخطيب أن ينوع خطبته ويغير لهجته ، فيسجع فى مواضع التأثير ، ويترسل فى مواضع الإقناع ، ويعمد إلى التشبيه فى تقرير الحقيقة ، وإلى المجاز فى تصوير

الخيال ، ويرسل الفكاهة الحلوة من حين إلى حين ليدفع سأم النفوس ويجدد نشاط السامع ، ويتعرف نفسية جمهوره فيجعل لكل مقام مقالا ، ولكل فهم منالا ، فيفصل ويجمل ويؤكد ويوجز ويطنب ، وكل أولئك في جمال قصد وحسن ذوق وقوة بصيرة . ولا تؤتى الخطابة إلا من طريق التطويل والحشو . روى الجاحظ أن ابن السماك جعل يتكلم وجارية له تسمع . فلما انصرف إليها سألها كيف سمعت كلامي ؟ قالت : ما أحسنه لولا أنك تكثر ترداده . قال أردده حتى يفهمه من لا يفهمه . قالت : إلى أن يفهمه من لا يفهمه يكون قد سئمه من فهمه .

والعرب أميل إلى الإيجاز في الخطب لتكون أعلق بالصدور وأذيع في المحافل ، فلم يطل منهم إلا الأفذاذ النوابغ ، كسحبان بن وائل ، فقد قيل إنه خطب أمام معاوية من الظهر إلى صلاة العصر . وسمعت المرحوم سعد زغلول يخطب أربع ساعات متواليات في أربعين ألفاً من الناس فما توقف ولا كرر ولا استراح .

هذه مجمل الصفات التي يجب أن تراعوها في صوغ الخطبة . أما ما يجب في الإلقاء فالوضوح والطلاقة وتمثيل المعاني والعواطف بتغيير اللهجة وتنويع الصوت ، فيهدأ الخطيب ويثور ، ويبطىء ويسرع ، ويغضب ويعجب ، ويسأل ويجيب ، وكل ذلك مع اتقاء اللحن في إعراب الكلام ، واللكنة في إخراج الحروف ، وسلامة المنطق من العي والحبسة واللثغة واللجلجة والفأفأة والتلعثم ، وما يتبع ذلك من كثرة التنحنح والسعال وشرب الماء والالتجاء إلى جمل الاستعانة كتكرير أيها السادة مثلا .

ولحسن الإلقاء أثر عظيم في نجاح الخطبة ؛ فقد يكون أسلوبها نازلا عن مقام البلاغة فيرفعه الخطيب القادر بفصاحة منطقه وأناقة لهجته وجهارة صوته ، فيلذ السامع ويلهيه بجمال إلقائه عن قبح إنشائه .

وأما الصوت فهو طريق الفكرة إلى الأذن ، فلابد أن يكون جهيراً حلو النغمة صافي الرنين خالص النبرات . ويجب على الخطيب أن يعنى به ويقف على قوة ارتفاعه ومدى اتساعه حتى لا يكلفه فوق طاقته فيصحل ويتهدج . ويحسن مع ذلك أن يبدأ به في انخفاض وتأن ، ثم يرفعه رويدا رويدا حتى يبلغ به أقصى قوته . ثم يردده بين الصعود والهبوط مغيراً في نبراته ونغماته ووقفاته تبعاً للمعنى الذي يؤديه ، محاذرا أن يرسله إلى فوق أو يرمي به ذات اليمين أو ذات الشمال فيتبدد أكثره ويضعف أثره .

تلك هي المؤثرات السمعية . وأما المؤثرات البصرية فأولها الوقفة، وشرطها أن يكون الخطيب فيها معتدل القامة مشرف الصدر إلى الأمام مقدما إحدى رجليه ليتم توازنه وينتظم تنفسه ويستقيم صوته . ويحسن أن يقف قبل بدء الكلام وقفة المنتظر حتى يملك شعوره ويعرف جمهوره ويذهب أثر الخطيب السابق أن كان هناك من سبقه . وثانيها الهيئة من وضاءة الطلعة واعتدال القوام وحسن الهندام وجمال البزة . وهذه صفات كمالية قد يغني عنها جمال الأسلوب وحسن الإلقاء . وثالثها الحركة وهي مساعدة الكلمات والنبرات بالإشارات ، وهي طبيعية في الناس منشأها ضعف العبارة وعجز اللغة عن تأدية ما يجول في النفس من خواطر ومشاعر . لذلك تجدون حركات الجسم وملامح الوجه تشتد وتحتد كلما أصاب الإنسان عي أو لكنة . ومن ثم كانت الشعوب ذوات الخيال القوي والإحساس الشديد أكثر الأمم حركة وأشدها لهجة . وأشد ما تكون الحركات قوة وظهوراً حين تثور النفس وتضطرم العواطف فتنفجر من اللسان والجوارح والملامح . ولذلك كانت الحركات عنصراً من عناصر العمل الروائي وجزءاً من أجزاء الفن الخطابي لشدة انفعالاتهما وكثرة مفاجآتهما وازدحامهما عادة بالمواقف الثائرة أو الساخرة . ولكن الخطيب الموفق هو الذي يضعها في محالها ويقصد في استعمالها فلا يبالغ ولا يتكلف ولا يكذب ..

وشرط الإشارة ألا تخفي الوجه وأن تتفق مع المعنى ، فتبطىء وتهدأ ، وتسرع

وتثور تبعاً له ، وألا تسبق الكلام ، وألا تأتى بعده ، وأن تكون باليد اليمنى إذا كانت الرجل اليمنى هى السابقة ، وباليسرى إذا كان الحال على العكس .

ثم الملامح والغرض منها أن تشارك حركات اليد ونبرات الصوت، فإن العيون مرايا القلوب وأسرار الوجه تكشف عن أسرار الضمير . والخطيب يستطيع أن يعبر بعضلات الوجه وتغضن الجبين عن اللذة والألم ، والرضا والسخط ، والنفور والميل ، والسرور والحزن ؛ وبالعيون عن العواطف المختلفة فيفتحها عند الغيظ والدهش والإعجاب والخوف ، ويطبقها عند التواضع والمسكنة ، ويديرها يمنة ويسرة عند الجزع والاشمئزاز والرثاء ، ويرفعها إلى السماء فى الألم الشديد والدعاء . ويخفضها إلى الأرض فى التفكير والحيرة والخشوع والحياء والعار واليأس !

ثم نعود فنقول إن الخطابة كالشعر استعداد وطبع . ولابد للاستعداد والطبع من رياضة وثقافة . فالخطيب إذا لم يكثر المرانة جمد لسانه ، وإذا لم يدمن القراءة نضب معينه وضعف بيانه .

وأخص ما يدل على استعداد الخطيب طلاقة اللسان وقوة الحس وحضور الذهن ورباطة الجأش . والصفتان الأخيرتان ضروريتان للخطيب السياسى والخطيب القضائى ، لأن معارضة الخصوم ومقاطعة الزملاء ومفاجأة الحوادث تحرج الصدر وتثير الغضب وتهاجم اللب . فإذا لم يكن الخطيب مالكاً لعواطفه علماً بمواقفه تبدد ذهنه والتاث عليه أمره فلا يعرف قبيلا من دبير . قد يعارضك وأنت تخطب نائب ، أو يقاطعك مستمع ، أو يفجأك بالحجة محام أو قاض ، فماذا تصنع إذا لم يكن ذهنك سريعاً وخاطرك مطيعاً وجوابك حاضراً ! لقد كان جان جاك روسو يقول عن نفسه : لم أستطع طول عمرى أن آتى بالجواب الموفق إلا بعد ربع ساعة من الوقت الملائم . فماذا يكون حال روسو وأمثاله فى البرلمان أو فى المحكمة حين تقتضى المعارضة أو المفاجأة رداً حاسماً سريعاً ؟ انظروا مثلا إلى حضور ذهن

أبى جعفر المنصور ، فقد خطب يوما فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : أيها الناس اتقوا الله . . فقام إليه رجل من عرض الناس فقال : أذكرك الذى ذكرتنا به . فأجابه المنصور على الفور : سمعا سمعا لمن ذكرنا بالله ، وأعوذ بالله أن أذكرك به وأنساه ، فتأخذنى العزة بالاثم ، لقد ضللت إذن وما أنا من المهتدين . وأما أنت فوالله ما الله أردت بهذا ، ولـكن ليقال قام فقال فعوقب فصبر . وأهون بها لو كانت ! !

وأنا أنذركم أيها الناس أختها ، فإن الموعظة علينا نزلت ، وفينا أنبتت . ثم رجع إلى موضعه من الخطبة .

وانظروا إلى بديهة (لامرتين) العجيبة وقد اشتد الجدل بينه وبين الجمهور الغاضب الصاخب فى يوم عصيب تزاحمت فيه مناكب الخطباء ، وصرح الشر باسمه بين الشعب والزعماء ، فصعد المنبر ولم يخلص إليه من شدة الدفع والجذب والزحام إلا بعد لأى وجهد . فلما رأى نفسه أمام الثائرين وجها لوجه قال : أبناء أمتى لماذا دعوتمونى ؟

أصوات : لنعرف بأى حق تحـكمون الشعب ، ونعلم أأنتم أهل غلول وخيانة ، أم وطنيون خليقون بهذه الثورة .

لامرتين : بأى حق نحـكمه ؟! بحق الدم المسفوك ، والنار التى تلتهم معاهدنا ، والشعب الذى يعوزه الرئيس ، والأمة التى لا قائد لها ولا نظام ، وربما جاء الغد وليس لها قوت ! بحق الإخلاص والشجاعة ، بحق أولئك الذين يسبقون إلى التضحية جاعلين ضمائرهم هدفاً للشبهات ، ورءوسهم غرضاً للمشانق ، ودماءهم عرضة للانتقام ! أتحسدوننا على هذا الحق ؟ إنه لـكم كما هو لنا ، ولا نجادلـكم فيه . كلـكم أهل للتطوع فى هذه السبيل ، ولا ندعى من الحقوق إلا ما يمنحه الضمير الذى يسيطر علينا والخطر الذى يحيق بكم . . .

أصوات : — لا لا ! بلى بلى ! لا حق لكم فى تولى الحكم . لستم من الشعب ! لم تخرجوا من وراء المتاريس .

أصوات أخرى : — لالا ! بل هم الذين احتجوا على الفساد ودافعوا عن الشعب . لقد قلبنا الملكية فليقل لنا لامرتين أيريد أن يعطينا الجمهورية ؟ .

لامرتين : — الجمهورية ! ! ومن نطق بهذا الاسم ؟

— كلنا ، كلنا .

لامرتين : — الجمهورية ! وهل تعرفون ما تطلبون ؟ أتعرفون ما هو الحكم الجمهورى ؟

— قل لنا ! قل لنا ؟

لامرتين : — الجمهورية هى حكم العقل ، فهل تشعرون أنكم أهل لأن تحكموا عقولكم ؟

— نعم نعم !

لامرتين : — الجمهورية هى حكم للعدل ، فهل تشعرون أنكم تعدلون ولو فى الحكم على أنفسكم .

— نعم نعم !

وسار لامرتين فى خطبته على هذا النمط العجيب من الذكاء النادر والجواب الحاضر والأخذ بكظم الجمهور والاستيلاء على شعوره ورأيه من غير تحضير سابق ولا تلكؤ ظنين .

وازنوا بين ما سمعتم وبين ما حدث لفكتور هوجو فى جلسة برلمانية كانت تدور على تعديل قانون الانتخاب . وكان هوجو يكتب خطبه بلغة عالية ويستظهرها ثم يلقيها عن ظهر قلبه . فإذا قوطع أثناء أدائها أرتج عليه أو أجاب بالهذر . وقف ذلك اليوم يخطب بعد ما احتشد للكلام وأعده ، فلم يكد

يسترسل فى خطبته حتى قاطعه أهل اليمين بالسخرية والتنادر ، فقال هوجو :

أيها السادة : إن هذه المقاطعات المدبرة المنظمة . . .

فقاطعه صوت من اليمين : — كل ما فى الأمر أننا نضحك !

صوت آخر — ذلك يهوش عليك خطبتك المحفوظة .

هوجو — إن الغرض من هذه المقاطعات تشتيت ذهن الخطيب :

صوت — قل حافظته ! حافظته !

هوجو — يريدون أن يسلبوا الخطيب حرية الفكر . . .

صوت — حرية الحفظ ! حرية الحفظ !

فوقف هوجو أمام الساخرين لا يحير جواباً . ولما قال فى خطبته التى هاجم بها قانون النفى :

« تأتى الثورة فجأة فيصير الأذكياء أقزاماً » أجابه نائب معارض :

« ويصير الأغبياء جبابرة » فلم يسعفه خاطره بالرد فأرسل إلى الرئيس نظرات الاستغاثة .

ولتلك البديهة المتخلفة فشل هوجو فى ميدان الخطابة ، وكان تأثير خطبه فى القارىء أشد منه فى السامع . فأنتم ترون أن الخطيب السياسى والخطيب القضائى إذا لم تؤتهما المعارضة الشديدة والرد الحاسم والحلم الرزين والجأش الرابط كان نجاحهما منيع الدرك ، لأن الخطب السياسية والقضائية كما قلت مثار الخصومة والجدل ، وموضع التأثير والحجة ، ولهذين النوعين وضعت القواعد ، وعليهما دارت مسائل هذا الفن ، وفيهما اشتهر الأفذاذ من رجاله . وهناك نوع ثالث يليهما فى القوة والبلاغة والأثر وهو الخطب الحربية ؛ غير أنها أوجز لفظاً وأحكم نظماً وأحوج إلى استفزاز العواطف كخطبة طارق بن زياد فى فتح الأندلس مثلا .

وقد تغنى فى هذا النوع الجملة القصيرة المحكمة عن الخطبة الطويلة المرسلة كقول نابليون وقد دارت رحى الحرب بين جنوده وجنود مصر على مقربة من الأهرام : أيها الجنود اثبتوا فإن أربعين قرناً تنظر إليكم من فوق الأهرام . وكقول أحد القواد فى حرب الفاندى : أيها الجنود : إذا أنا أقدمت فاتبعونى ، وإن أحجمت فاقتلونى ، وإن مت فاثأرونى » .

بقيت الخطب الدينية والخطب العلمية . أما الأولى فمدارها الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر وتثقيف العقل بالحكمة والموعظة الحسنة . واستمدادها من النصوص الشرعية والعلوم الكونية والفضائل النفسية . وما أظن أحداً منكم يهيىء نفسه لها فلندعها إلى أهلها . وأما الأخرى وأعنى بها المحاضرات فهى أقوم حجة وأضوأ محجة وأهدأ بياناً وأسهل أسلوباً ؛ لأنها تقصد إلى التعليم لا إلى التأثير ، وإلى الإقناع لا إلى الإمتاع ، فلا تثير رغباً ولا رهباً ولا غضباً ولا رحمة . تعتمد على البحث العلمى والدليل المنطقى والتحليل النفسى ، فهى درس عام تبسط فيه الحقائق مفصلة محللة جلية لا يبددها استطراد ، ولا يفسدها نقص ، ولا تبهمها إحالة . فالمحاضر القدير يدرس موضوعه من جميع جهاته ، ويبحث عنه فى كل مظانه ، ثم يلم أطرافه ويجمع متفرقه ويدنى قصيه ، ثم يؤديه بأسلوب جذاب يثير الشوق ويدفع السأم ؛ فإن البلاغة صفة لازمة للمتكلم تلازمه فى كل موضع وتتفجر من قلبه وذهنه فى كل موضوع .

هذه جملة يسيرة من أصول الفن الخطابى لا بد منها للناشىء البادىء . وقد عرضتها عليكم عرضاً فى مبدأ الطريق لتجعلوا منها دليلا تتبعونه وناصحاً تستشيرونه . ومرجع الأمر كله إلى الاستعداد والاجتهاد ، فثابروا وصابروا أنفسكم بالمطالعة والمران ، وأشعروا قلوبكم الرغبة فى هذا الفن فإن الرغبة فى الشىء تسهل الصعب وتخفف المؤونة وتوفق بين الوسيلة والغاية .

أسأل الله أن يوفق أعمالكم ويحقق آمالكم ويسدد خطاكم فى مدارج الفلاح .

عبرة الصوم في وداع رمضان

المسلمون فى توديع رمضان جد مختلفين ، فمنهم المتقون والقرويون والذين لم تقس قلوبهم على جفاف البادية وكلب العيش ، وهؤلاء يودعونه وعلى وجوههم غشاوة من الأسى على بركات تريد أن تنقضى ، وخيرات توشك أن تنقطع ، كأنهم يعتقدون أن باب السماء فى غيره مغلق . وأن وجه الأرض من بعده بومئذ جديب ! فإذا بدأ الربع الأخير من رمضان ظهر الحزن عليه صادقا فى الوجوه ناطقا على الأفواه ؛ إذ يتمثلونه محتضراً يقاسى غصص الموت فيتفجع عليه الصائمون فى البيوت ، والمصلون فى المساجد ، والمؤذنون فوق المآذن ، والمسحرون على الأبواب ، وكلهم يقولون سراً وجهراً : لا أوحش الله منك ياشهر البر والذكر والفكر والرجاء .

ومنهم الخلعاء والمجان والذين فى قلوبهم مرض وفى إيمانهم ضعف ، وهؤلاء يودعون فى رمضان قيداً ثقيلا غلّهم عن شهوات الجسد ونزوات النفس ، فهم يفرحون لوداعه فرح السجين إذا أطلق والمحروم إذا نال . ومن هؤلاء أكثر الشعراء . وتبرمهم على رمضان معروف ، وابتهاجهم بشوال مأثور . ولعل أقدم شعر سمعناه فى التبرم بشهر الصوم قول الفرزدق على قرب عهده بعصر النبوة :

إذا ما انقضى عشرون يوما تحركت   أراجيف بالشهر الذى أنا صائمه
وطارت رقاع بالمواعيد بيننا   لكى يلتقى مظلوم قوم وظالمه
فإن شال شوال نشل فى أكفنا   كؤوسا تعادى العقل حين تسالمه

ولأبى نواس وأمثاله فى هذا الباب حماقات نذكر منها على سبيل الفكاهة قوله :

منع الصوم العقارا   وذوى اللهو فغارا

وبقينافى سجون الصـــــوم للهـم أسارى
غير أنا سـنداري فيه من ليس يدارَي
نشرب الليل إلى الصبح صغاراً وكباراً
نتغنى ما اشتهيناــا ه من الشعر جهاراً
فاسقنى حتى ترانى أحسب الديك حماراً

والخليفة ابن المعتز الذى يقول عن نفسه :

ونهاها الصيام عن سفه الـكا س فردت على السقاة المداما

يقول فى استقبال العيد :

أهلا بفطر قد أتاك هلاله فالآن فاغد إلى المدام وبكرّ

وكتب على بن جبلة إلى أبى دلف يستهديه نبيذاً فى يوم عيد الفطر فوجه إليه ما كفاه ومائتى دينار فقال فيه :

وأبيض عِجلى رأيت غمامه وأسيافه تقضى على الحدثان
رددت إليه ذمتى فأجارها وأغنى يدى عن غيره ولسانى
شربت ورويت النديم بماله وأدركت ثأر الراح من رمضان

ومن الشعراء من كان يحب رمضان لشرابه وطعامه ، لا لصيامه وقيامه .
قال أبو الحسين الجزار المصرى فى الـكنافة وقد امتنعت عليه .

ومالى أرى وجه الـكنافة مغضَبا ولولا رضاها لم أرد رمضانهـا
عجبت لها من رقة كيف أظهرت علىّ جفا قد صد عنى جفانهـا
تُرى اتهمتنى بالقطايف فاغتدت تصد اعتقاداً أن قلبى خانها
وقد قاطعتنى ماسمعت كلامها لأن لسانى لم يخالط لسانهـا

لا أحب أن أوغل فى حديث هؤلاء المجان فإنهم ليسوا من رمضان ولا من أهله . وأعود إلى حديثكم أيها الصائمون القائمون الذين ودعتموه بالحسرات وشيعتموه بالدموع فأسألكم : هل أنتم يوم ودعتموه خير منكم يوم استقبلتموه ؟ هل تشعرون بعد أن أديتم فريضة هذا الركن القوى من أركان الإسلام أن نفوسكم أصبحت أطهر ، وأن أخلاقكم صارت أكرم ، وأن أهواءكم غدت أرفع ؟ وهل تحسون أثر أولئك كله فى دنياكم الخاصة والعامة ، فأنتم اليوم أشد قربا من الله ، وأوثق صلة بالناس ، وأطيب نفسا بالحياة ؟

إسألوا أنفسكم هذه الأسئلة ثم أجيبوا عنها ، وأنا معتقد أن أجوبتكم ستكون بالإيجاب ، وإلا لما حزنتم على انقضاء رمضان وأسفتم على انقطاع الخير فيه ، فإن المرء لا يحزن إلا على عزيز ، ولا يأسف إلا على نافع . فلماذا إذن لا تجعلون سائر الشهور كشهر رمضان ؟ لماذا لا تستمرون فى الصيام عن ظاهر الإثم وباطنه ، فتغلوا أيديكم عن الأذى ، وتصونوا ألسنتكم عن الكذب ، وتطهروا قلوبكم من الرجس ، وتنزهوا مكاسبكم عن الحرام ، وتبرئوا أعمالكم من الغش وقد جربتم ذلك فى رمضان فنفعت التجربة وحسنت العاقبة ؟

لماذا لا تضيقون الكلفة فى القهوة لتوسعوا النفقة فى البيت ، وتقتصدون قليلا فى الأنس بالأصدقاء لتوفروا كثيراً من الأنس بالأسرة ، وقد فعلتم ذلك فى رمضان فاعتدلت الحال وطابت المعيشة ؟

هذا السكير الذى استطاع أن يهجر الخمر ثلاثين يوما وثلاثين ليلة ، فزكا قلبه ، وامتلأ جيبه ، وصح بدنه ، لماذا لا يواصل العيش بعد رمضان على هذا المنهاج وقد علم بالاختبار أن هـــذا الهجر قد نفعه ولم يضره ، وتيسر له ولم يتعسر عليه ؟

وهذا المدخن الذى ترك التدخين ثلاثين يوما فأراح صدره وسكن أعصابه

وقوى شهوته ، لماذا لا يستمر صائماً عنه ليله ونهاره ، وقد رأى أن فى طاقته الاستغناء عنه والحياة بدونه ؟

وهذا القوى الذى كان وهو صائم يمر باللغو كريما ، فيقابل الذنب بالمغفرة ، والسيئة بالحسنة والقطيعة بالصلة ، فوصل السلام بين قلبه والأمن ، وقرب الوئام بين نفسه والسعادة ، لماذا لا يحرص على هذا الخلق وهو مفطر بعد ماجنى من خيره فى أربعة أسابيع مالم يجنه من غيره فى العام كله ؟

وهذا التاجر الذى راضه الصوم على أن يقف نفسه عند حدود الله فى التجارة فلم يطفف الكيل ، ولم يُخسر الميزان ، ولم يقارف الاحتكار ، ولم يغش البضاعة ، ولم يرفع السعر ، ثم تحقق من جدوى ذلك عليه فى رضا ربه وراحة ضميره ومصلحة وطنه ، لماذا لا يلزم نفسه ذلك فى كل وقت بعد أن استمرأ طعم الحلال وأدرك لذة الحق ؟

وهذا الغنى الذى ذاق فى رمضان ألم الجوع ، وكابد مشقة الحرمان ، ثم استطاع بالصدقة أن يخفف عناء الفقر عن فقير ، ويدفع شر الحاجه عن محتاج ، لماذا لا يشعر دائما أن الجوع بعد رمضان باق ، وأن العوز فى أكثر الناس قائم وأن للسائل والمحروم حقا لا يتقيد أداؤه بيوم ، ولا يتخصص قضاؤه بصوم ؟

إن رمضان شهر رياضة وموسم استشفاء . نروض فيه أنفسنا على الخير لتمرن عليه ، ونعالجها به من الشر لتبرأ منه . وليس الغرض من هذه الرياضة وهذا الاستشفاء أن يحدثا أثرهما الطيب فى حياة المرء فى شهر بعينه ، فإن ذلك يخالف حكمة الشارع من الصوم ، ويناقض منطق الأشياء فى الواقع . والمريض الذى يطلب العافية فى مدينة من مدن المياه الطبية لا يطلبها للمدة التى يقضيها فى المصحة ، وإنما يطلبها لتكون عماداً قوياً لما وهن من جسمه ، وزادا صحيا لما بقى من عمره . وما أبعد المسلم عن الاسلام إذا كان يعتقد أن الصلاة لا تنهاه عن

الفحشاء والمنكر إلا وهو فى المسجد ، وأن الصوم لا يعصمه من اللغو والأذى إلا وهو فى رمضان ، وأن الزكاة لا توجهه إلى المعروف والخير إلا وهو فى العيد .

أما أنتم معاشر الذين خرجوا من رمضان بزاد من التقوى للقلب والروح ، وذخيرة من الخير للوطن والأمة ، وعدة من الصبر للجهاد والعمل ، فإنكم أحرى فى هذه الليلة — ليلة العيد — أن تهنأوا بحزنكم فى توديع شهر الصوم ، وبفرحكم فى استقبال يوم الفطر ، فإن الحزن على رمضان تقوى وبر ، لأنه حزن على خير مضى وأنس فات ؛ وأن الفرح بالعيد عبادة وشكر ، لأنه فرح يبشرى نزول الوحى وذكرى يوم بدر .

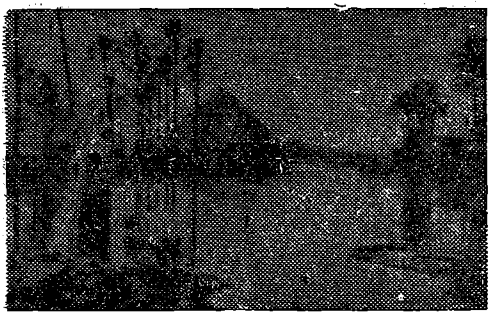

الفهرس

	صفحة
مقالات	
كيف أعلن محمد حقوق الإنسان	٥
ثوروا على الفقر قبل أن يثور	٩
عبد العزيز فهمى	١١
ربيعك فى نفسك	١٥
قاسم أمين	١٧
الربيع فى الشعر المصرى	٢٦
رحلات عزام	٣٢
أدبنا فى الحديث	٣٤
متى يغضب الفلاح !	٣٦
الملك عبد الله	٣٨
تفسير !	٤٠
نماذج فنية من الأدب والنقد	٤٢
هبى يا رياح الخريف هبى !	٤٤
نهاية مأساة	٤٦
ماذا بعد هذا ؟	٤٨
سبعون عاما !	٥٠
الرسالة والدعوة	٥٢
فدائيون وأنانيون	٥٦
رسالة وصورة	٥٨
تحية للشيخ الرئيس ابن سينا	٦٠
الكتلة الإسلامية	٦٤
واحسرتاه على عزيز !	٦٦
بعض الفقهاء !	٦٨
وأخيراً ظهر القائد المنتظر	٧٠
بلغنا العدد الألف	٧٢
كان ظهور الإسلام فتحاً لعالم جديد	٧٦
تجلد يا قارون !	٨١
ثورة فيها ريح النبوة	٨٣
رسالة وجوابها	٨٥
نصيب قريتى من الثورة	٨٧
القرآن والدستور	٨٩
من عهد إلى عهد	٩١
أين المسلمون اليوم من الإسلام؟	٩٤
مهرجان الحرية !	٩٩
الرسالة تحتجب !	١٠٢
لماذا كانت وحدة الأدب العربى	١٠٧
القصيدة، ووحدة الأدب الغربى القصة العربية جزء من حقيقة الإسلام	١١٢
مذهبى فى الحياة	١١٦
شباب وشيوخ أو عامية وفصحى	١٢٠

	صفحة
الفن بين الصعود والهبوط	١٢٤
بعض الأسماء ينزل من السماء	١٢٩
قصة مريض	١٣٤
حـــيرة !	١٤٠
أحمد أمين الأديب	١٤٥
أما آن لهذا الحيوان أن يعقل؟	١٤٩
من ذكريات الصيف فى بغداد	١٥٤
كيف كان العراقيون يتقون الحر؟	١٥٩
من ذكريات الصيف فى باريس	١٦٤
استقبال شهر رمضان	١٦٩
أقاصيص	
جلاد الشيطان	١٧٦
سيدنا الشيخ حسن	١٩٠
الغرام الأول	١٩٩
فى سبيل الأرض الطيبة	٢٠٩
رجلان وامرأة	٢٢٩
أحاديث	
الأدب والثورة	٢٥٢
علاقة الأدب بالثورة	٢٥٢
كيف مهد الأدب للثورة	٢٥٥
نهضة العرب وثورتهم فى القرن السادس للميلاد	٢٦٠
نهضة العرب وثورتهم فى القرن العشرين	٢٦٥

	صفحة
فضل الأدب على وحدة العرب	٢٧٠
كيف تسنى للأدب أن يجمع الشمل ويمهد للثورة	٢٧٥
أهوجوع الروح أم جوع الجسد!	٢٨٠
حياتنا الفكرية بعد الثورة	٢٨٥
كيف كانت حياتنا الفكرية قبل الثورة	٢٨٥
المدرســة	٢٩٠
اللغــة	٢٩٤
التأليف والترجمة	٢٩٩
حق الفكر على الثورة	٣٠٤
الصحافة والإذاعة	٣٠٨
التمثيل والسينما	٣١٢
الثورة تطور إلى أحسن	٣١٦
من أدب الأمثال	٣٢٠
نشأة الأمثال وأنواعها	٣٢٠
فلسفة الأمثال ومغازيها	٣٢٤
من أمثال الرسول فى الحرية والجماعة	٣٢٩
بعض الأمثال فى بعض الشعوب	٣٣٢
جمهورية من نوع جديد	٣٣٧
يوم الجلاء	٣٤١
محمد إقبال	٣٤٥
أصول الفن الخطابى	٣٤٩
عبرة الصوم فى وداع رمضان	٣٥٩
الفهرس	٣٦٤

مؤلفـــات للـكاتب

١ — وحى الرسالة : المجلد الأول

٢ — وحى الرسالة : « الثانى

٣ — وحى الرسالة : « الثالث

٤ — وحى الرسالة : « الرابع

﴿ كل مجلد من هذه المجلدات الأربعة مستقل بذاته ﴾

٥ — فى ضوء الرســالة

٦ — تاريخ الأدب العربى

٧ — فى أصـــول الأدب

٨ — دفاع عن البـــلاغة

٩ — آلام فـــــرتر

١٠ — رفائيـــــل

١١ — من الأدب الفرنسى — قصائد وأقاصيص

١٢ — مجموعات مجلة الرسالة فى عشرين سنة